

الأستاذ محمد إبراهيم وزير

الخطابة

أصولها - تاريخها
في أزهر مصر وأندلس

إبراهيم محمد أبو زهرة

دار الفكر العربي

دار الفكر العربي



الإمام محمد أبو زهرة

الخطابة

أصولها . تاريخها في زهير عصورها عند العرب

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

الإدارة : ١١ ش جواد حسنى - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم ،

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

أما بعد : فقد كلفت تدريس تاريخ الخطابة العربية بكلية أصول الدين من كليات الجامع الأزهر ، فكتبت مذكرات فيها موجز لما ألقيته من محاضرات . ولما اعتزمت أن أخرجها كتاباً للناس أردت أن أقدمها بمقدمة شاملة لبعض أصول الخطابة وقوانينها ، ولكن المقلمة استطالت لتشعب المسالك ، ولشعوري بحاجة القراء إلى كل قوانين الخطابة ، ولذلك شملت المقدمة القسم الأكبر من هذا الكتاب .

ولقد قيدت نفسي في هذا القسم بالمصطلحات العربية القديمة التي جاءت في تلخيص ابن رشد لكتاب الخطابة لأرسطو ، وفي قسم الخطابة من كتاب الشفاء لابن سينا ، لأن في ذلك ضيقاً للمسائل ، وجمعاً لها ، وإحياء لثقافتنا السابقة ومجهودهم . ولكنني لم أقيد نفسي بالمعلومات القديمة لا أعدوها ، فقد جدد في العلوم النفسية والاجتماعية والخلفية ما يكون غطاءً قوياً صالحاً لذلك العلم . وإن من التقديم نفسه ما هو مفيد في أصول الخطابة ، ولكن لم يضاف إلى بحوثها ، فأضفت الجديد الصالح والتقديم المفيد ، وتكون من هذا كله مجموعة من المعلومات أرجو أن يكون فيها ما ينفع الناس .

ولم أقصد بكتابتي في هذا أن تكون مادة يدرسها الدارس ، فيكون خطيباً ، فإننا لا نعلم أن كتاباً يجعل من العبي قصباً ، ويفك عقدة اللسان فيكون طليقاً ، ويثبت في قارئه شعوراً حياً غنياً بهجراً على لسانه عبارات قوية تهز الحس ، وتملك النفس .

بل قصصت بكتابتي أن تكون مرشداً لمن عجزه استعداد للخطابة ويهد أن ينمي ، فهي تنير له السبيل ليعبر على هداه ، ويكون على بينة من أمره ، ولا يكون كحاطب ليل .

وقصدت أيضاً أن تكون كاشفة عن السر في تأثير الخطباء واستيلائهم على مشاعر من يخاطبونهم، واجتذابهم لنفوسهم، وإصابتهم لشغاف قلوبهم.

وسيجد القارئ الكريم في كتابتنا هذه فوق ذلك، ما يصح أن يكون مقاييس تقريبية للموازنة بين أقدار الخطباء البيانية، وأقدار الخطب. والمعاني الخطابية، والأساليب والألفاظ، وكل ما هو عدة التأثير، وطريق الإقناع الخطابي.

أما القسم الثاني (وهو تاريخ الخطابة في أزهر عصورها عند العرب) فقد انجذبت فيه إلى بيان الخطابة في تدرجها علوا وانخفاضا في تلك العصور متحررا أن أورد الأمور إلى أسبابها، والظواهر إلى عللها. وقد حاولت أن أبين في كل عصر ألفاظ الخطابة وأساليبها ومعانيها وأحوال الخطباء، موازنا في ذلك بينه وبين العصور الأخرى، لتكون للخطابة صورة واضحة في ذهن القارئ، وليرى الأدوار التي تعرض للمعاني والأغراض والألفاظ والأساليب تبعاً لحاجات العصر، ومقتضيات الاجتماع، وشؤون السياسة.

ولذلك صدرت كل عصر بكلمة مصورة للحال الاجتماعية والسياسية والدينية، ليتبين منها السر فيما يطرأ على الخطابة من تغير في ذلك العصر، ولأن الخطابة أثر لتلك الأحوال، ولا يعرف الأثر على وجهه إلا إذا عرف المؤثر.

والذي لأرجو أن ألحق هذا الكتاب بشأن أبين فيه أحوال الخطابة العربية على ذلك النحو في بقية العصور، ثم ألحق الثاني بثالث أدرس فيه بعض الخطباء الذين لهم في البيان والتأثير قدم جعلتهم مثالا عالية تؤسى.

وماتوفيقى إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

مارس ١٩٣٤

محمد أبو زهرة

القسم الأول

أصول الخطابة

علم الخطابة

✧ تعريفه ونصرته:

اعتقد الأقدمون أن للخطابة علماً، له أصول وقوانين، من أخذ بها، أو بميلها أدق من استطاع الأخذ بها، والسير في طريقها - عد خطيباً. وعرفوا هذا العلم بأنه مجموع قوانين، تعرف الدارس طرق التأثير بالكلام، وحسن الإقناع بالخطاب؛ فهو يعني بدراسة طرق التأثير، ووسائل الإقناع، وما يجب أن يكون عليه الخطيب من صفات، وما ينبغي أن يتجه إليه من المعاني في الموضوعات المختلفة. وما يجب أن تكون عليه ألفاظ الخطبة، وأسلوبها، وترتيبها، وهو بهذا ينير الطريق أمام من عنده استعداد الخطابة؛ ليرى ملكاته، ويدعى استعداداته، ويطلب لما عنده من حيوب، ويرشده إلى طريق إصلاح نفسه؛ ليسير في الدرب، ويسلك السبيل.

هذا العلم ينير الطريق، ولا يحمل على السلوك؛ فهو يرشد دارسه إلى مناهج، ومسالك، ولا يحمله على السير فيها، هو يعطيه المصباح، ولا يضمن له أن يرى به إذا كان في عينيه رمد؛ وإن أرسطو وضع كتاب الخطابة لم يكن خطيباً، بل قال فيه الجاحظ إنه كان يكسح اللسان. وليس علم الخطابة بدعا في ذلك، فعلم النحو لا يضمن لمعلمه أن ينطق بالفصحى ما لم يدرس نفسه عليه؛ وعلم الأخلاق لا يضمن لمعارفه سلوكاً قويمًا ما لم يرض نفسه على الأخذ به؛ وعلم العروض لا يكون شاعراً؛ وعلم المنطق يسن قانوناً لاغتصام الذهن، ولا يضمن للعالم به عصمة الذهن ما لم يرض نفسه عليه وبإضافة كاملة.

وهكذا كل العلوم النظرية التي تظهر ثمرتها في العمل، تعطى من يريدها قانوناً يساعده، ولا تضمن له العمل إلا إذا راض نفسه على قانونها.

علاقة علم الخطابة بالمنطق:

عندما ترجم كتاب الخطابة لأرسطو إلى اللغة العربية في القرن الثالث الهجري؛ اعتبره كثير من الفلاسفة جزءاً متصفاً لعلم المنطق. وابن سينا في الشفاء يجعل الخطابة من أقسام المنطق؛ واستمر ذلك حال الفلاسفة، ينظرون إلى المنطق بتلك النظرة الشاملة، إلى أن قصر المتأخرون النظر فيه على صور القياس، وأشكاله، وأدواته.

ولم يعد أولئك الفلاسفة عن الصواب كثيراً؛ إذ إن كتاب الخطابة لأرسطو ترى فيه المنطق واضحاً وضوحاً تاماً؛ ترى الكلام على التحديد والرسم والدليل، وكيف يتكون القياس الخطابي؛ ثم ترى فيه الكلام على التصديق الذي يكفى به في الخطابة؛ وغير ذلك مما يعد من

المنطق. فعلم الخطابة على هذا له صلة وثيقة بالمنطق، من حيث إن المنطق خادم له، ومن حيث إن كثيراً من قوانين الخطابة، يعتمد على المنطق في مبادئه؛ وفوق تلك العلاقة الواضحة بين المنطق وعلم الخطابة نرى أن علم المنطق، قد أخذ يسلك مسلكاً جديداً، يزيد به على مسلك المتخصصين؛ إذ صار لا يبحث عن القوانين التي تمصم الذهن عن الخطأ فقط، بل يستنبط أيضاً ما يورث الذهن إلى الأخذ بالقوانين السابقة؛ فهو يبحث أيضاً عن أهواء النفس، وخواطرها، وأسباب الغلط، وتسلسل الخواطر، وكل تلك أمور تساعد الخطيب على أداء مهمته، وتعتمد قوانين الخطابة بمناحي التأثير، وطرق الإقناع.

والحق أن المنطق ألزم العلوم للخطابة، وبينهما من وشائج القربى، وتداخل المماثل، وتقارب المناهج، وتداني المآخذ - ما سهل على الأقلعين عندهما علماً واحداً، وما يجعلنا نحن المتأخرين نعلمهما آخوين متحدى النسب.

علاقة علم الخطابة بعلم النفس:

لا يصل الخطيب إلى غايته (وهي إقناع السامعين وحملهم على المراد منهم) - إلا إذا استطاع أن يثير حماسهم، ويخاطب إحساسهم. ويتصل كلامه بشغاف قلوبهم، ولا يمكنه ذلك - إلا إذا كان عليهما بما يغير شوقهم، ويسترعى انتباههم، وعليهما بطرائع النفوس، وأحوالها، وخرائرها، وسجاياها، وذلك لا يكون إلا بعلم النفس، وإذا كان علم النفس دعامة لعلم التربية، فهو أيضاً دعامة لعلم الخطابة؛ لأن كليهما يهدي الإنسان إلى وسائل الإقناع، والتلقين والتأثير، غير أن الأول لنشر حدث، والثاني لكبار لهم أفكاره ومناهج، تجعل التأثير فيهم أبعد مثلاً، والوصول إلى قلوبهم أعز مطلباً، والاستيلاء على نفوسهم أشرف منصب؛ لذلك نقول: إن علم الخطابة له صلة وثيقة بعلم النفس؛ إذ يجب أن تكون قوانين الخطابة ملائمة كل للملاءمة لقوانين هذا العلم؛ بل يجب أن تستمد منها ناموسها، وطرقها، ومناهجها.

علاقة الخطابة بعلم الاجتماع:

قلل الفارابي: إن الخطيب إذا أراد بلوغ غايته، وحسن سياسة نفسه في أمور - فليتوخ طباع الناس وتلون أخلاقهم، وتباين أحوالهم؛ قال أفلاطون: لكل أمر حقيقة، ولكل زمان طريقة، ولكل إنسان طبيعة؛ فعامل الناس على خلائقهم، واتمسك من الأمور حقائقها، واجر مع الزمان على طرائقه.

وهذه قوانين تنفع الخطيب في مشرفاته مع كل طائفة من أهل طبقته، ومن دونه، ومن فوقه على سبيل الإيجاز والاختصار.

وهذا يدل على أن اختصار الخطيب فيما يتقدم في الدعوة إليه - يستدعي إلهاً بسياسة الناس، وما يجب لكل طبقة من المعاملة، وما يلزم لكل صنف من الناس من خطاب، يجب أن يكون عليهما بروح الجماعة، دأباً لأخلاقها، فاهماً لما يسيطر عليها، وإذا كان ذلك جد لازم للخطيب - فمن الواجب إذن أن تكون قوانين الخطابة متصلة بقوانين الجماعات وناموسها، مستمدة منها قوة، ومن مشاربها مصالح، وأنت ترى من هذا قوة الاتصال بين علم الاجتماع وعلم الخطابة.

هذه العلوم الثلاثة يتابع صافية، استمد علم الخطابة منها قوانينه، وعلى ضوءها سلك طريقه، ولذا اقتصرنا ذكر علاقتها به دون سواها، إذ هي الأنهار التي يأخذ منها هذا العلم ماء الحياة.

في تاريخ علم الخطابة:

أول من كتب في هذا العلم اليونان، بل هم مستعملو قواعده، ومشتقو أركانه، ومقيمو بنيانه، وذلك لأن أهل أثينا في عصر بيركليس، قويت فيهم رغبة القول، واشتدت فيهم داعيته، إذ صار يأسرهم القول المليغ دون سواه. قال المسيو شارل مينيوس: امتازت أثينا أولاً ببلاغة خطبائها، فكانت حقاً بلد الأدب وحسن الإلقاء، فبالخطب في مجلس الأمة يقرر شهر الحروب، وعقد السلم، ووضع القواطع والضرائب، وكل الشؤون العظيمة، وبالخطب التي تلقى في المحاكم يحكم على الوطنيين والرعايا، ويرعون، فللخطباء السلطة، وعلى الأمة أن تعمل بتوصياتهم ومواعظهم، وربما عهدت إليهم بإدارة شؤون المملكة، فقد عين كليون قائداً، ورأس ديموستين الخطيب حرب فيليب، وللخطباء نفوذ كبير، وكثيراً ما يلجئون إلى بلاغة قولهم للنيل من عدائهم في سياستهم، وربما أثروا لأنهم يتألون من المآرب ما يرغسهم من المال، ليماضوا أحد الأحزاب، فقد أخذ إشيول مالاً من ملك مقدونيا، وقبض ديموستين دناتير من ملك القرس. ثم إن بعض الخطباء كانوا ينشرون خطباء، ليلقيها غيرهم، إذ لا يسوغ لمن كانت له قضية أن يرغمها بوكالة محام كما هو الحال عندنا، بل تقتضى سرعة البلاد أن يتكلم صاحب القضية في قضيتة بالذات، فمن ثم كان عليه أن يقصد إلى أحد الخطباء، ويتمس منه تأليف خطاب له يحفظه ليتلوه في مجلس القضاء، وكثيراً ما كان بعض الخطباء يجرون البلاد

اليونانية، ويتكلمون في موضوعات، توجيها إليهم الخيلة، فتحتل لذلك المحافل، وتعقد الأندية والمؤتمرات.

وإذا كان التسابق البياني وصل إلى ذلك الحد - فلا عجب إذا رأينا أن من لم يكن قديراً على فنون القول، يحاول أن يتعلمها؛ ولذا اتجه الناس إلى تعلم الخطابة، والسرية عليها، والتسمرين على الإلقاء، وتعميد اللسان النطق الصحيح، والبيان الفصيح؛ لذلك أخذ العلماء يستنبطون قواعد الخطابة وقوانينها بملاحظة الخطباء، وطرق تأكيدهم، وأسباب فشل من يفشل منهم.

ويظهر أن أول من اتجه إلى استنباط تلك القواعد السوفسطائيون؛ فإنهم كانوا يعلمون الشبان في أثينا طرق التغلب على خصومهم في ميدان السبق الكلامي؛ وكيف يفالطونهم؟ وكيف يلبسون عليهم الحقائق؟ ويحزنونهم على القول المبين، والإلقاء المحكم؛ وطبعي أن يتجه من نصروا أنفسهم لذلك إلى استنباط قواعد وقوانين من أخذ بها أمن العشار، وسبق في الخصام. ولقد قيل إن أول من وضع هذه القواعد ثلاثة من هؤلاء السوفسطائيين وهم: برويكوس^(١) القوسي المسمى سنة ٤٣٠ ق م، وپروتاغوراس^(٢) (٤٨٥ - ٤١١) ق م، وجورجياس^(٣) (٤٨٥ - ٣٨٠ ق م).

. وقد جاء من بعد هؤلاء أرسطو فجمع قواعد، ونظم شوارده، في كتاب أسماء الخطابة، كان أصلاً لذلك العلم، ومرجعاً يرجع الخطباء والمؤلفون في الخطابة إليه؛ وصدرأ يصدر عنه، ويروون موارد.

. وقد جاء بعد أرسطو عصر نشط فيه الخطابة عند الرومان نشاطها عند اليونان، قال المسبو شارل الأنف الذكر:

كان الخطباء يأتون إلى مساحات الاجتماع، حيث تلتئم مجالس الأمة في أواخر عهد الجمهورية، يخطبون ويكثرون من الحركات وسط دوى القوم، ويشيرون أعظم أولئك الخطباء، وهو الوحيد الذي بقيت بعض قطع من خطبه.

(١) كان سوفسطائياً يأخذ أجراً باعظا في تعليم الخطابة وقد أُنقذ كل ما جمع على ملأه وقد حكم عليه بالإعدام بالسم لأنه قال إن الآلهة من مخترعات العقول.

(٢) أترى من الأجور التي كان يأخذها وكان يقول: لا أستطيع أن أحرف لوجود قلة أم لا.

(٣) فتح مدرسة تعلم فيها الخطابة فأترى واشتهر. وكان يقول: لا يوجد شيء وإن وجد لا تمكن معرفته، وإذا أمكنت معرفته لا يمكن تعريته.

ويقول في شأن المدارس في عهد الإمبراطورية الرومانية: والمدارس العامة تقبل الشبان الأغنياء خاصة، يرسلهم آباؤهم إليها ليتعلموا فيها الخطابة. والغناء المتأبر لم يفرح من الناس ذوقهم في الخطابة، ومراتهم عليها؛ ولذلك بدأ المفوهون والخطباء يكثرون، ويعلمون الناس طريقة الأداء، فافتتحوا منذ القرن الأول في روما مدارس، يقبلون فيها الفتيان الأغنياء، وكان بعضهم يمرن تلاميذه على إنشاء المرافعات في موضوعات خيالية في الخطابة. وقد حفظ لنا الخطيب سينوك عدة من هذه الدروس وموضوعها أطفال مسخوفون، وشطار من المصورين. ولهذا النشاط وجدت عدة مؤلفات أخرى في علم الخطابة ينسب بعضها لثيسشرون، وألف كورنيليان (٤٢ - ٩٥ م) كتاباً سماه تهذيب الخطيب. وألف لنجينوس المحمصي (٢٤٠ - ٢٧٢ م) كتاباً سماه المفضل.

ولترك الآن الحديث في اليونان والرومان، ولنول وجهنا شطر العرب. فإننا قد وجدنا أن الخطابة في صدر الإسلام - وصلت إلى الثروة وبلغت كمال أوجها. وجاء العصر الأموي، فوجدت الخطابة لها غذاء من الفتن والثورات التي أظلت ذلك العصر، وقد أخذ الفتيان والكهول يتبارون في الخطابة، ويتسابقون في ميدانها. وكان مكان ذلك الوفاة، ومجالس الخلفاء والأمراء والولاة، وقد نشأ من هذا أن وجد أناس يعلمون الشبان الخطابة، ويمرنونهم عليها. وقد ظهر ذلك واضحاً كل الوضوح في العصر العباسي الأول، فقد جاء في البيان والتبيين للجاحظ وفي العقد الفريد لابن عبد ربه أن بشر بن العتيم مر بإبراهيم بن جيلة بن مخزومة السكوني الخطيب^(١)، وهو يعلم فتيانهم الخطابة، فقال بشر: اضربوا عما قال صفيحاً، واطلوا عنه كشحاً. ثم دفع إليهم صحيفة من تخبيره وتنبيهه، وفي هذه الصحيفة وصف جيد لأساليب الخطابة، وألفاظها ومعانيها. وسنبين خلاصتها في موضعه إن شاء الله تعالى.

ويظهر أنهم لم يقتصروا على استنباطاتهم العربية، بل كانوا يستنبطون بها في أغلب الأمم الأخرى، ليعاونهم ذلك في استنباطهم، ويمدحهم بما ليس عندهم، وينبههم إلى ما عساه يعزب عن خواطرهم. ومن ذلك ما جاء في البيان والتبيين والصناعتين: قال معمر أبو الأشعث قلت لبهلة الهندي أيام اجتلب يحيى بن خالد أطباء الهند: ما البلاغة عند أهل الهند؟ قال بهلة: عندنا في ذلك صحيفة مكتوبة لا أحسن ترجمتها لك، ولم أعالج هذه الصناعة؛ فأنتي من نفسي بالقسام بخصائصها، وتلخيص لطائف معانيها. قال أبو الأشعث: فلقيت بذلك

(١) إبراهيم بن جيلة كان من أصحاب عبد الملك بن مروان وعمر إلى خلافة المصور. ومن ذلك تعرف أن ابتداء استنباط قواعد الخطابة كان في آخر العصر الأموي.

الصحيحة التراجمة، فإذا فيها: أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة: وذلك أن يكون الخطيب رابط
للجأش ساكن الجوارح، إلى آخر ما فيها من وصف جيد للخطيب، والأسلوب الخطابي.

ألا ترى من هذا ما يدل دلالة واضحة على استعانتهم بالأدب الأجنبية، وتغذيتهم بها،
وقد استعمر البحث في الخطابة، وأصولها، يسمو، ويكثر، ما كانت الخطابة تافهة. وكان أكثر
من يقوم به أئمة المعتزلة الذين احتاجوا إليها ليحتازوا مجالس المناظرات، ويتغلبوا على خصومهم
من ذوى الجدل، ولذا نبغ فيهم خطباء كثيرون، ومنهم من يعرف بعض أصول الخطابة،
وقوانينها، كعمرو بن عبيد، وبشر بن المعتز، وثمامة ابن آشرس، وإبراهيم النظام، والجاحظ،
وغیر هؤلاء كثيرون.

غير أن بحوث أولئك الأدباء لم تجمع في كتاب مستقل، بل كانت لشراً في الكتب،
وعلم اللغة، ولم يكن أحد يندونها في كتاب مستقل، لتكون علماً قائماً بلغة، حتى ترجم
إسحق بن حنين كتاب الخطابة لأرسطو، وشرحه الفارابي. وقد عد من المنطق كما ذكرنا.

جاء في الفهرست لابن النديم في أثناء سرد ما كتبه أرسطو في المنطق: الكلام على
ربطونيقا، ومنه الخطابة، وبصاف بنقل قديم، وقيل: إن إسحق نقله إلى العربي، ونقله إبراهيم
ابن عبد الله، وفسره الفارابي أبو نصر: رأيت بخط أحمد بن الطيب هذا الكتاب نحو مائة ورقة
بنقل قديم. وقد أرى ابن سينا في كتاب الشفاء يلب كتاب الخطابة لأرسطو مع تصرف غير
ضار.

ونقل كتاب الخطابة لأرسطو صار في العربية قواعد للخطابة مدونة في بحث مستقل،
وإن كان جزءاً من علم المنطق على ما رأيت. وهنا نلاحظ ثلاثة أمور:

أولها - أن تلك الترجمة صادفت عصراً قد ركزت فيه الخطابة ونحمت، وأصبحت
مقصورة على الوعظ، وصار الخطباء ممن لا يجيدونها؛ فاقصروا على خطب يحفظونها وينقلونها
ويتوارثونها بنصها، يلقي المخلف ما كان يلقيه سابقه، وإن تصرف في دائرة محدودة، ووسط
أنتظار من جمود؛ فكان طبعياً ألا تستفيد الخطابة من تلك الترجمة؛ لأنها فقدت روحها،
ودعيت الرغبة في السبق فيها؛ فبقيت القواعد هيكلًا من غير لحم.

ثانيها - أن كتاب الخطابة صار جزءاً من الفلسفة، ولم يضاف إلى الأدب، وإن كان
الأدباء قد قرأوا منه، وقالوا أشطراً؛ إذ هو مع ذلك لم يخرج بقواعده كلها عن نطاق الفلسفة،
إلى حمى الأدباء بالبحث، والنقد، والتفسير، أو التزييف، بل بقي حيث الفلسفة
رسمتها، وجفافها؛ ولعل السبب في ذلك جمود ربح الخطابة، وضعف شأنها.

وإن الفلسفة ذاتها من بعد ابن سينا وابن رشد، أخذت تهجر كتاب الخطابة؛ فقد انفصل عنه المنطق، وصار أمره يصغر، وشأنه يهون، حتى كاد الزمن يجر عليه قبل النسيان، لولا أن سجل خلاصته ابن سينا في كتاب الشفاء، فصار مرجعا يرجع إليه عند الحاجة.

ثالثها - أن علم الخطابة المترجم لم يربط بامتشهادات من الأدب العربي. والسبب في ذلك عدم خروجه عن نطاق الفلسفة، ولو أنه خرج عن ذلك النطاق، وتناول به بحث الأدباء بالتأييد أو الرد، لوجدت الشواهد على قواعده، ولانتقل إلى علم عربي، وليس حلة قشبية من ذلك البيان.

هذه هي الأمور الثلاثة التي نلاحظها على تلك الترجمة وزمائها؛ ومنها نرى أن الخطابة ذاتها لم تعد من تلك القواعد، ولم تغد من هذه العناصر؛ لأنها قد صارت صورة من غير روح.

ولما استيقظت الخطابة في العصور الحديثة، وعظم أمرها، وصارت سبيلا من سبل الجدد، وطريقا من طرق الغلب والسبق، في ميادين السياسة، وفي المجالس النيابية، وفي دور القضاء، اتجه بعض الباحثين إلى إحياء المقبور من قوائنها، ونشر المدفون من آراء العلماء فيها، وأظهر كتاب ظهر في ذلك كتاب علم الخطابة للعالم الباحث لويس شيخو؛ فقد جمع في هذا الكتاب خلاصة ما كتبه أدباء العرب، وفلاسفتهم، وما ترجم إلى اللغة العربية من قوانين الخطابة، ولقواعدها، غير أننا نلاحظ أن فيما كتبه كثيرا مما يتعلق بالمنطق، قد وضعه في الخطابة، ونلاحظ جفافا في الكتابة يجعله غير قريب للمتناول؛ ونلاحظ أيضا أن المؤلف في أكثر المسائل لم يقدم لنا رأيه؛ بل عرّكنا وسط نقول وآثار. ومهما يكن من شيء فله فضل الباحث المنقب، والكاتب السابق؛ إذ غيره له لاحق.

وقد كتب بعض الذين تشققوا بثقافات أوربية بحوثا قيمة على النحو الذي سجلوه في أوروبا، ولكل منهم ناحية فيما كتب، فبعضهم اتجه إلى مناجح الحروف، وبعضهم اتجه إلى الإلقاء، وبعضهم زاد عن هذين قليلا من البحث في أساليب الخطابة، ولكل فضل فيما عني به.

وأرجو أن يوفقني الله جلت قدرته إلى أن يكون في بحلي هذا نفع بمقدار ما أتمنى، وفائدة بمقدار ما أقصد. وإليه المستعان.

محمد أبو زهرة

الخطابة

تعريفها. أقيستها. موضوعاتها. فائدتها. طريقة تحصيلها

الخطابة مصدر خطب يخطب أى صار خطيباً، وهى على هذا صفة^(١) واسعة فى نفس المتكلم، يقتدر بها على التصرف فى فنون القول؛ لمحاولة التأثير فى نفوس السامعين، وحملهم على ما يراد منهم بترغيبهم، وإقناعهم، فالخطابة مرماها التأثير فى نفس السامع، ومخاطبة وجدانه، وإثارة إحساسه للأمر الذى يراد منه؛ ليدفع للحكم إذعاناً، ويسلم به تسليماً.

وقد قال ابن سينا: إن الحكماء قد أدخلوا الخطابة والشعر فى أقسام المنطق، لأن المقصود من المنطق أن يوصل إلى التصديق، فإن أوقع التصديق يقيناً - فهو البرهان، وإن أوقع ظناً أو محمولاً^(٢) على الصدق - فهو الخطابة^(٣) - أما الشعر فلا يوقع تصديقاً، لكنه لإفادة التخيل الجارى مجرى التصديق؛ ومن حيث إنه يؤثر فى النفس قبضاً أو بسطاً، عد فى الموصل إلى التصديق. والتخيل عنده إذعان للتعجب، والالتذاذ، فعمله صورة الكلام.

وترى من هذا أنه يضح المنطق، والخطابة، والشعر، فى ثلاث مراتب، فالأول يتجه إلى اليقين، والثانية تتجه إلى الأقيسة الظنية، والشعر يتجه إلى إثارة الخيال والإعجاب، والالتذاذ بصورة الكلام، ونحن نخالفه فى غير المنطق، وبهمننا ما نحن بصددده وهو الخطابة؛ فليس بصحيح أن أقيصة الخطابة، لا تعتمد إلا على الظن، بل كثيراً ما تعتمد على أقوى الأدلة إثراء، وأشدّها قطعاً فى الاستدلال، ومن أبلغ الخطب ما حملت حقائقها بأقيسة المنطق، وبراهينه، إذ يجتمع فيها دقة المنطق، بجمال الأسلوب.

(١) عرف الخطابة المنطقيون والحكماء بأنها القياس المؤلف من المظنونيات أو المقبولات لفرغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم أو معادهم. والمظنونيات هى الأمور التى يحكم العقل فيها حكماً راجعاً لها بما لغاية الظن. كقولك فلان بطوف الليل فهو لاص، والمقبولات هى الآراء التى يكون مصدر التصديق فيها - وقوعها من لاشبهة فى صحتها مع كونها قابلة للأفكار - وتطلق الخطابة بمعنى الخطبة وهى الكلام المنصور المسجوع أو المزودج أو المرمى الذى يقصد به التأثير، والإقناع.

(٢) المراد من المحمول على الصدى ما يقبله الإنسان لصدوره عن عرف بالصدق.

(٣) الخطابة هنا معناها الخطبة.

وقد يكفى فيها بالأمور الظنية، وقد يستعان فيها بأقوال من عرفوا بالصدق، ويعد النظر، والحكمة الصائبة، وإن كان الاحتجاج بها في ذاتها لا ينتج يقيناً في نظر العقل المجرد، وقد يتجه الخطيب إلى تصوير الحقائق في صورة تثير الخيال، وتعجب بلفتها، ويضع الحقائق في أسلوب شعري ليجمع التصديق مع إثارة الخيال، ويلتقى الإذعان وإثارة الوجدان.

فالخطابة في الحقيقة قد تستمد قوتها من العناصر الثلاثة، وتكون تلك العناصر كالتيابيح ثملها بجاء الحياة؛ قد يعتمد الخطيب على المنطق، وأقوسته اليقينية، ويقتصر على ذلك إذا كان يخاطب أقواماً، قد غلب على حياتهم الفكر والعقل، لا يرضيهم إلا الحقائق عارية، وقد يعتمد إلى الغنيمات، وأقوال من عرفوا بالحكمة، إذا كان من يخاطبهم ممن يقدسون أولئك اللحن، ينقل عنهم، وقد يضيف إلى الظنيات صوراً كلامية تثير الخيال، وتفعل في النفس ما يفعله الشعر. ومن الخطب ما تجتمع فيها تلك العناصر الثلاثة؛ فتبلغ القمة من التأثير، والروعة، والجودة.

موضوعها:

قال ابن رشد ناقلاً عن أرسطو: ليس للخطابة موضوع خاص، تبحث عنه بمعزل عن غيره، فإنها لا تقيم من النظر في كل العلوم والفنون، ولا شيء حقيراً كان أو جليلاً معقولاً أو محسوساً إلا تدخل تحت حكمها، ويخضع لسلطان لسانها؛ ومن ثم يترتب على الخطيب أن يكون له إلمام بكل صنف من المعارف، بل ينبغي له أن يوسع كل يوم نطاق مداركه، وذلك حق لا ريب فيه؛ فإن كل مسألة عامة، أو لها صلة بشأن عام، يصح أن تكون موضوع الخطابة: كحب الوطن، وإقامة العدالة والنظام، وتسكين الفتن، والتمسك بالفضيلة، وغير ذلك، بل من المسائل الخاصة ما هو موضوع الخطابة كالتخصومات، فإن المحاكم ميدان الخطابة، والقول البليغ. وكثير من القضايا ليست إلا مسائل خاصة كالعقود والمثلثات، ونحو ذلك. بل إن ابن رشد يقول في تلخيصه لكتاب أرسطو: كل واحد من الناس يوجد مستحقاً لفتح من ألقاه البلاغة ومبتهياً منها إلى مقدار، وذلك حق؛ فالتاجر ينادى لسلحته بشيء من البيان يلفت به يحصل فيه كل وسائل الإغراء، وكل ذي رغبة في أمر، يجهد في استجلاء عبارات خالصة، يجتهد بها من يريد حمله إلى ما يبغي ويهد. ولو تسامحا لسميت ذلك المنحور من الكلام خطابة. وعلى أية حال هو يدل على مقدار عموم الموضوعات الخطابية، وأنها ليست مقصورة على ناحية خاصة من النواحي، وإن كان الناس قد اصطالحوا على الخطابة في موضوعات، وجعلوها أقباماً لها، وأنواعاً، كما سبق ذلك في موضوعه إن شاء الله تعالى.

فائدتها:

قال ابن رشد ناقلا عن أرسطو: ليس كل صنف من أصناف الناس ينبغي أن يستعمل معه البرهان في الأشياء النظرية التي يراد منهم اعتقادها؛ وذلك إما لأن الإنسان قد نشأ على مشهورات تخالف الحق، فإذا سلك نحو الأشياء التي نشأ عليها - مبهل إقناعه؛ وإما لأن فطرته ليست معدة لقبول البرهان أصلا؛ وإما لأنه لا يمكن بيانه له في ذلك الرمان اليسير الذي يراد منه وقوع التصديق فيه، فهنا الصنف الذي لا يجدى معه الاستدلال المنطقي؛ تهديه الخطابة إلى الحق الذي يراد اعتقاده؛ لأنها تسلك من المتاهج، ما لا يسلك المنطق.

وهذه أول ثمرة من ثمرات الخطابة؛ وللخطابة فوق ذلك ثمرات كثيرة؛ فهي التي تفض المشاكك؛ وتقطع الخصومات؛ وهي التي تهدئ النفوس الفائرة، وهي التي تثير حماسة ذوي النفوس الفائرة، وهي التي ترفع الحق، وتخضع الباطل، وتقيم العدل، وترد المظلم، وهي صوت المظلومين، وهي لسان الهداية. ولأمر ما، قال موسى عليه السلام عندما بعثه ربه تعالت حكيمته إلى فرعون: ﴿رب اشرح لي صدري﴾ ويسر لي أمري * واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي. ولا يمكن أن يتصور صاحب دعاية، ومناد بفكرة، وصاحب إصلاح إلا بالخطابة.

والخطابة هي الدعامة التي قامت عليها الانقلابات العظيمة، والثورات الكبيرة التي نقضت ببيان الظلم، وهدمت تصور الباطل؛ فهذه الثورة الفرنسية قامت على الخطابة، وهي التي كانت تؤجج نيرانها، وتلكى لهبها. والخطابة قوة تثير حمية الجيوش، وتدفعهم إلى لقاء الموت، وتزيد قواهم المعنوية؛ ولذلك كان قواد الجيوش المظفرون في القديم، والمصور الحديثة خطباء مصاقع؛ فهيركليس، ويزليوس قيصر، وفابليون، خطباء، وعلى بن أبي طالب، وخالد بن الوليد، وطارق بن زياد، خطباء مصاقع. حملوا معهم سلاحا معنويا بجوار السلاح الحديدي.

والخطباء هم المسيطرون على الجماعات، وهم الذين يقيمونها، ويقعدونها. وفي الحكومات الشورية، يكون الخطباء هم الغالبين؛ تصدع الأمة بإشاراتهم، وتخضع لسلطانهم؛ لأن الغلب في ميدان الكلام، والسبق في حلبة البيان لهم، فأراؤهم فوق الآراء، لأنهم يستطيعون أن يلحقوا بحجتهم، ويسبقوا إلى ضاياتهم؛ وفي ذلك نشر لسلطانهم، ورفعة لهم. فالخطابة طريق للمسجد الشخصي كما أنها طريق للنفع العام.

والحق أن الخطابة مظهر اجتماعي للمجتمع الرافق تحيا برقي الجماعة، وتحبو بضعفها. ولقد قال ابن سينا في فائتها: إن صناعة الخطابة عظيمة النفع جدا؛ وذلك لأن الأحكام

الصداقة فيما هو عدل وحسن أفضل نفعا، وأعم على الناس من أضرارها فائدة؛ لأن نوع الإنسان يعيش بالتشارك، والتشارك محوج إلى التعامل والتحاور، وهما محوجان إلى أحكام صادقة، وهذه الأحكام الصادقة تحتاج إلى أن تكون مقررة في النفوس، ممكنة في العقائد، والبرهان قليل الجدوى في حمل الجمهور على الحق؛ فالخطابة هي المعنية بذلك. انتهى بتصرف قليل.

وقال في الخطيب: إن الخطيب يرشد السامع إلى ما يحتاج إليه من أمور دينه ودنياه؛ ويقيم له مراسيم لتقويم عيشه؛ والاستعداد إلى معاده.

طرق تحصيلها:

لا شك أن الخطابة منصب خطير، ومرتقى صعب المنال، لا يصل إليها طالبها يسر، بل يحتاج ميتهها إلى زاد عظيم، وصبر ومعاينة، واحتمال للمشايق؛ ليصل إلى تلك الغاية السامية. وطرق تحصيلها في الجملة ما يأتي:

١ - فطرة مواتية وسليقة تلائم الخطابة:

بأن يكون الخطيب خالياً من العيوب الكلامية؛ من فأفة ونحوها، وأن تكون مخارج حروفه صحيحة، وأن يكون فصيحاً، طلق اللسان، ثابت الجنان، ذكي القلب، وقد يكون بعض الناس مستعداً كل الاستعداد للخطابة؛ إذ يكون قد منحبه الله كل مؤهلاتها من صوت جهوري، وعقل ألمي، وقلب ذكي، ونفس متوقفة، ولسان مبين، وعاطف حاضر، وبديهة متيقظة، وفراصة مدركة، ونظرات نافذة، ومثل هذا لا يحتاج إلا إلى التعليم والممارسة، وتسمية مداركه ليكون خطيباً مصقفاً، ومدافعاً مدرهاً.

٢ - دراسة أصول الخطابة:

لا شك أن هذه الأصول لا بد لها من عوامل أخرى؛ إذ هي وحدها لا تكفي؛ بل لا بد أن يكون منها استعداد كامن، أو رياضة ومiran شديد. قال ابن سينا في منزلة أصول الخطابة في تحصيلها: هذه الصناعة قد يتعاطى أفعالها كل إنسان، بأن يتأمل ما يختلفون فيه من مدح أو ذم أو شكابة أو اعتذار أو مشورة؛ فمنهم من يكون تصرفه في بعض هذه المعاني، ومنهم من هو متصرف في جميعها، ومنهم من يعد في ذلك بملكة حصلت له من غير أن تكون القوانين الكلية محصلة عنده، ومنهم من يجمع إلى الملكة الاعتيادية ملكة صناعية، حتى تكون القوانين

محققة عنده وهو الذى أحاط بهذا الجزء من المنطق (الخطابة) علما واكتسب الملكة بالمزاولة. والملكة الاعتيادية وحدها إن تنجح فلا عن بصيرة، فالقوانين على هذا هادئة مرشدة، تساعد فى تحصيل الخطابة بإتارة السبيل ولا تكون وحدها الخطيب، بل هى مهذبة للقطرة، مساعدة لها.

٣- قراءة كلام البلغاء:

دراسته دراسة متعرف لمناحي التأثير، وأسوار البلاغة، ومندوق لما فيها من جمال الأسلوب، وحسن التعبير، وجودة التفكير، قال ابن الأثير فى المثل السائر: إن فى الاطلاع على أقوال المتقدمين من المنظوم والمنثور فوائد جمة، لأنه يعلم منه أغراض الناس، ونتائج أفكارهم، ويعرف به مقاصد كل فريق منهم وإلى أين ترامت به صنعتهم فى ذلك، فإن هذه الأشياء مما نتخذ القريحة، وتذكى الذاكرة، وإذا كان صاحب هذه الصناعة عارفا بها تصير المعانى التى ذكرت، وتعب فى استخراجها كالشئ الملقى بين يديه، يأخذ منه ما أراد، وأيضا، فإنه إذا كان مطلعا على المعانى المسبوق إليها قد ينقدح له من بينها معنى غريب لم يسبق إليه. ومن المعلوم أن خواطر الناس (وإن كانت متفاوتة فى الجودة والرتبة) فإن بعضها لا يكون غالبا على بعض أو منحطا عنه إلا بشئ يسير. فقراءة كلام البلغاء تقدم للقارئ أرسالا من المعانى والأساليب ينال منه بيسر وسهولة من غير معاناة ولا كد ذهن.

٤- الاطلاع على كثير من العلوم التى تتصل بالجماعات:

كالاقتصاد والشرع، والأخلاق، والاجتماع، وعلم النفس، والأديان، فإن الاطلاع على هذه العلوم فوق أنه ينمى فكره، ويوسع مداركه، يجعله على بصيرة فى مهمته، ويضع أمامه المصباح الذى يهديه إلى طرق التأثير، فيصيب غايته، وينال غرضه.

٥- الثروة الكثيرة من الألفاظ والأساليب:

يحفظ كثيرا من خطب من اشتهر باللمس والبيان، فإن الخطابة تحتاج إلى تعابير كثيرة، تحتاج إلى أن يمرر عن المعنى الواحد بعدة عبارات، وأساليب متغايرة، لكيلا تلعب جنة المعنى، ويصيب السأم النفوس. ولا يمد الخطيب بالعبارات المتغايرة المتحدة المعنى إلا ثروة فى الألفاظ والأساليب، وحفظ كثير لأقوال المتقدمين، وامتهلاء تام على نواحي البيان.

٦- ضبط النفس واحتمال المكاره:

إن الخطابة منصب خطير إذ قد يتعرض الخطيب زواجر من كل ناحية، وقد يقابل بالسخرية والاستهزاء، وقد يكون المخاطبون ممن يتقصصون هوراته، ويشقطن هفواته، وكلهم له

رقيب عتيد. فإذا لم يدرك الخطيب بضبط نفس وسيطرة تامة على إحساسه ومشاعره، لم يستطع السير إلى غايته. وقد بما قال خطيب عربي: «لقد شينى ارتقاء المنابر» وهو قول يدل على مقدار ما كان يعانيه ذلك الخطيب في الاستيلاء على نفسه حتى لا تجشأ ولا تجتمش، وحتى لا يضطرب، ولا تأخذه الحيرة؛ لذلك تقول: يجب أن يرى مرید الخطابة نفسه على احتمال المنابر والحلم، وضبط الإحساس، ومحاربة مظاهر الاضطراب والوجل؛ فإن الاضطراب يورث الحيرة، والحيرة من أسباب الأراج، والوجل يضعف أثر الخطبة في نفوس السامعين، إذ تهون عليهم لهوان قائلها.

٧- الرياض والممارسة:

إن الفطرة والاطلاع، ونزوة الألفاظ، والقراءة الكثيرة، والعلم بالأصول الخطابية لا تكفي في تكوين الخطيب؛ لأن الخطابة ملكة وعادة نفسية لا تتكون دفعة واحدة. بل لابد لمريدها من الممارسة والممارسة والمران؛ لكي ينمي مواهبه، إن كانت فيه فطرتها، ولكي يطب لعيوبه إن كان فيه عيوبها. فإن وجدت في نفسك أول الأمر نقصاً خطابياً فكمله، ولا يؤمنك إعراض الناس عنك من النجاح؛ فإن كثيراً من الخطباء الممتازين كانت فيهم عيوب كلامية، فأصلحوها.

جاء في كتاب تاريخ الحضارة في الحديث عن ديموستين خطيب اليونان: إنه عندما خطب على المنبر العام قبل كلامه بالتهنئة، إذ كان صوته ضعيفاً جداً، ونفسه قصيراً، فتوافر عدة سنين على رياضة صوته.

ويرى أنه كان ينقطع شهوراً طويلة ونصف رأسه مخلوقاً لئلا يحاول الخروج. وكان يلقى خطباً وفي فمه حصي، وهو على شاطئ البحر؛ ليملأ نفسه على التغلب بصوته على جلبة الناس. ولما رجع إلى المنبر كان قد أضعف صوته لإرادته. وقد كان يحافظ كل المحافظة على إعداد جميع خطبه قبل إلقائها؛ ولذا صار أرقى خطيب، وأعظم مفوه في بلاد اليونان، وكانت تلك حال كثير من خطباء العرب الممتازين؛ فقد جاء في البيان والتبيين للجاحظ: ويقال إنهم لم يروا قط خطيباً بلدياً إلا وهو في أول تكلفه لتلك المقامات كان مستثقلاً مستصلاً أيام رياضته كلها إلى أن يتوقع وتستجيب له المعاني، ويتمكن من الألفاظ - إلا شبيب بن شيبه؛ فإنه ابتداءً بحلولة، ورشاقة، وسهولة، وعلوية؛ فلم يزل يزداد منها، حتى صار في كل موقف، يبلغ يقليل الكلام، مالا يبلغه الخطباء المصاقع بكثيره. ورياضة النفس على الخطابة، تكون بأمر كثيرة، بعضها يتعلق بالإلقاء، وبعضها يتعلق بالأسلوب والفكرة؛ لأن

الخطابة فكرة، وأسلوب، وإلقاء محكم، ومن الرياضة التي تتعلق بالفكرة؛ أن يعود نفسه ضبط أفكاره، ووزن آرائه، وعقد صلة بينهما وبين ما يجري في شئون الناس، وعامة أمورهم؛ ليكون على أهبة القول الخطابي إن وجدت دواعيه. ومنها أن يكون كثير التأمل في شئون الحياة؛ عميق الفكرة فيها، كثير الدراسة لأحوالها؛ وأن يعود نفسه الاتصال بالناس؛ ليحفظ نفوسهم بنفسه، فيحسن بإحساسهم، ويكون قريباً منهم، إن وجد ما يدعو إلى خطابهم، ومن الرياضة التي تتعلق بالأسلوب أن يتحدث بحيد الكلام، أو يكتبه كثيراً، وأن يكون في مرآة الخطابي محاكاة البلقاء في أساليبهم؛ أو اقتباساً منهم، أو سائراً في مثل درهم. ومن الرياضة التي تتعلق بالإلقاء أن يعود نفسه لإخراج الحروف من مخارجها، وأن يقرأ كل ما يستحسنه بصوت مرتفع؛ مصوراً بصوته معاني ما يقرأ؛ بتخيير النبرات، ورفيع الصوت، وخفضه، وأن يفشي للجملات والمخاطبات التي تكون مبادئ قول، وإذا ضمت له فكرة ووجد الفرصة سانحة - فليقل غير هياج ولا وجل ولا مستحي؛ فإن الاستحياء في هذا نوع من الضعف، وهو يجر إلى الحبسة، وموت المواهب؛ وعليه أن يقول مرجحاً ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وإن ضعف أسلوب أرتجاله، أو أصابته حبسة مرة لا يئس من أن يجيد مرجحاً، ويتسبب سبب بلاغته مرة أخرى، بل قد يصير ذلك له عادة، وشأناً.

والقول الجملي، يجب على المريد أن يروض نفسه على الخطابة الجيدة؛ حتى يصير له شأنًا. وقد قال الجاحظ في هذا كلمة محكمة، فقد جاء في البيان والتبيين: «وأنا أوصيك، ألا تدع التماس البيان والتبيين، إن ظننت أن لك فهماً طبيعة، وأنهما يناسبانك بعض المناسبة، وشاكلاك بعض المشاكلة، ولا تهمل طبيعتك، فيمتولي الإهمال على قوة القريحة، ويستبد بها سوء العادة، وإن كنت ذا بيان وأحسنت من نفسك بالنفوذ في الخطابة والبلاغة، وبقوة المنة يوم الحفل، فلا تقصر في التماس أهلها في البيان سورة، وأرفعها في البيان منزلة، وليست الرياضة فقط لطالب الخطابة، بل هي لازمة لمن شدا فيها، وعظم أمره، وعد من أنصح الخطباء، فقد كان شيشرون أخطب خطباء الرومان يحرص على إلقاء الخطبة قبل أن يقدم على إلقائها. وكانت تلك حاله حتى تفل.

أصول الخطابة

تكوين الخطبة

مقدمة

لا شك أن من يريد إلقاء خطبة في موضوع، يجمع العناصر أولاً، ثم يرتبها، ويضع كل عنصر في موضعه اللائق به، ثم يعبر عن ذلك وقد تحدث منه تلك الأعمال الثلاثة في أسرع وقت، وأقصر زمن، كما ترى في الخطب الأرجالية، وفي المحاولات، والمناقشات الخطابية. وقد تحدث بعد نزوة وإيمان وتفكير وفي زمن طويل، وذلك في الخطب التي تهياً وتحضر، وتعد إعداداً. ومهما يكن من حال الخطيب والخطبة فتلك الأعمال الثلاثة لابد أن تكون. وقد جاء في كتاب علم الخطابة للعالم لويس شيخو، قال ابن المعتز والشيباني: إن البلاغة بثلاثة أمور: أن تنوص لحظة القلب في أعماق الفكر، وتتأمل لوجوه العواقب، وتجمع بين ما غاب وما حضر، ثم يعود القلب على ما أعمل الفكرة فيحكم سياق المعاني، والأدلة ويحسن تنسيقها، ثم تبديه بالفاظ رشيقة مع تزوين معارضها، واستعمال محاسنها. قال بعض الحكماء: العلوم الأدبية مطالبها من ثلاثة أرجاء: قلب مفكر، وبيان مصور، ولسان معبر.

ويسمى العمل الأول إيجاداً أو اختراعاً، والثاني التنسيق، والثالث التعبير، وذلك هي الأركان، التي تقوم عليها الخطبة، والعناصر التي تنشط في تكوينها.

الإيجاد

وهو إعمال الفكر لاستنباط الوسائل التي من شأنها إقناع السامع واجتذابه، وإثارة حماسه إلى ما يدعو إليه المتكلم. إن عمل الخطيب أن يقدم حقائق، أو ما يشبه الحقائق، ويجب أن يكون عند تقديمها بحال لا تمنع من قبول كلامه، بل يجب أن يكون بحال تجذب الناس إليه، وتدفعهم إلى الإنصات له، وتقبله بقبول حسن، وأن يجتهد في حمل السامعين على الإذعان لما يقول، والتسليم به، وإثارة حماسهم له. قال ابن سينا في الشفاء: التصديقات الصناعية التي يحال لها بالكلام ثلاثة أصناف: الأول العمود، والثاني حال المتكلم عند تأدية الكلام في سمته كما يتفق أن يكون، سمت صالح متخشح فاضل، أو سمت

صديق جاد، أو خلاف ذلك، أو يكون له لطف في تأديته. والثالث: استدراج السامعين، ويجب أن يكون الإيجاد شاملاً لكل هذه العوامل، ولذا قالوا إن الإيجاد يشعلها، وسموا الأول الأدلة، والثاني الآداب الخطابية، والثالث إثارة الأهواء.

الأدلة

الدليل ما يتوصل به إلى بيان صحة الحكم سلباً أو إيجاباً، والأدلة الخطابية لا يلزم أن تكون قطعية موجبة لليقين، بل يصح أن تكون ظنية توجب في ذاتها الظن، ولكن بما يستخدمه الخطيب من وسائل يرفع ذلك الظن في نفوس السامعين إلى مرتبة اليقين؛ بل يجعله في أعلى درجاته، ومثال الأدلة القطعية في الخطب قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه، في بيان قدرة الكائنات، بجوار قدرة الله سبحانه وتعالى: بلا قدرة منها كان ابتداء خلقها، وبغير امتناع منها كان فتاؤها؛ ولو قدرت على الامتناع دام بقاؤها.

فهنا الدليل قطعي إلزامي، ولا شبهة فيه عند أهل النظر. ومثال الأدلة الظنية قوله لعمر، عندما استشار الصحابة في سفره على رأس الجيش لفتح فارس: مكان القيم بالأمر مكان النظام من الخرز، يجمعه ويضمه، فإذا انقطع النظام، تفرق الخرز وذهب، ثم لم يجمع بخلافه أبداً. والعرب اليوم (وإن كانوا قليلاً) فهم كثيرون بالإسلام عزيزون بالاجتماع؛ فكن قطباً، واستدر الرحي بالعرب، وأصلهم دونك نار الحرب؛ فإنك إن شخصت من هذه الأرض، انشقت عليك العرب من أطرافها وأقطارها؛ حتى يكون ما تدع ورائك من العورات، أهم إليك مما بين يديك. إن الأحاجم إن نظروا إليك غداً، يقولوا هذا أصل العرب؛ فإذا قطعتموه استرحتم، فيكون ذلك أشد لكالهم عليك، وطمعهم فيك.

ونرى أن كل ما اشتمل عليه هذا الكلام من أدلة ظنية؛ ولكنه مع ذلك يسوق النفس إلى الإقناع كرهاً، لا طوعاً.

والأدلة الخطابية سواء أكانت إلزامية أم إقناعية، تختلف في الغالب إحدى مقدماتها؛ لأن الأساليب الخطابية تتجافى عن الأساليب المنطقية الجافة؛ إذ يفصح الأسلوب المنطقي فيها إلا إذا كانت الخطابية قضائية؛ فإن الأسلوب المنطقي قد يحسن، وقد يكون مجعلاً لها. وقد قال ابن مينا في علة حذف إحدى المقدمات في الكثير الشائع: إن الخطابية إنما تختلف الكيفيات فيها،

لأنها لو صرح بها لزال الإقناع، لأن تلك الأحكام إذا حصرت بالكلية، علم كذبها، وخصوصاً في المشهورات منها.

والأدلة لها منافع تصدر عنها وتستتبط منها، وينتج عنها طلبها، وتسمى (مواضع) وقد ذكرها الأقدمون من اليونان؛ ليسهل على الخطباء والجمهور الحصول على ما يبرهنون به دعاوهم، وليحتجوا بها قضايهم التي يسوقونها؛ وقد قال ابن سينا فيها: إن الحجج في الخطابة تكتسب من المواضع، فمن طلب الإقناع وهو لا يعلمها كان كعاطب ليل، يسعى على غير هداية، لا لبخل من الموجود، بل لنقصان في الاستعداد.

المواضع

المواضع هي المصادر التي يمكن الخطيب أن يتخذ منها ما يستدل به على دعواه، كالتعريف؛ فإن الخطيب يمكنه أن يتخذ منه في بعض الموضوعات مصدراً لاستدلاله، فإذا كان مثلاً يدعو إلى الصدق، يصبح أن يبرهن على ضرورة الأخذ به، بتعريفه، وذكر خواصه، ولوازمه التي من شأنها أن تبينه نافعاً، وكالتشبيه؛ فإن الخطيب يستطيع أن يعقد صلة بين شيء غير مسلم به، وآخر مسلم به من السامعين، ويتخذ من تلك المشابهة دليلاً على ضرورة ما يدعو إليه وصدقه، وهكذا. وقد قسم العلماء المواضع إلى ذاتية وعرضية.

المواضع الذاتية

فالذاتية تؤخذ من ذات الموضوع، لا من شيء خارج عنه، كأن يبين فوائد العلم، بذكر خواصه اللازمة له، وقد ذكر الفلاسفة عدداً من المواضع الذاتية، نكتفي ببيان ما نراه كثير الشروع على ألسنة الخطباء قديماً وحديثاً، ومن ذلك:

١- التعريف؛

تعريف الشيء، يكون دليلاً خطيبياً، أو بعبارة أدق مقدماً لدليل خطابي. ولذلك طرق عدة منها:

١- أن يعرفه بخواصه التي تفيده فيما يدعو إليه، كقول علي رضي الله عنه داعياً إلى الأخذ بهدى المتقين، واصفاً لهم:

«المتشوقون هم أهل الفضائل، متعلقهم الصواب، ومليهم الاقتصاد، ومشيهم التواضع، غلبوا أبصارهم عما حرم الله عليهم، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم، نزلت أنفسهم في البلاء، كالتي نزلت في الرخاء»^(١)، ولولا الأجل الذي كتب عليهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقاً إلى الثواب، وخوفاً من العقاب».

٢- ومنها أن يعرفه بالاستعارات أو التشبيه لو نحوها، كقول شبيب بن شيبه في مدح خليفة: «ألا إن لأمير المؤمنين أمثابها أربعة: الأسد المخادر»^(٢)، والبحر الزاخر، والقمر الباهر، والريبع الناضر، فأما الأسد المخادر، فأنشبه منه صولته ومضاهه، وأما البحر الزاخر فأنشبه منه جوده وعطاءه، وأما القمر الباهر فأنشبه منه نوره وضيائه، وأما الريع الناضر، فأنشبه منه حسنه وبهائه.

٣- ومنها أن يعرفه ببيان أنواعه، وذكر أقسامه. ومن ذلك قول علي رضي الله عنه في بيان الرزق «الرزق رزقان: رزق تطلبه، ورزق يظليك، فإن لم تأله أمالك، فلا تحمل هم سنك على هم يومك، كفاك كل يوم على ما فيه، فإن لم تكن السنة من عمرك فإن الله تعالى سيؤتيك في كل غد جديد ما قسم لك، وإن لم تكن السنة من عمرك، فما تعنع بالهم لما ليس لك. ولن يسبقك إلى رزقك طالب، ولن يظليك عليه غلب، ولن يظي عنك ما قد قدر لك».

وترى من هذا أن طرق التعريف الخطابي ليست هي الطرق المنطقية وحدها، بل تكون بها وبغيرها، مما لا يقره للنطق تعريفاً مصوراً للموضوع.

والتعريف يكون موضعاً خطابياً:

١- عندما يرى الخطيب أن التعريف كافٍ لنقض النزاع، وإنهاء الخصومة، إذ يكون تعييناً لموضع النزاع، وبذلك يسير في طريق يجتمع فيه الخصمان، فلا تتشعب مسائلهما، إذ في تشعبها توسيع لهوة الخلاف، وتطويل للمداه.

٢- وعندما يرى أنه يستطيع استنباط الدليل من خواص الشيء، إذ تكون هي مناط الحكم، كما إذا ادعى أن العنل محمود، فإنه يذكر صفاته وخواصه النافعة، ويكون ذلك دليلاً على جدارته بالتفضيل وإعلاء مكانته.

(١) معنى هذه الجملة أنهم في البلاء كما هم في الرخاء لا يهتدون ولا يحزنون لأملهم في الله، وطموحهم في رحمته، وصبرهم وخشوعهم.

(٢) المخدر: يطلق على أجمة الأسد، فأسد مخادر مقيم في أجمته.

٣- وعندما يريد مدحاً أو ذمّاً لأحد من الناس، فيذكر صفاته الحسنة، كما رأيت في وصف شبيب بن شيبه للخليفة مادحا.

٤- أو يريد جحضاً على أمر، أو تنفيراً منه، فإنه يذكر صفاته الحسنة إن أراد الأول، وصفاته القبيحة إن أراد الثاني.

٥- وعندما يريد إيضاح أمر أشكل فهمه على السامعين، فيعمد إلى تعاريف كاشفة، تجتذب القلوب إليه، وتوضح للسامعين ما أشكل عليهم أمره.

٢- التجزئة،

المراد بالتجزئة أن تنجز في الحكم إلى الجزئيات تتبعها بالحكم الذي تريده، جزئياً جزئياً، حتى تستخلص النتيجة التي تريدها، ولها طريقتان:

أحدهما - أن تتبع الجزئيات، لتستنبط منها حكماً واحداً لكليهما. وذلك مثل قول قطري بن الفجاءة في وصف الدنيا:

«كم واثق بها قد أفجعت، وذى طمأنينة إليها قد صرعت، وذى نخوة قد ردت ذليلاً،
وكم من ذى تاج قد كبته لليدين والفم، سلطانها دول، وغوثها رنق^(١)، وعليها أجاج^(٢)،
وحلوها صبر، وخذلانها سمام^(٣)، وأسبابها رمام^(٤)، وقطافها سلع^(٥)، حيوها بعرض موت،
وصحيحها بعرض سقم، ومنيعها بعرض اعتضام. مليكها مملوك، وعزيزها مغلوب، وسليمها
منكوب، وجامعها محروب^(٦)، مع أن وراء ذلك سكرات الموت، وهول المطلع، والوقوف بين
يدى الحاكم العتل، ليجزى الثمن أساعوا بما عملوا، ويجزى الثمن أحسنوا بالحسنى».

ألا تراه في ذلك قد تتبع الجزئيات، ليخلص من حالها حكماً كلياً، على ما في الدنيا، فإنه إلى زوال، ومن فيها إلى الموت، والوقوف بين يدي الحاكم العدل، وبأنها لا يصح أن تكون غاية العباد، ومطلبهم الأسمى.

(١) رنق: منهاها كنوز.

(٢) أجاج: منهاها مر.

(٣) سمام: جمع سم.

(٤) الأسباب الحبال. ورمام: منهاها بالية، ولحية.

(٥) القطاف: الثمر. وسلع: مر.

(٦) المحروب: المملوك.

وثانيها - أن تتبجع الجزئيات لتخص واحدًا من بينها، بحكم لزيادة التنبه. على خصائصه، وللمحث على الأخذ به، أو التفتير منه، كقول جامع البخاري للحجاج، وقد شكّا إليه سخط أهل العراق عليه: «أما إنهم لو أحسواك لأطاحوك، على أنهم ما شئتوك لنسبك، ولا لبلدك، ولا لذات نفسك، فدع ما يعمهم عنك إلى ما يقربهم إليك، والتمس العافية من دونك، تعطها من فوقك، وليكن إيقاعك بعد وعيدك، وعيدك بعد وعيدك، فترى من هذا أنه استقرى أحواله حالًا حالًا، ونفى عنها السبب في الكراهية، ثم قصر السبب على الحكم، وأشار إليه إشارة في قوة التصريح، ثم أخذ ينبهه إلى ما يجب، وما من شأنه إثناء القلوب النافرة.

ونرى من ذلك كله أن التجزئة منهج خطابي، يعتمد إليه الخطيب عندما يريد المبالغة في إثبات الحكم، والمحرص على تأكيد، وتقريره في نفوس السامعين. وهي لا يعتمد إليها إلا في مقام الإطراب، ولا ينتج الخطاب إليها في مقام الإيجاز، لأن خيرها ينشأ عنها، ففى كلمة البخاري السابقة لو كان يقصد إلى الإيجاز، لقال له من أول الأمر: إن السبب في السخط حكمك، ثم بنى عليه ما أراد، ولكنه بدأ بالنفى عن الأحوال السابقة واحدة واحدة، ثم خص الحكم بالسبب، فكان ذلك دالًا على مزيد العناية به، وذلك من نوع الإطراب المفيد.

٣- التعميم ثم التخصيص:

هذا مقابل التجزئة، إذ يبدأ فيه بذكر العام، ويحكم بما يراد، ثم ينزل منه إلى الخاص. وذلك كثير على ألسنة الخطباء، يتناولون خطيبهم بقضايا كلية مسلم بها، أو في منزلة المسلم به، للتقرير، ثم يخصصون بعد ذلك بعض الجزئيات بالذكر، وما الحكم الرائعة التي يتحدى بها كثير من الخطباء خطيبهم، إلا من ذلك النوع، ولقد قال ابن سينا في هذا: «جملة ما يقال في ذلك، إن الخطباء قد اعتادوا أن يأتوا في صدر خطيبهم بنظر عام في مقصدهم، لما يأتون في خطيبهم. ومن أبلغ التعميم ثم التخصيص قول النبي ﷺ في خطبة الوداع: «أما بعد أيها الناس، اسمعوا مني، ألين لكم، فإنني لا أدرى، لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفى هذا، أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذي ائتمن به، وإن ربا الجاهلية موضوع، وإن أولاً ربا أبداً به ربا عمى العباس بن عبد المطلب، وإن دماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أبداً به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب».

فتراه ﷺ، يشتدّ بحكم عام، فيسقط الربا كله، ثم يخص ربا العباس بالإسقاط، ليبين للناس أنه يشتدّ بتنفيذ الأحكام على أقرب الناس إليه، فيكون في ذلك أسوة حسنة، ثم يبين أن دعاء الجاهلية ساقطة، وأول دم يسقطه دم من يحد هو من أوليائه؛ ليكون أول الآخذين بحكم الدين. ولما هذا ترى الانتقال من العام إلى الخاص على أبلغ وجه.

ومن الابتداء بقضايا كلية مسلم بها، لتكون تمهيداً للمطلوب قول الأخف بن قيس في وفادته لعمر بن الخطاب: «يا أمير المؤمنين: إن مقاتيح الخير بيد الله، والمحرص قائد الحرمان، فأتق الله فيما لا يغني عنك يوم القيامة قليلاً ولا كثيراً واجعل بينك وبين رحمتك من العدل والإنصاف شيئاً يكفيك وفادة الوفود، واستماعة الممتاح».

4- العلة والمعلول:

التحليل روح الاستدلال، فالعلة الباحثة على الفعل، والغاية المنشودة منه، طريق للحكم عليه بأنه خير، أو شر، وأنه صحيح، أو باطل، وأنه سائغ، أو غير سائغ؛ لذلك يعتمد الخطباء إلى ذكر البواصث على الأفعال، والدوافع إليها؛ ليتخذوا منها سنداً في الحكم عليها. وأخص من يفعل ذلك المحامون، ورجال النيابة، فإنهم يتخذون من الدافع على الجريمة دليلاً موجباً لتخفيف العقوبة، أو دليلاً على وجوب التشديد فيها، ويتخذون من البواصث على الإقرار، أو الإنكار دلائل موجبة أو سلبية. ومن ذلك ما جاء في مرافعة أحد المحامين الفرنسيين في إثبات أن الدافع لإقرار المتهم، يحمل على عدم الأخذ به، فقد قال: تقولون إنه لا بد من الحكم، لأنه أقر، وتقولون إن هذا الإقرار حر، أما رأيتم كيف وصف لكم الشهود ذلك المنظر؟ ألم يظهروا لكم التأثير الذي كان المتهم فريسته؟ ألم يظهروه لكم يقاوم، ويبكي، ويقع على الأرض، ويجذب شعر رأسه؟ ألم تروا أن العلاب النشوي الذي وقع المتهم فريسته هو الذي دفعه لأن يقر، ثم ما كاد ينهض على قدميه حتى لجأ لكل إنسان يحاول أن يسترد إقراره، فأسرع إلى محاميه، وطلب منه بكل الطرق أن يدفع به للمحاكمة؛ وحين يصبح في كل فرصة، وفي كل مكان؛ إنني برئ، إنني برئ... افرضوا يا حضرات المحلفين، أن نظام التعذيب. كان لا يزال قائماً، وجاءكم المتهم وأثر الحديد في يديه، وقد أفلت من قسوة معذيبه، فهل كنتم تقولون له أنت مذنب؟ لأنتك اعترفت؟ إنه يقول لكم: لقد رأيت دمي يتساقط، وسمعت عظامي تتحطم، فغلبنى الألم. وقال الطبيب إن الموت قاب قوسين أو أدنى، فغلبنى الخوف، فأقررت، ولكني برئ؛ أكان منكم أنتم الذين يحاكموننا، أو أنتم الذين تهموننا- أكان منكم من يقول له: لقد

أقررت وأنا أحكم عليك بإقرارك؟ لا لاء ليس فيكم هذا الشخص. ففي هذا الدفاع القيم، ترى أن ذلك المندره المجيد قد اتخذ حلة الإقرار، والداعي إليه حجة على بطلانه، ودليلا على أن الواجب عدم الأخذ به.

وقد يتجه الخطيب إلى المعلومات والآثار؛ للدلالة على أن الفعل لا يصح أن يقع، وإن وقع، فهو محل اللوم، يجب الإقلاع عنه، وأخذ الأهبة لمقاومة من هم واقعون فيه، أو من يدعون إليه، ويحثون عليه.

ومن ذلك خطبة ديموستين التي يبين للميونان فيها آثار فتح فيليب المقدوني لبلادهم؛ وهي التضييق على الحرية، وموت الديمقراطية اليونانية.

وقد قال في تلك الخطبة: إن أخشى ما يخشاه فيليس، وأمقت ما يهقته، هو حرقتاء هو نظامنا الديمقراطي؛ فلكني بقضي على هذه الحرية، وهذا النظام، بهيئ جميع شراكه، ويدير جميع تدابيرها، أو ليس يجرى على مبدأ واحد في كل أعماله هذه؟ إنه يعرف تمام المعرفة، أنه لو أخضع بلاد الإغريق كافة، وعملها بفتحها، فإنه يظل غير آمن، مادامت ديمقراطيتكم صحيحة، لم تمس؛ وهو يعرف أنه إذا أصابته عزيمة من تلك الهزائم التي تقدرها الأقدار لبني إنسان، فإن جميع الأمم التي قرنوا عنها إلى نبره تسارع إلى الانضواء إليكم... أهي للعالم أمة مقهورة تحتاج إلى رد حرقتها إليها؟ هاكم أينا. وإنما ذكر التضييق على الحرية، وضباع الديمقراطية وخذلتهما؛ لأنهما أمر شئ عند اليونان، فذكرهم بهما؛ ليحضر همتهن إلى مقاومة فيليب، ومعارفته. فتري من هنا أنه استخدم الآثار في الاستدلال على وجوب المقاومة، ورد الأعداء، وتري كيف استخدم المعلول في الاستدلال على المطلوب.

٥- المقابلة:

بين شيئين، ليبين الحق فيهما؛ فإن الأشياء تتميز بأضدادها وتعرف بنقائرها. وهي معين للاستدلال الخطابي، وفوق ذلك تعطى الكلام حلاوة، ورونقا، ويختل الخطباء منها حججهم بطريقتين.

(إحداهما) أن يذكر الخطيب الشئ ومقابله؛ ويذكر صفاتهما؛ ومن ذلك جبين الحسن منهما كما قال الإمام علي رضي الله عنه للأشعث بن قيس في فضل الصبر «إن صبرت جرى عليك القدر، وأنت مأجور، وإن جرعت جرى عليك القدر، وأنت موزور».

(ثانتهما) أن يبرهن على بطلان المقابل؛ فيثبت المطلوب كما فعل الإمام على رضى الله عنه عندما ناقشه الخوارج؛ واعترضوا عليه بإباحة أموال أهل الجمل دون النساء والذرية؛ فقد قال: إنما أبحث لكم أموالهم بدلا عما كانوا أغاروا عليه من بيت مال البصرة قبل قدومى عليهم؛ والنساء والذرية لم يقاتلونا، وكان لهم حكم الإسلام بحكم دار الإسلام، ولم يكن منهم ردة عن الإسلام، ولا يجوز استرقاق من لم يكفر. وبعد لو أبحث لكم النساء أيكم يأخذ عائشة فى سهمه؟ فخلجل القوم. فترى من هذا كيف أفحمتهم ذلك الخطيب العظيم؛ إذ أبطل لهم دعواهم سبى النساء بتلك الحجة البالغة؛ وهى أن السبى لو كان حقا. فكان من الحق مسى عائشة أم المؤمنين، ومثل ذلك لا يعقل من مؤمن. وإذا بطل هذا، لبثت صحة ما فعل، وهو منع سبى النساء والذرية.

ولا يعمد الخطيب فى إثبات دعواه بإبطال نقيضها- إلا إذا كان لإبطال النقيض أسهل عليه، وأيسر من إثبات الدعوى، من أول الأمر. وفى الحق أن تلك كلها أسلحة لديه، يستعمل منها ما يراه أسهل، وأدنى إلى الإقناع، وأقرب إلى الإجابة، وأحرى بالتأثير، وامتناك ناصية القول.

٦- التشابه وضرب الأمثال:

(أ) يعمد الخطباء إلى تقرب الأمور التى يدعون إليها من نفوس الجماهير؛ ليأخذوها قضية مسلمة، لا يناقشون فيها، ولا ينظرون إليها نظرة فاحصة كاشفة؛ ويصلون لذلك طريقا، من سلكه وصل إلى غرضه، وهو عقد صلة بين ما يريدون وأمر معروف، ويسمى ذلك التشابه أو المشابهة أو التحليل، وهو أن يقيس الأمر الذى يدعو إليه على أمر معروف عندهم؛ مقبول لديهم؛ فيقبلوا الجديد لقبول القديم؛ ويتسحب شرف القديم شرفا للحديث، أو يعمد إلى الموازنة بين الحال التى يدعو جماعته إليها، والحال التى هى فى مكان المسلم بها عند جماعات أخرى؛ كما فعل المنصور له «مصطفى كامل» فى بعض خطبه الحماسية إذ قال: القوا أيها السادة بأنظاركم قليلا إلى الأمم الحرة، تجلوا كل فرد غيها يدافع عن وطنه، ويلود عن حوض بلاده- أكثر من دفاعه عن أبيه وأمه، بل هو يرضاهما ضحية للوطن، ويرضى نفسه قبلهما قربانا يقدمهما لإعلاء شأن بلاده، وبعد الموت لأجل الوطن حياة، دونها الحياة البشرية، ووجوداً دونه كل وجود، فلم لا يكون المصرى على هذا الطراز، ووطنه أجمل الأوطان، وأحقها بمثل هذه المحبة الشريفة الطاهرة.

ومن أبلغ أنواع التشابه الخطابي قول أبي عبيدة عامر بن الجراح، يندب أهل الشام عند فتح بلادهم: لا يفرنكم عظم مدينتكم، وتشيد بنيانكم، وكثرة زادكم، وهول أجسامكم؛ فإننا نزلنا بلاداً أنصب من بلادكم، وفتحنا أمصاراً محصرة، ومدائن أحرز من مديتكم، وخرج علينا أصلاج^(١) موفورة ألواتهم، مدرعون، مرسون، فصلد نجمهم، وذهب أماننا ويحهم، وردناهم على الأعقاب، لا يلوى أولهم على آخرهم.

(ب) وقد يتجه الخطيب إلى التشبيه البهائي المعروف، لا لتحسين الكلام وتزيينه، بل للاستدلال الخطابي، وتقريب المعاني التي يريد بها، وسوق ذلك سوق البرهان، وذلك يكون عندما يتقدح الرأي في النفس ويستولي عليها استيلاء تاماً، ويرى صاحبه أن النفوس تشبه بالتشبيه ما حاك في الفؤاد؛ وجمال في القلب، واستولي على النفس.

ومن أبلغ ذلك ما جاء على ألسنة بعض الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، عندما استفتاهم الفاروق عمر رضى الله عنه فيما يستحقه الجدل من التركة مع الإخوة.

وقد قال زيد بن ثابت في تأييد رأيه من أن الإخوة أولى^(٢): لو أن شجرة تشعب من أصلها غصن، ثم تشعب في ذلك الغصن خطوطان^(٣)، وذلك الغصن يجمع الخطوتين دون الأصل، ويغتنوهما، ألا ترى يا أمير المؤمنين، أن أحد الخطوتين أقرب إلى أخيه، منه إلى الأصل.

(ج) وقد يتجه بعض الخطباء إلى ضرب الأمثال؛ ليقربوا إلى الناس ما يريدون من الأمور، فيشبهون حال جماعتهم أو حالهم بحال مفروضة لجامع يجمعهم، كما فعل عمر رضى الله عنه في إحدى خطبه في الحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ قال:

أيها الناس اتقوا الله في سريرتكم وعلايتكم، وأمروا بالمعروف، وأنهوا عن المنكر، ولا تكونوا مثل قوم كانوا في سفينة، فأقبل أحدهم على موضعه يخرقه، فتظر إليه أصحابه، فممنوعه، فقال هو موضعي ولي أن أحكم فيه، فإن أخذ على يده سلم، وسلموا وإن تركوه هلك، وهلكوا معه. وهذا مثل ضربته لكم، رحمتنا الله، وإياكم.

وقد يقول قائل: أين هذا من الاستدلال وسوق البراهين؟ ونقول في الإجابة عن هذا: إن ذلك المثل قد تضمن أبلغ أنواع الاحتجاج؛ فهو قد بين لهم بطريقة قريبة من نفوسهم،

(١) الصلج، الرجل من المعجم غير المسلمين.

(٢) أصنام المومنين لابن القيم.

(٣) الخطوط: الغصن الناعم.

موضحة لمقولهم، خالية من جفاف المنطق، أن ترك الأمر بالمعروف في الأمة مؤد إلى فساد الأمر، واضطراب حاله، والضرر حينئذ لا يقع على مرتكب الإثم وحده، بل يعم ولا يخص. وذلك دليل موضح لوجوب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وقد ذكره الفاروق في أبلغ عبارة، وأوجز بيان، وأقرب القول إلى النفوس والمدارك.

وقد يتجه الخطيب إلى تصوير فكرته، بذكر مثل خيالي، لا يتصور العقل وقوعه، كذلك الأمثال التي تجيء على ألسنة البهائم، ومن ذلك ما جاء في بعض خطب الإمام على رضي الله عنه، فقد قال:

إنما مثلي، ومثل عثمان، كمثل الوار ثلاثة كُنَّ في أجمة: أبيض، وأسود، وأحمر، معهن فيها أسد، فكان لا يقدر منهن على شيء، لا اجتماعهن عليه، فقال للثور الأسود والثور الأحمر: لا يدل علينا في أجمتنا إلا الثور الأبيض، فإن لونه مشهور، ولوني على لونكما، فلو تركتماني أكله، صفت الأجمة. فقالا: درنك، فأكله، فأكله فلما مضت أيام، قال للأحمر: لوني على لونك، فدعني أكل الأسود، لتصفونا الأجمة، فقال: درنك، فأكله، ثم قال للأحمر: إني أكلتك، لا محالة، فقال: دعني أنادي ثلاثة، فقال: افعل، فنادى: ألا إني أكلت يوم أكل الثور الأبيض، ثم قال على رافعا صوته: ألا إني وهنت يوم قتل عثمان.

وذلك النوع من الأمثال، يسوقه الخطيب إذا أراد أن يستتر في بعض كلامه فلا يصرح ببعض الأشخاص، أو يصور للمعاني خالية من كل علاقة لها بأشخاص، أو يريد بها تقريب الأفكار من النفوس، مع تمليح الكلام وتزيينه.

المواضع العرضية

هي مصاهر الأدلة الخارجة عن ذات الموضوع، وذلك لأن الخطيب أحيانا لا يدرك ما في ذات الموضوع من خصائص ومزايا وثمرات، فيصعب عليه أن يفتتح بأدلة تستمد قوتها من تلك الخصائص، فيستعان على إقناعه بأمر خارجية، هي عنه حادثة، وهو لها مدعى، فبين له الخطيب أن تلك الأمور تولده، وتحدث على ما يدعو إليه، فيسلم بما يقدم له من غير جدل، ويدعن من غير نقاش، لأن الأمر أحمل على ما هو عنه في مرتبة التقديس.

وأكثر تلك المواضع قوة أو كبرا أمور منها:

١- الدين:

إذ هو أكثر الأمور سيطرة على القلوب، خصوصاً قلوب العامة، فإنه لهم المرشد الأمين، والمعزى لمن برحت بهم الآلام، والمسلئ لمن نزلت بهم الهموم، والمهذب لمن لا معلم له، والمربي للوجدان، والموقظ للضمائر، والمقديسون لا يخضعون لشيء كما يخضعون لدينهم، ولا يصدعون إلا بحكمه، فإذا أهد خطيب في جماعة متلبذة قضاياء بالدين، وربط بينها وبين دينها صلة، ووثق عرا الألفة بين ما يدعو إليه وبين ذلك الدين أجابت نداءه، وليته في حماسة وقوة وشعور دافق وحمية، وخطباء العرب في صدر الإسلام، كثفوا يحلون خطيبهم بشيء من القرآن الكريم، والحديث الشريف لتكون لهم الحججة البالغة؛ إذ كانوا يخاطبون قوماً كل مجدهم جاء من الدين الإسلامي الحكيم، ولأن القرآن الكريم في منزلة من البلاغة دونها أي كلام، والحديث الشريف في المنزلة الكاملة لبلاغة البشر، وسيجيء إليك ذلك راضحاً في تاريخ الخطابة.

وقد حد الاستشهاد بالدين من المواضع الخارجة، لأنه ليس من ذات الموضوع ولا مشتقاً من خصائصه، ولكن جاء من شيء خارج عنه، وهو يفيد اليقين والجزم، وإن كان من شيء خارج عن الموضوع، لأن مسائل الدين في مكانة من اليقين، لا تعدلها مكانة، فإذا استشهد به استشهداً صادقاً، حلت دعوى الخطيب في القلب، فلا تتزع منه، لأنها تصير جزءاً من أوامر الدين، فتكسب منه تقليداً.

٢- العادات:

كل جماعة من الناس لها عادات تسودها وتسيطر عليها، وهي متمكنة من نفوسها، ومستولية عليها، وقد قال العلامة باسكال في سيطرة العادات على نفوس الناس، وقوة ما يشتق منها من أدلة: ماذا تكون مبادئنا الفطرية، إذا لم تصدر عن العادة، فالعادة هي طبيعة ثانية تقوض أركان الأولى ومنها نأخذ أدلتنا قوة، وأكثرها قبضاً، وهي التي تحين وجهة النفس دون أن يفكر الإنسان؛ وبها يصبح الإنسان نصرانياً، أو وثياً، أو تركياً، أو محترفاً أو جندياً.. إلخ، ثم بها تستعين النفس وتتما نثر على مكان الحقيقة.

وقال العلامة جوستاف لوبون: لو أن قدرة خارجة جعلت الإنسان أو الشعب يهرب من تأثير عاداته، لأصاب الفالج حياته فجأة، لأن العادة هي التي تملئ علينا كل يوم ما يجب أن نقوله، ونفعله، ونفكر فيه.

وإذا كان لعادات الأمم هذه القوة، وذلك السلطان على القلوب؛ فيجب أن يعتمد عليها الخطيب في مقام التأثير؛ بأن يقرب ما يدعو إليه، مما يلقون من عادات، وما اصطلموا عليه من عرف؛ ليستكنوا إلى الأمر، ويخضعوا له، ويطمثوا إليه؛ لأن إقبال الناس يكون شديداً على الأمور التي تكون من جنس ما يلقون.

وقد كان الأخف بن قيس وهو من أبلغ البلغاء، والخطباء المسودين، ممن يجمعون إلى قلوب العامة من ناحية عاداتهم وما يلقون، قيل له: بهم سدت؟ قال: لو أن الناس كرهوا الماء ما شربته. ومعنى هذا أنه يحترم العرف، ويعرف سلطانه؛ فهو يتخذ طريقاً لسيادته، ولتأثير بيانه.

ومن الخطباء الذين كانوا يلجأون إلى العادات أحياناً في التأثير المخفوق له سعد زغلول «باشا» ومن ذلك خطبته في الأزهر الشريف، إذ جاء فيها:

جئت اليوم لأؤدى في هذا المكان الشريف فرض صلاة الجمعة، ولأقدم واجبات الاحترام لمكان نشأت فيه، وكان له فضل كبير في النهضة الحاضرة، تلقيت فيه مبدأ الاستقلال؛ لأن طريفته في التعليم تربي ملكة الاستقلال في النفوس؛ فالتعليم يختار شيخه والأساذ يتأهل للتدريس بشهادة التلاميذ الذين كانوا يلتفون حول كل نابغ فيه.

ألا تراه في هذا أخذ يستخرج سامعيه بتقريب ما يرمي إليه (وهو نشر فكرة الاستقلال) مما ألفوه، وما يعرفونه، وما اعتادوه.

٣- تتبع آثار السلف:

لآثار سلف الأمة قوة في نفوس الأحياء منها؛ وسلطان كبير في قلوبهم، وقد كان المشركون، لا يجدون أمراً يتخذونه تكأة لمخالفة النبي ﷺ؛ إلا أنهم يتبعون الآباء؛ إذ كانوا يقولون كما حكى الله سبحانه وتعالى عنهم: «إل تتبع ما ألفينا عليه آباءنا». وما كان هؤلاء البلغاء الذين وصفهم القرآن الكريم بأنهم قوم خصمون، يعمدون إلى ذلك الاحتجاج، إلا لما يعرفونه من تكبير آراء السلف في الخلف؛ ولو كان الأولون على ضلال، لا يقلون شيئاً، ولا يهتدون.

وأقوى الأفكار أثراً في النفوس، ما جاء متصلاً بآثار السلف، مؤلفاً معها.

قال العلامة جوستاف لوبون: تقدم علم تركيب الأجسام، من يوم أن بين علم التكوين مقدار تأثير الماضي في تطور الكائنات؛ وسبق تقدم علم التاريخ أبعداً حينما ينتشر هذا؛ لأن انتشاره

لم يعم؛ بدليل أن كثيرا من أقطاب السياسة لا يزالون على أفكار أهل القرن الماضي؛ ممن كانوا يتخيلون أنه يتوسر للأمة أن تتخلع عن ماضيها، وتعيش نفسها من جديد غير مستهدية في ذلك إلا بنور العقل وحده، وفاتهم أن الأمة جسم منظم، أوجدته الماضي، فهي كغيرها من الأجسام، لا تستطيع الانتقال من طور إلى طور، إلا بتراكم آثار الورثة فيها على مهل.

ولذا يحسن أن يقرب الخطيب بين فكرته، وبين ما أخر عن سلف الجماعة التي يخاطبها ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وما دام سلف تلك الجماعة لم يشتهروا بإهل، ولم يعرفوا بسوء.

ومن أحسن الخطباء الذين سلكوا ذلك المسلك الحسن البصري، فقد كان في خطبه يتجه في تأييد أفكاره إلى ما كان عليه الصحابة رضوان الله تعالى عنهم.

ومن خطبه في ذلك قوله: أيها الناس، إن لله عبادا قلوبهم محزونة، وشروطهم مأمونة، وأنفسهم عفيفة، وحوائجهم خفيفة، صبروا الأيام القلائل؛ لما رجوه في الدهور الأطاول؛ أما الليل فقامت على أقدامهم بضرعون إلى ربهم، ويسعون في فكاك رقابهم، تجرى من الخشية دموعهم، وتخفق من الخوف قلوبهم، وأما النهار فحلما أتقوا، أخفيا، يحسبهم الجاهل أغنيا من التعفف، فخالهم من الخشية مرضى وما بهم من مرض؛ ولكنهم خصصوا بذكر النار وأهلها. لهم والله كانوا فيما أحل لهم أزهى منكم فيما حرم عليكم؛ وكانوا أبصر بقلوبهم لدينهم منكم لدينكم بأبصاركم، ولهم كانوا لحسناتهم أن ترد عليهم أعرف منكم أن تعذبوا على سيئاتكم. أولئك حزب الله، ألا إن حزب الله هم المفلحون.

٤- أقوال الأئمة ومن اشتهروا بالحكمة:

وذلك باب واسع من الاستدلال، يوجه إليه الخطيب ليحلى به خطبته؛ فإن لكلام الحكماء المشهورين، والأئمة المعروفين روعة وهزة في النفس، وهي ثمرات تجاربتهم، ومخزون أفكارهم، وهي في منزلة المسلم بها، وكثير من الخطباء قديما وحديثا ابتدأوا خطبتهم بحكمة مشهورة، أو قول حكيم عرف بالعلم، والفكر الناضج، ويحملون خطبتهم بذلك النوع من الاستدلال.

ومن ذلك قول الحسن البصري في دعوة المسلمين إلى التآزر والتناصر، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر:

إن المسلم مرآة أخيه المسلم، يصره عيه، ويغفر له فيه، قد كان من قبلكم من السلف الصالح يلقى الرجل الرجل، فيقول يا أخى ما كل فتوى أبصر، ولا كل صوبى أعرف، فإذا

رأيت نجيرا فعمري، وإذا رأيت شرا فانهني، وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه، يقول: رحم الله امرأ أهدي إلينا مسارفا.

ومن أبلغ الكلام الخطابي المشتمل على ذلك النوع من الاستدلال؛ وإن لم يجر في خطبة، قول المسمودي في حب الأوطان:

إن من علامة الرشd أن تكون النفس إلى مولدها مشتاقة، وإلى مسقط الرأس تواقه. وقد ذكرت العلماء: أن من علامة وفاء المرء، ودوام عهده، حنيه إلى إخوانه، وشوقه إلى أوطانه، وبكائه على ما مضى من زمانه.

قال ابن الزبير: ليس الناس بشئ من أفساسهم أفتح منهم بأوطانهم. وقال بعض حكماء العرب: صبر الله البلدان بحب الأوطان. وقالت الهند: حرمة بلدك عليك مثل حرمة أبوك، لأن غذاءك منهما وغلبتهما منه، وقال آخرون: أولى البلدان بلد رضعت مائه، وطعمت غلبه.

وقال آخر: ممالك إلى موضع مولدك من كرم محنتك. وقال بقراط: يدأري كل عليل بمقابر أرضه؛ لأن الطبيعة تتطلع بهوائها؛ وتترع بغذائها.

وقال أفلاطون: غذاء الطبيعة من أفتح أدويتها. وقال جالينوس: يتروح العليل بفهم أرضه كما تشوب الجنة بيل القطر، والنفوس حنين إلى الأوطان، وإن لم يطب ماؤها وهوائها؛ ولنا يقول بعض الأعراب يصف وطنه.

وكنّا ألفناها، ولم تك مألُفا وقد يؤلف الشئ الذي ليس بالحسن

كما تؤلف الأرض التي لم يطب بها هواء ولا ماء، ولكنها وطن من

٥- الشهادات والمواقف:

وهي الركن الركين للاستدلال في الخطابة القضائية؛ فإن الشهادات باب واسع للتقاضي، وهي طريق القرائن، والوسائل لمعرفة الأحوال. وفي بعض القضايا تكون هي نقطة الحوار، وسبب الخلاف، وتباعد المطارح الأنظار، هذا يعمل على تبرئها، وذلك يعمل على تأييدها.

وأما اليهود فقد قال فيها ابن سينا: إنها شريعة المتعاهدين؛ فكلاهما مأخوذ بهاء مقيد بالسير في سبيلها، مفهم إذا قدمت إليه، أو ذكر بها؛ إذ فيها فصل الخطاب؛ ولذا إذا اتخذها أحد الخصمين دليلاً، وكان صادقاً، لحق بالحجة، ووصل إلى الغاية، وقال المطلوب.

والشهادات والمواثيق من المواضع العرضية، لأنها لم تشتق من خصائص الموضوع وذاته؛ بل هي أمور خارجة عنه، مؤيدة له، مثبتة لصنف الحكم، وإن لم تكن من ذات الموضوع، وليست علة لوجوده، ولا خاصة من خواصه.

ومن الخطب العامة التي كانت الشهادة وكتبها، خطبة زياد بن أبيه عندما شهد الشهود بنفسه من أبي سفيان فقد قال: هذا أمر لم أشهد لوله ولا علم لي بآخره، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: بلغكم وشهد الشهود ما صنعتهم؛ فالحمد لله الذي رفع منا ما وضع الناس، وحفظ منا ما ضيعوا. وأما عبيد قائما هو والد ميرور وويب مشكور.

٦- القوانين:

وهي الحجة الأولى في الخطب القضائية؛ إذ كلا المتنازعين يجتهد في أن يتخذ من القانون حجة لدعواه؛ أو طريقاً للخلاص من ورطة الاتهام. ويريد كلاهما أن يفسره تفسيراً يتفق مع غرضه ومقصده، ومصلحة من نصب نفسه مدافعاً عنه. والخطب التي كان القانون محور الاستدلال فيها، والحجة المنشودة والغاية المقصودة كثيرة، وكل مرافعات انتهاء والمحامين من ذلك النوع من الخطب، وتلك الطريقة من الاستدلال.

وكانت القوانين من المواضع العرضية لأنها ليست وصفاً ملازماً للموضوع، ولا خاصة له، ولا علة لوجوده، ولكنها أمر خارج عنه حاكم عليه، مرتب على الفعل قراراً حسنة، أو قراراً سيئة لمن أوقعه. ومن أبلغ الخطب القضائية التي اشتملت على الاستدلال القانوني مرافعة نائب عام فرنسي في إثبات الجريمة على رجل متهم بقتل نفسه إذ قال: لئنني أمام هاتين الجثتين، أما هذين الجرحين الناعرين، أشعر بالنفور والاشمئزاز بملاّن نفسي، ويخيل إلى أنني أرى حول تلك الدار الحزينة بجوار ذلك الزوج الذي يدعو زوجته؛ وتلك الطفلة التي تنادي أمها، فلا تجيب، ملونة بأسرها في حزن شامل عام، وأرى ذلك للشهد الرهيب الذي تبعه أهل البلد جميعاً يشاركون أسرة الفقيد في حزنها، ولكن لا، لا، إني أضحى بوجهي عن هذا المنظر الحزن، وأخلو إلى نفسي أسائلها، ورائدي مهمتنا المشتركة المقدسة، وأرجو تبعه خطورة.

فلا أشعر بأقل شك أو تردد، وأسمع صوت ضحيري، يقول لى: إن هذا الرجل مذنب، مذنب أمام الله، ومذنب أمام الناس، ومذنب لأعدائهم. وهذه الجرائم الخطيرة تقتضى عقوبة واجرة رادعة، فالمسألة تقتضىها والقانون ينص عليها، ومصلحة المجتمع تدعو إليها، ويقدر ما أنا مؤمن بأنى أؤدى واجبي حين أطلب منكم تطبيق تلك العقوبة الكبرى، أوقن بأنكم تؤدون واجبكم، حين تنطقون بها.

هذه المواضع العرضية بين يدي الخطيب توجه إليها، إن لم تجده فى مهمته المواضع الدائمة، أو وجد هذه أقرب مسلكا من تلك، وأهدى سبيلا وأكثر تأليفا. وقد يجمع بين الطريقتين إن اقتضى المقام، وساعدت الأحوال، ونهيات الأسباب.

وعند الاقتصار على العرضية، يجب أن يختار أسراها بإظهار المطلوب، وأقربها إلى أفهام الجمهور. (إن كان يخاطب الجمهور)، وأحسنها وقعا فى النفوس. ويجب عليه الابتعاد عما يستخلق على العقول إدراكه، أو يصعب فهمه، إلا إذا كان يخاطب قوما، تفنيهم الإشارة عن العبارة، والتلويح عن التصريح؛ فلا مانع من أن يخاطب بالدقيق العميق؛ ليكون فى ذلك متعة فكرية لهم. والله ولى التوفيق.

الأداب الخطابية

الأداب الخطابية هي التي يجب أن يتحلى بها الخطيب عند إلقاء الخطبة، وما يجب أن يتخذه في مياسة السامعين، وملاحظة أحوالهم. وهي على ذلك قسمان: قسم يتعلق بحاله هو عند الخطبة، وقسم يتعلق بالسامعين، وما يجب أن يطلب له بما أوتي من عقل أريب.

آداب الخطيب الخاصة به:

يجب أن يظهر في الخطيب عند الخطبة ثلاثة مظاهر:

١- سداد الرأي.

٢- صلاح اللهجة.

٣- التردد للسامعين.

١- فأما سداد الرأي، فيكون بدراسة دراسة تامة للموضوع الذي يخطب فيه، فإن الرأي المحكم لا يكون إلا بدراسة عميقة، وإحاطة تامة، وإطلاع واسع، وعلم غزير، وفكر قوي. وليس معنى ذلك أنه لا يخطب إلا إذا كان محضراً، مهيباً للكلام، بل المراد ألا يتكلم إلا في موضوع سبق له دراسته، وإحاطة به، حتى يكون كلامه مسدداً، سواء أكان يلقي الخطبة بعد تهية، أم يلقي الكلام ارتجالاً من غير سابقة تحضير، فإن المرجح لا يحسن ارتجاله في كل الأحوال، بل لا يحسن إلا إذا ألقى كلاماً فيما فيه آراء محكمة، ولا يتم له ذلك، إلا إذا كانت له سابقة اطلاع على ذلك الموضوع، أو ماله به علاقة تمكنه من أن يلقى فيه برأى قيم له شأن؛ فعلى الخطيب ألا يخوض في حديث ليس له به علم، حتى لا يشط؛ فبيدي رأيا فضيلاً، والرأي الفطير مبسر لا ينال الحق من كل نواحيه، وقد يكون مع الحق على طرفي نقيض. وما يساعد على تكوين الرأي الناضج بعد الدراسة التامة. سلامة الفكر من هم قاطع، رغم شغل، لأن من شغل بالهم لا يخلص له رأى ولا فكر، وقد قال الغزالي: إن من عارضت فكره شوائب الهموم، لا يسلم له رأى، ولا يستقيم له خاطر، وكان كسرى إذا دهمه أمر بحث إلى مرارته؛ فاستشارهم، فإذا قصروا بالرأي، ضرب قهارته، وقال: أبغاثم بأرذائهم، فأخطبوا في آرائهم. وقال بشر بن المعتمر في وصايا للخطيب: خذ من نفسك ساعة لشاغلك، وفراغ

بالك، وإجابتها إليك؛ فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرًا، وأشرف حسبًا، وأحسن في الأسماخ، وأحلى في الصدور، وأسلم من فاحش الخطأ، وأجلب لكل عين وغرة، من لفظ شريف، ومعنى بديع. فصفاء الذهن وصحوة لهما أفرهما، في إحكام الرأي، وإجادة اللفظ.

من هذا علمت في الجملة، كيف ينتهي للخطيب رأى سديد في الموضوع الذي يخطب فيه. ثم أعلم أن سداد الرأي دعامة الخطيب الأولى؛ لكن يثق الجمهور بفكره، ويتجه إلى رأيه. ويرى بعض^(١) علماء الاجتماع أن سداد الرأي، وتبره من الحق، ليس شرطًا في تأثير الخطيب؛ بل يزعم ذلك الناقل: أن قواد الجماعات، وخطباءها يجب أن تغلب عاطفتهم عقولهم؛ وأنهم ليسوا إلا مسحورين بفكرة قريبة من الحق، أو نائية عنه، وقد تكون معادية له. ولو سلمنا ذلك القول لكان على الخطيب أن يدمر الفكرة التي يدعو إليها وأن يحيط بها حبرًا، وأن تكون الجماعة واثقة به، مطمئنة إليه، معقدة أن ما يقول هو الحق المبين، وإن كان في الواقع باطلا، فالغاية المنشودة ألا يكون كلامه في ذاته حقا؛ بل أن يظهر كالمك في نظر السامعين، والمظاهر التي ترى الناس أن الأمر حق كثيرة منها:

١- أن يورد الأمر في صيغة جلية واضحة قريبة من أفهامهم؛ مصورة لهم بصورة تثير خيالهم، وتوضح لهم الملبهم.

٢- وأن يورد الأدلة التي يراها موجددة للجزم في نفوسهم؛ وإن لم توجد الجزم في ذاتها.

٣- وأن يجتهد في استدراك ما عصاه يرد عليه من اعتراض قبل إبراهه كما قال النائب العمومي في مرافعته في قضية مقتل بطرس «باشا» غالي؛ وقد توقع أن الدفاع سيظهر في تقرير الأطباء: لم يكن من قصدي أن أطيل الكلام في الجريمة من حيث لبوت أركانها؛ فإن المتهم سجل على نفسه بإقراره سواء في التحقيق، أم أمام قاضي الإحالة أنه قتل المرحوم بطرس «باشا» عمدا بعد سبق إصرار على القتل والترصد له؛ ولكن الدفاع أسعنا في الجلسة الماضية ثلاثة وثلاثين شاهدا سمعت شهادتهم، وفكرت فيها، فالفيتها تخوم من بعيد حول نقط يرد الدفاع أن يقرأ بها عن المتهم مسؤولية القتل من جهة خاصة، وتحفظ بها الجناية من جهة عامة؛ فكان لا بد لنا من الكلام عن هاتين المسألتين، وإن كنا لا نرى هذه الطريقة التي يسلكها الدفاع،

(١) زعيم هذا الرأي في العصور الحديثة جوستاف لوبون قال في كتابه روح الاجتماع «ليس القواد غالبا من أهل الرأي والحصانة بل هم من أهل العمل والافتقار، وهم قليلو التبصر على أنهم ليس في قدرتهم أن يكونوا بصراة».

إلا بعيدة جداً في التأدية إلى هذه الغاية. إذا نظرنا نظيرة عامة إلى أقوال الأطباء الذين جاء بهم الدفاع، ليتوصل بشهادتهم إلى إثبات أن الجاني غير مسئول عن نتيجة جنايته (ومضى القتل) لا يسعنا غير القول بأننا لا يمكننا أن نجعل لها من الأثر ما يمارض شهادة أطباء الاتهام، نحن لا نريد بذلك أن نعرض بكفاءة فريق وتفوق الفريق الآخر عليه فيها. ولا سيما ما يقال، من أن هناك أسباباً بحثت إلى هذا الخلف بين الفريقين، حتى في الأشياء المضمومة، فمن أجل كلا الفريقين، ونحرم لكل فريق رأيه من الوجهة العلمية.

٢- صدق اللهجة:

وعو أن يظهر الخطيب مخلصاً فيما يدعو إليه، حرصاً على الحقيقة فيما يعمل، فإنه إن ظهر كذلك، تلقى الناس به، وصدقوه فيما يدعو إليه، وأحسوا بأنه شريف محب لإجابه لشرفه وشرف ما يدعو إليه، ومن أجل أن يكون الإخلاص بادياً، يجب أن يكون من حاله ما يطابق مقاله، فلا يتجافى عمله عن قوله، بل يكون أكثر الناس أخذاً بقوله، كما فعل طارق بن زياد عندما دعا جيشه إلى الإقدام على القتال ولو كان فيه الموت، إذ جاء في خطبته: «وإن انتهاز الفرصة فيه لممكنة إن سمحتم لأنفسكم بالموت، وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة، ولا حملتكم على خطوة أرخص مقام فيها النفوس، إلا وأنا أبدأ بنفسى، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً، استمتعتم بالأرفه الأبد طويلاً».

وبما يظهر الحرص على الحقيقة، والاتجاه إليها، ألا يسرف في مدح ولا ذم، ولا في وعد، ولا وعيد، فإن الإسراف مظنة الكذب، والاعتدال مظنة الصدق، ومن أطلق لسانه بالوعد أو الوعيد، تخلف عمله عن قوله، واستثقل العمل، حيث سهل عليه القول. وبما يظهر استقامة العمل الابتعاد عن هجر القول. وقد قال الماوردي في آداب المتكلم: «أن يتجافى هجر القول، ومستقيح الكلام، وليعدل إلى الكناية عما يستقيح صريحه، ويستهجن نصيحته، ليبليغ الغرض ولسانه نزهة وأدبه مصون. وإن نزهة اللسان تنل في عرف الجماهير علي نزهة القلب، واستقامة العمل. لذلك يجب على الخطيب ألا يكون فاحشاً في تعبيره، ولا متجهاً إلى الألفاظ المألجة في خطبه لأنه إن فعل ذلك، دل به على عدم استقامة عمله، وذلك يمنع صدق لهجته، وتصديقه في خطبته.

ومن أمثل الخطب الواضع فيها صدق اللهجة خطبة عمر بن عبد العزيز التي قال فيها: أيها الناس الحقوا ببلادكم، فإنى أنساكم عندى وأذكركم ببلادكم، ألا إني استعملت عليكم

رجالاً، لا أقول هم خياركم، ألا فمن ظلمه إمامه مظلماً، فلا إذن له على^(١). ومن لا يظلمه فلا أريته. ألا وإنني منعت نفسي وأهل بيتي هذا المال، فإن ضمنت به عتكم إلى إذن لغنين. والله لو لا أن أنحل سقاً، أو أسير بحق، ما أحبيت أن أعيش فواقاً^(٢).

٣- التودد من السامعين:

ويكون بالتواضع لهم، وأن يكون ممن بالفسون، ويؤلفون؛ فلا يكون جافياً خشياً قاسياً، وأن يمدح الجماعة التي يخاطبها، يذكرها بأحسن صفاتها. وقد قال ابن سينا: من رحم كان أدنى إلى القصد، ومن أحب كان أخلاقاً بأن يميل إلى معاونة المحبوب، ومن مدح أو أعجب بنفسه، كان ميله إلى مادحة الذي أعجبه بنفسه وتصديقه إياه أكثر، ومن أغضب على إنسان كان أخرى أن يكذبه، ومن تمكنت منه القسوة كان أجدر ألا يدعن للرحمة.

ويجب على الخطيب في تودده للجمهير أن يبين لهم أنه يسعى لمصلحتهم وأنه يؤثرهم على نفسه، وأن يظهر أنه لا غرض له شخصي، فإن الغرض إذا ظهر من الخطيب، جعل الرؤية تتطرق إلى قوله.

ومن الخطب التي اجتهد الخطيب فيها في التودد، ونفى الغرض الشخصي عن نفسه، خطبة يزيد بن الوليد بن عبد الملك التي قال فيها: أيها الناس والله ما خرجت أشراً ولا بطراً، ولا حرصاً على الدنيا، ولا رغبة في الملك، وما بي إطرأ نفسي وإني لظلم لها، ولقد عسرت إن لم يرحمني ربي، ولكني خرجت غضباً لله ودينه، وداعياً إلى الله وسنة نبيه، لما هدمت معالم الهدى، وأطفئ نور التقوى، وظهر الجبار العنيد المستحل لكل حرمة، والراكب لكل بدعة، مع أنه والله ما كان يؤمن بيوم الحساب، ولا يصدق بالشواب والعقاب، وإنه لابن عمي في النسب، وكفني في الحساب، فلما رأيت ذلك استخفرت الله في أمره وسألته ألا يكلني إلى من لا يدينني، فإني أرى ذلك من أجهل الناس ولا يدينني، حتى أراح الله منه العباد، ويظهر منه حول الله وقوته، لا بحولي وقوتي.

(١) معنى: الجملة والتي تليها أن من ظلم يدخل عليه من غير إذن. ومن لم يظلم لا يصح أن يراه لأنه لا يقدر إلا للمظلوم.

(٢) المقول هنا الزمن بين فتحة اليد وقبضتها، والمراد ما أحبت أن أعيش زمناً يسيراً قدر فراق.

آداب الخطيب مع السامعين:

صناعة الخطيب من شأنها الاتصال بنفوس من يخاطبهم، والتقرب من قلوبهم، والشاس مختلفون، مشارب وعادات، وأخلاقاً وساء ومهنة ومرتبة، ولكل طائفة من الناس أحوال، تقتضى نوعاً من الخطاب، لا تقتضيه أحوال الجماعة الأخرى، وعلى الخطيب أن يلبس لكل حال لبوسها، ويعالج كل طائفة بأنجع دواء لها، ليستقيم له الطريق، ويصل إلى غرضه، فالشباب يثير حماسهم ويوقظ قلوبهم، ويدفع إلى إقناعهم كلام لا يثير عاطفة الشيوخ، لأن المناسب لهؤلاء نوع غيره، فعلى الخطيب أن يقصد إلى النوع الذى يوافق جماعته شيوخاً، أو شباباً.

والأغنياء يرضى كبرياءهم نوع من الكلام، لا يقتضيه مقام الخطبة لمن ليسوا كذلك، والعلماء يجتلبهم الشاء الحسن، وطيب الأحذية، والتوقير والتمظيم، وأن يكون الكلام الذى يلقى عليهم أقرب إلى العمق والدقة ليسرعى انتباههم، فعلى الخطيب أن يعرف ذلك، ليصل إلى موضع التأثير فى قلوبهم. والشخص الشديد القدين يرضيه السمى والوقار من الخطيب، فعلى هذا ألا يظهر بين يديه إلا وقوراً ظاهر التمسك بالدين ووجهه، لكن ينال فقليه، ويجذب نفسه. ومخاطبة الرؤساء تقتضى تجملاً بالحياء ووزانة وهدوءاً وابتعاداً عن مظاهر التملق المزورى، لكيلا يشغل، كما تقتضى ابتعاداً عن أى مظهر من مظاهر التعالى، وأخذاً بالتلطف وحسن المدخل، وألا يعترض صراحة بل تلميحاً إن كان ما يقتضى الاعتراض، كما لا يصح له أن يقر على قبس بل ينه فى رفق وفى نودة وحلى. وهكذا لكل جماعة نوع من الخطاب، وعلى الخطيب أن يهتج إليها من ناحيته، لتكون معه فيما يدهو إليه.

وقد قال الفارابى فى إحدى رسائله: إن أنفع الطرق التى يسلكها الخطيب تأمل أحوال الناس، وأعمالهم وتصرفاتهم، ما شهداء وما غاب عنها، ما سمعه، أو تنافى إليه منها، وأن يحسن بالنظر فيها، ويميز محاسنها ومساوئها، ويبين النافع والضار لهم منها، ثم ليجهده فى التمسك بمحاسنها وحض الناس على طلبها، ليتألفوا من منافعها.

ويقول أيضاً: إن الخطيب لا ينجو فى جميع مصروفاته من أن يلقى الجمهور مثلاً إلى أمر محمود، أو آخر مضموم، وله فى كل واحد من الأمرين فائقة، وموضع راحة للتصرف، وهو أن يحاول دفع السامعين إلى ذلك الأمر الحمود الذى يلقاه، إن وجد السبيل إلى الدفع إليه، وينبههم على فضيلته، ويوجب عليهم التمسك به، متى وجد فرصة لذلك. وإذا تلقاه الأمر

المعلوم، فلا يجهل في التحطيم منه، والتجنب عنه، وإن لم يجد إلى ذلك سبيلاً، فلينبههم على الاعتبار بمن نالهم مضار مثله. فقد ظهر أن للخطيب في جميع أحواله جلها ودقها، خيرها وشرها، موضع الرياضة لنفسه وإرشاد الجمهور. وإذا تيقن ذلك، فينبغي أن يقدم على مياسة الأحوال بقلب قوى، ونية صادقة، وصدر واسع، وثقة أن ما يأتيه من ذلك وإن قل، يجدى عليه نفعاً يجمل.

فعلى الخطيب أن يدرس الجماعة دراسة عميقة متغلغلة؛ وأن يعرف حالها معرفة الخبير الدقيق للنظر، وأن يكون كلامه على صورة ملائمة لأخلاقها، ومألوفها، وإن كان ما يدعو إليه يتناقى مع طبيعة الجماعة التي يخاطبها، اجتهد في التأليف بينهما؛ فإن سددت خطاه فيما أراد، فهو ممن أوتوا الحكمة وفصل الخطاب.

صفات الخطيب

وإذ قد بينا لك ما يجب أن يدرع به الخطيب عند ملاقاته الجماهير، وما يجب أن يلاقيهم به، وجب أن نذكر لك صفات الخطيب الكامل، أو القريب منه، التي رسمت في نفسه، حتى صارت ملكة فيه أو كالمملكة، والتي يجمعونها يمتاز الخطباء عن غيرهم من المتكلمين، والتي هي مناط القدرة على كل ما يوضع في عنق الخطيب من تكاليف البيان، وما هي ذه.

١- قوة الملاحظة:

لندرك أحوال السامعين عند إلقاء خطبته أهم مقبلون عليه؟ فيسترسل في قوله، ويستمر في نهجه، أم هم معرضون عنه؟ فينتجه إلى ناحية أخرى، يراها أقرب إلى قلوبهم، وأدنى إلى مواطن التأثير فيهم. فيجب أن تكون نظرات الخطيب إلى سامعيه نظرات فاحصة كاشفة؛ يقرأ من الوجوه خطرات القلوب، ومن اللمحات ما تكنه نفوسهم نحو قوله؛ لمجدد من نشاطهم، يلهب بفكرهم، ويتصل روحه بأرواحهم، ونفسه بنفوسهم.

٢- حضور البديهة:

لتسعفه بالعلاج المطلوب إن وجد من القوم إعراضاً، والدواء الشافي إن وجد منهم اعتراضاً، وقد يلتقي الخطيب خطبته فيعقب بعض السامعين معترضاً، أو طالباً الإجابة عن

مسألة، فإذا لم تقدم اليلهية الحاضرة كلاماً فيما يسد به الخلة، وينقع به الزلة، ضاعت الخطبة، وأقارها.

يروي أن عتبة بن أبي سفيان بعد أن ألقى خطبة بمكة، صاح به أعرابي، فقال: أيها الخليفة، فقال لا به، ولم تبعده، فقال: يا أخاه، فقال: سمعت، فقل. فقال، تالله إن تحسنوا وقد أسأنا خير من أن تسيئوا وقد أحسننا، فإن كان الإحسان لكم دوننا، فما أحقكم باستمئامه، وإن كان منا فمأ أولاكم بمكافأتنا. رجل من بني عامر بن صعصعة يلقاكم بالمصومة، ويمت إليكم بالخفولة، قد كثره العيال، ووطئه الزمان، وبه فقر، وفيه أجر، وعندك شكر. فقال عتبة: أسئغفر الله منكم، وأسئعنه عليكم، قد أمرنا لك بفنالك، فليت إسرأنا إليك يقوم بإبطائنا عنك.

فانظر إلى الجواب المسدد الذي هيأه اليلهية الحاضرة، ولولا المناصرة به لتعيب أثر الخطبة، ومهابة الخطيب.

٣- طلاقة اللسان:

اللسان أداة الخطيب الأولى، فلا بد أن تكون الأداة سليمة كاملة، ليتمكن له استعمالها على أكمل وجه وأتمه. وطلاقة اللسان، وشبه عنوان الفصاحة، وطريق البلاغة، وقد بالغ الناس في مكانتها حتى علها بعض المتسامحين ركن الخطابة الوحيد، وجعل غيرها بالهمل الثاني. ونحن وإن كنا لا نوافق صاحب هذا القول، نمد طلاقة اللسان من ألزم صفات الخطيب. وأشدنا أقرأ في انحصاره في مبادئ القول.

٤- رباطة الجأش:

يجب أن يقف الخطيب مطمئن النفس، غير مضطرب ولا وجل، وإلا لم يستطع ملاحظة السامعين، وأثر كلامه فيهم. وهم إن أحسوا بضعفه واضطرابه، صغر في نظرهم، وهان هو وكلامه في أعينهم، فلا يستطيع إثارة حماسهم، ويذهب كلامه هباءً منثوراً، والاضطراب يورث الحيرة والدهش (وقد جاء في كتاب الصنائع لأبي هلال العسكري: الحيرة والدهش يورثان الحيرة والبصر، وهما سبب الارتباك والاضطراب).

٥- القدرة على مراعاة مقتضى الحال:

مراعاة مقتضى الحال لب الخطابة، وروحها، فلكل مقام مقال، ولكل جماعة من الناس

لسان مخاطب به، فالجماعة الثائرة الهائجة تخاطب بعبارات هائلة، لتكون بردا وسلاما على القلوب. والجماعة الخنسة الفاترة، تخاطب بعبارات مثيرة للحمية، موقظة للهمم، حافزة للمزائم، والجماعة التي شطت وركبت رأسها، تخاطب بعبارات فيها قوة العزم ونور الحق، فيها إزعاجة للشر، ويقظة للنقد، واعتدامة الأيد القوي، وفيها روح الرحمة، وحسن الإيثار، ليجتمع الترهيب مع الترويب، ومع سيف النعمة، ريحان الرحمة، لذلك يجب أن يكون الخطيب قادرا على إدراك الجماعة وما تقتضيه، والإتيان بالأسلوب الذي يلائمه.

٢- هذه الصفات الخمس لا يعد الخطيب خطيباً إذا لم تكن فيه كاملة، أما الصفات الآتية فتفاوت فيها أقدار الخطباء بمقدار ما يتألون منها، وها هي ذه:

١- قوة العاطفة:

لا يؤثر إلا المشاعر، ولا يثير الحماسة في قلوب السامعين إلا من امتلأ حماسة فيما يدعو إليه، واعتقاداً بصدقه، لأن ما يخرج من القلب يدخل القلوب من غير استئذان، وكما أن الماء الذي علا سطحه، ينساب في المجرى المنخفض، كذلك ذو العاطفة العالية، والحماسة الشديدة، هو الذي ينحدر من فيه الشعور الفاظاً، والمواظف عبارات وأساليب، تلهب الحس وتوقظ النفس، وتثير الحمية، وتحفز الهمة، فلا بد أن تكون حماسة الخطيب أقوى من حماسة سامعيه، لينمض عليهم، ويروى غلتهم، وإلا أحسوا بفتور نفسه، فضاع أثر قوله.

٢- التفوذ وقوة الشخصية:

هي هبة من الله سبحانه وتعالى، يهبها بعض الناس، ترى كل من يلقاه يحس بقوة روحه، وعظم نفسه، تستمد كلماته من نفسه قوة، نظراته شعاع ينقل إلى القلوب، وصورته يهز النفس هزات روحية تجعلها تلقف عباراته، فتنبطح فيها مكبرة. وإذا وهب الله خطيباً تلك الروح، قاد الجماهير، وساقها بمصا موسى، فلا تفرده منه شاردة، ولا يتخلف عن قافلة الجماعة السائرة إلى الأمام بهديه متخلف، فهي كما ترى صفة للنوع الكامل من الخطباء، وقد أتى الله بعض خطباء العرب أنظراً من هذه القوة. كأكثم بن صيفي في الجاهلية، وأبي بكر، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، والحسن البصري في الإسلام، وناهيك بما كان عليه النبي ﷺ من قوة الروح، فذلك نور النبوة، وحجة القدسية، وقبس رباني.

٣- أن يكون ثقة:

إذا اشتهر الخطيب بسوء أو بنقيض ما يدعو إليه كان من حاله لسان يناقض مقاله،

فيضعف تأثيره، ولا يصل إلى قلوب الناس تفكيره، ويشك السامعون في قوله، ويرتابون في صدقه، ولا يذهب بروح الخطبة شيء أكثر من الارتباب في لجة الخطيب، والتشكك في طويته، فالريب محول يهزم أثر البيان هذما، ويتقضى ما يغزل الخطيب بقوة أنكاث، والخطيب الذي لم يمنح الثقة، عليه عملان مرتقاهما صعب: عليه أن يجتهد في جلب الثقة، ودون ذلك خرط القتاد، وعليه بعد ذلك أن يسوق كلامه في صورة محبة مثيرة، وذلك في قدرته إن تمكن من الأول.

د- التجمل في الشارة والملابس:

قال أستاذنا الشيخ محمد المهدي بلال الله تراه: هنا وإن لم يكن من الصفات التي تقوم عليها الخطابة أمر تجب العناية به، لأنه مطمح الأنظار، والنظر يفعل في القلب كما يفعل الكلام في السمع، فهو من هذه الناحية لا يتقص اعتباره عن اعتبار الصفات الأصالية، ألا ترى أن معارفة لما رأى النخار مرتدبا عباءة رثة أنكر مكانه وهيشه حتى اضطر النخار إلى أن يقول: إن العبادة لا تكلمك إنما يكلمك من فيها.

هـ- سعة الاطلاع:

قال أستاذنا المهدي رحمه الله: إن الخطابة ليس لها موضوع خاص تبحث عنه وهو معزول عن غيره، بل ترتبط بكل شيء من شئون الناس في دينهم ودنياهم. ومسالك القول فيها متشعبة، كتشعب مسالك الكتابة، فكما يكون الكاتب ملما بكل صنف من صنوف المعارف، كذلك يكون الخطيب.

والواقع أن الخطيب سواء أكان اجتماعيا، أم سياسيا، أم دينيا، أم فوريا، يجب أن يكون ملما بكل ما له صلة بالجماعة التي يخاطبها، ليعرف نواحي التأثير والمواضع التي يطرق حسها من ناحيتها، فالخطيب الديني يجب أن يكون ملما بالاجتماع والاقتصاد والسياسة والشرائع، ليستطيع أن يصل إلى قلوب السامعين، يربط مصالحهم الملبى في كل نواحيه بمصالح دينهم وقلوبهم.

والخطيب الاجتماعي يجب أن يكون ملما بدين الجماعة التي يخاطبها، لكيلا يصدر عنه ما ينافيه، فتفر منه القلوب، وهو يعمل على استئناسها.

وهكذا كل خطيب يجب أن يكون ملما بكل ماله صلة بالجماعات، وطرق التأثير فيها، والابتعاد عما ينفرها، لئلا يجعل قلوبها عنه متجافية.

العيوب البيانية

وإذا قد بينا صفات الخطيب، يجب أن نبين العيوب التي تحصل بالبيان، لكي يعتمد مرید الخطابة إلى معالجتها، إن كانت فيه، وكانت المعالجة في استطاعته.

وهذه العيوب ثلاثة أقسام:

القسم الأول: يتعلق ببيان المراد، والوصول إلى الغرض، وهو ما كان منشؤه عدم السير على قوانين الخطابة، وعدم ملاحظة فن الإلقاء، كعدم مراعاة مقتضى الحال، أو عدم انتظام الإشارات، أو التقص في إثارة حماسة السامعين، وكون الصوت عند الإلقاء جاء مطرداً على وثيرة واحدة، من غير أن يكون مصوراً للمعاني تمام التصوير، وكالسرعة الزائدة، وهذه كلها يكفى في الابتعاد عنها المعرفة الشامة بأصول هذا العلم، وحمل النفس على الأخذ بها، والاسترشاد بهديها، والمران والممارسة.

القسم الثاني: عيوب النطق: وهي كثيرة. وأكثرها شيوعاً: اللثغة، والتمتمة، والغفأة، واللفف، والحبسة.

ولنتكلم على كل منها، ثم نذكر بعض الطرق لمعالجتها، إن كان ذلك في الإمكان.

أما اللثغة فهي تعلم النطق بحرف، والتعلق بحرف آخر قبله. وقد بين الجاحظ الحروف التي دخلها اللثغة فضل بيان. وهذا ما كتبه بتصريف واختصار قليلين:

الحروف التي تدخلها اللثغة أربعة أحرف: القاف، والسين، واللام، والراء. فأما التي على السين المعجمة فذلك شيء لا يصوره الخط، لأنه ليس من الحروف المعروفة، وإنما هو مخرج من الخارج، والخارج لا يخصى، ولا يوقف عليها... واللثغة التي تعرض للسين تكون ثاء، كما يقولون بثرة، إذا أرادوا بسرة. ويأثم الله، إذا أرادوا باسم الله. وأما اللثغة التي تعرض للقاف فإن صاحبها يجعل القاف طاء: فإذا أراد أن يقول: قلت. قال: طلت. وإذا أراد أن يقول: قال لي. قل: طال لي.

وأما اللثغة التي تقع في اللام فإن من أهلها من يجعل اللام ياء فيقول بدل قوله: اعتقلت: اعتييت، وبدل جمل جمى.

وأما اللشغة التي تقع في الراء، فإن صدحها يضعف على عند لشغة اللام، لأن الذي يعرض لها أربعة أحرف؛ فمنهم من إذا أراد أن يقول: عمرو، قال عمى، فيجمل الراء ياء، ومنهم من إذا أراد أن يقول: عمرو قال: صمخ، فيقلب الراء غينا، ومنهم من إذا أراد أن يقول: عمرو قال: عمد فيجمل الراء ذالا، وإذا أُنشد قول الشاعر:

وامتددت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستيد

قال: وامتددت مدة واحدة إنما العاجز من لا يستيد

ومنهم من يجعل الراء ظاء

وأما اللشغة التي كانت تعرض لواصل بن عطاء، وسليمان بن يزيد العدوي الشاعر في الراء، فليس إلى تصويرها سبيل. هذا ما يقال في اللشغة بالإجمال.

وأما التتممة فهي التمتع في التاء، ويقال لمن كانت فيه هذه الحال تمام.

والفأفأة هي التمتع في الفاء، ويسمى من كان فيه هذا العيب فأفأ قال الشاعر:

لست بفأفأ ولا تمام ولا كثير الهجر في المنام

وأما اللفف فقد قال فيه أبو حبيدة إنه إدخال بعض الكلام في بعض، ومن كان كذلك سمى ألف.

وقد قال الشاعر:

كأن فيه لففا إذا نطق من طول تحيس وهم وأرق

وقد قال بعض الباحثين إن منشأ هذا العيب في بعض الأحوال أن الألفاظ بسبب سعة الخيلة تسبق القصد، فالتكلم يستعمل اللفظ ثم يتركه إلى سواء قبل أن يتم تكونه.

وأما الحبة فهي ثقل النطق على اللسان، من غير أن يتردد في حروف بعينها كالفأفأ، والتمام، وقد يكون السبب في ذلك علم وضوح ما يريد أن يقوله، أو الحياء والخجل.

هذه العيوب كلها قد تكون ناشئة بسبب عارض جسماني أصاب للجسم، كاللشغة التي تكون بسبب فقد بعض الأسنان، أو بعض حميات يكون لها أثر في أعصاب اللسان، وكثيرهاك شديد للأعصاب، كتلك الحال التي وصفها الشاعر في اللفف الذي منشؤه لهم والأرق

والتحجيس. وعلاجها في هذه الحال يكون أولاً بعلاج ذلك العارض والطب له بها عند الأطباء من دواء.

وإذا لم تكن هذه العيوب مما يتناوله علم الأطباء فبعضها يتعذر التخلص منه كالثلثة الفاحشة التي تكونت في الصغرة ونعنتها العادة، وصلبت بكبر السن، فإن المعالجة حينئذ تكون فوق الإمكان، وأعظم من مستطاع الإنسان، وإن كان في قدرة الخطيب القادر المالك لعنان القول سترها، كما فعل ديموستين في لثغته، فقد كان يسمي إلى سترها بوضع حصي في فمه عند الكلام؛ ليكون مخرج الراء على حقيقته، وكما فعل واصل بن عطاء، فقد حذف الراء من كلامه حذفاً تاماً، لما تعذر عليه الإقلاع عن لثغته.

وقد قال الجاحظ في شأنه: ولما علم واصل بن عطاء أنه لثغ فاحش اللثغ، وأن مخرج ذلك منه شنيع، وأنه إذ كان داعية مقالة، ورئيس نحلة، وأنه يريد الاحتجاج على أبواب النحل، وزعماء الملل، وأنه لا بد له من مقارعة الأبطال، ومن الخطب الطويل، وأن البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة، وإلى غريب ورياضة، وإلى تمام الآلة، وإحكام الصنعة، وإلى سهولة المخرج، وجهارة المنطق، وتكميل الحروف، وإقامة الوزن، وأن حاجة المنطق إلى الحلاوة والطلاوة كحاجته إلى الجلالة، والفخامة، وأن ذلك من أكبر ما تستمال به القلوب، وتشتى إليه الأعناق، وتزين به المعاني. وعلم واصل أنه ليس معه ما ينوب عن البيان التمام، واللسان المتمكن، والقوة المتصرفة، كنحو ما أعطى الله نبيه موسى من التوفيق والتسديد مع لباس التقوى، وطباع النبوة، رام أبو حليفة^(١) إسقاط الراء من كلامه، وإخراجها من حروف منطقته، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه، ويتاضله ويساجله، ويثأكي لستره والراحة من تهجته، حتى انتظم له ما حاول واتسق له ما أمل، ولولا استفاضة هذا الخبر، وظهور هذه الحال، حتى صار لغرابته مثلاً، ولغرابته معلماً، لما استجزنا الإقرار به، والتأكيد له، ولست أعني خطبه المخفوفة ورسائله المخلدة، لأن ذلك يحمل الصنعة، وإنما عنيت بحاجة المصنوم، ومناضلة الأكفاء، ومفاوضة الإخوان.

فالثلثة التي تكونت بمضى الزمن، ولم تعالج قبل استقرار العادات من المتنذر الإقلاع عنها إقلاها تاماً^(٢)، وإذا كان ذلك كذلك فليجتهد في سترها بالإقلاص من الألفاظ التي تظهر عيب لسانه.

(١) كنية واصل بن عطاء.

(٢) يقول الجاحظ في لثغة الراء التي تقلبها غينا: وأما التي على الغين فهي أسبرهن. ويقال إن صاحبها لم جهد نفسه جهده وأخط لسانه وتكلف مخرج الراء على حقها والإنصاح بها لم يكن يبدأ أن تجر به الطبيعة.

ولا تعطليه بما أخذ به وأصل نفسه، فإن ذلك قول طاقة إنسان غير ممتاز، ولكن لا نكلفه شططاً إذا طالبناه بأن يتجنبها في الخطب التي يكتبها قبل إلقيائها.

وإن اللغة العربية من أغزر اللغات ألفاظاً، وأكثرها مترادفاً، ويحيد أن ترى معنى ليس له عدد من الألفاظ يدل عليه دلالات خطابية.

هذا ويجب على المصائب بلغة قاحلة أن يجهد أيضاً في تخفيفها، فإن ذلك في قدرته، وإن كان عاجزاً عن معوها محوياً تماماً، والرياضة تسهل الصعب، وتجعل البعيد في قدرة المتناول.

أما ما عدا اللغز من العيوب السابقة، فلإرادة دخل عظيم في معالجته، وليس من شك في أن الرياضة البيانية، تفيد أكبر فائدة، وخصوصاً إذا لوحظ أن أكثر هذه العيوب، سببه السرعة في الكلام، وعدم التروي والتدقيق، والخلل في الصغر، والكبر قد زادهما رسوخاً وقوة، فعلى المتكلم الذي يروض نفسه أن يبعد الحياء في المقامات البيانية، فإن فيها عجزاً وضعفاً لا يليقان، ولا يستحسنان، وأن يأخذ نفسه بالتأني، والتوقف، والتثبت عند القول، وأن يقصده إلى كل كلمة قصداً خاصاً، كأنها المراد من بيانه، والغاية المقصودة من كلامه، وإذا اعتراه عيب، سكنت حتى تعود لإرادته مسيطرة سيطرة تامة، ثم ينطق بالكلمة ثانية. وإذا أخذ نفسه بتلك المزاولة حيناً بعد حين، وكرر تلك الممارسة وقتاً بعد آخر، ورواته طبيعته، وأعاته الفطرة القويمة، انتصر على هذه العيوب.

فالتأني في النطق يفيد في هذه العيوب عموماً، واللفظ خصوصاً، فإن المتكلم إذا أخذ نفسه به، وحملها عليه، كان النصر من نصيبه حتماً.

يحكى أن مطرباً كان به لقف أخذ نفسه بمعالجته بالتأني والتروية، حتى صار لا يظهر في تغريده، ولكن إذا تحدث أو تكلم ظهر واضحا، لأنه إذا تحدث لم يحكم لإرادته، لعدم الحاجة إلى ذلك، فتساب نفسه ويظهر عيبه، وإذا غنى حكمت لإرادته فأخفى عيبه، واستمرت الحال كذلك، حتى كان الإحفاء عاداته في غناء دون حديثه، فالرياضة هي العماد في ذروة هذه العيوب، والإرادة هي السلاح الوحيد الذي يقسم به حرباً عواناً عليها، فتجتها الفوز حتماً، ما لم يقل ذلك السلاح، أو يلقى في غمده.

القسم الثالث - العيوب الصوتية

كأن تكون ونات الصوت مزعجة أو لا تكون من الذوة بحيث تشرعى الانتباه، أو يكون بالخطيب ضيق تنفس، بحيث لا يستطيع أن يقول كلاماً مفيداً، من غير أن يقطع النفس بيانه،

ويفسد عليه استرساله . وهذه العيوب بعضها يعالج بالمران ، وبعضها يستعان عليه بالطب مع المران .

وقد كان قداماء اليونان يعنون عناية خاصة بتربية الصوت ويجعلونها فناً قائماً بذاته ، له أسلذة قد خصصوا لتراسته ، يربون الشبيبة على السيطرة على أصواتهم ، والغلب عليها ليجعلوا رنائها ملائمة للمقامات البياتية المختلفة ، وليجعلوا من المران دواءً للعيوب الصوتية . وأدل شيء على أن المران له الأثر الواضح في معالجة تلك العيوب حال ديموستين ، فقد كان ضعيف الصوت ، فلما أراد أن يكون خطيباً راض نفسه ، فأخذ يقوى رثبه وصوته بالصياح ، وهو يصعد الجبال الوعرة أو على ساحل البحر محاولاً أن يكون صوته أعلى من صخب الأمواج ، وقد كان له ما أراد بتلك المحاولات .

رستكلم على الصوت كلاماً أوسع من هذا عند الكلام على الإلقاء .

إثارة الأهواء والصيول

مقدمة في الإقناع الخطابي

مرمى الإقناع الخطابي ليس هو الإلزام والإفحام فقط، بل مرموه حمل الخطاطب على الإذهان والتسليم وإثارة عاطفته، وجعله يتعصب للفكرة التي يدعو إليها الخطيب، ويتقدم لفدائها بالنفس والنفيس عند الاقتضاء، ولا يكون ذلك بالدلائل المنطقية، تساق جافة، ولا بالبراهين العقلية تقدم عارية، بل بذلك، وبإثارة العاطفة، ومخاطبة الوجدان. وإن الخطيب قد يستغنى عن الدلائل العقلية، ولا يمكنه في أية حال الاستغناء عن المشيرات العاطفية، بل إن أكثر ما يعتمد عليه الخطيب في حمل السامعين على المراد منهم مخاطبة وجدانهم، والتأثير في عواطفهم.

جاء في كتاب الآراء والمعتقدات، مع قلة املاحنا على متن المنطق العاطفي، فإن الاستقرار يدلنا على بضع قواعد يستعملها أعظم الخطباء في أغلب الأوقات، إذ أنهم يدل أن يقضوا لوقائهم في تنظيم الأدلة، وتنسيق البراهين التي إن أقمت لا تؤثر في السامعين، يحركون بالتدريج ساكن هؤلاء السامعين بضروب المؤثرات التي يتفنون في توجيهها لعلمهم أن ما يوجد أحد المحرضات من تأثير لا يلبث أن يهن، وينفد. وهم باستدراج لئى، وكلمات ساحرة وصوت عذب يكونون جوا عاطفيا ملائما لقبول استباحتهم. وترى من هذا أن الخطيب الذى يخاطب للجماهير لا يصول في خطبه على المنطق بمقدار ما يمول على خلق جو عاطفي مهيا لقبول ما يقدم له من آراء.

٢- وإن أكثر علماء الاجتماع يذهبون إلى أن للجماعة تقبل الدلائل العاطفية الوجدانية، ولا تملها، ولا تقبل البراهين العقلية بل تسأها، إذ أن الذى يظل للجماعة المتحدة المشاعر والأهواء هو العاطفة، لا العقل، ولو كان أحادها من ذوى الفكر الصائب، والعقل الناضج، فإن هؤلاء إذا انضموا تحت لواء الجماعة، غلب عليهم روحها العام، وسرت إليهم عاطفتها، واستولت عليهم مشاعرهما. ولقد قال بعض الباحثين فى أحوال الجماعات إن الخطيب إذا خاطب العاطفة أوحى ثمانين فى المائة من السامعين، وأثار اهتمامهم.

وقال جوستاف لوبون فى كتابه روح الاجتماع: إن البراهين والأدلة لا تأخذ من نفوس الجماعات، ولهذا كان الخطباء الذين يعرفون كيف تتأثر إنما يخاطبون مشاعرهم، دون العقل،

لأنه لا سلطان لقواعد المنطق عليها، فلاجل إقناع الجماعة، ينبغي الوقوف أولاً على المشاعر القائمة بها، والتظاهر بموافقتها فيها، ثم يحاول الخطيب تعديلها بموازانات صغيرة عادية، تشخص أمامها صوراً مؤثرة. وينبغي أن يكون قادراً على الرجوع القهقري، متى وجد مقتضى، وأن يتفكر في كل لحظة أثر كلامه في نفوس السامعين حتى يغير منه كلما مست الحاجة، وهذه الضرورة التي تلجئ الخطيب إلى سرعة تغيير الكلام بحسب الأثر الحاصل في نفس السامع هي التي تدلنا على ضعف الخطابة بالكلام المحض من قبل، لأن الخطيب يتبع هذه الحالة سلسلة أفكاره لأحرمة فكر سامعيه، فلا يكون لكلامه أقل تأثير فيهم. أما المناطق فلا أنهم تعودوا الاقتناع بالأدلة المسلسلة الدامغة، لا يمكنهم الخروج عن عاداتهم هذه إذا خاطبوا الجماعات، لذلك يدهشهم على الدوام عدم تأثير استدلالهم.

من هذا السياق تعرف مقدار العاطفة في التأثير الخطابي، وأنها قطب الرحى في الإقناع الذي يصبو إليه الخطيب، ويجعله هدفه الذي يصبو إليه سهامه.

وإذا كان ذلك كان من الواجب أن يجعل الخطيب الركن الركين في خطبته العمل على إثارة الأهواء والميول، وكان من اللازم علينا ونحن نبحث في أصول الخطابة أن نقدم لمريدها طرائق للوصول إلى عاطفة الجماهير، ومخاطباتها، وتهيتها لما يريد من غرض، وما نحن أولاء آخذون في بيان ما يتيسر الأخذ به منها.

قواعد عامة لإثارة الأهواء والميول

إن طرق الاتصال بقلوب الجمهور من السامعين كثيرة متشعبة، وكثير من الخطباء يسلكها بذكاة نفسه، وقوة قريحته وحسن استعداداته وصدق إحساسه وقوة فراسته، فلا يحتاج إلى تبين مسين، ولا تكبير مذكر، ولكن ذكرها بفهم الشاذي، وبير السبل أمام الاستعداد القوي، ويجعله على بينة من أمره.

وهذه الطرق مع تشعبها، ترجع إلى أمور أعظمها أثراً، وأوضحها مظهراً:

١- الاعتقاد بصحة ما يدعو إليه:

يجب أن يكون الخطيب شديد الثقة بقوله، فلا يكون مضطرباً خائر النفس خبير قوى الإيمان ولا سرى ذلك الضعف إلى سامعيه، فإنه لا يؤثر إلا المتأثر، وما كان من القلب يعبل إلى القلوب.

تكلم رجل عند الحسن البصري بمواعظ جمعة، وممان لدعو إلى الرقة، فلم ير الحسن قد رق، فمقال الحسن: إما أن يكون هنا شر، أو بلك. يشير إلى أن النفس الملعنة الوائقة بما تقول الملعنة له، لا بد أن يصل كلامها إلى شغاف القلوب، ما لم يكن المخاطب في قلبه شر يستمع من السماع، وإجابة داعي الحق، والاعلمتان إلى قول القائل.

ويقول بعض علماء الاجتماع إن إيمان الخطيب كحبال الجاذبية التي تجذب إليه الجمهور، وتوثق عرا التأثير بينهما، فأى شك أو ضعف في إيمانه يقطع تلك الحبال، فينفذ الجمهور من حوله. وقد قال العلامة جوستاف لوبون في كتابه روح الاجتماع في وصف قائد الجماعة وخطيبها: إنه يكون مسحوراً بالفكرة التي صار يدعو إليها، حتى استولت على نفسه استيلاء لا يرى معه إلا ما كان منها، وأن كل ما خالفها وهم باطل، كما جرى للزعيم «روسبير» أسكرته أفكار روسو، فقام يدعو إليها، وقال بعد بيان أن ضعاف الإيمان تأثيرهم سريع الزوال، أما أصحاب المعتقدات الصحيحة الذين تمكنوا من نفوس الجماعات، وحركوها، مثل (بطرس الراسب)، و(لوثر)، و(سافونا رولا)، ورجال الثورة الفرنسية، وغيرهم، فإنهم لم يتمكنوا من خلب العقول، واجتذاب الأرواح، إلا بعد أن سكروا بخمر الملعب الذي اعتقدوه، وبذلك توصلوا إلى توليد تلك القوة الهائلة في النفوس، وهي التصديق الذي يجعل المرء عبداً لخياله. فترى من هذا كيف كانت قوة اعتقاد الخطيب من أسباب إثارة عواطف السامعين لقوله.

وفي الحق أن قوة الاعتقاد تكسب الكلام حرارة، والصور رنات مؤثرة، والألفاظ قوة، والممانى روحاً، وتجعل من الملامح والنظرات نوراً يشع شعاعاً، يصور ما في القلب من إيمان قوي، وإخلاص عظيم، وكل هذا يخلق جوّاً عاطفياً حول الخطيب، يجعل كلامه متصلاً بالوجدان.

٢- المشاركة الوجدانية:

قال مكدرجل في بيانها: إنها الحالة الانفعالية أو الوجدانية التي تكون عند الإنسان إذا وجد إنساناً آخر متأثراً، فتجعله يشعر بنفس شعوره، كما لو انتقل هذا الشعور بطريق العدوى^(١). فيجب أن يحس الخطيب بإحساس الجماعة، ويشعر بشعورها، يغضب لما يغضبها، ويفرح لما يفرحها، ويحزن لما يحزنها، ويسر لما يسرها، آلامها آلامه، ومصائبها مصائبه، ليكون

(١) من كتاب في علم النفس للأستاذة حامد عبد القادر، ومحمد عطية الأبراشي، ومحمد مظهر سعيد.

الاتصال الروحي أداة تأثير فيها، ويستخدمه في استفزاز مشاعرها أو تهلكة فائزتها، وليحلى عليها ما يريد من آراء، إذ أن ذلك الإحساس المشترك بينهما يجعله قادراً على إثارة ميولها، وإصابة أهولها^(١) ودفعها لما يرمى. وإذا رأى الجماعة متحمسة لأمر يراه باطلاً، لا ينجوها بالمخالفة، ولا يصنمها بالمعارضة، لأن ذلك يبعد عواطفها عن عواطفه، وميولها عن ميوله، بل يسايرها، حتى تلوح له الفرصة بويرى أنه قد استدرجهم إلى ما يبغي، فيهجم بفكرته، وذلك ليكون العجل بينه وبينها محدوداً، ولا تنقطع الأسباب، فيذهب التأثير.

ذكر الدكتور جوستاف لوبون حادثة رأها في أثناء الحرب السبعينية فقال: رأيت ذات يوم أناسا يسرقون أحد قواد الجيش العظام إلى سراى اللوفر، حيث مقر الحكومة، والناس أكثاس من حوله، يرمزون، ويتميزون غيظاً، وهم يتهمونه بأنه كان يأخذ رسم أحد المعاقلي، ليبيعه للبروسيين، فلما وصلوا به خرج أحد أعضاء الحكومة، وكان خطيباً ذائع الصيت، ليخطب في الناس، وهم يناخون: الموت، الموت عاجلاً. وكنت أنتظر منه أن يبرهن لهم على فساد التهمة، بقوله:

إن الفريق المتهم هو أحد المهنيحسن الذين أقاموا الحصون، وإن رسومها تباع في المدينة عند جميع باعة الكتب، غير أنني بهت، إذ سمعته على نقيض ما ظننت بقول، وهو يتقدم نحو الجمع، سيأخذ منه العجل أخلاً لأرحمة فيه، فارتكوا حكومة الدفاع عن الأمة، تتم التحقيق الذي بدأتموه، وسنزرجه في السجن حتى حين.

قال هذا، قرأيت الثورة قد مكنت، وتفرق الجمع، ولم يمض ربع ساعة حتى كان الفريق في حاره، ولو أنه خاطبهم بما جال بخاطرهم من الأدلة المنطقية التي اعتقدتها دامتة، لمزقوه لربا.

فانظر إلى الخطيب اللبق كيف أدرك أن مصادمة الجماعة قد تذهب بحياة قائد عظيم من قواد الدولة، فلم يفعل، وأظهر الموافقة، قسم له ما أراد.

وما يصح الاستشهاد به في هذا المقام، لأنه صورة واضحة لاستخدام المشاركة الوجدانية وسيلة لتفيت المراد تصوير شكسبير لجماعة من الرومانيين في موقفهم من مقتل يوليوس قيصر، فلننقل لك بعض ذلك الفصل^(٢)، وهو ما جاء على لسان ألتونييو في رثاء يوليوس قيصر مع

(١) لعل هذا هو السر في أن الذين يعيشون أروستقراطيين ليس منهم خطباء إلا نادراً.

(٢) من تصوير رواية يوليوس قيصر للأستاذ محمد حمدي، ذلك.

الثناء على بروتس قائله فقد قال: أيها الرومان، بنى وطني، أعبروني أسماحكم، فإني ما جئتكم للتمدح بقيصر ومناقبه، ولكن لأؤريه لحدته وأهيل عليه التراب، فقد جرينا على أن ما يعمل الإنسان من شر يخلفه، وما يعمل من خير يرمس معه، في غمار الرمم، ولفيف الرفات، وهذا شأن قيصر معنا اليوم، نتناسى مناقبه، ونعبد معايبه.

قال لكم بروتاس، وهو رجل الشرف الصميم: إن قيصر فيه طمع، فإذا كان كذلك، كان ذنبه يوجب الأسى والأسف، كما كان جزاؤه أدعى للحزن والشجن. إني ألقف بينكم الآن في جنازة قيصر بإذن من بروتاس، وهو رجل النبل والفضل، وإذن زملائي الآخرين، وكلهم مثله أجلاء فضلاء، ولكن قد كان لي في قيصر صديق حميم، وبر كريم، لم أعهد فيه للطمع الذي يرميه به بروتاس رجل الفضل والشرف.

فأناكم قيصر بالأسرى مكبلين، فملأت دياتهم المال، فهل كان في عمله هذا ما ينبي عن طمع.

كان قيصر يركي شغقة ورحمة كلما ذرفت الفقراء دموع الفاقة والإملاق، وعهدى يذى الطمع أخشن طبعاً، وأغلظ كبداً، ولكن بروتاس يقول إنه ذو طمع، وبروتاس، كما تعلمون رجل الفضل والشرف. ألم تروا أنني قد عرضت عليه التاج ثلاث مرات في لوهركال، فكان يرفضه في كل مرة، فهل كان هذا الطمع فيه؟ ومع ذلك فإن بروتاس يقول: إنه ذو طمع، وبروتاس رجل الفضل والشرف.

لا أريد أيها السادة أن أضحض دليل بروتاس، ولا أن أقارعه بالحجة بالحجة، وإنما أقول ما أعرفه من الحق المصراح. لقد كنتم كلكم تحبون قيصر حباً جماً، فهل كان ذلك من خير داع، وبلا مسوغ، إذن ما الذي يمنعكم الآن أن تقيموا عليه شعار الحداد. بالعدالة، لقد أويت إلى قلوب الوحوش الضارية، فغادرت الإنسان جبلاً عتيماً، فاقد الرشد والعصوب. عفواً، سادتي، إن قلبي مدرج مع قيصر في أكفانه، فأمهلونني حتى يرد إلى.

أحد السامعين: الظاهر أن في كلامه شيئاً من الحق.

آخر: إنك إذا نظرت في الأمر بلا تحيز، وجدت قيصر مظلوماً.

ثالث: أجل، ولكن لأخشى أن يعقبه شر خلف.

رابع: ألاحظكم هذه العبارة: إنه لم يأخذ التاج، فكفى بهذه دليلاً على أنه لم يكن

فيه طمع.

الأول : إذا ثبت كذبهم، فلا بد من الانتقام له.

الثاني : مسكين أنتوني، إن صنيعة تتقدان من البكاء.

الثالث : ليس في روما أنخلص من أنتوني.

الرابع : ها هو ذا قد عاد للكلام.

أنتوني: بالأمس كانت كلمة يفوه بها قبصر نعيم العالم وقعده، أما الآن فما هو ذا طريح الشرى، لا يأبه به أحقر حقير.

ثم يستمر في كلامه، ولا ينتهي من خطيبته إلا وقد شغفت الجماعة للانتقام من قتلة قبصر.

وترى من هذا كيف استطاع الخطيب بمشاركته للجماعة في وجدانها ظاهراً أن يصل إلى غرضه، ولذا نقول إن الخطيب ينفذ ليقود: ويطيع ليطاع، ويأخذ ليعطي، يساير لإرادة الجماعة، ليملي لإرادته عليها، وكل ذلك بالمشاركة الوجدانية، فليدعها الخطيب حتى رعايتها، وليعرف أن ذلك ليس معناه أن يكون سيئة لا رأى له، ولا فكر، بل معناه أن يجتهد في ألا يهاجمها فيما تألف دفعة واحدة، بل يسهد لما يرى، ويربط بين ما يدعو وإحساسها. وقد رأيت كيف استلج أنتونيو الجماعة، وأملى عليها لإرادته من طريق موافقتها في شعورها وهواها، وقد نقلها من التقيض إلى التقيض.

٢- النفوذ:

لنفوذ الخطيب الأثر الفعال في تحريك الميول، وإيقاظ المشاعر، فهو حامل عظيم من عوامل إثارة الأهواء، بل ربما كان أقربها غمما، وأدناها إلى الإجابة، وقد عرفت شيئا من ذلك في صفات الخطيب الكامل، والآن نوضح ما أجملنا هنالك فنقول:

إن النفوذ يجعل صاحبه متحكما في أهواء ومشاعر من يخاطبه. وقد قال فيه جوستاف لوبون: يمكن أن يقال: أن النفوذ سلطة، أو حمل أو فكرة يستولي بها على العقول، وتلك السلطة النفسية تعطل ملكة النقد، فتملأ النفس بهشة واحتراما، ويمكن تفسير الشعور الذي يحدث منه كما هو الشأن في كل شعور، إلا أنه لا بد أن يكون من جنس الاجتذاب الذي يحدث في نفس الشخص النائم نوما مضطربا.

والنفوذ نوعان: نفوذ شخصي طبيعي، ونفوذ كسبي، والأول يكون هبة يهبها الله لبعض الأشخاص، فيؤثرون بأنفسهم، من غير أي أمر خارجي يعرض لهم، ومن ذلك ما آتاه الله العظماء الممتازين، كعمر بن الخطاب، وأبي بكر الصديق، ونابليون، والنفوذ الكسبي ما جاء من سمعة حسنة، أو اشتهاً بئيل، أو شجاعة، أو منصب، أو لقب، أو نخل يوسام، أو ثروة في بعض الأحيان، ولا شك أن بعض هذه الأنواع في استطاعة مرشد الخطابة أن يكون من أهلها، وبعضها من الواجب عليه أن يكون متحلياً بها، فيجب أن يكون الخطيب من ذوي السمعة الحسنة ليس في ماضيه ما يشين.

ولقد كان ميراو الخطيب المشهور في الثورة الفرنسية مع ما أوتي من نفوذ شخصي، وشهرة بالبيان، يرى ماضيه السيئ في شبابه حجر عثرة يمنعه أن يصل إلى التمام في قيادة الجموع، ولذا كان يقول: ويل للماضي.

والنفوذ الشخصي الطبيعي أقوى عملاً، وأشد تأثيراً، فمن آتاه الله ذلك النفوذ، ملك من النفوس، والمشاعر والأهواء، ما يجعله يقول قبطاع من غير أي اعتراض، بل من خير تفكير فيه؛ بتأثير بقوله أشد الناس بغضاً له.

يحكى أن بعض أعداء نابليون ذهب للقاءه. فقال لصاحبه، وهو ذاهب إليه: ليها الصديق، إن لذلك الرجل الشيطان في نفسي تأثيراً لست أدركه، حتى إنك لتراني إذا اقتربت منه تأخذني الرعدة، كالطفل الصغير، ويحمل إلي أنه قادر على إدخالني في سم الخياط، وإحراقني بالنار. وجب على من لم يؤت ذلك النفوذ أن يسعى في كسب نفوذ، أيّا كان، من طريق شريف، فإن النفوذ له أثر في كل مقام، وقد وصف (ديكوب) وكان من الثواب الفرنسيين ومن علماء النفس، الخطيب النيابي المجهول الذي لا نفوذ له فقال: إذا استوى على منبر الخطابة، أخرج من محفظته أوراقاً، فنشرها أمامه على الترتيب، وشرح بخطب مطعنة، وهو يقتصر في نفسه بأنه سيثبت عقيدته، لتسكين روح سامعيه، لأنه وزن أدلته، وحررها وأعد شيئاً كثيراً من الإحصاءات والحجج، وأيقن أن الحق في جانبه، وأن معارضة لا يثبت أمام الحقيقة الناصبة التي يأتي بها. وهكذا يبدأ معتمداً على صواب رأيه، واصفاً إخوانه، لاعتقاده أنهم لا يطلبون إلا الحق.

وبينما هو يخطب إذ تأخذه الدهشة من اضطراب الحاضرين، ثم يتقزز بالضوضاء الناجمة، من ذلك الاضطراب، ويتساءل: لم لا يسود السكون؟ وما السبب في هذا الانصراف

العام؟ وما الذي يدور على ألسنة أولئك الذين يتحدثون فيما بينهم؟ وما السبب القوي الذي يجعل فاك على ترك مجلسه؟ يتساءل الخطيب هكذا، والحيرة تملو جبهته، فيفرك حاجبيه، ويمسك عن الكلام، ويشجعه الرئيس، فيعود بصوت مرتفع، فيزيد الأعضاء في عدم الإصغاء إليه، فيجهر، ويهتز، فتزداد العجلة حواله، ويعود لا يسمع نفسه، فيمسك عن الكلام مرة أخرى ثم يخشى أن يدعو سكوته إلى أصوات الأقفال، فيرجع إلى خطابته بما فيه من قوة، وهناك تملو العجلة، ويختلط الحابل بالنابل عما لا يقدر على وصفه الواصفون.

فانظر إلى الخطيب الذي لا نفوذ له، وليست له سمعة جاذبة للنفوس كيف يلقي الصعوبات وقد بذلها، وقد يردد دونها خامساء وهو حسير.

٤- اللذة والألم:

(أ) اللذات والآلام هي المسيرة للإنسان في هذه الحياة، فهو يعمل لإجابة لداعي اللذة، ويمتنع توقياً للآلام. وهما في الحقيقة الحصران المحركان للعالم الإنساني سلباً وإيجاباً، غير أن اللذات تختلف باختلاف الأشخاص، فإنسان لذته حسية عاجلة، وآخر لذته في المعنويات، أو في الحسيات الآجلة، فالفن، والعالم، والمخترع، والشاعر، والكاتب، كل الأفعال، أولئك مندفعون بقوة اللذات المعنوية التي يجنونها فيما يقومون به من عمل، وإن اللذة التي وجدها نيوتن عندما كشف الستار عن قانون الجاذبية لا تعدلها في نظره لذة، واللذة التي وجدها أينشتاين في كشف قانون النسبية، لا تعدلها أيضاً في نظره أية لذة حسية، ولذة الصوفي التي يجدها في لقاءه لي اللات العلية، هي كل الوجود في زعمه. وإن كثيراً من الناس يؤدون الفرائض، ويطيعون للديان رغبة في لوابه، واتقاء لعقابه، وقليل من المؤمنين من يطلع الله لأنه يجد لذة في العبادة، لا طمعا في جنة، ولا خوفاً من نار.

والخطيب اللبيب هو من يعرف هذه الحقيقة، فيخاطب الناس بما يثير لئلتهم، وما يرون في الآخذ به اتقاء لآلام متوقعة، فهو يلوح بالمنفعة التي يراها مطلباً لهم، ويبين لهم أن الآلام في نقوض ما يدعو إليه.

انظر إلى طارئة، بن زياد في خطبته المشهورة، فقد حرق السفن، لم حشهم على القتال مبينا لهم أن لا قوت لهم إلا ما أحتلوه من عنوهم بسيوفهم، وأنهم قد ساروا كالأنعام على مأدبة اللتام، وقد كان الإمام علي بن أبي طالب رضى الله عنه وهو الخطيب

للعظيم يقول: إن للقلوب شهوات، وإقبالاً وإدباراً، فأنوها من قبل شهواتها، وإقبالها، فإن القلب إذا أكره عمى.

ولقد عرف هذه الحقيقة أولئك الذين كانوا يحركون المسيحيين في الحروب الصليبية، فما كانوا يكشفون بإثارة الروح الدينية، بل كانوا يقولون في الأرض المقدسة: إنها نقيض لنا وعسلا.

(ب) إن الرغبة نتيجة اللذة؛ فالإنسان يهرب فيما يجد فيه اللذة، ويهرب ما يجد فيه الألم، ويظهر أن الرغبات الإنسانية هي المتحركة في الآراء والمعتقدات. ولقد قال الفيلسوف سبينوزا: نرى الأشياء مليحة برغبتنا لا بمصيرتنا، وإذا كان ذلك كذلك، فعلى الخطيب أن يتعرف رغبات الجماعة التي يخاطبها، ثم يعقد صلة بينها وبين ما يدعو إليه، ويبين أنهما من مشرب واحد، ومن طريق واحدة، وإن في دراسة رغباتها نعرفاً لذاتها وآلامها، فليترسها؛ ليعرف من أى جانب يطرق حسها، وليعرف لذاتها وآلامها؛ فيوصل إلى وجداتها. وإن رغبة الأمة أو الجماعة من الناس هي التي تشكل مظهرها العلني؛ فانقل العلياً للأمة عنوان الرغبات، ومن طريقها يستطيع الدارس لأمة معرفة رغباتها؛ فإذا رأيت أمة مثلها العليا في طلب استقلالها، والحفاظ على كيانها، فاعرف أن رغبتها في ذلك الاتجاه، وأن تلك الرغبة مظهر لآلام الاعتداء، ولذة الحياة الحرة المستقلة، وإذا رأيت أمة مثلها العليا في حب السلام والدفاع عن المظلوم، فاعلم أن رغبتها في تلك الناحية، وأن لفتها في نفع بني الإنسان، وآلامها في آلامهم.

ومن أجدود الخطب التي استعملت فيها آلام الأمة، ورغباتها، ومثلها العليا في إثارة ميولها إلى ما يهدد الخطيب، خطبة الرئيس ولسن رئيس الجمهورية الأمريكية في مجلس الشيوخ، يدعو إلى الموافقة على دخول أمريكا في الحرب العالمية، فقد جاء فيها، إن هذه الحرب هي ضد جميع الأمم، لقد أغرقت مراكب أمريكية، وأهدمت نفوس كثيرة من الأمريكيين، بطرق تأكدت لدينا فظاعتها؛ فكان لها وقع مخيف، ولكننا رأينا أن نفس تلك الطرق تستعمل لإغراق مراكب، ولبادة نفوس من أم شعوى كثيرة من المحايدين، والأصدقاء، بدون فرق، كأنما هذه الحرب قد شملت ضد جميع الناس على السواء، فما دام الأمر كذلك، وجب على كل أمة أن تقدر لنفسها حطة، تقابل بها ذلك العداء، ومخطتها التي يجب علينا أن نتحارها الآن ضرورة جناً، ولا تقبل التأخير.

وجاء فيها: إن واجبي الذي أنتمت له الآن السادة فهو واجب محزون، وصعب جداً. إن من المحتمل أن يكون أماننا عدة أشهر، لنقوم في أثنائها بتجارب صعبة، وتقديم ضحايا عظيمة، إنه لأمر شديد الخطورة، أن نقود شعبنا العظيم المسالم إلى حرب هي أفظع الحروب، وأشدّها هولاً. يقف فيها التمدين نفسه في كفة الميزان، غير أن الحق فوق السلم، والحق الذي ندافع عنه هو المحافظة على أقرب الأشياء إلى قلوبنا، المحافظة الديمقراطية، على الشعوب المهضومة الحقوق، ليتمكنوا من الاشتراك في حكم أنفسهم، هو المحافظة على حقوق وحرية الأمم الصغيرة، وهو المحافظة على توطيد أركان حق عام، أساسه اتحاد الأمم الحرة، الاتحاد يضمن الطمأنينة لجميع الأمم، ويجعل العالم كله حراً.

إننا أمام واجب كهذا لا نضن بحياتنا ومائتنا بل نقدم أنفسنا وما نملك، وسيرى العالم أنه قد جاء اليوم الذي سمحت فيه لأمريكا الفرصة، لكي تنفق قوتها، وتسفك دماء أبنائها، في سبيل المبادئ التي كانت سبب وجودها، والسلام الذي صانته طول حياتها.

انظر إلى الخطيب كيف أثار النقمة بذكر آلام الاعتداء على السفن الأمريكية، ثم كيف ذكر للجماعة برغبتها في السلام ونصرتة، وكيف نهىها إلى مثلها الأعلى، وهو توطيد أركان الحق العام، وجعل أساسه اتحاد الأمم الحرة اتحاداً يضمن الطمأنينة لجميع الأمم، ثم اتخذ من تلك القواعد دعائم لدعوته، وهو الدخول في تلك الحرب، ومعاونة من زعمهم مظلومين، معتدى عليهم.

والخطباء الذين يستخدمون آمال الأمة، وأمانيتها، في إثارة أهواء السامعين إلى رغبتهم وكثير ما هم، إنما يستخدمون اللذات، والرغبات، والمثل العليا؛ لأن أمل الأمة ليس شيئاً غير لذتها المرجوة، والمطلب الأسمى الذي يسمى الجميع إليه.

والقول الجملي: إن اللذات، والآلام، والرغبات، والآمال، والمثل العليا، أمور تنبع من معين واحد، وكلها يستطيع الخطيب استخدامه في إثارة أهواء الجماعة وتمييزها إليه.

٥- الغرائز:

إذا اجتمع عدد من الناس متحدة مشاعرهم، كانت لهم وحدة فكرية تجمعهم، وهي في كل واحد منهم بقدر مشترك، لا تفاوت بينهم فيها، وتلك الوحدة الجامعة التي لا يتفاضلون فيها مصدرها الغرائز، ولذا قال علماء الاجتماع: إن الزعيم الذي يملك قلوب

الكثرة في الأمة لا يخاطب الذكاء بل يخاطب الغرائز، لأنها الوحدة الجامعة، والفكر المشترك في الجميع، وقد عرف بعض علماء النفس الغريزة بأنها ميل فطري في النفس يدفع الإنسان لأن يسلك مسلكاً خاصاً، أو لتصدر عنه حركات مؤلفة، تؤدي إلى غاية معينة، وإن لم يشعر بها الإنسان نفسه، وهذه الحركات ليست نتيجة خبرة أو تعلم، ويتصل بها الفعل بنفسه، يكون واضحاً بارزاً في كثير من الأحيان.

فالغريزة سلوك فطري، يكون من غير خبرة سابقة، ويرمى إلى ما فيه مصلحة الشخص والجنس^(١).

والغرائز كثيرة، ولها أقسام عدة، وليس هذا المقام مقام تفصيلها وبيانها، فلذلك علم قائم بنفسه، هو علم النفس، وبهنا في هذا المقام أن نقول: إن منها غريزة الهرب، وغريزة المقاومة وحب الخصام. والأبوة والأمومة، والاستغالة، والاستطلاع، والسيطرة، وحب الظهور، والثناء، والاجتماع، والضحك، وغيرها.

ويمكن للخطيب أن يتخذ من بعض هذه الغرائز سلاحاً في ميدانه يشير به الأهواء والمواطف نحو قوله، فغريزة المقاومة^(٢) يستطيع أن يستعملها الخطيب لى استغراز الجماهير، إذ يحشهم على قتال أعدائهم، كما فعل الإمام علي رضي الله عنه، عندما دعا جيشه إلى قتال مخالفه، بعد أن قتلوا عاملاً على الأنبار، فقد خطب خطبة كلها إثارة لتلك الغريزة، وجاء في تلك الخطبة: هذا أخو غاسد قد بلغت خطبه الأنبار، وقتل حسان البكري، وأزال خيلكم عن مسالحها^(٣)، وقتل منكم رجالاً صالحين، وقد بلغت أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة، والأخيرة المعاهدة^(٤)، فبنزع حجلها^(٥).

(١) من كتاب أصول علم النفس للأستاذ أسير مرسى قنديل.

(٢) قال الأستاذ قنديل في كتابه أصول علم النفس في هذه الغريزة «هي التي تدفع الأفراد والقبائل إلى الكفاح والاستمالة في الحرب لأحق الأسباب وأنفعها، ولا تزال كذلك فعالة قوية فيهم، ظاهرة كل الظهور في الأطفال ولي الكبار أيضاً على الرغم من تغير أشكالها، ومظاهرها تحت تأثير الرغى الاجتماعى، والعقل المدبر والموازع للقانونى والخوف، ولكن أثرها مع ذلك لا يزال يبدو واضحاً في الجماعات أكثر منه في الأفراد. فقد يشير حقيقة الأمة وغضبها سبب ماء فتدفع جميعاً عارية غسل الدم بالدم، ففي أحيان هذه الغريزة للراصة في النفوس نشأت الجماعات المحضرة اليوم.

(٣) المسالح جمع مسلحة بالفتح. وهي الفرص حيث يتوقع مجرى العدا.

(٤) المعاهدة المحبة.

(٥) الحجل بكسر الحاء وسكون الجيم المخلخل.

وقلبها،^(١) ورعائها^(٢)، ثم انصرفوا واقرين^(٣)، مائال رجلا منهم كلم،^(٤) ولا أريق لهم دم، فلو أن رجلا مسلماً مات من بعد هذا أسفا ما كان به ملوماً، بل كان عندي جديراً.

فوا عجباً من جد هؤلاء في باطلهم، وفشلهم عن حقكم، فغيبوا لكم حين صرتم ضحايا^(٥) يرعى بغار عليكم، ولا تغيرون، وتغزون، ولا تغزون، ويعصى الله وترضون.

فاتظر إلى الإمام على كرم الله وجهه كيف أثار غريزة الغضب والمقاومة فيهم، بذكر إباحة الحمى، وانتهاك الحرمات، وقتل النساء والذرية، وبيان أنه لا يرضى بهذه الحال إلا من يرضى بالانزول الهون. وكل هذه إثارة لتلك الغريزة على أبلغ وجه يستطيعه بليغ.

وقد يربط المتكلم فكرته بهذه الغريزة إذا كانت متغلغلة بقوة في نفس الجماعة التي يخاطبها كما قال النبي ﷺ في الحث على الصبر والتؤدة، والحلم، «ليس الشديد بالصرعة»^(٦) إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب، وكقول أبي بكر رضي الله عنه في رجوعه من إحدى الغزوات: رجعت من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر. يريد رضي الله عنه جهاد النفس بمنعها من السوء، فكان هذا وذاك ربطاً لتلك المعاني النفسية العالية السامية بغريزة المقاومة، تلك الغريزة المتغلغلة في النفس العربية والتي لا تعدل بها شيئاً سواها. وبذلك الربط تستفيد تلك المعاني قوة وجلاء.

وغريزة حب الشاء يستطيع الخطيب أن يستعملها في إثارة الأهواء لما يدعو إليه بأن يبين أن الشرف والمجد والسلطان فيه كما فعل المنصور له سعد «ياشاه» زغلول في حفل الطلبة لتحيته سنة ١٩٢١ إذ جاء في خطبته فيهم:

أتوجه والخشوع بملأ جوارحي إلى تلك الأرواح الطاهرة، أرواح أولئك الأبطال الذين نادوا بالحق، والحق منكر، ففاضت أرواحهم وأكسبتهم ترحمة ذلك النداء، فاضت، وقد شرفونا بإقدامهم، وألزموا الكل باحترام مصر واسمها، وبيضوا وجوهنا، والآن فليناموا هادئين؛ فقد أنبلج فجر الاستقلال مضمخاً بدمائهم، وخلفوا من بعدهم من يستحق ذلك النداء، يرضى الله

(١) القلب يضم للقاف السوار.

(٢) الرعابت جمع رعة يفتح الراء وهي القوط.

(٣) واقرين أى تلتصق.

(٤) الكلم للمرج.

(٥) الغرض ما يتسبب فيرمى بالسهم ونحوها.

(٦) الصرعة القوى الذي يصرع غيره.

برحمته أجدانهم، وأسكنهم جنات العلاء، وأرضى عن أعمالنا وأرواحهم، وأراحهم بتحقيق آمالنا. لله در الشيبة ما فعلت؛ فإنها قد فتحت ما ضمت صبورها من كتوز الفتوة، وملأت قلب البلاد عزة وحماسة، وملأت رءوسها حكمة، وملأت حركاتها نظاماً، تلك الشيبة التي هي عماد الحركة الحاضرة؛ ومبعث أنوارها الساطعة، أشكرها شكراً جزيلاً، وأرفح جفاً؛ لأن المستقبل سيكون بيدها، وهي يد ماهرة.

فانظر إلى ذلك الخطيب القادر كيف جاد بعقود الشاء للشيبة التي يخاطبها، وأشار إلى أن المستقبل سيكون لها، وكل ذلك إغراء أى إغراء لهم بأن يستمروا على نهج الاستقلال الذي يدعو إليه.

وهكذا يستطيع الخطيب القارئ للنفوس المسيطر على البيان سيطرة فامة أن يتخذ من الفرائز التي تناسب موضوعه طريقاً لإثارة أهواء السامعين لما يدعو إليه، وجذبهم لفكرته، وضرب الشارد لجماعته.

٦- يواعث الانتباه:

كل الأمور التي تبعث الانتباه القسرى، وتجلب السامعين إلى الخطيب، والإنصات للكلام، وتوجههم إلى فكرته، من شأنها أن تبعث ميولهم إليه، وتلفتهم عما سواه، وهذه أمور كثيرة منها.

(أ) الجدة، والغرابة، والتغيير:

لكي يثير نشاطهم فإن الجدة تكسب الفكرة طلاوة، وتعطيها رونقاً ونعجة، والتغيير يدفع عن النفس السأم، ويجعل نشاطها دائماً مستمراً، والكلام يكتسب تلك الجدة بالإكثار من ضرب الأمثال الغريبة الشائقة التي تثير خيالهم، والتشبيهات البدعة التي توظف أفعالهم، ومن الخطيب التي تشتمل على ذلك خطبة بسمارك في جعل السيادة الدستورية لبروسيا، إذ جاء فيها:

أيها السادة إذا لم ترضوا الروح البروسية في هذا الدستور؛ فإني أعتقد أنه سيبقى حياً على ورق، وإذا أنتم حاولتم أن تسوموا البروسيين الإذعان لهذا الدستور؛ فإنكم ستجدون منهم ما وجد الأقدمون من جواد الإسكندر بوكيفالوس الذي كان يحمل مولاً، ويسير به جريماً متهجماً، بينما هو يقذف الفارس الذي يطاول إلى امتطاء صهوة؛ ويلقي على الرغام، يتمرغ بنعته، وفروء، وسائر حليه وملابسه. ولكن بعزني الآن اعتقادي الراسخ بأن الوقت لن يطول

حتى تنظر الأحزاب المختلفة إلى هذا الدستور، كما نظر الطبيب في أسطورة لافونتين إلى جثة المريض الذي كانا يعودانه إذ يقول أحدهما: لقد مات، ولقد تنبأت بذلك منذ رأته.

ويقول الآخر: لو أنه استمع إلى نصيحتي، مامات.

ومن الجدة أن ينوع الخطيب أسلوبه: فأحيانا يأتي بكلامه في صورة استفهام، وأخرى في صورة تقرير، والثالثة في صورة طلب، وهكذا، وأن يغير في الصوت، فلا يصح الاستمرار طويلا على نبرة واحدة، إذ الصوت النمطي المطرد، يزيل الانتباه، فيجب التغيير في الصوت، ليكون فيه تنشيط، وإثارة للاهتمام، وإيقاظ للغافلين. وفي كل ذلك إثارة للميول والأهواء.

(ب) التكرار والتوكيد:

إن للتكرار والتوكيد أثرا كبيرا في إثارة الأهواء والميول، وإذا استعملهما الخطيب بمهارة ودقة جذب السامعين إلى رأيه، وأدخلهم إلى ناحيته.

جاء في كتاب الآراء والمعتقدات لجوستاف لوبون: إن التوكيد والتكرار عاملان قويان في تكرير الآراء وانتشارها، وإيهما تستند التربية في كثير من المسائل، وبهما يستعين رجال السياسة والزعماء كل يوم في خطبهم، ولا يحتاج التوكيد إلى دليل عقلي يدعمه، وإنما يقتضى أن يكون وجيزا حماسيا، ذا وقع في النفس.

وقال في كتاب روح الاجتماع: للتكرار تأثير كبير في عقول المستعربين، وتأثير أكبر في عقول الجماعات، من باب أولى؛ والسبب في ذلك كون المكرر، ينطبع في تخاليف الملكات اللاشعورية التي تختصر فيها أسباب أفعال الإنسان، فإذا انقضى شطر من الزمن، نسي الواحد منا التكرار، وانتهى بتصديق المكرر، وهذا هو السر في تأثير الإعلانات العجيبة، يقرأ الواحد مائة مرة أن أحسن الحلول من صنع فلان، فيخيل إليه من التكرار أنه سنع ذلك من مصادر شتى، وينتهي باعتقاد صحة الخبر.

وإذا كان التكرار منبها للمشاعر صارفها إلى الخطيب، فيجب أن يتجه إليه، ما لم يجد أن المقام يحتاج إلى الإيجاز فيعمد إلى التوكيد.

فالتكرار أولى في مقام الإقناع، والتوكيد أولى في مقام الإيجاز، ويجب أن يلاحظ في التكرار أن يكون بمبارات وأساليب مختلفة، وأن يكون النظر فيه إلى المعنى من جوانب متعددة، وقد رأيت التكرار البليغ المفيد في خطبة الإمام علي رضي الله عنه عندما قتل عامله علي الأنبار التي سبقت إليك.

ولقد اختار جوستاف لوبون مثلاً للتوكيد والتكرار منشوراً يظهر أنه اشتراكى نشر فى إحدى صحف أوروبا وقد جاء فيه: من ينتج القمح الذى نحتاج إليه؟ هو الفلاح. ومن يزرع الشعير والحبوب كلها؟ ومن يربى المواشى والأنعام؟ هو الفلاح. ومن يرعى المضأن للحصول على أصوافها؟ هو الفلاح. ومن ينتج الخمر والتبىذ؟ هو الفلاح. ومن يطعم الطرائد؟ هو الفلاح. ولكن من يأكل أطيب الخبز، وأطرى اللحوم، ومن يلبس أفخر الثياب؟ ومن يشرب خمر بورديو، والشمبانيا؟ ومن ينتفع بالطريقة؟ هو ابن الطبقة العليا الثرية، ومن يتسلى ويستريح كما يريد؟ ومن يتمتع بأطيب النعم، ومن يسبح للترفيه، ومن يشفى فى الصيف، ويتدفأ فى الشتاء؟ هو ابن الطبقة العليا الثرية. ومن يأكل طعاماً غير شهى، ومن يتدر شره للخمر، ومن يشتغل بدون انقطاع، ومن يكابد حرارة الصيف وصدارة الشتاء، ومن هو شديد البؤس كثير الشقاء؟ هو الفلاح. فترى من هذا كيف كمد ونوع فى التكرار وكيف كان متحرماً فى كلامه المكرر إثارة الأهواء والميول.

إثارة الأهواء نحو المراد مباشرة

ما سبق كان أموراً كلية تستعمل فى كل غرض خطائى، وهى فى هذا أشبه بالنظريات العامة، وهناك أسرار جزئية. وهى ما يتعلق بالمراد من الخطبة مباشرة من غير وساطة، وهذه تختلف باختلاف أغراض الخطيب، ولكل بواعث تخصص به؛ ولذا نبين بعض الأغراض بالإجمال وطرق الإثارة ونحوها، وما لا نقوله يقاس على ما نقوله.

(أ) البغض والمحبة:

فإذا كان غرض الخطيب تأليف القلوب، وجمعها على محبة زعيم، أو الالتفاف حول قائد، يبين لهم.

- ١- ما تخلى به من السجائب، وما امتاز به من المواهب.
- ٢- وحسن مآثره، وسابق خدماته، لن يدعوهم إليه.
- ٣- وإخلاصه لهم، وتواضعه ولين جانبه.
- ٤- وما يرجى لهم من خير فى الالتفاف حوله، ونصبرته، وكل هذا يثير محبتهم، ويقره من قلوبهم، ويهديه من نفوسهم.

وإذا كان الغرض التبغيض في شخص، وإبعاد الناس من حوله، يسن لهم ما طبع عليه من قبيح الخصال في لفظ نزيه، وعبارات رائقة لاتخدش الناموس الاجتماعي، ولا إقناع فيهما، ويبين أعماله السيئة، وماضيه السيئ، وحيث طويته، وعدم إخلاصه للجماعة، وما في الالتفاف حوله من عقيب سيئة، وإعزاز للباطل، وإذلال الحق.

ومن الخطب المحتملة على إثارة الحجة نقوم، والبغضاء لأخرين، خطبة أبي حمزة الشارقي في مكة المكرمة عندما دخلها. وستجئ إليك كاملة في الجزء التاريخي^(١).

(ب) الرغبة والنفور من أمر:

إذا كان غرض الخطيب إثارة الرغبة في أمر من الأمور:

١- بين منافعه وثمراته التي تعود على الجماعة من الأخذ به.

٢- وصوره لهم صورة آخذة بنياط القلوب، مستولية على الألباب والأفهام؛ فيشير خيالهم نحوه، وفي إثارة الخيال إثارة للرغبة في الحصول.

٣- وذكر لهم أنه قريب المتناول، ليس بعيداً عن أيديهم؛ بل هو في طاقتهم، وفي متناول قدرتهم.

٤- وبين أن الآخذين به في أسمى المراتب الإنسانية.

وإذا كان الغرض تنفيرهم من أمر:

١- بين المضار الناجمة عن ملاسته.

٢- وصوره لهم في صورة تنفر منها النفس، وتتقزز.

٣- وحققه، وحقق الآخذين به، وبين أنهم صغار الناس، وأنهم في المرتبة الدون، والمكان الهون.

ومن أبلغ الترغيب والتنفير ما جاء في خطبة الزعيم مصطفى كامل «باشاء عن الاحتلال الأجنبي، والدعوة لمقاومته:

كل احتلال أجنبي هو عار على الوطن ونيه، والعار واجب أن يزول، ولست أقصد بهذا الكلام أن أسألكم باسم الوطن إعلان ثورة دموية ضد محتلي البلاد، كلا، ثم كلا؛ إن أقل

(١) هي في البيان والنبين أيضاً.

الناس إدراكاً لمصلحة مصر يعلم أنها منافية لكل ثورة، وإنما أسألكم أن تعملوا بكل الوسائل السلمية على استرداد الحقوق المسلوقة منكم، وأن تعملوا لأن تحكم البلاد بأبناء البلاد، نعم، إنني أعلم أن الاحتلال قوى السلطة، عظيم الرهبة، شديد العقاب، وأن العمل ضده موجب للعقاب، مسبب للفقر والفاقة، ولكن في الرضا بالاحتلال الخيانة، وأعار، وفي العمل ضد الاحتلال الشرف، والفخر، فيأذوي النفوس الأبية، ويأفوي الضمائر النقية، اطلبوا الشرف، ولو مع الفقر، اخدموا الوطن، ولو أسقطت على ورممكم الصواعق، كونوا مع مصر، إن سعيدة فعدا، وإن تعيسة^(١) فتعساء، قولوا لعدوها في وجهه: أنت عدو لنا، ولصديقها: أنت صديق لنا. لا تحبوا من يرميها بنبال الموت، بل امنعوا عنها إن قلتم، ثم ردوها في صدر وامبها إن استطعتم.

(ج) الفرح والحزن:

إذا أراد الخطيب إثارة دواعي الفرح في نفوس مخاطبين، والإسهام معهم في أفراحهم.

١- ذكر لهم ما في الأمر الذي هو موضوع الخطبة من مزاجها، وما يجنى منه من ثمرات، وما يكون له عليهم من العاقبة الحسنى.

٢- وبين أنه في ذاته بعيد الخيال، خير ميسور الحصول، وأنه لا يؤخذ إلا بشق الأنفس.

٣- وأشار إلى شغف الناس بطلبه، وأنه الرغبة المحبوبة، والغاية المنشودة، والأمل المطلوب.

ومن أمثل الخطب المشتعلة على مظاهر الفرح والسرور خطبة المغفور له سعد باشا، وغلول عندما أقام أعضاء مجلس الشيوخ قبل أول انعقاد حفل تكريم له، فقد جاء فيها بعد أن شكر لهم تكريمهم:

وبعد، فإنني أهنئكم من كل قلبي بالثقة التي اكتسبتموها من البلاد.

وأعد نفسي سعيداً بأنني أول وزير مصري لحكومة دستورية، تستمد قوتها من إرادة الشعب، وتستند في بقائها على ثقة نوابه.

ستصبح هذه المبادئ نافذة المفعول فيما، ويصبح أمر الكل للكل، ويشر كل مصري أن حياته، وحرية، وشرفه، وماله، وولده، كل ذلك تحت حماية القانون، وأن على القاتون حارساً قوياً أميناً من البرلمان، وأن البرلمان تحت حراسة أمة بقطعة، والكل في ذمة الله وعنايته.

(١) لم يصبح الوصف من نفس على تعيسة.

بعد يوم واحد تجدد الوزارة نفسها مسئولة أمام نواب البلاد، وأن عليها أن تبرر أعمالها العامة أمامكم، كما تبررها أمام ضمائرنا الخاصة، وتشعر من جهة أخرى بخفة ثقل المسؤولية الملقاة عليها، لوجود قوة بجانبها، تقاسمها هذه المسؤولية، كما تشاطرها النظر في إثارة أمور البلاد.

بعد يوم واحد يحل احترام الحكومة محل الخوف، ويشد القرب منها بعد البعد عنها؛ إذ يستيقن الكل أنها ليست إلا قسما من الأمة تخصص لخدمتها العامة، حسب القانون والمبادئ الديمقراطية، وأن لكل واحد فيها حصة مباشرة، أو بالواسطة فيبدل الكل جهودهم في معاونتها على القيام بمهمتها الخطيرة.

وإذا أراد الخطيب أن يشير عوامل الأسى والشجن في نفوس سامعيه، وأن يظهر ما في نفسه من آلام:

١- ذكر الخنة، وآثارها في النفس، وآلام وقعها.

٢- ذكر وقعها في نفسه خاصة، وما ناله بسببها من آلام.

٣- بسط القول فيما أتى الله المفقود من منزلاء وصفات اختص بها.

ومن أبلغ الخطب التي تثير الحزن في النفس، وتبين منزلة المفقود خطبة الإمام علي بن أبي طالب في رثاء أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهما، وما هي ذي كما جاءت في كتاب إعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني:

رحمك الله أبا بكر كنت إلف رسول الله ﷺ وأنته وثقت، وموضع سره، كنت أول القوم إسلاما، وأخلصهم إيمانا، وأشدهم يقينا، وأخوفهم لله، وأعظمهم غناء في دين الله، وأحوطهم على رسول الله، وأمنهم على أصحابه، أحسنهم صحبة وأكثرهم مناقب، وأفضلهم سوابق، وأرفعهم درجة، وأقربهم وسيلة، وأقربهم برسول الله ﷺ سننا وهدى، ورحمة وفضلا، وأشرفهم منزلة، وأكرمهم عليه، وأوثقهم عنده، جزاك الله عن الإسلام وعن رسوله خيرا، كنت عنده بمنزلة السمع والبصر. صلت رسول الله ﷺ حين كذب الناس.... واسيته حين يخلوا، وقعت لله عند المنكاه حين عنه قعدوا، وصحبت في الشدة أكرم الصحبة، وكنت ثاني اثنين وصاحبه في الغار، ورفيقه في الهجرة، وخليفته في دين الله، وأخلفته أحسن الخلافة حين ارتد الناس، فنهضت حين وهن أصحابك وبرزت حين استكانوا، وقويت حين ضعفوا، وقمت

يالأمر حين قبلوا ونطقت حين جميعوا^(١)، مضيت بنور الله إذ وقفوا، وأبعوك فهدوا، وكنت أصواتهم متطفاً وأطولهم صمناً، وأبلغهم قولاً، وأكثرهم رأياً، وأشجعهم نفساً، وأحرفهم بالأمر، وأشرفهم عملاً، كنت للدين يسوياً^(٢) أولاً حين نغر عنه الناس، وآخرأ حين أقبلوا، وكنت للمؤمنين أباً رحيماء، إذ صاروا عليك حبلاً فحملت أقال ماضحفاً، ورعيت ما أهملوا وحفظت ما أضاعوا، شمرت إذ خضعوا^(٣) وعطرت إذ هلعوا، وصيرت إذ جزعوا، وأدرت أوطار ما طلبوا. وراجعوا رشدهم برأيك فظفروا، ونالوا بك ما لم يحتسبوا، وكنت كما قال رسول الله ﷺ: «آمن الناس في صحبتك، وذات يدك» وكنت كما قال، ضعيفا في بنفك، قويا في أمر الله، متواضعا في نفسك، عظيما عند الله، جليلا في أحين الناس، كبيرا في أنفسهم، لم يكن لأحد فيك مغمر، ولا لأحد مطمع، ولا لخلق عندك هواة، الضعيف الذليل عندك قوى عزيز، حتى تأخذ له بحقه، والقوى العزيز عندك ضعيف ذليل حتى تأخذ منه الحق، القريب والبعيد عندك سواء، أقرب الناس إليك أطوعهم لله، شائنك الحق، والصدق والرفق، قولك حكم، وأمرك حزم، ورأيك علم وعزم، فأبلغت، وقد نهج السبيل، وسهل العسير، وأطفأت النيران، واعتدل بك الدين وقوى الإيمان، وظهر أمر الله ولو كره الكافرون، وأعيت من بعدك إتماما شديدا، وفزت فوزا ميئا، فجللت عن البكاء، وعظمت رزقك، وهبت مصيبتك الأنام، فأما لله وإنا إليه راجعون، رضيما عن الله قضاءه، وسلمنا له أمره، فوالله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله ﷺ بمثلك أبدا.

ولما انتهى من خطبته رضي الله عنه بكى الناس حتى علت أصواتهم كما ذكر لمرولة.

الأمل والياس:

علمت بما سبق أن الأمل رغبة مستقبلية، ولذة مرجوة؛ فمن أراد أن يشرها:

١ - اتجه إلى بيان المزايا والشمات، وصور فيها السعادة المعسولة.

٢ - ثم بين أنها سهلة التناول قريبة من ذي الهمة، دانية القطوف لمبتغيها.

٣ - ثم ذكر أن العمل بخفى المستحيل، ويكثر من الممكن، ويجعل كل شئ في قدرة

الإنسان إلا ما انحصت به الأقدار، وعلا عن مغالبة بني الإنسان.

(١) البهمة تتابع الكلام حتى لا يفهم، وذلك من الاضطراب.

(٢) المحسوب الرئيس الكبير.

(٣) الخنوع المظنوع والذلة.

٤- ثم يوجه الناس في عملهم إلى الاستعانة بالله والثقة به، والاطمئنان إلى تأييده ونصرته، فإن توجيه الجماهير إلى الاستعانة بالله إحياء للروح الدينية في نفوسهم، وفي إحيائها إحياء للأمال، إذ التقويض مع العمل يجعل الرجاء غالباً، واليأس بعيداً، لأنه لا يحسن من روح الله إلا القوم الكافرون».

ومن أبلغ الكلمات المحيية للأمل الباعثة له قول الخطيب الشاب الزعيم مصطفى كامل «باشاء في إحدى خطبه:

هناك فئة من المصريين لا أنكر إخلاص رجالها للوطن العزيز، ولكن أتكبر عليهم اليأس الذي يتظاهرون به في كل وقت، وفي كل مكان، فهم ما عملوا وكلموا سألتهم أجهلوك، نحن يا مسون من مستقبل الوطن، معتقدون بظلمة الأيام الآتية، فبالله كيف يستطيع طبيب أن يحكم على عليل بعدم الشفاء قبل أن يفحص داءه، ويعطيه الدواء، على أننا نرى الكثيرين من الأطباء لا يمسون أبداً من شفاء المريض، حتى في آخر لحظة من حياته، فكيف يعيش رجال من بني مصر، من مستقبل البلاد، وهم إن كانوا قد خبروا داء مصر، فيعلم الله، ويعلم الناس أنهم إلى اليوم ما قدموا لها الدواء، كيف نعيش من المستقبل والمستقبل بيد الله وحده، وكثيراً ما تأتي الحوادث بخلاف المنتظر، وبغير حساب، ألم يكن الكثير من المصريين، ومن غير المصريين في يأس من مستقبل الدولة الحلية، ويعتقدون أنها على مقربة من الموت، فهذا هو اليوم قد ساعدتها الحوادث التي ساقها الأعداء مؤامرين البطش بها، فظهرت بظهور القوة والحياة، وأصبحتم جميعاً فرحين بسلامتها معتقدين حسن مستقبلها.

كيف نعيش من المستقبل وقد أرانا التاريخ أمماً حكمها الأجانب غزواً طويلة، ثم قامت بعد الفل والاسترقاق، مطالبية بحقوقها، وأخرجت الأعداء من ديارها، واستردت حقوقها وحريتها. هي النفوس الصغيرة التي يخلق عندها الأمل بكلمة، أو تلفراف، ثم يستولي عليها اليأس بكلمة، أو تلفراف، أما النفوس العالبة الكبيرة فيدم فيها الأمل مادام الدم في العروق، ومادامت الحياة، وأي حياة ترضاه النفوس الشريفة مع اليأس؟ ألمجمع المرء في جسم واحد الموت والحياة، إذ اليأس موت حقيقي، وأي موت...

وقد يرى الخطيب أن الجماعة التي يخاطبها قد استولت عليها آمال بعيدة التحقق، متعمسة الوقوع أو متعذرته، وأن في الجري وراءها تركها ليلتان العمل، وركضها في ميدان الخيال، وأن الأخطين بهذا أشبه بمن هم في أحلام فهو مضطر إلى أن يقول لهم ما يلقي القنوط من هذه الناحية في نفوسهم. وذلك مركب صعب، ومزلق خطر، لنا يجب أن يكون المتصدى له حذراً يلقي اليأس، ويحاط من إماتة النفس، والطريق لذلك:

١- أن يبين أن سبيل المجد ما كان عملياً، لا خيالياً، وأن التمسك بما هم آخذون به أقرب إلى الخيال، وليحذر أن يكون في ذلك مصادمة لإحساسهم، بل يهدف لهم بما يعتقدون به أنه مشاركتهم في آمالهم، وأن إحساسه من إحساسهم، ثم يعقب بعدة استنتاجات حتى يستدرجهم إلى ما يريد ويأخذهم إلى ما يبغي.

٢- وقد يكون من الوسائل المجدية أن يبين المخاطر، والمخاطر التي تكنف من يعني ذلك المطلوب، ويسعى إليه.

٣- وضرب الأمثال بمن جهلوا أنفسهم ولم يصلوا إلى مبتغاهم، ولم يبالوا بمعناهم، مع انصرافهم عن العمل المجدى النافع - مفيد في ذلك جد فائدة، ويوجه النفوس إلى العمل المنتج المثمر.

ومن الكلام الجيد المفيد هنا المعنى إضافة تامة ما جاء في خطبة لمصطفى كمال باشا، في الرد على بعض من يدعوا للجامعة الإسلامية بزعمهم تركيا: أيها السادة، إلى أفهم الجامعة الإسلامية على الصورة الآتية: إن أمنا، وحكومتنا التي تمثلها تعنيان لجميع المسلمين الذين على ظهر الأرض كل سعادة، وأن تحيا كل جماعة إسلامية في مختلف البلاد حياة مستقلة، ولعمر الله، إنا نشعر بضرورة وسعادة من ذلك؛ فإن سعادة جميع الأمم الإسلامية ورفاهية العالم الإسلامي هي في نظرنا كسعادتنا، ورفاهيتنا، إنا مرتبطون بهذا الأمر، كما أننا نرى الأمم الإسلامية مرتبطة بنا، وسعادتنا على هذه الصورة، وهذا أمر يفجلى كل يوم.

إنما إذا أردنا أيها السادة، أن نجتمع هذا المجتمع الكبير في شكل إمبراطورية مادية، فهذا خيال محض، مخالف للعلم، والمنطق والفن، إنا يجدر بنا ألا ننسى قط أن لكل جسم سياسي نهاية من القوة، لا يحسوها أبداً، كما أن هناك خطأ طبعياً معقولة للشكل الإنساني الحسن، وكما أن الشكل الإنساني مبني على هذه القاعدة، فإن الجماعات التي تتألف من الناس كذلك، لا تشد عنها.

أيها السادة لننعم النظر في موقفنا قبل قرون، انظروا إلى إفريقية، وسوريا، والعراق ومقدونيا وبلغاريا والعرب وغيرها من أقسام ممالكنا ثم وازنوا بين حالنا إذ ذاك، وحالنا اليوم، هل من الممكن أن نعيش هذه الأمم المختلفة الطوائف والبيئات تحت ظل إمبراطورية واحدة، هذا أمر مغاير للطبيعة والعقل، وقد كانت النتيجة ما رأيناه، إذ لا بد أن يختلف الأمر في إفريقية، وأن يختلف في سورية، وأن يختلف في العراق، وأن يختلف في بلادنا، فإذا سعينا لنجعل الجميع

واحدة أطمأناء إنما نحن نتمنى أن تشكل كل جماعة إسلامية تشكلا طبعياً، وأن نحافظ على استقلالها وأن تعيش حياة حرة، ولا شك أنها أمة تقرر بأن سعادة الأمم الإسلامية معادة لنا، ثم إننا نحن والعالم الإسلامي جماعة كبيرة، نلتف حول عرش الخلافة، وكلنا نقدره، ونبجله^(١).

(هـ) الغضب والخوف:

قد يرى الخطيب أن الجماعة غيسة فائرة، ويرى أن الأمر الذى يدعوهم إليه خطير، يحتاج إلى حماسة ونخوة، وإباء وحمية، وغيرة على الحمى، أو الدين، أو العرض، فهو يمد إلى إثارة الغضب، ليوقظ تلك السجيا من رقعتها، وينبهاها من غفلتها، ويتخذ منها قوة ملتهبة تذلل للعصبة، وتذيب الصم الصلاب، والطريق لذلك:

- ١- أن يذكر الإهانة، ويعظمها، ويصورها فى صورة مذكرة للحفاظ، مثيرة للهمم.
- ٢- وأن يذكر العار الذى يلحق الجماعة، إن لم تحفز لفصل تلك الإهانة بالذود عن حماها، والذب عن حياتها.
- ٣- وأن يضرب الأمثال بذكر الأشياء والنظائر، ويجعل لهم الأحرار من الناس مثلاً يحذى، وذوى الهمم القساء أسوة تؤسى.
- ومن أئوم الخطب التى تثير الحمية، وتدفع قوى الإقدام إلى الإقدام خطبة الإمام على ابن أبى طالب، فى حث جنده على الجهاد، وهى ذه:

أيها الناس المجتمعمة أبلائهم، المختلفة أهواؤهم، كلامكم يوهى الصم الصلاب، وفعلكم يعلم فيكم عدوكم، تقولون فى المجالس كيت ركيت، فإذا جاء القتال قلتم حيدى حيدى^(٢)، ما عزت دعوة من دعاكم، ولا استراح قلب من قاساكم^(٣)، أعاليل بأضاليل^(٤). وسألتهمونى التأخير، دفاع ذى الدين المطول^(٥) هيهات، لا يمنع الضيم الدليل، ولا يدرك الحق إلا بالجد، أى خار بعد فاركم تمنعون؟ أم مع أى إمام بعدى نقاتلون؟ المنزور والله من شروتموه، ومن فاز بكم فاز بالسهم الأخيب، أصبحت والله لا أصدق قولكم، ولا أطمع فى

(١) لفتت هذه الخطبة قبل إخراج الخليفة من تركيا.

(٢) كلمة يقولها الهارب كأنه يسأل الحرب أن تنصى عنه، ويقول حيدى أى ابتعدى يا حيدى هى كالكاع مينة

عابى الكبر:

(٣) فهوركم (٤) جمع أغولة وأغولة.

(٥) بيعة مبالغة من المظل وهو تأخير الدين.

نصبرتكم، فرق الله بيني وبينكم، وأعطيني حكم من هو خير لي منكم، فوددت أن لي بكل عشرة منكم رجلا من بني فراس بن غنم^(١) صرف الدينار بالثمن.

وقد يرى الخطيب الجماعة في اندفاع وعصيان وثورة، ويرى أن علاجها إلقاء الرعب في قلوبها؛ وبث الرهبة في نفوسها، ليستقيموا على الجادة، ويسلكوا السبيل، فيلقى في ذلك خطبا سداها ولحميتها نكت الروح فيهم وتخويفهم، وطريق ذلك:

١- أن يبين لهم سوء العقبي لما هم يفعلون، وأن الطامة الكبرى في طريقهم غير القويم.

٢- وأن يبين أن قوات كثير من رغباتهم، وطلباتهم في استمرارهم على غيرهم، وأن الحرمان هو النتيجة الأولى لسلوكهم.

٣- وأن ينيط عقابا خاصا، يقع بالمستمر على غير، الموعث في سيره، والموغل في إثمه. وإنك لتجد في خطب العصر الأموي، وصدر العصر العباسي شيئا كثيرا مشتملا على ذلك النوع من الخطب المرعدة المبرقة، كما ترى في خطب الحجاج بن يوسف الثقفي، وخطب زياد بن أبيه، وبعض خطب عبد الملك بن مروان، ومعاوية بن أبي سفيان، ومن ذلك خطبة عتبة بن أبي سفيان في أهل مصر، وقد أبلغه تاملهم بحكم بني أمية، فقد قال فيها:

يا أهل مصر إياكم أن تكونوا لل سيف حصيدا فإن الله فيكم ذبيحا لعشمان، أرجو أن يوليئني نسكه، إن الله جمعكم بأمر المؤمنين بعد الفارقة، فأعطى كل ذي حق حقه، وكان والله أذكركم، إذا ذكر بخطه، وأصفحكم بعد المقدرة عن حقه، نعمة والله فيكم، ونعمة منه عليكم، وقد بلغنا عنكم نجم قول أظهره تقدم عقو منا، فلا تصبروا إلى وحشة الباطل، بعد أمن الحق، بإحياء الفتنة، وإمالة السنن، فأملأكم والله وطأة لا رفق معها، حتى تنكروا مني ما كنتم تعرفون، وتستخشنتوا ما كنتم تستلينون، وأنا أستشهد عليكم الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

وقد يكون التخويف بسوء العقبي يوم القيامة. فيذكر الخطيب السامعين بهول ذلك اليوم، وما فيه، والموت والبلوى، ويأبى ما في الحياة الدنيا إلى فناء، وما في الآخرة إلى بقاء، وأمثلة الخطب في ذلك خطب المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم، والخطباء الراشدين، ومن نهج نهجهم، ومن خطب النبي ﷺ في التذكير بالموت مخيفته التي جاء فيها:

(١) قبيلة من بكر.

أَيُّهَا النَّاسُ: كَأَنَّ الْمَوْتَ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا قَدْ كَتَبَ، وَكَأَنَّ الْحَيَاةَ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا قَدْ وَجِبَ، وَكَأَنَّ الَّذِي نَشِيْعُ مِنَ الْأَمْوَاتِ سَفَرٌ عَمَّا قَلِيلٌ إِلَيْنَا وَاجْعُوْنَ. نِيُوْلَهُمْ أَجْدَانَهُمْ، وَنَأْكُلْ مِنْ ثَرَاتِهِمْ، كَأَنَّا مَخْلُودُونَ بَعْدَهُمْ، وَنَسِينَا كُلَّ وَاعِظَةٍ، وَأَمَّا كُلُّ جَائِعَةٍ.

وخطبته عليه الصلاة والسلام التي جاء فيها:

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنْ لَكُمْ مَعَالِمٌ، فَاتَّبِعُوا إِلَى مَعَالِكُمْ، وَإِنْ لَكُمْ نَهَابَةٌ، فَاتَّبِعُوا إِلَى نَهَابَتِكُمْ، إِنْ الْمُؤْمِنُ بَيْنَ مَخَافَتَيْنِ: بَيْنَ عَاجِلٍ قَدْ مَضَى، لَا يَدْرِي مَا اللَّهُ صَانِعٌ فِيهِ، وَآجِلٍ قَدْ بَقِيَ، لَا يَدْرِي مَا اللَّهُ قَاضٍ فِيهِ، فَلْيَأْخُذِ الْعَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ، وَمَنْ ذَنْبَاهُ لَأَحْرَهُ، وَمَنْ الشَّبِيحَةُ قَبْلَ الْكِبَرِ، وَمَنْ الْحَيَاةُ قَبْلَ الْمَوْتِ، فَوَ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ مُسْتَحْتَبَةٍ.

(و) الرحمة:

من المقامات الخطابية، ما يكون قطبها إثارة بواعث الرحمة في نفوس السامعين، واستنوار عطفهم على طائفة من الطوائف؛ أو شخص من الأشخاص؛ أو تحريك هممهم لعمل إنساني جليل؛ فيه مواساة لبني الإنسان، أو مداواة لكلومهم، كإنشاء مستشفى لمرضى السكر أو للولادة، أو للفقر، أو ملجأ لليتامى، أو إغاثة لمنكوب حريق، أو منكوب سيل طغ قد طم؛ أو جرحى حرب، أو مهاجرين منكوبين؛ أو نحو ذلك من الأعمال الإنسانية التي تستمد قوتها من شفقة ذوي القلوب. ففي هذه الأحوال يتجه الخطيب إلى عاطفة الرحمة في مخاطبيه فيشيرها، وطريق ذلك:

- ١- أن يصور المحنة في صورة تظهر المشاعر، ويستدر العطف.
- ٢- ويبين للناس أن من وقعت بهم هذه المصيبة ما كانوا لها متوقعين، بل جاءتهم بيانا وهم فائزون، أو فجأتهم من حيث لا يشعرون.
- ٣- ويذكر أنها إصابة المقدار، وكل امرئ معرض لها، ومن يصاب بها يكون في مثل حاجة هؤلاء.
- ٤- ويبين أن بني الإنسان أو الجماعة المؤلفة منهم جسد واحد، إذا اشتكى عضو منه دعى له سائر الجسد بالعنى والسهر.
- ٥- وأن الرحمة من كمال الإنسان، وأن من لا يرحم لا يرحم، ومن لا قلب له لا يعد في مصاف ذوي الكمال.

٦- ويحسن أن يعرض صورا للحادثة، إذا وجد في عرضها ما يثير الرغبة في المعاينة.
٧- ويجعل الخطيب الداعي إلى الرحمة من حاله ما يناسب مقاله، فليجعل من ملامح وجهه، ونغمات صوته، وحركاته، وإشاراته ما يصور عاطفته وإخلاصه فيما يدعو إليه، فإن لذلك أثره الواضح في ذوى القلوب الرحيمة.

٨- وليكثر من ضرب الأمثال، فإن ذلك يثير الخيال في الناحية التي يريد بها الخطيب، وإثارة الخيال في تلك الناحية من موقظات الشفقة، والعطف الإنساني.

وإثارة عواطف الرحمة قد تكون لب الدفاع في بعض الجنايات، كما إذا كان المتهم معترفا بجنايته، ولكن دفعه إليها دافع شريف، كدفاع عن شرفه، أو عرض، أو كرامة، فعلى المحامي أن يصور الدافع في صورة مثيرة للعطف عليه، وأن يحيط مرافعه بإطار من الحوادث التي تثير الرحمة في نفس القضاة، خصوصا إذا كانوا محلفين، كما فعل محام فرنسي في دفاعه عن امرأة مزقت وجه خلية زوجها، إذ رأتها معه في بيعتها، فقد جاء في لجام كلامه:

أنتم يا حضرات المحلفين، قضاة، وراعيكم أن نسألوا أنفسكم، أفعلت ما فعلت، عامدة قاصدة، أم دفعها اليأس لذلك الفعل، بغير إدراك؟ لا يجوز لكم أن تقضوا بالإدانة، إلا إذا تأكد لديكم أن المتهمة كانت حرة الإرادة، وكانت تستطيع أن تمتنع عن فعل ما فعلت. ولم تمتنع.

هل ارتكبت هذه المتهمة الواقعة أمامكم فعلتها بملأ فم؟ أكانت تستطيع أن تقف غضبها عند حد، وتسيطر عليه؟ هنا هو لب الموضوع. فإن وجدتم أنها احتملت كل أنواع الآلام والمعذاب وأنها لجأت للتهديد والرجاء، وأنها حاربت سنة كاملة، فاحكموا ببراءتها.

وما تصاب امرأة كهذه إلا والله في أمرها حكمة، إنها لم تفعل في حياتها إلا ما هو حسن، ومع ذلك حرمت زوجها، ولها الآن أربعة أشهر كاملة محرومة من ابنتها، أليس ذلك مؤلما، لا زوج ولا ولد، وكلما ذهبت ابنتها لزيارتها في السجن، زادت آلامها آلاما، تقول لها: تعالي يا أماء، لا تبقى في هذا المسكن، إنه بارد مظلم، تعالي معي للمنزل، فتجيها أماء، غدا، غدا يا ابنتي، سأحضر. ولكن غدا لا يحضر أبدا، لك الله يا ابنة، لقد وعدتك بأنك ستأخذين أمك مساء أمس.

حضرات المحلفين، لقد أبطلنا كثيرا، فانطلقوا انطلقوا سرعاً بحكمكم والله يتولاكم

برعايته.

التنسيق

هو تنظيم أجزاء الخطبة، وإحكام تركيبها، وربط بعضها ببعض، ووضع أدلتها في شكل منتج، فالتنسيق هو في الحقيقة بناء الخطبة، ونظام عقدها، يجعل معانيها متسارفة، فيأخذ بعضها بحجز بعض، ويجعل الغرض منها واضحاً، إذ لا يذكر المعنى إلا بعد التمهيد له، فيكون قريباً مألوفاً، وواضحاً مكشوفاً. وإذا أخذ به تمام الأخذ، مع التجنب لعبوبه، والتحرى لحامته، ضمن للمتكلم حسن الإصغاء، وكمال الانتباه.

وقد ذكر العلماء للخطبة ثلاث مراحل:

الأول المقدمة، والثانية الإثبات، والثالثة الخاتمة.

وتنسيق الخطبة أن يراعى الخطيب قوانين هذه الأقسام، فيتبع محاسنها، ويجانب معانيها. وقبل بيانها نقول: إن هذه المراحل لا تكون في كل الخطبة، بل من الخطب ما لا يشتمل إلا على مرحلة الإثبات كبعض خطب الشكر، والتهنئة، والمدح.

ومن الخطب ما لا يشتمل إلا على الإثبات والخاتمة، كبعض المرائي. وبعض الخطب، يشتمل على تلك العناصر، ككثير من الخطب المطبوعة، ومرافعات الخصوم في المحاكم، وخطب الشورى في المجالس الشورية، والخطب السياسية في المؤتمرات الدولية، وغيرها.

المقدمة

هي ما يجعله الخطيب صدر خطبته ١- ليشير الفكر إليها ٢- وليعطي السامعين صورة إجمالية لها ٣- وليحصر لهم معانيه، وأفكاره في نطاق لا يحدوه، ولا يتجاوزوه، ويسمى الأول حسن الافتتاح، والثاني بيان المقصد، والثالث تقسيم الخطاب.

وإن من الخطب ما لا يحتاج إلى ذلك كله، فبعضها لا أقسام فيها، فلا حاجة إلى تقسيم خطاب، وبعضها موجز، فلا يذكر فيه إلا افتتاح صغير يناسبه، إذ التكرار في هذه الحال يعبئها، فإن من العبث التكرار مع الإيجاز، وذكر المقصد أولاً مجملًا، ثم بيانه ثانياً تكرار لا يتفق مع الإيجاز.

ومن الخطب ما يحتاج في مقدمته إلى كل هذه الأجزاء، كالمراغبات المطبقة في الحثائم، والخطب الشورية المطبقة، وبعض الخطب السياسية، وخطب الجدلي والمناقشات، وقد لفت من هذا أن ذكرها جميعاً لا يكون إلا في مقام الإطناب.

ونحن على أية حال نبين هذه الأمور، ونذكر ما يستحسن فيها، وما يستهجن؛ ليكون علمها سلاحاً في يد الخطيب يستعمله إن ألجأته ضرورة إليه؛ أو مست الحاجة، أو وجد منها ما يناسب المقام، ويحمل الخطاب.

(أ) حسن الافتتاح:

إذا أراد الخطيب أن يجعل لخطبته افتتاحاً، وجب أن يعني به تمام العناية، وأن يجعله بكل وسائل التجميل المناسبة التي تجلب الأفكار إليه وتهيئ الأسماع، وتجعل النفوس تتقبله بقبول حسن، فإن الفكرة الأولى عن شيء، أو عن أمر، أو عن شخص تثبت وتقر بالنفس، ومحورها يحتاج إلى عناء شديد، فإن كانت حسنة صعب تهجيتها، وإن كانت سيئة صعب تزيينها.

والافتتاح (إن وجد) أول ما يلقي الخطيب به الجماعة، فإن وقع من نفوسهم القبول، كانت الخطبة غالباً على غرار. واستطاع أن يصل إلى قلوبهم؛ وإن لم يصادف قبولاً صعبت الحال. واحتاج الأمر إلى عبير بأحوال النفوس، حافظ في طرق العلاج، ووسائل الشفاء من ذلك النفار وهذا الشماس.

قال ابن الأثير في كتاب المثل السائر: وإنما خصت الابتداءات بالاختيار، لأنها أول ما يطرق السمع من الكلام، فإذا كان ذلك الابتداء لائقاً بالمعنى الوارد بعده، توافرت الدواعي على استماعه، وكفيلك من هذا الباب الابتداءات الواردة في القرآن الكريم، كالتحميدات المفتحة بها أوائل السور، وكذلك الابتداءات بالثناء، كقوله تعالى في أول سورة الحج: «يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم» فإن هذا الابتداء مما يوقظ السامعين للإصغاء إليه.

والخطباء مذاهب شتى في افتتاحهم، ولا نستطيع حصر طرقها لأن أفضل مناهجها مرجعه إلى حسن تصرف الخطيب، وجودة تقديمه، وإثا ذاكرون بعضها على سبيل المثال، لا على طريق الحصر:

١- فمن الخطباء من يفتتح خطبته بما يشير إلى موضوعها. ويلوح بالمقصد منها، وقد كان يستحسن ذلك الجاحظ، وابن المقفع. فقد جاء في البيان والتهيين نقلاً عن ابن المقفع، وتعليقاً عليه:

ولكن في صبر كلامك دليل على حاجتك، كما أن خير أبيات الشعر التي إذا سمعت صبره، عرفت غافيتها، كأنه يقول فرق بين صدر خطبة النكاح، وبين صدر خطبة العهد، وخطبة الصلح، وخطبة المواهب، حتى يكون لكل فن من ذلك صدر يدل على عجزه، فإنه لا خير في كلام لا يدل على معتك، ولا يشير إلى منزلك، وإلى العمود الذي إليه قصدت، والغرض الذي إليه نزعتم.

ومن أبلغ الافتتاحات التي تشير إلى موضوع الخطبة افتتاح الإمام علي رضي الله عنه في خطبته بعد اختلاف الحكمين، واستنصار معاوية بقول حكمه عمرو بن العاص، فقد قال كرم الله وجهه: الحمد لله، وإن ألقى الدهر بالخطب القادح، والحدث الجليل، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ليس معه إله غيره، وأن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وآله.

أما بعد: فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب، تورث الحيرة، وتعقب الندامة، وقد كنت أمرؤكم في هذه الحكومة أمرى، ونعلت لكم مخزون وأبى، لو كان يطاع لقصير أمر، فأيتكم على إباء المخالفين الجفاة، والمتأهلين المعصاة، حتى ارتاب الناصح بنصحه، وضم الزند بقده، فكنت وإياكم كما قال أبو هوازن:

أمركم أمرى بمنعرج اللوى فلم تعينوا النصيح إلا ضحى الغد

٢- ومن الخطباء من يتدئ خطبته بحكمة أو مثل سائر، أو ببعض أقوال المتقدمين، أو آية كريمة، أو حديث شريف يناسب المقام، ويكون حجة في الاستدلال، كخطيب يتدئ خطبته في تعاون الجماعة في إصلاح حالها، وتقويم الفاسد من أمرها بتلاوة قوله تعالى: «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون». وكقول أبي العباس السفاح بالشام بعد الاستيلاء على الملك من آل مروان:

«ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً، وأحلوا قومهم دار البوار، جهنم يصلونها، فليس القرار». نكص بكم يأهل الشام، آل حوب وآل مروان، تحسكون بكم الظلم، وتهترون بكم مداحض الزلق، يطشون بكم حرم الله، وحرم رسوله، ماذا يقول زعماءكم غدا، يقولون: «ربنا هؤلاء أضلونا، فقمهم عذاباً ضعفاً من النار»، إذ يقول الله عز وجل: «لكل ضعف ولكن لا تعلمون» إلخ.

وكقول أبي جعفر المنصور في مقدمه إحدى خطبه بالشام بعد أن صار الأمر للعباسيين.

شنة أعرفها من أجزم من يلق أبطال الرجال يكلم

٣- ومن الخطباء من يتدئ خطبته بذكر كلام خصومه، ودلائلهم والذوائع التي دفعتهم إلى رأيهم، ثم يعقب بالنقض كما ترى في كثير من الخطب السياسية، وخطب الخصوم في مجالس القضاء ومطارح الخلاف.

٤- ومن الخطباء من يفتتح كلامه بما يؤعجبهم كما كان يفعل النجاشي في ابتداء خطبه. ومنها خطبته التي أولها:

أنا ابن جلا وطلاع الثلثاء متى أضع العملة تعرفوني

٥- ومن الخطباء من يفتتح خطبته ببيان أنه من الجماعة التي يخاطبها، وأنه في مستواها ليقر بها إليه، ويكون لكلامه فضل تأثير فيها كما قال ولسن في افتتاحه خطبة له في اتحاد العمال:

لقد قدمت إليكم على أئمة رؤس الولايات المتحدة، ومع ذلك أود لو وضعتكم فكرة المنصب جانباً، وعددتكموني رجلاً من بنى الوطن جاء إلى هنا، لكي يتكلم كلام المشورة والنصيحة، لا كلام السلطان، كلام رجال، يخاطب كل منهم الآخر، ويريد أن يكون صريحاً في وقت قد يكون أعظم حرجاً مما عرفه تاريخ العالم بأسره حتى الآن، فالواجب يقضى على كل رجل في هذا الوقت أن ينسى نفسه ومصالحه ويملاً نفسه بكل ما في النظرية التي يعتنقها الوطن والعالم من نبل، ويعمل في ميدان جديد. يترفع عن شؤون الحياة العادية، ويكون حيث ينظر الرجال إلى أقدار الجنس البشري... إلخ.. إلخ.

٦- ومن الخطباء من يفتح خطبته بإحياء آراء قديمة للجماعة، يبنى عليها ما يدعوهم إليه من جديد كما فعل المصطفى ﷺ عندما أنثر عشيرته الأقربين، إذ سألهم عن صدق حديثه. فقال ﷺ: «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟ فقالوا: نعم. ما جربنا عليك كذباً، فألقى عليه الصلاة والسلام خطبته.

وقد يحس الخطيب بافتتاحه كلاماً كان قد قاله، ليربط بين ما قاله أولاً، وما يقوله الآن، فيكون ذلك إنساً للمعلومات وتوثيقاً لها.

٧- وقد يندئ الخطيب خطبته، بالثناء على السامعين، ليهيئ نفوسهم لتلقي كلامه بالقبول، إذ لا شيء يهرأعطاف السامعين كالثناء عليهم، وذلك باب واسع يصبح الدخول فيه بشرط الاتزان وضبط النفس.

٨- والخطب اللهية يستحسن فيها أن تبدأ بالحمد لله^(١) وبعض الأحاديث النبوية الشريفة، أو الآيات القرآنية التي تناسب المقام الديني الذي يتكلم فيه.

وإذا لم يكن موضوع الخطبة دينياً، ولم يرد أن يبدأ بما يليسها الشعار الديني، فليختار من الافتتاحات ما يكون فيه جدة، ليكون فيه إثارة للاهتمام، وتنشيط للأفهام، وليجتهد في ألا يبدو التكلف في افتتاحه وإلا ثقل على النفس كلامه، فيصعب عليه الوصول إلى غرضه.

(١) كان الخطباء في صدر الإسلام وفي العصر الأموي وفي العصر العباسي يمدحون خطبهم بالحمد لله، وتعتبر الخطبة براء إذا لم تبدأ بذلك. وليس هذا البدء عيباً كما توهم بعض الناس: لأن هذه الخطب كانت دينية بحتة أو تنمى دينياً في جملتها، وكان الخطباء متلهئين يتيمنون بذكر اسم الله سبحانه وتعالى، وبذلك يحيطون خطبتهم بسياج من الدين الحكيم.

مهما يكن من أمر الافتتاح يجب:

١- أن يكون قصيرا موجزا لكيلا يشغل اللحن بتغير المطلوب، فينصرف عن الطلب الأول إلى ما هو بالهمل الثاني.

٢- وألا يكون مبتذلا نمجه الأسجاع.

٣- وأن يكون موافقا للموضوع.

هذا ويلاحظ أن كثيرا من الخطباء لا يتجهون إلى افتتاح خاص لكلامهم أما كان نوعه، بل يهجمون على المقصد، ولا ضير في ذلك، لأن الافتتاح ليس أمرا لازما للخطبة، ولكن إن جرى به يجب أن يلاحظ فيه ما بينا. وقد يسمى بعض الأبناء ذلك افتتاحا ساذجا.

(ب) المقصد:

أن يذكر المتكلم في صدر كلامه الموضوع الذي سيتناوله إجمالا، من غير تفصيل، وذلك ليهيئ الأذهان لتلقيه. ويشعرهم برفق إلى ما سيقوله.

ولابد عند ذكر المقصد من ملاحظة ثلاثة أمور:

أحدها - أن يذكره في قضية عامة، لا ينيها على مقدمات، لأنه لو بناها على مقدمات كان ذلك سياقاً برهانياً، وهو أجدر بالإتيان منه بالمبادئ.

فمثلا إذا كان موضوعه الذي هو بصدد الكلام فيه الدعوة إلى تثبيت نظام، أو منع فوضى، قال: السلطان وازع الله في أرضه.

وإذا كان يريد الدفاع عن متهم ببيان أن أدلة الاتهام تحوم حولها الشبهات، يقول مثلا: المتهم بريء حتى يقوم الدليل على جاحته، وكل شك يكون في مصلحة المتهم، لا في مصلحة الاتهام.

وإذا كان يريد أن يخطب جمعا يحثهم على إحياء القرآن الكريم بحفظه والعمل به، يقول مثلا: في القرآن نأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم.

وفي كل هذا ترى الموضوع قد ذكر في قضية عامة.

ولأنها - أن يكون واضحاً في الدلالة على الموضوع، لأنه إن لم يكن كذلك، لم يثمر ثمرته المرجوة، وألقى في نفس السامع روح التبرم، وكان ذلك طريقاً لورود السأم إلى قلبه.

والشها - أن يلقى في جملة كثير خيال النفس، وتهزها، فتتشط إلى سماع ما يقال، وتهتز أوتار القلب بكل ما يجي به الخطيب من معانٍ، وعبارات جيدة محكمة.

ومن أبلغ المقدمات التي اشتملت على مقصد بليغ قول الإمام علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه في إحدى خطبه التي يحدّث فيها على قتال العدو:

أما بعد: فإن الجهاد باب من أبواب الجنة، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب اللذّة، وشمله البلاء، وأكزّمه الصغار، وسيم الخسف، ومنع النصف، ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً ومراً وإعلاناً إلخ.. إلخ^(١).

هذا وليس يلزم أن يذكر المقصد دائماً، بل قد يوجب المقام إعماله وذلك إذا أراد الخطيب أن يستلج السامعين إلى ما يريد أن يأخذهم به ولو صرح لهم به لتأوا عنه. وأعرضوا بجانبيه، وقاطعوه، ففي مثل هذه الحال، يجب عليه أن يأخذهم في رفق إلى ما يريد، من غير أن يصرح بمقصده.

ألا ترى فيما ذكرنا في موقف أنتوني في رواية يوليوس قيصر، لو صرح لهم بغرضه في أول الأمر، وهو بيان أن قتله ظلمة، ما استطاع أن يتم خطبته، بل ربما مزقه الجماعة كل ممزق.

لذا نقول إن المقصد ليس يلزم ذكره في كل الأحوال، بل من الأحوال ما يجب فيها إخفاء الموضوع، حتى يبلغ الخطيب غايته، من تهية النفوس لتلقيه، إن كانوا عنه معرضين، وله غير مذعنين، أو اضطر إلى أن يخطبهم بغير ما يألّفون.

(ج) تقسيم الخطاب:

إذا كانت الخطبة واسعة الأطراف، مترامية النواحي، كثيرة الشعب، كان على الخطيب أن يجمع أشتاتها، ويضبط أجزائها، ويقسمها تقسيماً جامعاً لأطرافها وسواشها، وذلك:

(١) قد تقدم بعضها وأرجع إليها كاملة في كتابي البيان والتحصيل ج ٢، ونهج البلاغة ج ١.

١ - ليجمع عناصرها عنصراً عنصراً، وتتميز أجزاؤها جزءاً جزءاً، فلا يكون فيها اضطراب ولا تهويش ولا شروء.

٢ - وليقف السامع على سياقها وترتيبها، فيكون على هيئة منها؛ فيترقب كل جزء في موضعه، وذلك دافع لانتباهه ونقطة وحرصه على الإدراك، والفهم بعد السماع والالفتات.

٣ - ولكيلا يضيع جزء منها في مهيب الاضطراب والطول وتوسع أطراف الموضوع،

١ - ويجب على الخطيب أن يذكر الأقسام في صدر الخطبة في وضوح وجلاء وليجاز.

٢ - كما يجب أن تكون الأقسام جامعة لكل أطراف الخطبة، غير تاركة جزءاً من أجزائها.

٣ - وأن تكون فيما بينها متباعدة، بحيث لا يكون قسم داخلاً في قسم آخر، حتى لا يكون اضطراب، وتهويش وتكرار من غير حاجة إليه، فيلقى في النفس سآمة وسلالاً.

٤ - وأن تكون العلائق رقيقة بين الأجزاء، بحيث يكون كل جزء كالمرتقب على سابقه، حتى لا تكون الخطبة مقطعة الأوصال، منفصلة العراء غير حسنة الانسجام.

٥ - وأن يشرح الأقسام بالترتيب الذي ذكره في صدرها، حتى لا يضطرب فكر السامع، ولكيلا يلبس عليه، ولكي يكون النظام محكماً، فلا يكون تهويش، ولا خلل.

وأكثر ما يكون التقسيم في المرافعات القضائية، والخطب السياسية الخطبة، والشورية المسهبة كما ذكرنا، ومن المرافعات التي ذكر التقسيم الخطابي في أولها، مرافعة أحمد لطفي السيد «بك»، في الدفاع عن المتهمين في حادثة دنشواي، فقد قال في مقدمة دفاعه:

بعد أن سمعت المحكمة مرافعة زملائي، يكون مركزي حرجاً ومجالى ضيقاً، وإني لا أخشى أن أقول الحق، وأحصر دفاعي في ثلاث كلمات: فالكلمة الأولى عن سب الجريمة، والكلمة الثانية عن تطبيق القانون، والكلمة الثالثة في العقوبة، والطلبات وتقدير المسؤولية، ثم أخط يشرح تلك العناصر.

وإذا كان الخطيب في خطبته يرد على خطيب آخر، يحسن بالقدر الممكن أن يجعل الأقسام ذات اتصال بكلام الخصم وأقسام كلامه، ليثلاقي الرد مع قول الخصم، فيوضح النقض ويظهر التفنيذ.

ومن أجود ما جاء في ذلك مرافعة المرحوم أحمد لطفي «هك» في الدفاع عن قاتل بطرس غالي «باشا» رئيس الوزارة المصرية الأسبق، فقد ذكر بعد افتتاحه ما يأتي:

تطلب النيابة معاقبة المتهم بمقتضى نص المادة ١٩٤ على اعتبار الفعل المسند إليه جريمة تامة، وتستند في ذلك على:

١- أن المتهم مسئول قانوناً عن وفاة المرحوم بطرس غالي «باشا»، سواء أكانت تلك الوفاة نتيجة مباشرة للإصابات التي أحدثها في جسم العقيد، أم كانت نتيجة الصدمة الناتجة عن العملية.

٢- وأن الإصابات المذكورة في الواقع هي التي أحدثت الوفاة مباشرة.

والدفاع يجب عن التهمة بما يأتي:

(أ) أنه يجب لمسئولية المتهم عن جريمة القتل التام، أن تكون إصابته المتوفى أحدثت الوفاة مباشرة.

(ب) أن طريق إثبات العلاقة السببية بين الجروح وبين الوفاة لا يقوم إلا بطريق واحد، وهو الكشف الطبي الشرعى الذى يجب أن يحمل بطريق تشريح الجثة.

(ج) أنه بالرغم من ذلك، لم يثبت من الأدلة التي أقامتها النيابة أن الإصابات المذكورة، سببت وفاة المرحوم بطرس «باشا» غالى، وأنها ما كانت نتيجة العملية، أو أى سبب آخر مجهول.

(د) أنه مهما كان وصف الجريمة قتلاً، أو شروفاً فى قتل، فإن المتهم أيضاً غير مسئول عنها، ويجب تبرئته منها، لأنه وقت ارتكاب الفعل لم يكن مالكاً لقوة الإرادة والاختيار، فتصيب عنه قتله.

لذلك يجب أن نتكلم عن كل هذه النقاط ثم نأخذ في بيانها بإطناب ونرى من هذا كيف بنى أقسام كلامه على تفنيذ كلام الخصم.

الإثبات

هو موضوع الخطبة وغرضها، إذ فيه تلهم القضية التي يدعو إليها بالدليل والدليل عمود الخطبة، وقطبها، وقد كان بعض الأقدمين من الفلاسفة يرى أنه لا يسوغ للخطيب أن يستعمل من وسائل الإقناع سواء، كما ذكر ابن سينا في الخفاء، ولكن الحق غير ذلك، كما علمت في الإقناع الخطابي الذي ينفاه.

والإثبات قسمان: أحدهما شرح الأدلة التي يعتمد عليها الخطيب فيما يدعو إليه، وتوضيح القضية بضرب الأمثال ونحوها، ويسمى ذلك القسم تبييناً، والآخر هو إبطال حجج الخصم بما ينقض دعواه، ويسمى تغنيلاً.

التبيان

(أ) الأقيسة الخطابية والمنطقية:

في التبيان يشرح الخطيب دعواه ويؤيدها بما يراه مثبتاً لها، مقيماً لأركانها، مشيراً الأفهام لإدراكها، وقد تكلمنا فيما مضى في طرق إثارة الأهواء، ومصادر الاستدلال. ولريد أن نتكلم هنا في وضع الأدلة وضماً بلام الخطابة، ويتفق مع الغرض المنشود منها، والمرس المقصود.

ولا شك في أن وضع الأدلة الخطابية يخالف وضع الأدلة المنطقية، بعبارة أدق نقول: إن الأقيسة الخطابية لا تتفق مع الأقيسة المنطقية من كل الوجوه، ولا تتلاقى معها في كل النواحي:

١- لأن الأقيسة المنطقية تتألف من قضيتين تسميان مقدمتين، ولا بد أن تكون كلتاها يقينية، بينما الأقيسة الخطابية أو الأماليب الخطابية لا تستلزم دائماً ذكر المقدمتين، بل يكفي في كثير من الأحيان بذكر إحدى المقدمتين، وتطوى الثانية لفهمها من فحوى الكلام، وروح الخطاب. ولا يلزم أن تكون مقدمتا القياس الخطابي يقينيتين، بل يكفي في كثير من الأحيان بالظن الخائب أو العرف الشائع أو المشهور المستفيض أو من قول عرف بالحكمة والسداد، وقد ذكرنا شيئاً من ذلك فيما مضى.

٢- ولأن الأقيسة المنطقية، يكتفى في وضعها بذكر المقدمات والنتيجة من غير أن يكسو المنطقي الكلام بأي طلاء يجعله لدى العاطفة مقبولاً، بينما الأقيسة الخطابية لا يكتفى في وضعها بالملك، بل لابد من كساء من ألفاظ سهلة رشيقة، أو ضخمة فخمة، وضرب الأمثال، والتقريب والتوضيح، بالموازنات والمقاييس.

٣- وفي الجملة إن الأقيسة المنطقية مفيدة بأشكال ووجوه لا تعدوها، لكي تكون عصمة الذهن من الخطأ تامة، بينما الخطيب غير مقيد في استدلاله بأشكال ووجوه، بل هو يتبع مواضع التأثير، ومخاطبة الوجدان والعاطفة، كما يتبع الراعي مواضع الكلاء، ومنابت العشب، ومساخط الماء؛ لينتدئ أرواح السامعين، كما يغذى هذا أهدان ما يرباه.

والأمثلة على ذلك كثيرة، بل كل الخطب لا يخلو من أن تشتغل على أقيسة محللة من قيود الأشكال المنطقية. ولا ننكر أن التزام الشكل المنطقي في بعض أجزاء الخطبة قد يكون مجسلاً لها، يعطيها رونق التحقيق، ويكون ذلك شيئاً طريفاً في وسط التأثيرات الخطابية وأساليب البيان، ولكن ذلك لا يحسن إلا إذا كان المخاطبون ممن يدركون تلك المناحي، ومن يفهمون ذلك التوجع من الخطاب، فإن لكل قوم قدرأ من المعاني، ونوعاً من الكلام.

وقد قال بشر بن المعتمر في رسالته التي دفعها لإبراهيم السكوني، وهو معلم الصبيان الخطابة:

ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار السامعين، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً، ولكل حالة من ذلك مقاماً، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني، على أقدار المقامات.

وعلى كل حال يجب ألا يكثر ذلك في الخطبة، فيسودها الجفاف، وتذهب الطرافة، وتنبو التعابير، وتبعد عن المؤلف في حسن الخطاب، وتخرج الخطابة عن معناها، وطبيعتها، وعلى الخطيب إذا استعمل قياساً منطقياً في خطبته أن يعقب عليه بتوضيح معناه بعبارات خطابية وعبارات مرشاة توضح مبهمه، وترطب جفافه.

وأكثر ما تحسن الأشكال المنطقية في مواقف المحامين التي تنقيد بقيود وثيقة من مواد القانون، وتخريجاته وتطبيقه، ولا تحسن إلا بالشروط التي أسلفناها، ولا بد أن تكون في صدر الجزء الذي تتعلق به، أو في ختامه.

فمثلاً إذا كان المحامي يريد أن يثبت أن عقد بيع مزرعة كان صورياً، وأنه خرج مخرج الوصية، لأن الصيغة كبيرة، ولا يعرف للمشتري مصادر مالية، تناسب الثمن، ولأنه لم يدفع الضرائب عن المزرعة، بل دفعها البائع إلى أن مات، ولأنه لم يستوف أجرها طول حياة البائع. ولأن البائع أب للمشتري— إذا أراد المحامي هذا الإثبات، قال في أول الكلام في هذا الجزء أو في آخره، المشتري ابن البائع، ووارث له بعد موته، وقد باعه تلك المزرعة الكبيرة بيعاً صورياً، يخرج مخرج الوصية شرعاً، وكل وصية للوارث لا تصح شرعاً إلا بإجازة الورثة، فهذا العقد لا يصح إلا بإجازة الورثة. ثم يأخذ في بيان ما يراه مثبتاً لهاتين المقدمتين بأقضية قد اختلطت فيها الحقائق بالأساليب الخطائية، هنا إذا ذكر ذلك القياس أولاً. وإن أراد يذكره آخره، شرح الحقائق على النحو الذي ذكرناه، ثم عقب به، فيكون ثمرة للشرح الذي سبقه. ويكون له وقع حسن في نفس القاضي ومجلس القضاء.

الأقضية والأساليب الخطائية:

وإذا عرفنا الفرق بين الأقضية المنطقية، والأقضية الخطائية، وما يستحسن من المنطق فيها، والشروط التي يجب اتباعها عند وضع الأشكال المنطقية في الخطبة، إذا عرفنا ذلك، وجب أن نعرف الأوضاع الخطائية التي يسوق فيها الخطيب الأدلة على صحة دعوته، وبيان مراده.

لذا نقول: إن للملك طرائق متشعبة، ومسالك متباينة، يشتقها الخطيب من حال الجماعة، ومن تجاربه الخاصة، ولذلك لا نستطيع لها إحصاء، فنكتفي بذكر بعض أوضاع شاع استعمالها في الاستدلال الخطابي.

(أ) الاستدراج:

بالأ يقاچی السامعین بالتصريح بما يعتقد كلاً، بل يشككهم فيما يعتقدون، وفيما يفعلون، أو يصرح لهم ببعض ما تنتجه براهنه، حتى إذا آنس منهم رشداً، وأدرك منهم ميلاً خاطبهم بكل ما في نفسه، وقد يكتفي بهيان ذلك القدر، إن لم تكن النفوس قد تهيأت، والعقول قد استيقظت لإدراكه كلاً. والاستدراج باب خطابي واسع النطاق، وقد تهدي لشرحه بعض علماء الأدب العرب.

ونقل لك ما كتبه فيه ابن الأثير في المثل السائر إذ جاء فيه:

هذا الباب قد استخرجته من كتاب الله تعالى، وهو من مخادعات الأقوال التي تقوم مقام مخادعات الأفعال، والكلام فيه وإن تضمن بلاغة فليس الغرض منها ذكر بلاغته فقط، بل الغرض ذكر ما تضمنه من النكت الدقيقة في استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم، وإذا حقق النظر فيه، علم أن مدار البلاغة كلها عليه، لأنه لا انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرائقة، والمعاني اللطيفة الدقيقة، دون أن تكون مستجابة لبلوغ غرض المخاطب بها.

والكلام في مثل هذا ينبغي أن يكون قصيرا في خلاصه، لا قصيرا في خطابه... وقد ذكرت في هذا النوع ما يتعلم منه سلوك هذا الطريق، فمن ذلك قوله تعالى:

وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه: أقتلون رجلا أن يقول ربي الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم، وإن يك كاذبا، فعليه كذبه، وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم، إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب.

ما أجمل ما أخذ هذا الكلام وألفظه فإنه أخذهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم، فقال لا يخلو هذا الرجل من أن يكون كاذبا، فكلبه بمرود عليه ولا يتعداه، أو يكون صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم إن تعرضتم له، وفي هذا الكلام من حسن الأدب والإنصاف، ما أذكره لك فاقول: إنما قال يصبكم بعض الذي يعدكم، وقد علم أنه نبي صادق، وأن كل ما يعدهم به لا بد أن يصبهم كله لأبعضه، لأنه احتاج في مقابلة خصوم موسى عليه السلام، أن يسلك معهم طريق الإنصاف والملاطفة في القول، ويأتيهم من جهة المناصحة، ليكون أدعى إلى سكونهم إليه، فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله، وأدخل في تصديقهم إياه، فقال وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم، وهو كلام النصف، وذلك أنه حين فرض صادقا فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يعد به، لكنه أودف بقوله: يصبكم بعض الذي يعدكم، ليهضم بعض حقه في ظاهر الكلام، فيبهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه واقيا، فضلا عن أن يتحصب له. وتقديم الكاذب على الصادق من هذا القبيل كأنه برمطهم في صدر الكلام بما يزعمونه، لئلا ينفروا منه.

وبما يجرى على هذا الأسلوب قوله تعالى:

﴿واذكر في الكتاب إبراهيم، إنه كان صديقا نبيا﴾ إذ قال لأبيه يأتيت، لم تعبد ما لا يسمع، ولا يبصر، ولا يفنى عنك شيئا، يأتيت، إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك

فلاتبعتي أهلك صراطاً سيئاً * يأتيت ، لاتعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً *
يأتيت إلى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن ، فتكون للشيطان ولياً .

هذا كلام بهز أعطاف السامعين ، ثم أخذ يشرح الاستدراج في هذه الآية الكريمة ، وهو واضح للمتأمل البصير .

ولرى من هذا كله كيف يتخذ الاستدراج طريقاً لإقبات المدعى ، وذلك بأن يبدأ الخطيب في إلقاء الريب فيما عليه من يخاطبهم ، ثم يلقي إليهم ببعض ما تتجبه الأدلة مغضياً النظر عن النتائج الحقيقية السليمة التي تنتجها البراهين ، حتى إذا اطمأن إلى أنه قد أخذ بزمام الجماعة ، يقودها إلى حيث شاء ، ألقى إليهم بالنتائج كلها ليبراهيمه . والاستدراج كما رأيت ، يكون في المقامات الخطابية التي يكون الخطيب فيها متصدياً للدعوة لأمر لم تألفه الجماعة ، أو لفكرة تناقض أمراً اتفقت عليه .

(ب) القصص:

قد يعمد الخطيب إلى وضع أدلته في شكل قصص ، فيذكر حال جماعة تشابه الجماعة التي يخاطبها ، ويذكر ما يجري بينها من مناقشات في الموضوع الذي يتكلم فيه ، ويجري الحجة على ما يدعو إليه على ألسنة الفريق الذي يدعو إلى الرشاد ، وقد يذكر المعنى الذي يرمى إليه مصوراً في قصة فرضية ، أو حقيقية ، ليكون المعنى واضحاً مكشوفاً ، كما كان يفعل الخطباء القصاص في العصر الأموي .

ومن أبلغ القصص الذي كان طريقاً منتجاً للاستدلال قصص الحسن البصري ، ومن أبلغه ما قاله في بيان أن الناس متساوون ، لا فرق بين شريف ووضيع بعد الموت . فقد قال :

قدم علينا بشر بن مروان أخو الخليفة ، وأمير المصريين ، وأشب الناس ، فلما صرنا به إلى الجبابة فإذا نحن بأربعة سودان ، يحملون صاحباً لهم ، فصلوا عليه ، ثم حملنا بشراً إلى قبره ، وحملوا صاحبهم إلى قبره ، ودفنا بشراً ، ودفنوا صاحبهم ، ثم انصرفوا ، وانصرفنا ، ثم التفت الثقات فلم أعرف قبر بشر من قبر الحبشي ، فلم أر شيئاً قط كان أعجب منه .

انظر إليه قد بين مساواة الناس بعد الموت في ذلك القصص الواضح الذي يدفع إلى التسليم قسراً ، وفيه من لطف الإشارة ، وحسن التعريض ما يزيد جمالاً ، ويستغنى به عن كل استدلال .

ومن وضع الأدلة في وضع قصصى كل الأمثال القرصية التي يذكر فيها قصص غير حقيقى، وتجزى حقائق على ألسنة الحيوان كما فعل ابن المقفع في كتابه كليله ودمته.

ومن ذلك فنوع خطبة الإمام على رضى الله تعالى عنه التي ضرب فيها مثلاً، الثور الأبيض، والأسود، والأحمر، وقد ذكرناها فيما مضى فارجع إليها.

١- القياس الإضمارى وذو الحدين والتمثيل والتقليد:

قد يستعمل الخطيب تلك الأقيسة في خطبته لتلازمها مع الأغراض الخطابية، وأسلوب البيان، والحقائق التي يرمى إلى بيانها الخطيب، وتلك الأقيسة تؤدي بعض ما تؤديه الأقيسة المنطقية، ولا يضر ذكرها بعبارة البلغاء، ولا ينافي روعة الكلام.

وقد قال ابن سينا في الشفاء: الخطابة معولة على الضمير^(١) والتمثيل. وقال في موضع آخر: إن الخطابة إنما تختلف الكبريات فيها، لأنها لو صرح بها لزال الإقناع.

١- القياس الإضمارى:

والقياس الإضمارى شائع الاستعمال في الخطب فإن أكثر الخطباء يعمدون في استدلالهم إلى على بعض المقدمات، لأنها مفهومة من فحوى الكلام، واضحة من لحنه.

ومن ذلك قول الإمام على بن أبى طالب في خطبته عند مسير أصحاب الجمل إلى البصرة.

إن في طاعة الإمام عصمة لأمركم. فأعطوه طاعتكم غير ملومة، ولا مستكروه بها.

وقرى من هذا أن إحدى مقدمات القياس محذوفة، إذ لو وضع الكلام وضعاً منطقياً لقليل إن في طاعة الإمام عصمة لأمركم وكل ما اشتمل على عصمة أمركم يجب الأخذ به إلخ إلخ. ولا تكاد نجد خطبة تخلو من ذلك النوع من الحذف، إلا في النادر القليل.

٢- القياس ذو الحدين:

أن يفرض في القضية فرضين، ويبين أن كلا منهما يؤدي إلى غاية، أو يثبت نقيض ما يدعوا إليه خصمه، كما قال الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه في كتاب أرسله إلى طلحة والزبير رضى الله عنهما:

(١) يعتمد بذلك القياس الإضمارى وهو ما طغت فيه كبرى القياس.

قد علمتما أنكما من أرادني وبايعني، فإن كنتم بايعتماني طائعين فارجما إلى الله، وتوبوا من قريب، وإن كنتم بايعتماني كارهين، فقد جعلتما لي عليكما السبيل بإظهاركما الطاعة، وإسراركما المعصية.

٣- التمثيل:

أن يقيس الأمر الذي يدعو إليه على أمر مسلم به عند الجماعة فيلحقه به في الحكم لجامع بين الأمرين، وكثيراً ما يكون ذلك في الخطابة، خصوصاً إذا أراد الخطيب أن يقرب ما يدعو إليه من المعروف لديها المألوف عندها، وبما جرى مجرى الاستدلال التمثيلي قول الإمام علي رضي الله عنه في شأن مبايعة المؤمنين لأبي بكر رضي الله عنهما:

لكن نبينا كان نبي رحمة، مرض أياما وليالي، فقدم أبا بكر على الصلاة، وهو يراني وهو مكاني، فلما توفي رسول الله ﷺ رضيته لأمر ديناء، إذ رضيته رسول الله ﷺ لأمر ديناء، فسلمت عليه وبايعت، وسمعت، وأطعت.

٤- قياس الخلف:

وهو الذي يقصد فيه إثبات المطلوب بإبطال نقيضه كقوله تعالى: «لو كان فيهما آلهة إلا الله ففسدنا، فسبحان الله رب العرش عما يصفون».

وكثيراً ما يتخذ ذلك وسيلة للإثبات ولإبطال دعاوى الخصوم في الخطب القضائية في دور المحاكم.

ومن ذلك مراعاة بعض وكلاء النائب العمومي في فرنسا بطالب بإعدام متهم بالقتل، وحلل على ذلك بعد إثبات القتل، بإبطال كل طلب للتخفيف. فقال:

أهجو لي - بعد ما أظهرته لحضراتكم من الظروف المشددة، أن أتحدث عن الظروف المخففة، ولو مجرد الرد عليها، ظروف مخففة أين هي؟ أين مكانها؟ إني لا أرى فيما حو لي إلا دعا مهراقاً؟ أبحثون عنها في سوابق المتهم؟ فما أسوأها من سوابق، لقد نسي ما علمه له أهله من دروس حكيمة، ولم يصنع لتصالح والده، ففاده سوء الخلق لارتكاب الجرائم، أم تبحثون عنها في الباحث له على ارتكاب الجريمة؟ لقد قتل لمسرق، لقد أسال هذا السم الغالي البريء، الذي لا ترده أموال الدنيا جميعها، ليكسب مقلداً حقيراً من المال، ذراهم معدودة، أم تريدونها في الطريقة التي ارتكب بها جريمته؟ لقد ارتكبها بطريقة وحشية تفشع من حولها القفزة

الإنسانية، أم في رقفتها أمام القضاء، وما هو ذا يقف لاموضع للنفس في قلبه، ولا أثر للأسف في نفسه، يقذف في وجه القضاء بالأكثوية تلو الأكثوية غير هباب، ولا وجل.

هذا، ويحب على الخطيب في إيراد قضيته وتأييدها بدلائلها، أن يجعل كلامه متماسكا أخذاً بعبئه بحجر بعض، بحيث تكون كل فكرة ممهدة لما تليها، منبعثة عنها، أو مشيرة إليها، لأن الفكرة لا تعيش إلا مع أخواتها، أو مع ما يلائمها، فإن ذكرت من غير تمهيد، لم تستقر في النفس، ولم تسكن في القلب، وفوق ذلك لا يكون الكلام متسقاً في تركيبه، متساقاً في معانيه.

ولذلك يجب على الخطيب أن يلاحظ قانون تسلسل الأفكار ملاحظة تامة، ليستعمله في إثارة أفكارهم، ونهيئتها لما يريد، فإن آثار خواطرهم نحو فكرة، ألقى إليهم فيها ما يرضى نهجتهم، وما يكون إجابة لطلبهم، فيستقر في النفس، لأنه يكون بياناً في وقت الحاجة إليه؛ فيتمكن في النفس أبلغ تمكن، ويثبت فيها أقوى ثبات.

التفنيد

هو أن يبين الخطيب بطلان ما يدعيه الخصم

والتفنيد مقام خطير لا يناله إلا ذو البيان القوي الذي أوتي أكبر حظ من حضور البديهة، والعلم الغزير، والاستيلاء على أساليب القول، إذ هو جواب الخصم على ما يدعى من مله، وما يقيد به دهواه من حجج، وهو إزالة تأثير حجج الخصم، وألرها في نفوس السامعين، وقد قال ابن عبد ربه في العقد الفريد: «إن الجوابات هي أصعب الكلام كله مركباء وأصعب مطلباً، وأغمضه منصفاً، وأضيقه مسلكاء، لأن صاحبه يعمل مناجاة الفكرة، واستعمال القرينة، يروم في بليغته نقض ما أبرم القاتل في ريعه، فهو كمن أخذت عليه الصجاج، وسدت له المخرج، قد اعترض الأستة واستهدف للمرامي لا يدري ما يقرع فيتأهب له، ولا ما يفرقه من خصمه فيقرعه بحلله. ولا سيما إذا كان القاتل قد أخذ بمجامع الكلام، فقاده بزمامه بعد أن رأى فيه، واحتفل، وجمع خواطره واجتهد، وترك الرأي يئس حتى يختم... فلا يزال في لسج الكلام، واستنفاكه، حتى إذا اطمأن شارد وسكن نافره، صك به خصمه جملة واحدة، ثم قيل له: أجب، ولا تخطئ، وأسرع، ولا تبطل، فتراه بجواب من غير أناة ولا استعداد، يطبق المفصل، وينفذ المقاتل، كما يرمى الجندل بالجندل، ويقرع الحديد بالحديد، فيحل به عراه،

وينقض به مرائره، ويكون جوابه على أكثر كلامه، كحاجة ليدت عجاجته، فلا شيء أحصل من الجواب الحاضر، ولا أعز من الخصم الألد الذي يقرع صاحبه، ويصرع منازعه بقول كمثله النار في الحطب الجزل.

وللتفنيد حالان:

أحدهما: أن يتصدى لنقض برامين الخصم قبل أن يدلى بها، وذلك بأن ينفذ كل ما يتصوره دليلاً لخصمه، ويفرض كل الفروض، ثم يهدمها فرضاً فرضاً، حتى لا يبقى أمر ثابت سوى دعواه، ويحمد إلى هذا بعد أن يشيع السامعين، بذلائل إيجابية، على صدق دعواه؛ ليكون التحقيق قطعاً لطريق الإثبات على الخصم، ومهاجمة له في صميم استدلاله.

ثانيها: أن يرد على الخصم بعد إلقاء أدلته، بأن يبين ما فيها من غلط وتلبس، ويظل ما يتجه إليه من نظر.

ومهما يكن وقت رده، يجب أن يكون هو متنبهاً إلى كل ما يتمد عليه خصمه من دليل، وأن يكون في رده عليه واضحاً. معلناً أن الغرض هو الوصول إلى الحق، لا الغلب والسبق، وألا يشرذ عن موضع النزاع، ولا بعيد عن الاحتصام بأداب اللباقة وحسن الأخلاق.

وأوجه الرد على الخصوم متعددة مختلفة متباينة: منها إبطال مقدمة دليل خصمه، ومنها إقامة الدليل على نقيض دعواه، والموازنة بين الدليلين، وإثبات أن دليله أئوم قبيلاً، وأسد منهجاً، ومنها المنع وعدم التسليم، وبيان أن لا دليل على ما يقول، ومنها الاستشهاد بالشقات على ما يقول.

وأقوم أساليب الرد أن يعتد عند تفنيد أدلة خصمه، بذكرها واضحة قوية الموضح، ويحسن أن يضعها في شكل قياس منطقي، لأن الأشكال المنطقية، تساعد وضعها على تزييف ما يراه الخصم، إن كان هناك موضع للترديد، ثم يتجه عند نقضه إلى الأقيسة الخطائية، والأشكال المنطقية معاً، على النحو الذي أسلفناه في البيان.

ومن أمثل الخطاب المشتملة على تفنيد كلام الخصم في نهوض استدلال مع الأدب والجم، والخطاب الرائق، ما جاء في إحدى خطب المغفور له سعد باشا، وغلول في الجمعية التشريعية يرد على الحكومة فيما كانت تراه في إنشاء الجماعات التعاونية، فقد قال: موضوعنا الذي نتناقش فيه والذي استلقت إليه أنظار حضراتكم هو هذا: كيف تتكون شركات التعاون؟ هل تتكون بأمر من السلطة الإدارية، أو يكون أمر من هذه السلطة؟ ترى الحكومة

وجوب ألا توجد هذه الشركات إلا بأمر إداري، ونرى اللجنة أنها توجد كسائر الشركات التي لا تحتاج في تكوينها، إلا إلى العقود، ولكن لا يكون وجودها حجة على الغير، إلا إذا سجلت عقودها، بطريقة خاصة، وبحسب شروط خاصة. نقول الحكومة تأييداً لرأيها: إن الشركات في حاجة ضرورية إلى اقتراض المال، وكل شركة محتاجة إلى اقتراض، لا يمكنها الحصول عليه بفائدة معتدلة إلا بواسطة؛ ويلزم كون شركات التعاون في حاجة إلى ومباطى هذه ألا توجد إلا بإذن، فلذا أننا نشتد وجود هذا الشرط. مقدمات غير مسلمة، ونتيجة باطلة، أما وجه بطلان المقدمة الأولى، وهي أن كل شركة في حاجة إلى اقتراض المال، فإن الذي نعلمه أن هناك كثيراً من الشركات مكتفية براء ور أموالها، وما تنتجه رؤوس الأموال هذه من الأرباح، بدون حاجة إلى الاقتراض، وهي مسألة بديهية، يعرفها الناس جميعاً. فلا تحتاج إلى دليل. وأما المقامة الثانية وهي أن كل شركة تكون محتاجة إلى الاقتراض، لا يمكنها الحصول على المال بفائدة معتدلة، إلا من طريق الحكومة وتدخلها، فهي مجرد دعوى من الحكومة، قد ادعتها، ولم تقم الدليل عليها، ولا أظنها نستطيع ذلك، ومع ذلك فهي تريد أن تبنى عليها أمراً مهماً جداً، وهو أن يكون لها حق في أن تأذن للشركات بالوجود. وجه بطلان هذه المقدمة أن الشركة مادامت قانونية، ومادامت حالتها تدعو إلى الاعتدال، فلا يوجد مانع يمنع المصارف من إقراضها المال بتلك الفائدة المعتدلة.

وأما بطلان النتيجة فلأنه لا يلزم من كون شركات التعاون، تحتاج إلى وساطة الحكومة في الحصول على المال، ألا توجد إلا بإذنها، لأنه لا رابطة تربط مسألة الوساطة بمسألة الإذن، إذ من المعلوم أن شركة موجودة معنوية له حقوق، وعليه واجبات، والوجود المعنوي كالموجود الحقيقي سواء بسواء، فكما أن الشخص الحقيقي لا يحتاج في وجوده لإذن من الحكومة، كذلك الشخص المعنوي، لا يحتاج في وجوده، إلى هذا الإذن منها، والحكومة لا يمكنها أن تقول: إن وجود هذه الشركات موقوف على إذن مدام محتاجة إلى وساطة في الحصول على المال. كما أنها لا يمكنها أن تقول: إن وجود هذا المولود في الحياة موقوف على إذن مدام محتاجاً إلى القضاء، والكساء، والرضاعة، والتربية. ثم يسترسل رحمه الله في تفنيد خطابي مجيد بعد ذلك التفنيد للتطقي المبين.

الخاتمة

هي آخر ما يلقيه الخطيب من خطبته، فلها الأثر الباقي الواضح، إذ هي آخر كلامه ذكراً، فكانت أحلقه بنقوسهم، وأكثره اتصالاً بقلوبهم، فإن هي كان وقمها حسناً، انسحب ذلك على الخطبة حسناً، وإلا ساء الأثر وضاعت الغاية المنشودة، والأمل المرجو، والأمر الميضي، ولذلك يجب أن يكون فيها من جمال التعبير، وحسن الانسجام، وجودة المعنى، وإصابة الغرض، ولطف المقطع، وإحكامه، ما يبقى أحسن الآثار وأحكم الأفكار.

ويحسن أن تكون الخاتمة مشتملة على:

١ - موجز لما ألقاه وتوضيح كامل لغايته وسماءه.

٢ - وأن تكون مشيرة للعاطفة في الأمر الذي يرده الخطيب، فإن كان تهليداً وإنذاراً كان فيها أقواهما، وإن كان إثارة للحماسة، وحضراً للهمم، ألقى في الخاتمة أبلغ ما يثيرهما، وإن كان يريد من خطبته إثارة عاطفة الرحمة، أتى بأشد ما يثيرها في خاتمة القول.

ومن أقوى الكلام الذي حسن اختتامه، قول علي بن أبي طالب في كتاب أرسله إلى معاوية فرد به على تهليله إياه: وأنا مرقل نحرك في جحفل من المهاجرين والأنصار، والتابعين لهم بإحسان، شديد زحامهم، ساحط قتالهم، متسرفين سرفال الموت، أحب اللقاء إليهم لقاء ربهم، وقد صحبتهم ذرية بدرية، وسيف هاشمية، قد عرفت مواقع نصالها في أخيك وخلك، وجيتك، وأهلك، وما هي من الظالمين بعيد.

ومن أبلغ الاختتام ما قاله المرحوم سعد «هاشاه» زقلول مختتماً إحدى خطبه التي قالها
إثارة للحمية:

أيها المصريون، استعمروا بكل همة وإقدام في طريق استقلالكم، واحترموا حقوقكم، وستلاقون فيه عقبات، فذللوها بعزيمتكم، وآلاماً فقاووها بحسن احتمالكم، ومطلب منكم ضحايا فابذلوها بكرمكم، وسيقع عليكم ضغط شديد فقابلوه بهممكم العالية، وعزمكم الصادق، إذ كلما علت الهمم، وصدخت العزائم، هانت الخطوب، وفتت المنى، ونجح المسعى، وكان النجاح عظيماً، وكلما كان ثمن الاستقلال غالياً، وأكلافه باهظة، حرصنا عليه بعد نيله، وكان علينا بركة، وعلى البلاد نعمة وسروراً.

التعبير

تكلمنا في الفصول السابقة في إيجاد المعاني الخطابية وتنسيقها، والآن نتكلم في طرق تأديتها، والتعبير عنها، والدلالة عليها، والألفاظ التي تناسبها، والأساليب التي تليق بها، وما يجب أن تكون عليه الخطبة في مناهجها، ومقاطعها؛ وفي الجملة نتكلم في الإنشاء الخطابي وما يجب أن يكون عليه.

١- قبل أن نخوض في الموضوع، يجب أن نشير إلى مسألة كتب فيها بعض الكتاب، وهي مكانة الألفاظ في الإنشاء، فإن بعض الأدباء الذين تأثروا ببعض الآداب الأوربية، وحاولوا أن يقيموا منها في كتاباتهم العربية أخذوا يشون بين الشيء، أن المَعْنَى عليه في الإنشاء المعنى، لا اللفظ، وأن المعنى المحكم لا يحتاج إلى اللفظ الجميل، لأن الجمال كله يرجع إلى المعنى، إذ هو مناط التقدير، وسبب التأثير، بل يذهب بهم فرط غلوهم إلى ادعاء أن تحسين اللفظ يذهب بهلال المعنى، وأن جودة الصقل تجعل على المعنى غشاء كشيافاً يمنعه من البروز والظهور، وقد صادفت فكرتهم هوى في نفوس بعض الكتاب، فخلت كتاباتهم من اللباجة العربية، بل أسفت في بعض الأحيان إلى الابتدال، وبرودة الألفاظ، وخروج الأسلوب على المنهج العربي، وهم يعدون طريقتهم هي الطريقة المثلى.

وفي الحق أن ذلك شطط، وهضم لمكان الألفاظ في الدلالة والتأثير، ولعله كان محاربة لشطط آخر في جانب الألفاظ، فإننا قد ورثنا عن عصور ضعف اللغة العربية، عناية باللفظ لا بالمعنى، حتى جعلوا المعنى بالحل الثاني، واللفظ المكان الأول، فكان الإنشاء ضجيج ألفاظ، وقعقة عبارات، والمعنى ذاته صغير.

٢- ولسلوك الجادة المستقيمة يجب أن نعطي المعنى حقه، واللفظ حقه، وأن نعترف أن الألفاظ هي التي تظهر المعاني، وتحملها وتبديها في رواء بهي. ويعتقد جوستاف لوبون أن شطراً كبيراً من تأثير قواد الجماعات، خطباء وكتباء، يعود إلى الألفاظ التي يثيرون بها صورا وآمالا في نفوس الجماعات، وإن كانت في ذاتها معانيها مبهمه، غير محدودة ولا مضبوطة، فهو يقول: لبعض الألفاظ والجمل، سلطان لا يضعفه العقل، ولا يؤثر فيه الدليل، ألفاظ وجمل، ينطق بها المتكلم غاشعاً أمام الجماعات، فلا تكاد تخرج من فيه حتى تعلو الهيبة وجوه السامعين، وتمتد الوجوه له احتراماً، وكثيرون يعتقدون أن فيها قوة إلهية، ألفاظ وجمل تثير في

النفوس صوراً لا كيف لهما، ولا انحصار، محفوفة بالإكبار والإعظام، إيهامها يزيد في قوتها الخفية. وإذا كانت هذه الألفاظ التي تثير صبراً مبهمة، غير معروفة بالثبوت، لها ذلك الأثر، فكيف يكون الشأن للمعنى المحكم قد كسى بالفظ جميل، وألقى في أسلوب منسجم، وعبوات تثير في النفس أحيلة وأمانى وأحلاماً.

٣- ويظهر أن المعركة قديمة بين أنصار الألفاظ، وأنصار المعاني، فإننا نرى في كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري دعوة صارخة إلى العناية بالألفاظ، بجوار العناية بالمعنى، ويرد على من يرى أن العبرة في جودة الكلام إلى معانيه فقط؛ ويرى أن تفاوت البلاء في البلاغة، ليس بإيراد المعاني بل بجودة الألفاظ وحسن سبكها، فيقول: ومن الدليل على أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ، أن الخطيب الرائعة، والأشعار الرائقة، ما عملت لإفهام المعاني فقط؛ لأن الردى من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها في الإفهام، وإنما يدل حسن الكلام، وإحكام صناعته، ورويق ألفاظه، وجودة مطالعه، وحسن مقاطعه، وبديع مبادئه، وغريب مبانيه، على فضل قائله، وفهم منشئه. وأكبر هذه الأوصاف ترجع إلى الألفاظ، دون المعاني، وتوخى صواب المعنى أحسن من توخى هذه الأمور في الألفاظ.

ونرى أيضاً ابن الأثير رد على من يزعم أن الألفاظ تتساوى في الحسن مبادم المعنى واحداً فيقول في المثل السائر: ومن يبلغ به جهله إلى أن لا يفرق بين لفظ النعمن ولفظ العسلوج، وبين لفظة السيوف ولفظة الخنثليل.. فلا ينبغي أن يخاطب بخطاب، ولا يجاب بجواب، بل يترك وشأنه، وما مثاله في هذا المقام إلا كمن يسوى بين صورة زنجية سوداء مظلمة السواد، وشواء الخلق، ذات عين محمرة، وشغة غليظة، كأنها كلفة، وبين صورة رومية ببغاء مشربة بحمرة ذات خد أسيل، وطرف كحيل، ومبسم كأنما نظم من أقبح، وطرة كأنها ليل على صباح، فإنما كان بإنسان من سقم النظر أن يسوى بين هذه الصورة وهذه، فلا يعد أن يكون به من سقم الفكر أن يسوى بين هذه الألفاظ وهذه. ولا فرق بين النظر والسمع في هذا المقام؛ فإن هذا حاسة وهذا حاسة؛ ومن ثم أدنى تأمل يعلم أن الألفاظ في الأذن نعمة لذيدة، كنعمة أوتار، وصوتاً منكراً كصوت حمار، وأن لها في القم أيضاً حلاوة كحلاوة العسل، ومرارة كمرارة الحنظل، وهي على ذلك تجري مجرى النعمات والطعوم.

٤- ومن هذا كله ترى أن تحسين اللفظ يجب أن يكون بجوار إحكام المعنى، وأنه لا غنى للمنتشى عن المعنى المحكم، لأنه عمود الكلام، والمقصد الأسمى، ولا عن اللفظ لأنه

بهاء القول، وزينه، ضرر أنه يجب أن يلاحظ المنشئ السلاجة، وأن يبدو التحسين طبعياً من غير تكلف ظاهر، فيجتهد في تحسين اللفظ، ولكن يظهر به في مظهر الطبعي الذي لا تعمل فيه، لأن التكلف إن ظهر ثقل على النفس، وكان الكلام مستهجناً، وقد قال أبو الفرج قدامة بن جعفر في كتابه نقد الشر: ومن الأوصاف التي إذا كانت في الخطيب سمي سديداً، وكان العيب معها بعيداً، أن يكون في جميع ألفاظه ومعانيه جارياً على سجيته، غير مستكبر لطبيعته، ولا متكلف ما ليس في وسعه، فإن التكلف إذا ظهر في الكلام هجته، وقبح موقعه، وحسبك من ذم التكلف أن الله عز وجل أمر رسوله صلى الله عليه وسلم، بالثبوت منه فقال تعالى: ﴿لَلَّ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾.

فتحن وإن طالبنا المنشئ خطيباً أو كاتباً أن يعنى باللفظ، ويعمد إلى تجميله وتخسينه، فليس معنى ذلك أن يتكلف، ويبدو متكلفاً، متشادقاً متفريقاً، بل معناه أن يجعل كلامه منسجماً، متآخياً التبررات، لا تبدو ألفاظه، ولا تتجافى عباراته، ولا يسف في أسلوبه إلى العامة.

الفرق بين الأسلوب الكتابي والأسلوب الخطابي:

١ - لم يفرق كثيرون من النقاد الأقدمين بين الأسلوب الكتابي والأسلوب الخطابي، فقدامه بعد البلاغة في الكتابة والخطابة واحدة، ولكنه يتساهل مع الخطيب المرتجل، ويغفر له هفوات لا يغفرها للكاتب، ويروي قول عبد الله بن الأهم: إني لست أعجب من رجل تكلم بين قوم، فأخطأ في كلامه، أو قصر عن حجته، لأن ذا الحجا، قد ناله الخجلة، ويسرك الحصر، ويعزب عنه القول. ولكن العجب من أخذ دواة وقرطاساً، وخلا بفكره وعقله، كيف يعزب عنه باب من أبواب الكلام يرويه، أو وجه من وجوه المطالب يؤمه.

وأبو هلال العسكري يقول: وأعلم أن الرسائل والخطب متشاكلتان في أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقية. وقد يتشاكلان أيضاً من جهة الألفاظ والفواصل، فألفاظ الخطباء تشبه ألفاظ الكتاب، في السهولة والعذوبة، وكذا فواصل الخطب. مثل فواصل الرسالة. لا فرق بينهما، إلا أن الخطبة يشاغف بها، والرسالة يكتب بها، والرسالة تجعل خطبة، والخطبة تجعل رسالة في أسر كلفة.

٢ - والذي نراه وراء كثيرون من الأدباء المحنثين، وبعض المتقدمين أن للكتابة إنشاء، وللخطابة إنشاء آخر، لأن الكاتب غير الخطيب. ويلاحظ في عبارات الثاني مالا يلاحظ في

عبارات الأول، فإن كلمات الخطيب يلاحظ فيها أمران لم يلاحظا في الكتابة: أحدهما أن الكلمات تمر على لسان الخطيب قبل أن يلقوها. وثانيهما أن لها أثرا في أذن السامع، ولجرسها وقع في نفسه؛ فالسامع للخطيب يذوق، ويسمع ويفهم ويلاحظ النطق. أما القارئ للكاتب، فينظر إلى استقامة الأسلوب. ويفقه المعنى فقط؛ ولذلك يجب أن تكون ألفاظ الخطبة سهلة النطق، لا يعثر اللسان في إبرازها، ولا تتراحم حروفها؛ فلا تتقارب مخارجها، ولا تتباعد، وأن تكون ذات رنين خاص يهز أوتار النفس ويشير الشعور، ويجب أن تكون مقاطع الخطبة ذات وقع مؤثر، يلد للسمع، ويكمل الكلام. أما الكتابة فلا يشترط في مقاطعها مثل ذلك الشرط، بل ربما لا يلاحظ أن يكون لها فواصل.

٣- وإن الكتابة قد تقيد بقيود النطق، ولا تشتمل على ما يشير الشعور، ويوقظ الوجدان، كالذكرات القانونية، وأشباهاها، ولا بعد ذلك عيبا فيها، أما الأسلوب الخطابي، فلذا ذهب حنصر الشعور والوجدان منه، فقد أكبر خصائصه، وأعظم مزاياه.

٤- وإن التكرار والتفنن في التعبير عن المعنى بعبارات وأساليب مختلفة وسيلة من وسائل التأثير الخطابي، ينتج إليه الخطيب، فيكرر القضايا الكلية مرة مقروءا، ومرة مستفهما، وأخرى مستكرا، ومرة متهمكا، وأخرى عاقدا بينها وبين سابق عرفاتهم، وذلك كله من غير شك في غير المقامات التي لا تقضى لإيجاز، أما الكتابة فإن أكثر الإطناب فيها لا يكون على هذه الشاكلة، بل بالتحليل، والتفصيل، والاستقراء، ونحو ذلك.

٥- وإن الخطيب مأخوذ في إطنابه، وإيجازه بحال السامعين، من حيث قبولهم أو رفضهم، وإقبالهم، أو مللهم، فقد يشير إلى بعض العناصر إشارة، ولم بها للإمامة، بينما يطلب في العناصر الأخرى، ويسهب في القول، لأن حال السامعين تقتضي ذلك. أما الكتابة، فيجب أن يوفى فيها الكاتب ما يكتب، بإيجاز أو إطناب، لأن بين يديه للوضوح فقط، وليس كذلك الخطيب؛ إذ يلاحظ السامعين فيطلب أحيانا، ليرضى شهرتهم، وليستفز شعورهم، ويوجز، بل يشير إن اضطر إلى ذلك، فيبدو الخلط بادی الرأي غير متناسبة الأجزاء، ولا متلائمة، ولكنها الحال هي التي اضطرته، وأكجأه، والكاتب في فسحة هو وقاره.

٦- هنا مجمل صغیر يشير إلى ما بين الأسلوب الخطابي، والأسلوب الكتابي، من فروق، وقد يقول قائل: إن بعض الخصائص الخطابية مجدها في بعض الكتابات، ككتاب يرسله زعيم إلى أمته، أو مقال صحفي يكتبه الكاتب في صحيفة بحث فيه الأمة على فعل، ويدعوها

إليه، أو ينهانا عن أمر، ويغضها فيه، ونعني نوافق القائل على ذلك؛ ونقول: إن الأسلوب الخطابي غالب في الخطابة، والكتابي غالب في الكتابة؛ وقد تستعير الكتابة من الخطابة أسلوبها، كما إذا كان الكاتب في مقام يشبه مقام الخطابة، كزعيم يخاطب أمته عن طريق الصحف، إذا تعرض عليه خطابها عن طريق المشافهة، وقد يستعير الخطيب من الكتابة أسلوبها، ويكون ذلك موافقا لمقتضى الحال، كبعض الشمامسة الذين تستغرق مرافعاتهم الدفوع القانونية، والبحوث الاشتراكية. فمن الكتابة ما يكون خطابة، تنقصها المشافهة، ومن الخطب ما يكون كتابة تنقصها القلم.

وما دنا في مقام التعبير عن الخطبية دون سواها فلنتجه إلى بيان الإنشاء الخطابي
فضل بيان:

الإنشاء الخطابي

نريد في هذا الموضوع أن نتكلم في ألفاظ الخطبة، وأسلوبها ومقاطعها، وما ينبغي أن يلاحظه الخطيب في كل منها.

الألفاظ:

نريد بالألفاظ الكلمات المفردة، وقيل أن نبين ألفاظ الخطبة نقول: إن بعض علماء النقد الأدبي، كعبد القاهر، أتكر أن تكون للكلمات فصاحة خاصة، وجعل الفصاحة والبلاغة خاصيتين بالتركيب، ولا تتناولان المفرد، فهو يقول في دلائل الإعجاز: هل نجد أحداً يقول هذه اللفظة فصحة، إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملائمة معناها، لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأختواتها؟ وهل قالوا لفظة متمكنة ومقبولة، وفي خلافتها قلقة ونائية ومستكرهة، إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمسك عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك، من جهة معناها، والاتفاق والنبو عن سوء التلاؤم، وأن الأولى لم تلق الثانية في معناها، وأن السابقة لم تصح أن تكون لفقاً للتالية في مؤداها. وهل تشك إذا فكرت في قوله تعالى: ﴿وقيل بالأرض، ابلعي ماءك، وباسماء، أقلمي، وضحي الماء، وقضي الأمر، واستوت على الجودي، وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾ فتجلى منها الإعجاز، وبهرك الذي ترى وتسمع، إنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة، والفضيلة القاهرة، إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وإن لم يمرض

الحسن والشرف إلا حيث لاقت الأولى الثانية، والثالثة الرابعة، وهكذا، إلى أن تستقر بها إلى آخرها، وأن الفضل نابع ما بينها، وحصل من مجموعها. ثم يسترس في تحليل أوجه البلاغة في الآية الكريمة.

وأكثر علماء البلاغة والنقد على أن للألفاظ فصاحة خاصة بمنورها وقد ذكرنا لك بعض مقالة ابن الأثير في هذا المقام آنفاً؛ فارجع إليه. وبهذا الرأي تأخذ، وعليه نعتمد، وعلى ذلك نذكر بعض الأوصاف اللازمة للكلمات التي تتألف منها الخطابة، ولا نتعرض لما قاله علماء البلاغة في مقدمة علومها، من وصف للكلمة الفصيحة، فذلك يعم الكتابة، والخطابة، والشعر، وإنما نتعرض لما هو من خصائص مفردات الخطابة، وميزاتها، ولوازمها، وهي كثيرة منها:

١ - أن يكون اللفظ واضحاً مكشوقاً وقريباً معروفاً، من السهل إدراك معناه، والوصول إلى مرماه، لا يبعد عن مأثور السامعين، ولا يتعاضى عن معروفهم، ولا كان غريباً يعلو على مداركهم، ومن يفهمه منهم يحس بأنه خير إنسى، ويضبه أن يكون وحشياً؛ لأنه يمشي في غير بيئته، ويخاطب به غير أهله، وقد تكون الكلمة التي على هذه الشاكلة من العربية الصحيحة التي كانت شائعة عند العرب، ولكنها غير شائعة عند الجماعة التي يخاطبها، ولهذا نستحسن مخاطبتهم بها لأن الخطبة للتأثير فيهم، وإثارة وجدانهم، ولا يكون ذلك إلا بما هو مفهوم لهم، مأثور استعمال عندهم.

٢ - ألا تكون الألفاظ مبتذلة أو مستفلة إلى درجة العمية. فيذهب رواء الخطبة، ويضيع جلال معانيها، كاستعمال لفظ أتمشم في موضع أرجو أو آمل، أو أطلع، وكاستعمال لفظ أفنكر في موضع أفنكر، أو أفكر، أو أمال، أو أذكر، ونحو ذلك من الألفاظ العمية، أو المبتذلة القريبة منها، التي شاع استعمالها على ألسنة بعض خطبائنا خطأ؛ فعلى الخطيب أن يتقن الألفاظ الخطبة، من غير أن يقرب، فيبعد عن المفهوم المألوف، ومن غير أن يزلزل قلبه بالمبتذل أو العامى. في حضرة من يفهم الفصحى. قال بشر بن المعتمر في وصايا الخطيب: فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، ولطف مدخلك واقتدارك على نفسك، أن تفهم العامة معاني الخاصة، وتكسوها الألفاظ الواسعة، التي تلتطف عن الدهماء، ولا تجفوا عن الأكفاء فأنت البليغ العام.

٣ - وأن تكون في الخطبة ألفاظ مناسبة مثيرة لخيال الجماعة، موقظة للذكريات حية في نفوسهم، فإن كل جماعة عندها طائفة من الألفاظ، إذا ذكرت، أثارت خيالات تهز النفس

بالسرور والأطمئنان، أو بالسخط والغضب، كالألفاظ الإخاء، والمساواة، والحرية، والديمقراطية، حدد الثوار في الثورة الفرنسية، فإنها كانت تهزهم، كل عمل يربطه الخطيب بها يندفعون إليه، ويقلمون عليه، وعلى نقيض ذلك كانت ألفاظ الاستبداد، ونظام الطبقات، والباستيل، تهز النفس بالغضب وتثير فيها ذكريات مؤلمة، فإذا ذكر عمل مقرون بها نفروا منه، ونأوا عنه، وفار سخطهم على القائم به، وكذلك الشأن في كل الجماعات، والخطيب الماهر من يقبس من هذه الألفاظ في الخطبة، ما يكون له الأثر الكبير فيما يريد، ولكن يلاحظ أنه لا يحسن وجود هذه الألفاظ في الخطبة، إلا بشرطين: أحدهما الملاءمة التامة بينها، وبين ما يريد، فإذا كان يخطب في جماعة يحسنهم على طلب الاستقلال السياسي أكثر من ذكر الألفاظ التي تثير الخيال في هذه الفاحية، من مثل الكبرياء القومية، العزة الوطنية، الحرية السياسية، عار الاحتلال، ذلة الاستعباد - وإذا كان يخطب قوماً في الحث على أداء فريضة الحج، ذكر الحرم الشريف، ومقام إبراهيم، والبقيع، وزمزم، وغير هذا من تلك الأسماء التي تثير معاني عميقة الأثر، وإذا كان يخطب في الحث على الصوم ذكر قرب الصائم من ربه، والتجرد من ملاذ الحياة، ومشاركة نفس الصائم للمعاني القدسية، وغير ذلك من العبارات التي تثير الوجدان، وتوقظ في النفس معاني سامية، وليحذر الخطيب من أن يحم في خطبته ألفاظاً تثير ذكريات غير ملائمة للموضوع، كأولئك الخطباء، الذين يقحمون كلمة الاستقلال في أكثر الموضوعات الخطابية، لأنني ملاسة، ولأقل علاقة.

فإنهـما : ألا تكون تلك الألفاظ قد أبلها الاستعمال، وذكرها يؤدي إلى الابتذال. فإذا لاحظ الخطيب ذينك الشرطين حدد الاستعمال كان الأثر بليغاً، وقد قال العلامة جوستاف لوبون في بيان تأثير ذلك النوع من الألفاظ، وسببه : السر في تأثير الألفاظ للصور التي تخضر في اللحن بهاء وليس لذلك التأثير لرباط بمعانيها الحقيقية، بل الغالب أن أشدها تأثيراً ما كان معناه غير واضح تماماً، مثال ذلك كلمات: ديمقراطية، اشتراكية، مساواة، حرية، وهكذا مما أبهم معناه ويحتاج في تعيينه إلى مؤلفات ضخمة، والجميع، يسلم أن لها سلطاناً ينساب في النفوس، كأنها اشتملت على حلل للمسائل الاجتماعية كلها، وفيها تتمثل الأميال الباطنية على اختلافها، والأمل في تحقيقها.

٤- أن يختار الألفاظ الجزلة في مقامها، والريقة كذلك، ففي نحو التهديد والضرر، وإثارة الحمية، والحماسة، والحث على الجهاد، يختار الألفاظ الجزلة القوية، وفي نحو إظهار الأسى، والألم، يختار الرقيق من الألفاظ، وقد يتساءل الإنسان عن حقيقة الجزل، وحقيقة

الرفيق، فلا يجد تعريفاً مميزاً معصوماً، لأن ذلك أمر يدركه ذو النطق الأدنى، في نطقه، وفي جرسه، ووقعه في الأسماح والشعور، وقد بين ابن الأثير جزل الألفاظ ورفيقها من طير تعريف، فقال: لست أعنى بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشياً متوعراً، عليه عنجهية البداهة، بل أعنى بالجزل أن يكون متيناً على عنونه في الفهم، ولذا فقه في السمع، ولذلك لست أعنى بالرفيق أن يكون تركيباً مفسداً، وإنما هو اللطيف الرفيق الناعم الملمس، وسأضرب لك مثلاً للجزل من الألفاظ، والرفيق فأقول: انظر إلى قوارع الألفاظ عند ذكر الحساب، والحساب، والميزان والصراف، وعند ذكر الموت، ومقارعة الدنيا، وما جرى هذا المجرى، فإنك لا ترى شيئاً من وحشي الألفاظ، ولا متوعراً. ثم انظر إلى ذكر الرحمة، والرفقة والمغفرة. والملاطقات في خطاب الأنبياء، وخطاب للتبيين والتبيين من العباد وما جرى هذا المجرى، فإنك لا ترى شيئاً من ذلك ضعيف الألفاظ ولا مفسداً، فمثال الأول وهو الجزل من الألفاظ قوله تعالى: ﴿ ونفع في الصور، فصمق من في السموات ومن في الأرض، إلا من شاء الله ثم نفع فيه أخرى، فإذا هم قيام ينظرون ﴾ وأشرقت الأرض بنور ربها، ووضع الكتاب وجى بالنبيين والشهداء، وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون ﴾ ووفيت كل نفس ما عملت، وهو أعلم بما يفعلون ﴾ وسبق الذين كفروا إلى جهنم زمراً، حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها، ألم أنكم رسول منكم يقولون عليكم آيات ربكم، وينذرونكم لقاء يومكم هذا، قالوا بلى، ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ قبل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبعض مشرى المتكبرين ﴾ وسبق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً، حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها، سلام عليكم طبتم، فادخلوها خالدين ﴾ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده، وأورثنا الأرض، تنبأوا من الجنة حيث نشاء، فنعم أجر العاملين ﴾. فتأمل هذه الآيات المتضمنة ذكر المحشر على تفاصيل أحواله، وذكر النار والجنة، وانظر هل فيها لحظة إلا وهي مستعينة، على ما بها من الجزالة، وكذلك ورد في قوله تعالى: ﴿ ولقد جعتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ثم كنتم بما عملتمونا كفروا وظهروا، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء، لقد تقطع بينكم، وضرب عنكم ما كنتم تزعمون ﴾. وأما المثال الثاني وهو الرفيق من الألفاظ فقوله تعالى في مخاطبة النبي ﷺ: ﴿ والضحى ﴾ والليل إذا سجى ﴾ ما ودعك ربك وما قلى ﴾ إلى آخر السورة؛ وكذلك قوله تعالى في ترغيب المسألة: ﴿ وإذا سألك عبادي عني، فإني قريب، أجيب دعوة الداع، إذا دعان ﴾، وهكذا ترى سبيل

القرآن الكريم في كلا هذين المجالين من الجزالة والرقعة. ويقول بعد كلام طويل: اعلم أن الألفاظ تجري من السمع مجرى الأشخاص من البصر، فالألفاظ الجزلة، تتخيل في السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوي دماثة ولين أخلاق، ولطافة مزاج، ولذا نرى ألفاظ أبي تمام كأنها رجال قد ركبوا خيولهم واستلأموا سلاحهم، وتأهبوا للطراد، ونرى ألفاظ البحري، كأنها نساء حسان عليهن غلاثل مصبغات، وقد تخلن بأصناف الحلبي، وإنا أنعمت نظرك فيما ذكرته هاهنا، وجدنتي قد دلتك على الطريق وضربت لك أمثالا مناسبة.

من هذا الكلام القيم نستطيع أن نتصور الألفاظ الجزلة، والألفاظ الرقيقة، وإن لم نحلها بتعريف جامع مانع، وكفينا ذلك في هذا المقام، وعلى الخطيب أن يضع كل نوع منها في موضعه. فعندما يكون في حاجة إلى قرع الحس، وإثارة، يختار الجزل، وعندما يريد أن يمس شعور الخطابين مساً رفيعاً، لأن المقام يقتضي ذلك، يختار رقيق الألفاظ، لينها، ومن ذلك خطبة المغفور له سعد زغلول في حفل الطلبة التي ذكرناها.

ومن الكلام الجزل القوي قول الشعبي معتذراً عن اشتراكه في فتنة ابن الأشعث: أجذب الجناح، وأحزن بنا المنزل. واستحسنا الحلو واكتحلنا السهر، وأصابنا فتنة لم نكن فيها بررة لأقبياء، ولا فجرة لأقوياء.

الأسلوب

لا نتكلم هنا على الأسلوب من حيث التقديم والتأخير، والفصل والوصل، وغير ذلك، مما عنت به علوم البلاغة، وإنما نتكلم هنا في الأوصاف التي هي خاصة بالأسلوب الخطابي أو ضرورية له وهي كثيرة منها:

١- التصرف في فنون القول، بأن تتعاقب على المعنى أو المعاني ضروب مختلفة من التعابير، من تقرير، إلى تعجب، إلى تهكم، إلى نفى، لكنى يكسب كلامه حدة، ولا يذهب نشاط السامعين، ويهتريهم السأم والملال، وذلك لا يكون إلا في حال تكرار المعاني، وقد بينا منزلة التكرار في تثبيت الأفكار، وإيقاظ المشاعر، وتقدير الحقائق، وحمل النفس على الاطمئنان إلّا، فيكرر بأصاليب مختلفة، واللغة العربية ثرية بالألفاظ، متنشعبة الأصاليب، وفيها من طرائق الحميقة والتشبيه، والاستعارة والجاز ما يسد الحاجة، ويمد الخطيب بما يحتاج إليه من فنون القول، وأنواع التعبير.

٢- حسن التألف بين الكلمات، وتأخي النغم، بحيث تتحدرك الكلمات على اللسان في يسر وسهولة، ويحسن وقعها في الأسماع، فلا تكون واحدة منها نائية عن أحوالها، أو ساكنة في غير مستقرها، فتكون قلقة في النطق، ولقيلة على السمع. وقد ذكر ابن الأثير أن من نظم الكلام أن تكون كل كلمة مع أختها المشاكلة لها، لئلا يكون الكلام قلقلًا نافرًا عن مواضعه، وحكم ذلك حكم العقد المنظوم، في اقتران كل لؤلؤة منه بأختها المشاكلة لها.

٣- تنوع الأسلوب بتنوع المقامات، ويتنوع أحوال السامعين، وبمراعاة من الخطيب، ومنصبه، وعمله، وما يليق صدره عنه، وما لا يليق، فلكل مقام نوع من الأساليب، ففى مقام التحسيس والتهديد تختار الأساليب الفخمة، وال عبارات الضخمة، وفي بعض مقامات التأبين، وإظهار الألم والأسى تختار العبارات السهلة الرقيقة المؤثرة، ولكل قوم خطاب، فالعامة تختار لهم العبارات الساذجة حتى لا تعلمو على أفهامهم، ولا تسمو على مداركهم، والعلماء يخاطبون بعبارات منتقاة دقيقة محكمة، ويحلى الكلام ببعض الأساليب المنطقية، والمثديون يستشهدهم بشواهد من الدين، ويحلى الكلام بمقتبسات من الكتب المنزلة، والذين شغلوا بآثار الأقدمين يوطب الكلام ببعض أمثالهم، وقصصهم، وحكمهم، والمأثور عنهم. ولكل خطيب عبارات تستحسن منه، فمن الخطباء من لا يجميل منهم الهزل، ولا يليق بهم إلا الجد، فلا يصح أن يكون في كلامهم إلا ما هو مقبول منهم، ومن الخطباء من يجميل خطبهم بعض المناعبات؛ فيحسن أن يكون ذلك منهم بقدر محدود؛ ليستروح به السامعون، فيستجمعوا نشاطهم، وبعد سأمهم، وهكذا يجب على الخطيب أن يلاحظ في أسلوبه وعباراته أحوال السامعين، وما يقتضيه المقام، وما يحسن منه، وما لا يحسن.

٤- تجميل الكلام في بعض الأحوال بسجع قليل غير يادى للتكلف، تصير الفقرات، وقد وجد للسجع قديما وحديثا أولياء وأعداء، فقوم تعصبوا له، وآخرون تعصبوا عليه، ومن تعصبوا للسجع ابن الأثير وأبو هلال العسكري وغيرهما. وابن الأثير بعد من فمه عاجزا عنه، ويقول فيما يحسن في السجع: ينبغي أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حادة طنانة رنانة لا غثة، ولا ياردة، وأعنى بقولى غثة ياردة، أن صاحبها بصرف نفسه، إلى السجع لنفسه، من غير نظر إلى مفردات الألفاظ المسجوعة، وما يشترط لها من الحسن، ولا إلى تركيبها، وما يشترط له من الحسن، وهو في الذى يأتى من الألفاظ المسجوعة كمن ينقش أنوابة من

الكرسى، أو ينظم عقداً من الخزف الملون، وهذا مقام نزل عنه الأقسام، ولا يستطيعه إلا الواحد من أرباب هذا الفن بعد الواحد. ومن أجل ذلك كان أربابه قليلاً، فإذا صفا الكلام المسجوع من التشابة، فإن وراء تلك مطلوباً آخر، وهو أن يكون اللفظ فيه تابعاً للمعنى، لا أن يكون المعنى فيه تابعاً للفظ، فإنه يجرى عند ذلك كظواهر مموه على باطن مشوه، ويكون مثله كخمد من ذهب، على نصل من خشب.

هذا كلام واضح قيم، ولكن بعض كتاب العصر الحاضر يستحسنون الاسترسال في الكتابة والخطابة، والتحرر من تلك القيود اللفظية منعا لضجة الألفاظ، وإشارة للسفاجة في التعبير، وابتعاداً عن كل وسائل التزيين، وهم لذلك يستهجنون المسجع في الكتابة والخطابة معاً. والحق عندى أن المسجع في ذاته حسن، وقد عرف حلية في اللغة العربية، قديمها وحديثها، ولكل لغة مستحسنات ومناهج، تأخذ منها روحانياتها وقوة تأثيرها، ولذلك لا أرى ما يمتنع من اتخاذ بعض المسجع في الخطابة بشرط ألا يظهر التكلف، وإلا قتل، وضعف تأثيره، وبشرط أن يكون قليلاً، لأنه حلية، والحلية لا تجمل إلا إذا كانت بقدر معلوم، إذا زادت عنه ثقلت، وسترت المحاسن، فكانت عيباً وشيئاً. فالخطيب إذا أخذ من المسجع ذلك القدر في خطبته، حسنت، وبخصوصاً إذا كانت في قوم يؤثر ذلك النحو من الكلام كعامة مصر. فإن الكلام الموسيقي المسجوع يهز نفوسهم، واعتبر ذلك بأمثالهم وحكمهم، فإنك تجد المسجع أبين أوصافها.

غير أنه يجب أن يلاحظ أن المسجع لا يليق في بعض الخطب كالمرافعات القانونية، فإنها لا يحسن فيها إلا الحقائق عارية، وحسبها جمالاً أنها حقائق، ولهكتف من وسائل التأثير بجودة التعبير، وحسن الإلقاء، وإحكام الفكر، والإتيان إلى القلوب من ناحية ما يؤثر فيها.

المقاطع:

يجب أن يختار الخطيب المقاطع التي يقف عليها بحيث يكون وقوفه عند نهاية جزء تام من المعنى الذي يريد، وأن يكون المقطع ذا رنين قوى، يملأ النفس، ويوجهها نحو الغرض الذي يريد للخطيب، وقد وفاه أبو هلال العسكري في الصناعتين بحثاً واستشهاداً، فقد جاء فيه: قال الأحنف بن قيس: ما رأيت رجلاً تكلم فأحسن الوقوف عند مقاطع الكلام ولا عرف حدوده، إلا عمرو بن العاص، كان إذا تكلم تفقد مقاطع الكلام، وأعطى حق المقام، وغاص

فى استخراج المعنى باللفظ مخرج، حتى كان يقف عند المقطع وقوفا يحول بينه وبين تبيته من الألفاظ. قال معاوية لعمرو بن سعيد: بأشدق قم عند قروم العرب، فسل لساطك، وجل فى ميادين البلاغة، وليكن التفقد لمقاطع الكلام منك على بال، فأتى شهدت رسول الله ﷺ أمدى على على بن أبى طالب رضى الله عنه كتاباه وكان يتفقد مقاطع الكلام. ولما أقام أبو جعفر صالماً خطيباً بحضوره شبيب، قال: يا أمير المؤمنين ما رأيت كاليوم أبين بياناً ولا أربط جناناً، ولا أفصح لساناً، ولا أبل ريقاً، ولا أضعض عروفاً، ولا أحسن طريقاً، إلا أن الجواد عسير لم يرض؛ فحملته القوة على تسف الآكام وبحبها، وترك الطريق الملاحب، وأيم الله لو عرف فى خطبته مقاطع الكلام لكان أفصح من لطفى بلسان.

من هذا كله نرى أن مقاطع الكلام كانت غرضاً يطلبه المجيدون من البلاغة والخطباء؛ لأن حسنه يجعل المعنى لدى السامع واضحاً، والرنين مؤثراً، والرقف جميلاً، ويجعل الإلقاء أبلغ تجميل.

خاتمة فى الكلام فى التعبير:

قبل أن نترك الكلام فى التعبير الخطائى وسنأمله. ننقل إليك صحيفة قيمة أعطاها بشر ابن المعتز المعتزلى إبراهيم بن مخزومة السكونى، وفيها كلام جيد فى الأسلوب الخطائى، والمعانى الخطائية، وما هى ذى كما رواها الجاحظ فى البيان والتبيين:

مر بشربن المعتز، على إبراهيم بن جبلة بن مخزومة السكونى الخطيب وهو يعلم فتوانهم الخطابة فوقف بشر، فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد، أو ليكون رجلاً من النظارة، فقال بشر: اضربوا عما قال صفعاً، وأطووا عنه كشحاً، ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتتميقه، وكان فيها ذلك الكلام: خط من نفسك ساعة نشاطك، وفراغ بالك، وإجابتها إليك، فإن تلك الساعة أكرم جوهراً، وأشرف حسباً، وأحسن فى الأصماع، وأعلى فى العصور، وأسلم من فاحش الخطأ، وأجلب لكل عين وغرة، من لفظ شريف، ومعنى بديع. واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول، بالكد والمطالبة والجاهدة، وبالتكلف والمداودة، ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون كلامك مقبولاً قصداً، ونخيفاً على اللسان سهلاً، وكما خرج من ينبوعه، ونجم من معدنه، وإياك والتوعر، فإن التوعر يسلمك إلى التعميد، والتعميد هو الذى يستهلك معانيك، ويهين ألفاظك، ومن أراد معنى كريماً، فليتمس له لفظاً كريماً، فإن حق

المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجهما، وعما يعود من أجله إلى أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تتشمس إظهارهما، وفترتهن نفسك بملاستهما، وقضاء حقهما، وكن في ثلاث منازل فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رقيقاً عذياً، وفخماً سهلاً، ويكون معتك ظاهراً مكشوقاً، وقريباً معروفاً، إما عند الخاصة، إن كنت للخاصة قصدت. وإما عند العامة إن كنت عند العامة أردت، والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معالي الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المتفانية مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال، وكذلك اللفظ العامي والخاصي، فإن أمكنتك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك، ولطف مدخلك، واقتناؤك على نفسك، أن تفهم العامة معاني الخاصة، وتكسوها الألفاظ المتوسطة التي لا تلطف عن الدهماء ولا تجفرو عن الأكفاء، فأنت البليغ التام.

فإن كانت المنزلة الأولى لا توفيقك، ولا تعينك، ولا تسع لك عند أول نظرك، وفي أول تكلفك، وتجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تصدر إلى قرارها، وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها، والقافية لم تحل في مركزها، وفي نصابها ولم تتصل بشكلها، وكانت قلقة في مكانها، نائرة من موضعها، فلا تكرها على اغتصاب الأماكن، والنزول في غير أوطانها، فإنك إذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون، ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور، لم يعبك بترك ذلك أحد، وإن أنت تكلفتها، ولم تكن حاذقاً مطبوعاً، ولا محكماً لسانك، بصيراً بما عليك أو مالك، عابك من أنت أقل عيباً منه، ورأى من هو دونك أنه فوقك، فإن ابتليت بأن تتكلف القول، وتتعالى الصنعة، ولم تسمح لك الطباع في أول وهلة، وتعصى عليك بعد إجمالة الفكرة، فلا تعجل ولا تضجر، ودعه يباض يومك، أو سواد ليلك، وهارده عند نشاطك وقراغ بالك، فإلك لا تعلم الإجابة والموائمة، إن كانت هناك طبيعة، وأجريت من الصناعة على عرق.

فإن تمتع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل غرض، ومن غير طول إهمال، فانتزلة الثالثة أن تتحول من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك، وأخفها عليك فإنك لم تشتهه ولم تنزع إليه، إلا وبينكما نسب. والشئ لا يمن إلا إلى ما يشاكله، وإن كانت المشاكلة قد تكون في طبقات، لأن النفوس لا تجود بمكنونها إلا مع الرغبة ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة، كما تجود به مع المحبة والشهوة، فهكذا هذا.

الأداء

قد شرحنا في الفصول السابقة إيجاد الخطبة، وتنسيقها، والتعبير عنها، وهنا نتكلم عن طرق أدائها، والحال التي يكون عليها الخطيب عند مخاطبته الجمهور، وما يتخلله في تهيتها، فستكلم إذن عن طريق تحضير الخطبة، ومواضع الارتجال، وعن الوقفة الخطابية، وعن النطق الحسن الذي يليق بالخطابة، وعن الصوت، وعن الإشارات.

التهينة

إن الخطيب يلقي خطبته إما بعد تحضير واعتماد، وإما على البنية والارتجال، ولكل مواضع ومحاسن، فالتحضير يحسن بل يكون لازماً:

١- إذا كانت معلوماته في الموضوع الذي هو بصدد القول فيه لا تسمح له بالقول على البساطة، وإن تكلم قال كلاماً مبتسراً لا يقيم حقاً، ولا يخفض باطلاً ولا يجذب نفساً، ولا ينفر من أمر؛ فهو يدرس الموضوع من كل نواحيه، ويقتله بحثاً ودرساً، ليستطيع أن يدلي فيه بحججه فيصيب الخبز، ويدرك الشار، ويقال السيق.

٢- وكذلك يعتمد إلى التحضير إذا كانت عنده فسحة من الوقت يستطيع فيها أن يبدى ويعيد، وأن تثبت فيما يقول، ويختار لمعاته أجود الألفاظ، ويتجه إلى أقرب الطرق التي يصل منها إلى النفوس، ويهز بها أوتار القلوب هزاً رقيقاً، أو عنيفاً كما يريد.

٣- ويتمادى إلى التحضير أيضاً إذا كان بين قوم يتسقطون هفواته، ويتبعون سقطاته، يحصونها عليه لإحصاء، ويحاسبونه عليها حساباً عسيراً؛ فهو يتقدم إليهم بسلاح التحقيق، مستنداً على متكأ من الحقائق، فلا يسقط إن حاولوا أن يأخذوا عليه ما يسقط، ولا يعثر، ولا يزل، ولا تنزلق قدمه في مزالق الخطر، ومداحض الزلل، ولذلك كان أكثر خطباء اليونان والرومان يهيئون خطبهم قبل إلقائها، ولا يجرؤ واحد منهم مهما تكن ثقته بنفسه قوية، ومهما يكن صيته قائماً ومعروفاً باللسن والبيان، على الوقوف من غير متابعة تحضير، وإلام تام بما يقول، خشية أن يأخذ عليه النقاد شيئاً، أو يسقط بين أيديهم سقطة تذهب برواء قوله، وحسن مذهبه، وما يدعو إليه، وكان المنفور له سعد زغلول «باشا» مع قدرته على الارتجال وعظيم إلمامه بما يقول، يكتب خطبه، إذا كانت رسمية أو شبه رسمية، حتى لا يسبق لسانه تحت تأثير الحماسة، إلى ما لا يريد أن يقيد نفسه به.

ولا يتوهم من متوهم أن في تحضير الخطبة، ما يعيب قدرته، فإن العيب أن يقول كلاماً مبتذلاً لا قيمة له، ومعناه تافه صغير، ولتكن له أسوة حسنة في كثير من كبار الخطباء^(١) الأقدمين، والحديثين، فإن كثيرين منهم مع قدرتهم الشامة على الارتجال يأخذون للموقف الأهبة، ويعدون له العدة، عاملين بأن الخطيب كالمجاهد لا يخوض غمار الحرب، من غير أن يدرج بدروعها، ويترس بتروسها، ويلبس لها لأمتها، ويخط لها نكتها، وليس ذلك في الخطيب إلا بالتحضير والتهيئة والاستعداد للموقف من كل نواحيه، وإن الذي يتعرض للخطبة من غير سابق تحضير، ولا تهيئة، ولم يكن ذا إلمام سابق بالموضوع يجرى كلامه ضعيفاً في معناه، ومبتذلاً. بل إن ذا الإطلاع الواسع، والعلم الغزير بما يقول إن لم يراجع نفسه آتياً بعد أن يفكر طويلاً فيما يعتزم قوله وقتاً بعد آخر، يضعف أسلوبه الخطابي، وتلين عباراته، وينحدر إلى منهوى من الابتدال مسحيق، وتصجر معانيه اتجاهاً مطيحاً، وتفقد قوة التأثير في المشاهر والأهواء.

طرق التحضير

وطرق التحضير كثيرة متشعبة ١- فمن الخطباء من يكفى في تحضيره بدراسة الموضوع دراسة عامة، ثم جمع عناصره في خاطره، وتزجيها بينه وبين نفسه، ويستحضر الألفاظ اللائقة

(١) جاء في كتاب القديم والحديث للأستاذ الباحث محمد كرد علي (طالما هارب شيشرون خطبه وتصور على إلقائها حتى أنه في سن الستين قبل أن يقتل كان يهرن نفسه على الإلقاء، وكان القدماء يعاقبون شائناً عظيماً على الإلقاء في المجالس العامة، حتى لقد أفرط شيشرون في قوله أن الخطاب العام، يتطلب تعبيرات لطيفة متقاة، بيد أن كثيرين من خطباء اللاتين. وقدماء خطباء اليونان كانوا لا يحفلون بإعداد خطبهم، ويظهر أن خورثيسيوس وهو أستاذ شيشرون لم يكن موافقاً لتلميذه على قضاياء ومورتاسيوس هذا كان على جانب من الذكاء وحسن الذاكرة بحيث كان يستطيع أن يتلو خطبه.

وكانت طريقة القائد الخطيب الروماني (كاليها) غريبة في بابها فكان يتقطع في داره مع خدامه غداة يريد أن يلقي دذاعاً، ويلقى عليهم محرراً نفسه فيما يريد أن يخوض حياها، ويخرج من الغد في حالة هياج خاطرة للعادة وعينه تفتحان شراً وهو في أشد أحوال التخمس، بحيث يبله في الهواء، ويذهب إلى ميدان القوروم. ويعدّد بعض الشبان الخطباء من الرومان، أن باتوا إلى المحكمة بدفاعهم مكتوباً على الورق، وكان كلنطيان من أساقفة الخطابة عند قدماء اللاتين يرى أن تنقيد الخطباء في إعداد ما سيتلون، لا سيما المبتدئين، ويرى أن الارتجال لا يتأني للمره إلا في أواخر عمره، بعد أن يذوق الأمرين في صناعة الخطابة، ويعرف جنونها ومرها، ولم يكن في عهده، وهو القرن الأول للمسيح، سوى خطيبين مرتجلين هما بومبيوس لا ترو وكاسيوس. وما عداهما كانوا ككل الناس يعدون خطبهم قبل إلقائها... ولا جاءت الثورة الفرنسية اضطراباً لطلب السياسة إلى الارتجال فأخذوا يخطبون قومهم بدون أن يستعدوا، لم ترفقت الخطابة عندهم في الكليات، وأحكام، والمجالس، حتى قال موريس آجل: ما من شيء يضاد الارتقاء في الخطابة أكثر من إعدادها بالكتابة قبل الإلقاء.

بالمقام، والعبارات الجديرة بالموضوع، وهذه طريقة لا يتبعها إلا المتعمق على المواقف الخطابية الذي اندرج في سلك الخطباء، وكثير من الأدياء بعد الخطبة التي تحضر، ولقي على هذه الشاكلة مرجلة، ولكننا نرى الأرجح أن نقال الخطبة على البداة، من غير أي تحضير للموقف سابق^(١).

ويظهر أن تحضير خطباء العرب كان على هذه الشاكلة. ومن ذلك ما جاء في أخبار يوم السقيفة، عندما اختلف المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم في أمر الخلافة، فقد قال عمر رضي الله عنه في وصف حاله عندما اشتد الخلاف بين الفريقين: فأردت أن أتكلم وكنت زورت كلاماً في نفسي، فقال أبو بكر على رسلك يا عمر، فما ترك كلمة كنت زورتها في نفسي إلا تكلم بها، وهنا يدل أن تزويرهم الخطبة وتحضيرها، إنما كان في الجنان، وفي النفس. ويدل من جهة ثانية، على أن تحضير الكلام في النفس وتزويره، والاستعداد للموقف قبل الكلام، لا يعد من قبيل الأرجح، والقول على اليمين، فإن الفرق بين المرتبتين واضح جلي.

٢- ومن الخطباء من يدرس الموضوع ويهيئ معاني الخطبة. ويدربها تدريباً محكماً، ثم يكتب عناصرها وأجزائها في مذكرة يستصحها عند الخطبة لتكون مرجعاً له وضابطاً، وليحفظ المعاني والأفكار من أن تضع بضلال الذاكرة، وذلك النوع من الخطباء كثير، وفي الأخذ بهذه الطريقة مزايا كثيرة، لما فيها من ضبط للأفكار وجمع للخواطر وإحكام للمعاني، وهي كسابقها لا تنحصر إلا الخطباء الذين مرنوا على القول، وعرفوا مقاتله، ومواضع التأثير فيه، وأصبحت لهم طرق خاصة في الإلقاء، يتجهون إليها من غير قصد، بل بمقتضى الإلف والاعتقاد. ولكن تمتاز من سابقها: (أ) بأنها تفيد ضعيف الذاكرة، ولا يحتاج إليها قوي الذاكرة، لأنه ليس في حاجة إلى كتابة العناصر، وضبطها في القُرطاس، إذ هي في وعيه وخاطره. (ب) وبأنها تحسن إذا كانت الخطبة طويلة جمعاً لأشتاتها، ولكيلا يقع في التكرار الملل.

٣- ومن الخطباء من يطلع على الموضوع، ويدرسه بعناية، ثم يتكلم فيه بينه وبين نفسه بصوت مرتفع في غرفة قد انفرد فيها، أو في مكان خلوي، أو يتكلم على بعض الناس، ومثل

(١) جاء في كتاب القديم والحديث للأستاذ محمد كرد علي. كان فهد من أعظم من رجد من رجال الحملة. كان يذكر طويلاً لما يريد أن يلقه ويأمله فلم يكن ممن يحسن على الكتابة.

ذلك النوع من الخطباء مثل المطربين، إذ يلحنون القطع التي هم بصدد ترتيلها، والتفريد بها في وسط الناس، ويستمعون على ذلك أمداً غير قصير حتى تستقيم لهم النغمات، فكذا ذلك هذا النوع من الخطباء، وقد كان كذلك «كالباء» الخطيب الروماني. وكان غريبو وتيرس من خطباء الفرنسيين يحدثان أصحابهما في موضوع خطبهما قبل إلقائهما. وعندى أن هذه الطريقة يعتمد عليها من يريد أن يربى في نفسه طريقة إلقاء خاصة يحرص عليها حتى يصير له ملكة، وحادة.

٤- ومن الخطباء من يكتب الخطبة، ويحرق في الكتابة أبلغ الأساليب التي فوصله إلى غاية، وتؤدي به إلى ما يريد، ويحكم معانيها ويحملها كل ما ينشئ من وسائل التأثير، وطرق الإقناع التي يصوبها نحو هدفه، ويؤمى بها إلى غرضه. وبعد الكتابة يقرأ ما كتب مراراً وينقحه في كل مرة. وبهذه القراءة التي يتحرى بها جودة الإلقاء وحسن النطق، تعلق معاني الخطبة مرتبة الترتيب التام بذاكرته، ويحفظ كثيراً من ألفاظها وعباراتها، وهذه الطريقة يتبعها كثير من الخامين في القضايا ذات الشأن التي تحتاج إلى تحضير كبير، وجمع لعدة نصوص قانونية، أو عبارات جاءت على ألسنة الشهود، وقد شاهدت الخامين الذين ترافعوا في قضايا القنابل التي نظرت في سنة ١٩٣٢ أمام محكمة الجنايات المصرية بين أيديهم مرافعاتهم مكتوبة، ولكنهم يلقونها من غير أن يقرءوا ما كتبوا، فلا يتركون صغيرة ولا كبيرة، ويحجى على ألسنتهم كثير من العبارات التي ساقوها فيما كتبوا.

٥- ومن الخطباء من يكتبون خطبهم، ويحسنون تحريرها، ثم يحفظونها حفظاً تاماً، ومنهم من يتحلل أحياناً مما حفظ، إن وجد المقام يدفعه إلى غيره، كما كان يفعل أروى دى سيثل من خطباء الثورة الفرنسية، يكتب ويحفظ خطبه، ويغير عند الإلقاء، ويعمل بقول فولتير، إن الألفاظ بهذا الأفكار. ومنهم من يكتب ويحفظ بدون أن يغير شيئاً كما كان يفعل فيكتور هوجو، فقد كان يكتب خطبه ويستظهرها، وكثيراً ما كان يقول: لا يستطيع المرء أن يكون خطيباً إلا إذا كتب خطبته، وتلك الطريقة يتبعها أكثر المبدعين في الخطابة.

٦- ومن الناس من يكتب الخطبة، ثم يلقها بالقراءة في القرائن الذي كتبها فيه، وأكثر المحاضرين في موضوعات علمية في مصر على هذه الطريقة، ويحسن لمن يسلك ذلك المسلك سواء أكان خطيباً أم محاضراً أن يقرأ ما كتب قراءة جيدة قبل إلقائه، وعند الإلقاء يجتهد في أن يلقى بعض المحاضرة أو الخطبة من غير المكتوب، ليكون في ذلك تجديد في الإلقاء، وأن يكون في قراءته مشرفاً على السامعين بنظرة وقتاً بعد آخر، لتصل روحه بأرواحهم، وليعرف أحوالهم، وذلك يتيسر له بالقراءة الجيدة المكررة قبل الإلقاء، إذ تسكنه هذه عند الإلقاء

من أن ينظر في القسطاس عند قوله، وأشرف به على السامعين، وهكذا يفعل في كل أجزاء المحاضرة أو الخطبة.

والطريقة المثلثية لطالب الخطابة:

١- أن يتدبّر بكتابة الخطبة وحفظها وإلقائها كما حفظ، ثم يأخذ نفسه بالتفسير شيئاً فشيئاً فيما حفظ حتى إذا شدا في الخطابة، وتقدم في المرات عليها، كتب الخطبة، وعنى بأن تعلق كل معانيها بقلبه، وأكثر ألفاظها بذاكرته، ثم يتقدم لإلقائها، وقد تحسن بذلك التحضير، فإذا صارت له الخطابة ملكة، وعاد في صفوف الخطباء، اكتفى بدراسة الموضوع دراسة وافية، ثم كتب العناصر، أو لم يكتبها إن أسعفته ذاكرة قوية، أو كانت الخطبة قصيرة، لا عناصر لها، وألقى الخطبة مكتفياً بذلك التحضير الذي يعد أقل أنواعه كلفة، ولا يكتفى به إلا أعظم الخطباء قدرة.

الارتجال

١- وإذا كنا قد أرجبنا التحضير والتهيئة؛ فليس معنى ذلك أن الخطيب لا يعدّاج إلى الارتجال؛ إذ القدرة على الارتجال ألزم الصفات للخطيب؛ بل لا يعد الخطيب في نظري في صنف الخطباء المحترفين إلا إذا كان من القادرين عليه؛ الذين لا يفرق الإنسان بين أسلوبهم المرتجل، وأسلوب خطبتهم المحضرة.

إن حاجة الخطيب إلى الارتجال لواضحة؛ فقد يحضر الخطيب؛ لم يرى من وجوه السامعين؛ وحالهم ما يحمله على اتجاهاً آخر؛ فإن لم تسعفه بديهية حاضرة؛ وخاطر سريع؛ ومران على الارتجال طويل ضاع هو وما يدعو إليه، والتقاء الناس بالمكاه والتعبدية والصغير والسخرية، والاستهزاء في كل مكان، وقد يخطب الخطيب، فيعترض عليه بعض الناس في خطبته، فإن لم تكن له بديهية حاضرة ترد الاعتراض وتقرعه بالحجة القوية، ذهبت الخطبة وآثارها. يروى أن أبا جعفر المنصور كان يخطب مرة، فقال: اتقوا الله. فقال رجل: أذكرك من ذكرتها به. فقال أبو جعفر: سمعا سمعا لمن فهم عن الله، وذكر به، وأعوذ بالله أن أذكر به وأفسد. فتأخلى العزة بالإثم، لقد ضللت إذا، وما أنا من المهتدين، وما أنت؟ والتفت إلى الرجل، فقال: والله، ما الله أردت بها؛ ولكن ليقل قام فقال: فموقب، وأهون بها لو كانت العقوبة، وأنا أنذركم أيها الناس أخطأها؛ فإن الموعظة علينا نزلت وفيها نبئت. ثم رجع إلى موضعه

من الخطبة، فلو لم تكن قدرة المنصور على الأرجحال ما استطاع أن يأتى بذلك النوع من الكلام، وما استطاع حينئذ أن ينال من المتهجم على مقام الإمرة ذلك التهجم.

وقد يعقب بعض الخصوم على كلام الخطيب بالنقض، وذلك كثير في مرافعات المحامين والنباة، فإذا لم يتقدم بكلام قيم يسد به الخلة، ويرد به الحق إلى نصابه، ويشارك من أمره ما هوجم فيه، ضاع مقصوده، وذهب أراج الرياح مجهوده؛ وذلك لا يكون إلا بقوة الأرجحال التى تتكون بالمزاولة والمران.

٢- وقد كان العرب إلهام ازدهار الخطابة فيهم من أقوى الناس على الأرجحال. قال الجاحظ فى وصفهم: وكل شئ للعرب فهو بديهة وأرجحال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجمالة فكر ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف همه إلى الكلام، وإلى الرجز يوم الخصام، أو حين أن يمتح على رأس بحر، أو يحشو بيمير، أو عند المقارعة أو المناضلة، فما هو إلا أن يصرف همه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذى إليه يقصد، فتأتيه المعاني أرسالا، وتثال عليه الألفاظ الشبلا، ثم لا يقيد على نفسه، ولا يدرسه أحدا من ولده... وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلفون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر وأقهر؛ وكل واحد فى نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع، وخطباتهم أوجز، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أسير من أن يقتفروا إلى تحفظ، أو يحتاجوا إلى تدارس، وليسوا كمن حفظ علم غيره واحتذى كلام من كان قبله، ثم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم، والتحم بصدورهم، وانفعل بقولهم من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب.

٣- والمران على الأرجحال يكون والعود أعضر، والعادات لم تتكون، والنفس لم تجمد على نحو خاص من أنواع القول يخالفها، ولذا قيل إن القدرة على الأرجحال لا تتكون بعد الأربعين، ويصعب أن تتكون بعد الثلاثين، بل تتكون فى سن دون هذه السن.

١- يرمى: بسماع الخطباء المرجحالين الممتازين، لأن السماع يحفر من عنده استعداد الكلام إليه، ولأن فكر البشر يعذى بالتقليد والحاكاة.

٢- ويأن بأخذ نفسه من وقت لآخر بالكلام مرجحلا، ويغشى للجماعات ويتقدم إلى القول، ليفك حقة لسانه، ويذل حبة الحياء. ويرى موريس أجام أن تمرين مرشد الخطابة على الأرجحال بأن يتكلم كل صباح فى موضوع من الموضوعات لنفسه، ولو ربع ساعة، فيتمرن بحرسه وصوته.

٣- ومن أمثل الطرق أن يجتهد في ألا يخطب من ورق، وأن يعرف ملخص ما يقول بعد تحضيره، فإذا ذأب على ذلك، واثته فطرة قوية، واستعداد قوي على القول على البهية من غير تحضير عند الاقتضاء.

٤- وعلى مرهد الخطابة أن يستصح رقيقاً له يدل على عيبه، كما أن عليه أن يراقب نفسه مراقبة تامة، ويأخذ نفسه بالإصلاح، ولا يترك عادة لا تستحسن ثبت وتنمو، وعليه ألا يتقيد بمبارات خاصة، وإلا أثار سخرة الناس، ويمكن خصومه من الميث بسمته البيانية.

النطق

النطق الحسن هو الدعامة الأولى للإلقاء الجيد، وإذا اعترى النطق ما يفسده ضاع الإلقاء، فضاغت معه الخطبة وأثرها. وفقد الخطيب ما يسمو إليه من وراء البيانه، ولا شيء يذهب بالمعنى الجيد أكثر من النطق الردي، وكثيراً ما يفهم المعنى على غير وجهه؛ لأن النطق قلبه، ولم يصوره تصويراً صادقاً.

والنطق الجيد يحتاج إلى عناصر أربعة لابد من توافرها، فإذا فقد أحدها ذهب أحد أركانه، فاجعل بنهائه، وها هي ذي:

١- تجويد النطق:

بأن يخرج الحروف من مخارجها الصحيحة؛ فلا ينطق بالهاء سينا، ولا بالذال زاياء، ولا بالجيم كما ينطق العامة، وهكذا كل مخارج الحروف؛ فوجب أن يعنى الخطيب بأن يكون الحروف خارجاً من نيوحه، صائراً عن مخرجه الذي عرف عن العربى النطق به منه. وإن العناية بنطق الحروف نطقاً صحيحاً، وإخراجها من مخارجها ليس معناها أن تشادق الإنسان ذلك التشادق الذي يقع فيه بعض المتكلمين^(١) أو الخطباء. فيكسر النطق تكلفاً يشير مخربة السامعين لو يثقل القول عليهم، بل معناه أن ينطق بالحروف من مخرجه من غير تكلف ولا تشادق ولا توعر، بل في يسر ورفق وسهولة، لأن ذلك التشادق يرفع أولئك المتكلمين في نقهض ما يرغبون، فينطقون بالحروف من غير مخارجها الصحيحة، كبعض الخطباء الذين يدفعهم غلوهم إلى النطق بالجيم بما يقرب من الشين، قراراً من نطق العامة؛ فيدفعهم غرارهم هذا من

(١) كأولئك الذين يملكون السهم بالقاف فيغمين النطق بها فيدور التكلف وانحما.

عيب العامية إلى عيب آخر لا يقل عن الأول خروجاً عن جادة الفصحى، وقد قال بعض الأدباء: إن التشاؤم من خير أهل البادية عيب لأن أهل البادية في الزمن الأول كان نطقهم هو الصورة الصحيحة للنطق العربي القديم.

٢- مجانبة اللحن وتحرى عدم الوقوع فيه:

يجب أن يعنى الخطيب بتصحيح الكلام الذى ينطق به، وملاحظته في مفرداته وعباراته، فيلاحظ بنية الكلمات وملاحظة قامة، فلا ينطق مثلاً بكلمة سوقة بفتحتين كبعض الخطباء، فيذهب ذلك بروعة القول وبهائه، ولا ينطق بغير ما توجبه قواعد النحو في آخر الكلمات، فإن ذلك يفسد المعنى، وقد يقلبه، ويعتبر الخطيب بما روى من أن -خارجاً من الخوارج قال في قصيدة هذا البيت:

ومنا يزيد والبطين وقعب ومنا أمير المؤمنين شبيب

رفع أمير المؤمنين فلما وصل للبيت إلى علم عبد الملك بن مروان طلب قتاله وسأله: أبت القتال: ومنا أمير المؤمنين شبيب؟ فقال: لم أقل هكذا، ولكنى قلت: ومنا أمير المؤمنين شبيب، وفتح أمير (أى منا شبيب يا أمير المؤمنين) فأعجب عبد الملك بقطعته، وأخطى سبيله. فانظر كيف كان اختلاف الحركة في آخر الكلمة قلباً للمعنى، مغيراً للمقصد؛ فالخطيب الذى يقع فيه قد يفسد المعنى، بل قد يتقلب المدلول اللفظي لكلامه، إلى نقيض المطلوب وعكس المراد. والنطق والخطأ لآخر الكلمات، فوق أنه قد يفسد المعنى، ويذهب برولق الخطبة، وحمى وقعبها، وجمال تأثيرها، ولا يظن الخطيب أن جودة المعنى وإحكامه قد يذهبان ببعض الأخطاء، فإن الهنات الصغيرة إذا كثرت أحدثت تأثيراً سلبياً للخطبة، وأفسدت تأثير المعاني الحكيمة. وإن تجمهرة النظارة الآن في مصر عن لهم إلمام بقواعد النحو، ولهم قدرة على ملاحظة الأخطاء، وإن لم تكن لبعضهم قدرة على مجاباتها في خطبتهم، بل في كتاباتهم أحياناً، فإن المستمع يلاحظ مالا يلاحظه الخطيب، ونظراته إلى المتكلم وكلامه نظرات فاحصة كاشفة، وإذا أدركوا كثيراً من الأخطاء ضاع أثر الخطبة في نفوسهم.

٢- تصوير النطق للمعاني تصويراً صادقاً:

بأن يعطى كل كلمة وكل عبارة حقها، ويظهرها بشكل تميز به عن سواها، فالجملة المؤكدة ينطقها بشكل يدل على التوكيد فى النغم كما دل، والجميل الاستفهامية ينطق بها

بشكل يثبت من الاستفهام، والمراد منه في طريق المنطق، كما دل عليه بالأداة الدالة على الاستفهام، ومبتكلم عن هذا واقفاً عند الكلام على الصوت.

١- التمهيل في الإلقاء:

وهو ألزم الأمور للخطيب، وليس بصحيح ما يزعمه بعض الناس من أن الخطيب اللبق هو من يتدفق ببيانه تدفقاً، وتصدر عباراته في سرعة، ومن غير تمهيل؛ فإن ذلك قيماً أرى يجب التحلي عنه، والاحتراز منه:

(أ) إذ النطق السريع المتعجل حيث تجب الأناة ينتج منه تشويه الفحارج، وخلط الحروف بعضها ببعض لأن عضلات الفم واللسان لا تأخذ الوقت الكافي للانتقال من لفظ إلى لفظ.

(ب) والإسراع المفرط يجعل الخطيب يهمل الوقوف عند المقاطع الحسنة، والمقاطع لها حسن الأثر كما علمت فيما مضى.

(ج) والخطيب السريع في نطقه لا يعطي السامع الفرصة الكافية لفهم ما يسمع، وتلوق ما فيه من صقل اللفظ وجودة المعنى، وحسن الخيال فإذا قرعت أذنه عبارة قبل أن يتفوق ما في الأولى من جمال، يعروه الغضب، ويكن قلبه السأم، وينصرف عن الإصغاء.

(د) والتمهيل فوق ذلك يجعل الصوت يسرى إلى السامعين جميعاً بأيسر مجهود متناسب مع المكان والعدد، بينما الإسراع يجعل الكلمات تحتاج إلى مجهود صوتي أكبر، ليصل الكلام إلى الأذان.

وقد كان النقاد الأقدمون يعدون بحق من أمارات رباطة جأش الخطيب التمهيل في النطق، فقد قال أبو حلال العسكري في الصناعتين: وعلامة سكون الخطيب ورباطة جأشه هدوءه في كلامه، وتمهله في متعلقه؛ قال ثعالب: كان جعفر بن يحيى أنطق، قد جمع الهدوء والتمهيل، والجزالة والحلاوة، ولو كان في الأرض ناطق يستغنى عن الإشارة لكأنه.

وقبل أن نترك الكلام في هذا المقام نشير إلى نقطتين:

(إحداهما) أن الكلام يجب أن يسوده التمهيل في الجملة لما بيناه، ولكن يصح أن يتفاوت في الجميل بعضها عن بعض، فالجميل النحلة على الفرج والسرور يستحسن أن ينطق بها الخطيب بسرعة نسبية، وكذلك الجمل الدالة على الغضب، ليكون التعلق مصوراً للمعنى الروحي لهاتين الحالتين تمام التصوير.

(فالتيهما) ألا يظن ظان أن التمهّل معناه أن يكون النطق هادئا هادئا تاما، فتستخدم الخطبة الحياة والقوة، بل يجب أن يكون في نغمات الصوت ورنائه وملامح الخطيب ونظراته، والتخير النسبي في التمهّل والسرعة، ما يعطى الخطبة الحرارة والقوة والحياة.

الصوت

من الناس من يسمع الإنسان صوته محثا أو قارئا أو خطيبا، فيشعر بنغماته تثير ارتياحه، ويرثيه بهز إحساسه، ويحمقه بهل إلى أبعد خور في نفسه، وتشكيله بأشكال مختلفة يتضح المعنى، وتكشف المبهمة، ومن الناس من تسمع منه أجمل العبارات، وأجود الألفاظ الدالة على المعاني، فترى العبارات، قد فقدت جزءا كبيرا من بهجتها، وذهب من المعاني أكثر روعتها، فقل ذلك على أن للأصوات ألرا كبيرا في حسن وقع الكلام أو قبحه، وليس المرجع في ذلك جمالها وقبحها، ولكن عمقها وركزها، ورياضتها على تصوير المعاني، وجودة نقل الخواطر فإن الألفاظ والأصوات تتعاون في الدلالة على المعاني النفسية، فاللفاظ الثقل والحزن والغم مثلا إذا سمعتها مجردة ما أثارت في نفسك شيئا، فإذا سمعتها من متألم، واشترك صوت متألم بالآلام مع اللفظ، أثارت في نفسك خواطر الأسمى، ومواضع الحزن، وأحسست بالآلم العميق مشترك فيه مع من حكى لك آلام نفسه في نغمات صوته.

لذلك يجب على الخطيب أن يروض نفسه على تصوير المعاني، وأن يجعل من نغمات صوته، وارتفاعه وانخفاضه دلالات أخرى فوق دلالة الألفاظ، وليعمل على أن يكون صوته نغلا صادقا لثقل لمشاعر نفسه، وليمرنه التمرين الكافي على أن يكون حاكما صادقا للحكاية لمعاني الوجدان، وخواطر الجدان، وليعلم أنه لا شيء كالصوت يعطى الألفاظ قوة حياة، وأنه إذا أحسن استخدامه خلق به جوا عاطفيا يفل السامعين، وبه يتولى عليهم.

وإذا كان لنا أن نوصي مراد الخطابة بشيء، فإننا نوصيه بهذين الأمرين:

كولهما - أن يجعل صوته مناسبا لسمعة المكان ولعدد السامعين، فلا يتخفض حتى يصير في آذانهم همسا، ولا يعلو حتى يكون صياحا، بل يكون بين هنا وذاك، وبين المرتبتين متسع لفنون القول، ودرجات الكلام، وأنواعه، وغاياته.

وعدا الابتداء بتدئ منخفضا، لم يعلو شيئا فشيئا، فإن العلو بعد الانخفاض سهل، ووقعه على السامعين مقبول، أما الخفض بعد الارتفاع، فلا يحسن وقعه، ولنا يجب على

الخطيب أن يوازن بين طاقته وبين الزمن الذي تستغرقه خطبته، والمجهود الصوتي الذي يجب بذله، وليجعل هذين على قدر تلك، ولا أصابه الإعياء قبل الوصول إلى الغاية، فكان كالمثبت لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى.

ثانيهما - ألا يجعل صوته نمطاً يسير على وتيرة واحدة، ومشكل واحد لا فقير فيه ولا تجميل، فإن ذلك يلقى في نفس السامع سآمة. ومالاً: ورأه هما التفور والانصراف.

وليكن تشكيل صوته بأشكال صوتية مصورة للمعاني؛ فإن الصوت كما ذكرنا يشترك مع الألفاظ في الدلالة على المعاني، ويملونها في التعبير عنها، ويكون ذلك بتغييره بأشكال مختلفة، فليجعل الجمل الاستهامية تختلف في نغمة إلقائها عن الجمل التي للتعني، وهذه تختلف عن جمل الرجاء، وكما أن للأمر صيغة تدل عليه تختلف عن صيغة الخبر، فليجعل المتكلم من نغمات صوته ما يدل على ذلك التغاير، وهذا التفاوت.

وإذا كانت اللغة قد جعلت صيغ الأمر هي التي تدل على المدعاء، أو الالتماس، فقد تركت للمتكلم واجب إشعار السامعين بالتغاير بينهما، فليجعل لهجة الأمر تختلف لهجة المدعاء، وتختلف لهجة الالتماس، فإن لكل مقصداً خاصاً يفهم من مجرى الكلام، ومن صوت الخطاب.

وكما تختلف الجمل في معانيها تختلف الكلمات أيضاً في معانيها، وكل معنى يحتاج إلى نغمة صوتية معبرة عنه، كما احتاج إلى لفظ تدل عليه، فالإشفاق، والتوجع، والكآبة، والتردد، والفرح، والضحك، والدهشة والشكوى، واليأس، كلها ذات معانٍ تحتاج إلى أصوات تناسبها، وتساعد الألفاظ في الدلالة عليها.

هذا وكل جملة فيها كلمة ذات معنى رئيسي هو عمود الجملة، والمقصد الذي سيقف له، فمثلاً قول الإمام على رضي الله عنه: أصعب ما في الإنسان قلبه، وله مواد من الحكمة، وأخذاد من خلافها. كلمة قلبه هي ذات المعنى الرئيسي فيه، فعند النطق يجب أن تعطى شعاراً صوتياً يدل على شرفها، ويوجه الأنظار إليها.

وإن الخطيب المتصرف المجد لا يفضل في تمييز هذه الأصوات إذا جعل دليله ما يشعر به من هذه المعاني، وما يراه من الناس في محادثاتهم المعتادة، في رفع أصواتهم أو خفضها، فإن المحادثات المعتادة هي المحاكية الصادقة للحكاية للأمر المألوف، وللنوع المعروف، فليكن في تغييرات صوته صورة مكبرة مزينة مجملة بجيد التعابير، لما يجري بين الناس، فإنه إن فعل كان صادراً في نغماته عن إحساسهم ومشاعرهم وذوقهم العام.

الإشارات^(١)

إن الإشارات هي الخطاطية الصامتة، أو هي لغة التفاهم العامة، وهي في كثير من الأحيان صوت الشعور، وعبرة الوجدان، فالغاضب ينفض جبينه، ويعبس وجهه، ويقبض أصابعه بدافع شعوري من غير إرادة، لهذا كان للإشارة أثر في إثارة الانتباه والشعور، وتقوية الدلالة، لأن المعنى معها تدل عليه دلالتان بل ثلاث دلالات: إحداها لفظية، والثانية صوتية، والثالثة تلك الإشارات البهائية.

والإشارات البهائية بعضها شعوري اندفاعي لا يكون بالإرادة، بل بدافع الاحساس الوقتي للخطيب الذي يثيره موقفه الخطابي كتحريرك الحاجبين للذهشة، أو تقضض الجبين للغضب، أو النظر الشرر عند الاحتقار، وبعضها إرادي قصدي يعتمد إليه الخطيب للتأثير، فالإشارة للمعيد يرفع اليد إلى أعلى بانحراف، ونحو هذه من الحركات التي يعتمد عليها الخطباء.

وسواء أكانت الإشارات لإرادة أم شعورية، فهي ذات أثر في تأكيد الكلام في نفس السامع وتوضيحه، غير أنه يجب أن يلاحظ أن للإشارات قيوداً لا تحسن إلا بها.

فيجب أن تكون ملائمة للمعنى موافقة له، يشعر السامعون بقوة دلالتها عليه، وإلا كانت حركات عابثة، لا معنى لها، كما يفعل بعض المحامين، من مسحهم جبينهم أنا بعد أن من غير أن يكون عرق، أو وضع أيديهم على منظارهم، أو خلع طرايبشهم، فإن أمثال هذه الحركات عابثة، لا تشير إلى معنى، ولا تنبع عن إحساس نفسي قوي أو ضعيف.

ويحسن أن تسبق الإشارة القول، مهيئة له متبقة به، فيتنبه السامعون له، ويتروقبونه، ليجيء في وقت الحاجة إليه، فيثبت فضل لبات، فالإشارة تكون مع الفكرة مصاحبة لها، والفكرة سابقة على القول، فالإشارة مثلها.

ولا يصح أن تتكرر الإشارة، فإن في تكرارها ما يدعو إلى السأم والملل، وما يوهن موقف الخطيب، ويضعف تأثير قوله.

(١) جاء في البيان والتبيين، الإشارة واللفظ شيئان، ونعم المعنى هي له ولعم فترجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، وما تنبى عن المعنى... وبعد: فهل تعدل الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة وحلية موصوفة على اختلاف في طبقاتها ودلالاتها، وفي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح مرفق كثير.

هذا ويلاحظ أن الخطيب القوي من تكون عباراته وانسجام بيانه قوية في ذاتها؛ فلا يصح الإكثار من الإشارات والحركات، فإن ذلك يذهب بسمت الخطيب ومهابته، ورواه عند السامعين.

وإن الذوق العام المصري من ناحية الخطابة يشبه الذوق الإنجليزي من حيث الرغبة في قلة الإشارات، وملاحظة السلاجة، وألا يكون هناك تكلف لها؛ فإن ذلك ليس مألوفاً من كبار الخطباء عندنا، وهم الذين يوجهون الذوق العام في متجهاته.

الوقفة

أحسن حال للوقفة الخطابية:

- ١- أن يقف الخطيب على مرتفع لمخرف على السامعين، ويصل صدره إليهم، وليتمكنوا من رؤيته، فإن الرؤية تعين على حسن الاستماع.
- ٢- وأن يكون في وقفته مستقيم القنات، فلا انحناء ولا تقوس، وأن يبرز صدره إلى الأمام، ويعتمد على إحدى الرجلين إن كانت الخطبة تستغرق زمناً طويلاً، لكي يستطيع أن يدل إحدى الرجلين بالأخرى ليريحها.
- ٣- ويلاحظ أن ليس من المألوف عند كبار الخطباء في مصر الانتقال من مكان إلى مكان كالممثل، فيحسن حينئذ الوقوف في مكان واحد لا يزأله إلا قليلاً، وألا أثار سخرية السامعين وهزئهم، فليجنب الخطيب ذلك ما استطاع إلى الجنبه ميلاً.

فنون الخطابة

قد حصر أرسطو فنون الخطابة في ثلاثة أقسام: وهي الخطب التشبثية، والخطب القضائية، وخطب المشورة. وكان تقسيمه هذا نابعاً لأوقات المعاني الخطابية، فالخطب البعثية وهي التي تتعلق بالمدح أو التأبين أو التعزية وغيرها من الأمور التي تتعلق بعادته ثابت أو حال قائمة، زمنها الحاضر، والخطب القضائية لأنها تتعلق بأمر جديد فحسب مضمي، ويتناقش الخصمان في بيان تبعاتها، زمنها الماضي، إذ أكثر معانوها يتعلق به؛ وخطب الشورى وهي

تتعلق يأخذ الأهمية للمستقبل، وإعداد العدة لما يكون فيه، كان أكثر معانيها يتعلق بالمستقبل، وهو زمن وقوعها.

والحق أن فنون الخطابة تتبع حاجات الأمة، وأحوالها وشتونها والضرورة الدافعة إلى القول الخطابي. وقد شاعت الخطابة في عصرنا في فنون وموضوعات كثيرة، ولكل منها طرائق خاصة، ومناهج بيانية امتازت بها، وطرق للسبق فيها، والغلب في مبادئها.

وقد حصرت على تالين موضوعاتها في أقسام جامعة لها وهي:

- ١- الخطب السياسية.
- ٢- الخطب القضائية.
- ٣- الخطب الدينية.
- ٤- الخطب العسكرية.
- ٥- المحاضرات العلمية.
- ٦- خطب التأبين.
- ٧- وخطب المدح والشكر.

الخطب السياسية

لم تزدهر الخطابة السياسية في عصر من العصور ازدهارها في ذلك العصر، فقد سبقت كل أنواع الخطابة، وصار التبرير فيها طريقاً من طرق المجد المبينة، ومنهاجاً مستقيماً لمن يريد أن يتقدم إلى خدمة الأمة وإقامة حكمها على نظام عادل مستقر، ثابت الدعائم. مشيد الأركان.

وقد تضافرت جملة أسباب، فجعلت للخطابة السياسية تلك المنزلة:

١- فسيطرة الشعوب على الحكم في أكثر البلاد المتقدمة؛ إذ قد صارت هي مصدر السلطات، وموئل الحكام، ومرجع أهل الحل والعقد، لا يرمون أمراً من غير استفتائها، ولا يحلون عهداً من غير الاستشارة برأيها، ولا يثيرون حرباً من غير الاستئذان من رأيها، ولا يدخلون في عقد من غير الامتناس بإرادتها؛ فالحرية السياسية قد سيطرت على كل شيء، وحلت في كل نفس المحل الأول، والخطابة السياسية تنمو تحت ظل الحرية، وتستمد غذاءها وقوتها منها إذ هي لا تترعرع إلا في جو حر طليق.

٢- وكانت دور النيابة. والغلب فيها، والعمل على قيادة النواب، ودعوتهم إلى ما يريه الخطيب، ومحاولة السبق فيها، والسيطرة على أفكارها، وتوجيهها إلى ما يرى من مصلحة تهم الجميع، كان كل هذا من أسباب رواج الخطابة السياسية، وسيطرتها.

٣- وإن مناحرات الأحزاب، ومحاولة كل حزب أن يكون لسانه أغلب، ومبادئه أكثر انتشاراً وخبوعاً، وأعضاؤه أكثر عدداً وأعز نفراً، وأقوى صوتاً، وما يتخذ في سبيل ذلك من دهانات منظمة، كان سبباً ثالثاً من أسباب سيادة الخطابة السياسية.

٤- وإن اتصال الشعوب بعضها ببعض، وتقوية الأواصر، وعناية كل دولة بشعر الدهلية عن عدالة حكمها، وأنها تسير بالقسطاس المستقيم، وأنها لا تبني غير الخير، وتربى المهود والمواتيق، كل هذا جعل للخطب السياسية النافذة للمحاسن، النافذة للخطيب، مكاناً في كل أمة، حتى إن ألمانيا قد جعلت وزارة خاصة بالدعاية تسيطر على طرقها، وتبكر أساليبها.

٥- وإن نهوض الأمم المغلوبة على أمرها التي قضى عليها ألا يكون أمرها بيداً ردياً طويلاً من الزمان، استدعى أن يكون من بين أهل اللسان والبيان فيها من يوقظ الحمية، ويثير

المزائم، ويحيى الآمال؛ فوجدت خطاب سياسية دافعة إلى الحياة الحرة، مهيئة لليأس، كما ترى في خطاب غاندى، وسعد زغلول، ومصطفى كامل، وغيرهم من أهل البيان والحمة الوطنية، ومن تولوا قيادة الشعوب.

لهذه الأمور ولكثير غيرها، كان للخطابة السياسية المكان الأول من بين أنواع الخطابة. ولكثرة الخطاب السياسية وتغلغلها في حياة الشعوب، وسيطرتها على مصيرها؛ تشعبت إلى شعب، وانقسمت إلى أنواع هي:

(أ) الخطاب النيابية.

(ب) الخطاب الانتخابية.

(ج) خطاب النوادي.

(د) خطاب المؤتمرات السياسية.

(أ) الخطاب النيابية، هي التي تكون في الدور النيابية، وتشمل خطاب الأعضاء معترضين على الحكومة، أو مؤيدين لها، أو سائلين أو مستجوبين، أو متناقشين فيما بينهم، كما تشمل خطاب الوزراء مجيبين أو معترضين، أو داعين إلى الموافقة على أمر.

والخطابة النيابية مزلق خطير لا ينجح في اجتيازه سلماً إلا أولو العزم من الخطباء، ولا يكفي فيه أن يكون الرجل ذا بيان ولحن وحضور بديهة ونهوض خجعة، وقطرة على القلب في الخصام، ومقاومة الاقتحام في مبادئ البيان؛ بل لابد للنجاح فيها من عناصر كثيرة. لا بد لها إلا من كتب الله له النجاح المؤز؛ والفضل العظيم، منها:

١ - أن يكون الناب فاهماً لنفسية الشعب، ملماً برغباته، عارفاً لمطامحه وأماجه، دارساً لأهوائه ومشاعره، بل لابد أن يكون فوق ذلك محسناً بإحساسه شاعراً بشعوره، حاكياً صادق الحكاية لآماله ومطامحه، لأنه لسانه للمعرب عنه، وصوته الداوي بما يرغب من حياة، وليجعل الحكم بينه وبين النواب فيما يشجر من خلاف، وما يقوم من نزاع شعور الشعب ورغبتة، لأنهم إن حادوا عن تلك الرغبة، وجانبوها أخطوا بواجب الوكالة، وغلغوا شعار النيابة، ولذا يحسن بالشائب الاتصال بناخبيه أنا بعد آن، وكلما تهيأت الفرصة، وأمكنته الأحوال، لكيلا يعتمد بشعوره عنهم، ولكي يكون على إلمام تام بكل ما يعرض لهم من شئون وأحوال.

٢- وأن يكون عليهما بمشاعر النواب أنفسهم ورغباتهم، لأنهم الجماعة التي يخطب فيها، فيدرس نفسيته، ليؤثر فيها من طريق ما تنتهي وتبتغي، وليصل إليها من طريق إقبالها، ولكيلا ترفض قوله، وتجعله دبر أذنها. ولا يظن ظان أنه لا يؤثر في النواب إلا المنطق، فإنهم وإن كانوا في الغالب من العلية المثقفة المهذبة تنطبق عليهم صفات الجماعات، من أنها يرد إليها التأثير من ناحية المشاعر أكثر مما يرد إليها من ناحية المنطق، لذلك يجب على الخطيب النيابي ألا يجعل المنطق هو كل شيء في كلامه، بل لابد أن يربطه بما يشير المشاعر، ويهز الإحساس، ويحضر الهمم، ولا يكون ذلك إلا إذا كان دارساً دراسة تامة لعقلية النواب ومتجهاتهم العاطفية، ليستلزمهم إلى ما يريد من طريق ما يألّفون.

٣- دراسة المصروف النيابي واللائحة الداخلية للمجلس، ليكون على بينة تامة، وعلم كامل بالنظم والقيود التي تحيط بالمناقشات، فلا يخرج عن نطاقها، ولا يمدو دائرتها، فإذا سأل وزيراً علم ما للوزير من حق التأجيل، وإذا أجابه عرف الحدود التي له في التعليق، فلا يمكن الرئيس من منعه، ليخمدش بذلك المنع عزته، وإذا استجوب كان عليهما بماله من حق المناقشة في الجواب، وما للأعضاء من حق الاشتراك في المناقشة والحاسبة، وفي الجملة يعلم ما للعضو من حقوق في المناقشة، والأسئلة والاستجابات وغيرها، وما أحيطت به هذه الحقوق من واجب، وما يبط بها من نجات. فإنه إن أخذ نفسه بعلم ذلك والعمل به، أحيطت مناقشاته بالإجلال، وصيحت من المنع، وذلك من أسباب الإنصات إليه، وربما أدى ذلك الإنصات إلى الاقتناع.

٤- والإلمام التام بنظام الحكم، والخبرة التامة بأحوال الحاكمين ومعاملتهم للمحكومين؛ لكي يستطيع أن يؤدي عمله الذي فاب عن الجماعة في أدائه، فإن انتقد تصرفاً من التصرفات، انتقده عن خبرة ومعرفة، وكذلك إن أهد تصرفاً، وإن حاول أحد أن يلبس الأمر عليه، كشفه بما أوتي من ذلك الإلمام. ومن الحقائق ما يضيغ بين إغراط بعض النواب في التأيد، وإغراط الآخرين في النقد، ولو كانت هناك معرفة تامة بأحوال الحاكمين والمحكومين، واتخذت تلك الأحوال مصلواً للتأييد أو الاعتراض، لالتفى للتمارضان، وما تناحر الفريقان. وليعلم النائب أن عمله خطير، وبعاته جسيمة، فقد تدفعه حماسة الليان، والدفاعا الوجدان، إلى حمل النواب على تقرير أمر، أو انتقاد نصرف، ووزاء ذلك ما لا تخمد عقبات، والمسلك الحق الذي يجانب فيه النائب الشطط، ويلتزم جادة الاعتدال، أن يعرف حال الدولة، والعلة بين حكامها ومحكوميه، ليطب وهو على علم لما فيها من داء، ويصف لها عن خبرة أنجع دواء.

٥- التخصص في دراسة ناحية من نواحي الحياة في الأمة، لمعمل على دراسة طرق إصلاحها، فإن طرق الإصلاح متشعبة، ونواحيه متباينة، ولكل ناحية أقوام يعيدون معالجة الإصلاح فيها والبرية النامة بوسائله وطرقه، ولا يطالب النائب بأن يكون خبيراً بكل ما يصلح الشعب، عليهما بكل النواحي، فليوجه إذاك عنايته إلى ناحية واحدة ويعن بدراسة طرق الإصلاح فيها، فالظاهر في الزراعة يوجه جل عنايته إلى وسائل ترويتها وطرائق زيادة الغلات، والطبيب يوجه أكبر عنايته إلى دراسة الأحوال الصحية، ووسائل الوقاية من الأمراض، والقانوني يتجه إلى الإصلاح القانوني، ومعمل على تقريب مسافة الخلف بين العدل النسبي والعدل الحقيقي، والاقتصادي يعني بدراسة النظم الاقتصادية في الأمم والحكومات، وتقديم ما يرى الأخط به يزيد الإنتاج، ويكثر من الثمرات.

وهكذا كل يعمل فيما هيء له، ويقدم في ذلك مشروعات قوانين واقتراحات ورغبات، وبذلك تتضافر كل القوى، وتتلاقى كل عناصر الإصلاح، ويتم بنيانه الكامل.

ومع اتجاه النائب إلى ما تخصص فيه لا يتصرف عن الإشراف على نظام الدولة، وسير مشورتها، فإن النواب هم حراس النظام وحماته والرقباء على كل العاملين فيه.

٦- الهدوء في القول، والابتعاد عن إثارة عوامل الخصام ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فإن الخصام يدفع كلا المتخاصمين إلى أن يتعصب لفكرته، والتعصب يدفع إلى المهارة، والمهارة تدفع إلى الحق والجهل، وإذا لم يكن به من اختلاف، فليكن الاختلاف مظهره ومرمى طلب الحقيقة، والسعى إليها، والإخلاص في طلبها، وليحذر كلا المتخاصمين من الغضب، أن يسود مناقشتهما، فإنه إن سادها، ذهب الحق فرسته، وإن أجوبة الغضب لا تكون مسددة، والردود التي يسردها لا تكون محكمة، فإن الإرادة تضعف عن أن تحكم الشعور، وفذلك قد يدفع إلى الشطط، ووراء الانهزام في مساجلة الأكران.

يروى أنه سأل سأل عمرو بن عبدة المعتزلي في حضرة واصل بن عطاء شيخ المعتزلة، فغضب عمرو. فقال له واصل: إياك وأجوبة الغضب، فإنها متدعة، والشيطان يكون معها، وله فيها همزة، وقد أوجب الله على نبيه أن يستعيد من همزات الشياطين، وأن يكونوا معه بقوله: ﴿أحذركم من همزات الشياطين﴾ وقلما شاهدت أحداً ثبت في جوابه، وما ينطق به لسانه، فليحذر لوم.

وليعلم المخطوب النائب أن الناس في داخل المجلس وخارجه يتبعون كلامه بالتقيد أو بالتزيف، فليحذر من أن يسقط، ولا طريق لتلك إلا الأناة والزوية ومجانبة الغضب.

٧- الاجتهاد في موادة الأعضاء، لكيلا يكون له من ينيهم خصوم، يندفعون إلى مهاجمته بالحق وبالباطل، ورحم الله سعد زغلول إذ قال في الجمعية التشريعية تلك الكلمة الحكيمه: إننا إذا لم تسد الصداقة أعمالنا ضعنا، وضاعت آمال الأمة فينا. وموادة الأعضاء تمنعهم أن يخالفوه إلا بالحق، وإن خالفوه فهو بخلاف إلى اتفاق، وإن لم يكن اتفاق فهي خصومة شريفة لا يضيع فيها الحق.

٨- الابتعاد عن النعرة الحزبية؛ فإن النعرة الحزبية تسد مسامع النفس أن يصل إليها الحق، وتجعل الأحزاب الأخرى لا تنصت لقوله، ولا تجيب داعيته، وإذا لم يكن يد من الحزبية، فليضيق نطاق سلطانها في نفسه، وليجهد في أن يجعل فكره في أكثر المسائل حراً طليقاً، وكلامه لا يبريد به إلا إرضاء الله والضمير والمصلحة العامة، فإن ذلك يجعل كلامه أعلق بالقلوب، ودوره أكثر اتصالاً بالنفوس.

هذه الأمور لو اتبعها الخطيب النائب في دار الشورى، أدى مهمته، ووصل إلى غايته، وكان من المصلحين.

أما لغة الخطابة النيابية، فيجب أن تكون من الغصحي السهلة التي لا تنزل إلى العامة، ولا تجعل قائلها من المتفهمين المتشاكين، فإن ضجة الألفاظ في المجالس النيابية تذهب بروح المعاني، ودقة الأفكار وحسن التأثير في كثير من الأحيان، وليختر الخطيب العبارات التي تجمع بين دقة الفكر وإثارة الخيال، والتأثير النفسي.

ولنتقل لك تلك المناقشة النيابية التي كانت بين المرحومين عبد اللطيف «بك» الصوفاني، وسعد زغلول «باشا» رئيس الوزارة المصرية، وفي مجلس النواب المصري سنة ١٩٢٤ عند عرض مصروفات السودان بدون بيان تفصيلي لميزانيته، فقد قال الصوفاني «بك».

أنا من رأي زميلي شوقي الخطيب أفندي^(١) في احتجاجه على عدم تقديم ميزانية السودان مع ميزانية الحكومة المصرية، وخصوصاً وقد لاحظت في أثناء مراجعتي لأرقام الميزانية أن هناك مبلغ ٧٥٠,٠٠٠ ج. م تقريباً لموظفي حكومة السودان.

أصوات: ليس هذا وقته.

(١) هو الذي أثار المناقشة في تلك المسألة.

عبد اللطيف الصوفاني «بك» : إنني أقصد المسألة السياسية؛ لأن المبلغ المذكور ترك
تفصيل إنفاقه إلى حكومة السودان، دون أن نقف على شيء من بيانه، مع أن العلاقة بيننا وبين
السودان لم يطرأ عليها شيء مطلقاً من الوجهة القانونية كما هو معلوم، أما من الوجهة العملية،
فأذكر وقد كنت عضواً في مجلس شورى القوانين والجمعية التشريعية أن ميزانية السودان
كانت تعرض علينا كل سنة، وبها التفصيل الواقعي عما يختص بمصروفات السودان وإدارته
فماذا جد حتى صار الأمر المألوف لا يتبع ولا يراعى الآن ولا نعلم سبباً نعلل به ذلك، أو
نرجع إليه لمعرفة هذه المخالفة؟ فإلى متى ~~نستطيع~~ ^{نستطيع} الإشراف على السودان؟ ويقال لنا إن حاكم
السودان هو الحاكم بأمره هناك؟ وإذا طلبت منه الحكومة بعض البيانات لا يجيب طلبها، أو
سأله شيئاً لا يرد، مع أنه موظف مصري، يتقاضى راتبه من الخزانة المصرية بدون أن يأخذ قرشاً
واحداً من لندره، وإذا طلبنا منه شيئاً أو معلومات سكت، وكان سكوتُه أبلغ من الجواب. أعلنا
فيكم بالحضرات الوزراء، ألا تقولوا لنا ماذا نصنع؟ فإن الأمة من ورائكم، وهذه قوة عظيمة،
فإذا ما قلتم تقدمت، واعلموا أن قوة الحق فوق كل قوة، وما القوة المادية إلا هباء يثلاشي أمام
الحق.

فرد عليه رئيس الوزراء سعد زغلول «باشا» بكلام قيم جاء فيه:

يا حضرات الأعضاء، يجب أن نعمل بجده، نريدون منا أو بعضكم على الأقل أن نقدم
ميزانية السودان، ونحن لم نضع له الميزانية، بل السودان هو الذي يضع ميزانيته؛ فنحن
لا نستطيع أن نقدمها لأنها ليست تحت يدينا ولم نضعها؛ وأنا أقول إنه كان يجب أن تكون
ميزانية السودان معنا، وأن تكون نحن واضعها، بل يجب أن نكون واضعي اليد على السودان،
ويجب أن نسعى لذلك وأنا ساع له. ومعتمد على قوة الأمة، وعلى حقها في هذا، ولدى
الأدلة القاطعة، والحجج القوية، ولكن لمن أقدمها؟ الحضرته^(١) أم لمقتضى حقوقنا؟ نحن
نريد حقوقنا ونريد الوصول إليها، وأنا أولكم وفي مقدمتكم، ماوهن عزمي، ولا ضعفت
همتي، بل أريد أن أصل إلى هذا الحق بأية طريقة كانت، وأمامي طريق مفتوح أريد ملوكة
لأصل إلى غايتي، فإن وصلت إليها فبها ونعمت، وإلا عدت إليكم... أنت^(٢) لا تريد ذلك،
فماذا أصنع؟ والضرورة تقضي بتوجيه هذا السؤال؛ لأنك تقول بعدم مخاطبة واضعي اليد على
السودان، وفي الوقت ذاته تطلب ميزانية السودان، إنها ليست تحت يدي، والسودان كله تحت

(١) الخطاب للصوفاني «بك» وهو لا يرى جوار المفاوضات، ويريد سعد زغلول بذلك السبق أن يجذبه إليها.

(٢) يخاطب الصوفاني «بك».

يد قوية، فماذا أصنع؟ إما أن تتبع طريقي، وإلا فدلني على خير منها. إذا تكلمت في مجلس النواب فأنت مسئول عما تقول، وعن الطريق التي تريد أن تتخذها لتنفيذها، فإن أقررت المجلس على ما تقول فكلكم مسئولون، أما أنا فمستوليتي تكون على قدر إقراري وموافقتي.

أنا في مقدمتكم في كل ما فيه خير بلادي، وعلى قدر فكري أرى أن الطريق المفتوحة أمامي لتحقيق غرض الأمة وغايتها هي المفارقة، فإن كان عندك أو عند غيرك طريق لاستخلاص حقوق الأمة، فوضحه لي، وأنا أكون أول العاملين في هذه السبيل إن كان محققاً لأغراض الأمة.

إخواني، المسألة مسألة جد لا هزل، وعمل لا كلام، نحن هنا نتحمل مسئولية كل أمر نقرره، فيجب علينا قبل أن نصدر قراراً يختص بهذه المسائل المهمة أن ندرسها ونفحصها، وألا نطيع الهوى بل نستشير العقل والحكمة. فكر في ذلك جيداً، ولا نسع لإحراجي لأن إحراجي إحراج للأمة؛ لأنني أقول، وأنا صادق فيما أقول؛ إنني لا أريد إلا ما تريد الأمة، فإن أخرجت زغولاً، فقد أخرجت الأمة، أما لا أسعى في سياسة غير سياسة الأمة، والذي يرشدني ويدلني إلى ذلك هو صوت في ضميري، صرخ قبل أن يصرخ في قلب أي إنسان، وهذا الصوت يناديني دائماً أن أقوم بإحجبي بلون أن يحضني عليه حاض، أو يحثني عليه حاث، ولكن في موقفى هذا يجب أن ألاحظ اعتبارات كثيرة، ليس منها المحافظة على مركزى، لأن لى مركزاً أعلى من المركز الرسمى، ولكن إذا لم أعمل الآن فلا اعتبارات ترجع إلى رعاية مصلحة الأمة، لا إلى مصلحتى الشخصية؛ فإن كنت لم أقدم ميّزانية السودان، فالأمر سهل؛ لأن الذى يضع ميّزانية السودان هي حكومة السودان... دعونا من هذا، وانركونا نعمل نحن في مراكزنا التي لاندين بها إلا للأمة، ولا نخشى إلا صوتها؛ فإن رأيتم فينا اعوجاجاً، فقوموا لا بالاستكم بل بسيفكم. عاهدتكم وعاهدت الأمة من قبلكم، وأعاهدكم الآن ألا أحمده مطلقاً عن رعاية مصلحة الأمة على قدر استطاعتي، وليس على المرء أن يكلف إلا ما يستطيعه، فعليكم مادتم وطنيين أن تساعدوني؛ لأن في ذلك مساعدة للأمة ووصولاً بها إلى الغاية المطلوبة.

(ب) الخطاب الانتخابية:

هي الخطاب التي يتقدم بها لشركية نفسه، ومبادئه، ومناهجه والرد على خصومه من يريد أن يكون نائباً عنهم يخاطبهم، أو يتقدم بها بعض أعضاء زم، مؤكداً دعياً إلى اختياره، راداً على الخصوم، ذاكرًا للمناقب، مبيناً المصلحة التي تدعو إلى ترجيح كفته، وتأليده دعوته.

والنجاح في هذه الخطب له طرائق سلوكية، وشروط معروفة، محتاج إلى مهارة ولباقة، ودربة تامة بمخاطبة العوام والخواص والأوساط من الناس، ومناحى تأثيرهم، فإن هذا النوع من الخطب يلقيه الخطيب على جماهير غير متفقة في التهذيب والتفكير، وإنا ذاكرون لك بعض ما يجب على الخطيب الانتباهي أن يلاحظه:

١- فهم روح الجماعة الانتخابية التي يخاطبها، ودراسة مشاعر أهل الدائرة الانتخابية التي يتقدم للنيابة عنها، فإن تلك الدراسة تكشف عن آمالهم، وتبين الحاجات والرغبات المستكنة في نفوسهم، فإذا تكلم المرشح أو مرزقيه، ساير تلك الرغبات، أو ضرب على نعمتها، فيكون كلامه مصوراً لآمالهم، حاكياً لآمتهم، وبذلك يجتذبهم إلى تأييده، ويجتاز أصواتهم.

٢- أن يستخدم الخطيب الانتخابي غريزة حب الثناء، في التقرب من نفوسهم، فيثني عليهم غير مسرف، ويبين صواب نظراتهم، وأتهم في مستوى من الإخلاص عظيم، ثم يبين أنه يؤمن بسلطان الجماعات، وأنها صاحبة الأمر والنهي. ويرى بعض العلماء أن تعلق الجماعة الانتخابية من أقوى الوسائل لنيل المرشح بغيته منهم، ونحن لا نوافق على التعلق لأنه ملهب لجلال النيابة، مضعف لتفوذ النائب، ولكننا نجزئ بل نوجب على الخطيب الانتخابي والمرشح أن يكون ليل الجانب سهل الملمس، وألا يكون فظاً خليط القلب متفطرساً، يثني على الجماعة بقدر غير هادي الملق، لأن الملق إن بدا عرف التفائق، فذهب التأثير.

٣- ذكر المنهج الذي يختاره ومذاهب الإصلاح التي يراها، وليلاحظ في منهجه أن يكون جزء منه يتعلق بالمصلحة التي تعود على تلك الجماعة لانتخابه مباشرة، ولا نطالبه بأن يجعل مصلحة تلك الجماعة هي كل شيء في منهاجه. لأن النائب في القانون يكون نائباً عن الأمة كلها، كما نصت على ذلك أكثر القوانين النظامية، كما لا نطالبه بخلو منهاجه من وعود تعود على تلك الجماعة بشكل خاص، فإن الناس مأخوذون دائماً بالمصالح التي تعود عليهم بالنفع القريب الداني القطوف.

٤- وليلاحظ أيضاً ألا يعد إلا بما يعتقد أنه قدبر على الوفاء به، فلا يغالى ولا يسرف، لأنه إن فعل ظن به الكذب، وكاثت وعوده مظنة الإخلاف، فيلهب التأثير، ولكن الدكتور جوستاف لوبون يقول في كتابه روح الاجتماع: أما المنهج الذي يحرره المرشح بيان ما ينوى من الأعمال، فينبغي ألا يكون صريحاً حتى لا يتخله خصومه حجة عليه، لكن يجب أن يطيل في المنهج الشفري ما استطاع، ولا نخوف عليه من الوعد بإجراء أعظم الإصلاحات، فإن ذلك يؤثر

فى نفوس الناخبين، وهو فى حل منه أجلاً، إذ القاعدة المطردة أن الناخب لا يبحث أبداً فى:
هل المنتخب جرى طبقاً لتصريحاته التى كانت السبب فى انتخابه، وترى من هنا أن ذلك
العالم الجليل يرى أن المرشح للانتخاب لا يحاسب على ما وعده، ولكن ترى فى التجارب
الانتخابية التى كانت فى الأمة المصرية أن الناخبين من الناخبين يرقبون المنتخبين، ويلاحظون
تنفيذهم لمناهجهم وعهودهم، ويلاحظ أن خصومهم لهم بالمرصاد، يحاسبونهم حساباً عسيراً
على ما يقولون، فإن رأوا منهم إخلالاً ولو فى وعودهم الشفوية، أثاروا عليهم قالة السوء،
ولا يصح أن تنوهم أن التصريحات الشفوية لاتصل إلى مسامعهم؛ لأن لهم عيوناً على
خصومهم، وأذاً يسترقون السمع منهم؛ ولهذا نحن نرى أن الواجب على المرشح أن يترك
ألا يعد إلا بما يقدر على الوفاء به، وألا يسرف فى الوعود؛ لكيلا يكون وعده مظنة الإخلاف.

٥- ذكر مبادئ الحزب الذى ينتمى إليه إن كان؛ فيبين أن مبادئه من المبادئ العامة،
وأنها أقرب المبادئ إلى الإصلاح، وأن الهمة العالية تدنيها؛ والمجد الوطنى فى اتجاهها، وأن العزة
الشامخة فى الأخذ بها، والسير فى مناهجها. وعليه أن يوازن بين مبادئ حزبه ومبادئ الأحزاب
الأخرى؛ فيبين أنه أقربها إلى سمو الحق، وأنها إلى العمل؛ وأن الطريق إليها واضح، والمهيج
الموصل إليها قريب، وليكن ذكره لمبادئ تلك الأحزاب فى أدب ورفق وحذر وتوازن ليكون نزيه
اللسان، عفيف البيان؛ يحترم الآراء، ويقدم الأفكار فإنه لا يقنع أكثر من الاتحاد فى القول،
والكلام للنزيه البعيد عن البهتان، والبلاء والسب. وليحمد فى ذلك الذكر إلى الإجمال بدل
التفصيل؛ ليكون فضل البيان، والتفصيل الكامل لمبادئ حزبه؛ لأنه المقصود، وعمود الكلام.

٦- ذكر ماضى خدمات المرشح: وإذا كان المرشح نفسه هو الذى تصدى لبيان سالف
خدماته، فليحمد إلى الإيجاز فى ذكرها؛ لأن ثناء الإنسان على نفسه غير مألوف، والنفوس
لا تقبله إلا على مخصص، ولأنه إذا جرى على لسانه، شائته شائبة من المن والأذى. وإذا كان
الخطيب غيره فلا مانع من تفصيل خدماته، والإطناب فى ذلك، وليحذر المبالغة والغلط
والإسراف فى القول، فإن ذلك يجعل كلامه عرضة للتكذيب، فنقوم بقولون عنه مستأجر،
وآخرون منافق، وغيرهم متملق، وكل هذا تكلوب، وإثارة للرعب فى غيره.

ولا مانع من أن يوازن بينه وبين غيره من المرشحين، وليكن ذلك فى قول خال من
الطعن والسب، وبخس الناس أشياءهم، وقرضهم فى فضائلهم، والتيل من كراماتهم، فإن ذلك
يلعب بروح التأثير، ويجعل القول المقتدع يلح، وسيطر على الجو الانتخابى. وذلك مفسدة
ومرة إذا ظهرتنا فى جو فكرى عششت فيه الرذيلة، واختلط فيه الحق بالباطل، وضاع الحق
وسط ضجة من البهتان.

٧٠٠ علم التوهم: على الخطيب الانتباه أن يتجه إلى السهولة في التعبير، فلا يتشادق ولا يخرّب، بل يتجه إلى تقريب الأفكار، وتوضيح المبهجمات، والإطناب في شرح الحقوق والواجبات، ولا يكتفى باللازم عن المألوم، لأنه يخاطب العامة، والعامة لا يدركون إلا الواضح القريب الداني.

وعلى الخطيب الانتخابي أن يعلم أن تلك الخطب دروس سياسية قانونية للشعوب، فليجتهد في ألا يقدم إليهم إلا الصحيح الذي لا تضليل فيه، لكي يعلمهم الحقوق والواجبات النظامية، وليسهل لهم المعلومات لتكون قريبة معروفة دانية من مألوفهم، وبذلك يوجه أفكارهم، وينال تأييدهم، وينفع أمته بتهديدهم.

هذه وصايا من أخذ بها من الخطباء الانتخابيين قارب النجاح في مهمته، ونال الثقة، وفاز بالتأييد.

(ج) خطب النوادي والجمعيات:

تكون خطب النوادي والجمعيات في أكثر الأحيان ليسن حزب من الأحزاب نقطة سياسية أو لتأييد فكرة من الأفكار والدهرة إليها، والعمل على نصرتها، أو حفز الهمم، وإيقاظ الحزائم، أو للدفاع عن تهم توجه للحزب، ورد كيد الخصوم في حقهم، وفي الغالب يكون المجتمعون في النوادي من الخاصة أو الأوساط، وقليل أن يكونوا من العامة.

ولذا يحسن أن تكون تلك الخطب محكمة الأفكار مع الوضوح والسهولة، وأن تسرد فيها الأدلة المنطقية مع الوسائل الخطابية، فيكون المنطق فيها سلطان بحوار سلطان الخطابة، وما يتخذ فيها من طرق لإثارة الأهواء.

وإذا كان الاجتماع للرد على هجوم وجهه أناس للحزب، فليبتدئ الخطيب بتنفيذ الأدلة التي يسوقها الخصوم بالطرق التي بينها في التنفيذ، فإذا انتهى من كشف ما في حجج الخصوم من بطلان، انتقل إلى مهاجمة مبادئهم وأفكارهم والموازنة بين ما يدعوا إليه وما يدعون، وليكن في تلك الموازنة عف اللسان، لا يتجه إلى السب، فإن الاتجاه إليه عجز، والأخذ به فتح لباب البهتان والتضليل، وبذلك يختفي الحق في حشر من الباطل.

وعلى خطيب الحزب أن يجتهد في أن يجعل عباراته فخمة قوية، واضحة سهلة، لا تنزل عن الأكفاء، ولا تعلق على الأوساط، ولا تتسامى عن العوام، فإن الخطبة منتشرة في الغالب في الصحف، وتقرؤها الطبقات كلها، وإن كان السامعون من خواص أو من قاربهم.

ولأن الخطيب الحزبي يخاطب الأمة كلها بكلامه في نأديه ويشهرها في صحفه، وجب أن تكون خالية من كل ما يؤخذ عليه قائلها بأي نوع من أنواع المؤاخذه، فلا إصراف فيها ولا غلو، ولا وعد بما يكون مظنة الإخلاف، ولا نزلة بالقول والقتال، وأرندت الدعوة إلى التأيد خسرانا مبيئا. وإن قوما يظنون أنه لاحساب على القول، فيسرفون في ذكر مبادئ واسعة النطاق في نواذيرهم ومجتمععاتهم، فإذا عملوا فخلى عملهم عن دعواهم، وقام منه دلائل لا تقبل النقض على غير ما يدعون، والناس يسمعون ثم يرون ويعانون، فيحرمون هؤلاء من ثقتهم وتأييدهم، لأن من يسرف في القول، ويضول عمله، لا يؤثق به.

(ن) خطب المؤتمرات السياسية:

هذه خطب الكبراء، والنائين عن الحكومات في المؤتمرات الدولية، ويظهر لي أن عنصر الشعور وإثارة الأهواء أقل العناصر ظهوراً في تلك الخطب، وإن أوضح ظاهرة فيها هي الدقة في حكاية المهمة التي ناب عن حكومته فيها، وصلى التصوير لأقصى ما تتسامح فيه دولته. وليس لنا أن نتعرض لبيان تفصيلي لما يجوز وما لا يجوز في تلك الخطب، فإن ذلك من عمل أناس يجيدون ذلك العمل، ولستنا منهم في شيء، ولنتكف من هذا بأن نقول لك خطبة الرئيس ولست في مؤتمر السلام العام الذي كان منعقد في ٢٥ من يناير سنة ١٩١٩ وما هي ذي:

أيها السادة، إن الطبقات المختارة من الجنس البشري لم تعد حاكمة الجنس البشري؛ فحفظ البشر هي الآن في أيدي شعوب العالم كله، وإذا كنتم ترضون هذه الشعوب، فإنكم تهرون ثقتهم، وتقرون السلام، وإذا كنتم لا تعملون في إرضائهم، فإن كل اتفاق تضعونه لا يقر السلام في العالم، ولا يوطئه.

ويخيل إلى أنكم تتصورون العواطف والمقاصد التي يعاضد بها مندوبو الولايات المتحدة هذا المشروع العظيم، مشروع جماعة الأمم، فنحن نعلم أساساً للعمل الذي أعربنا به عن مقاصدنا وغاياتنا في هذه الحرب، والذي قبلته الشعوب المشتركة أساساً للتسوية.

فإذا عدنا إلى الولايات المتحدة دون أن نبذل كل ما في وسعنا لتحقيق هذا البرنامج، فلن نلاقي سوى السحرة التي نستحقها من بنى وطننا؛ لأنهم كتلة تتألف منها ديموقراطية عظيمة، فهم ينتظرون من قادتهم أن يتكلموا ومن ممثلهم أن يكونوا خدما لهم.

فليس علينا إلا أن نعمل بالوكالة التي في أيدينا، وإنا نقبل هذه الوكالة بأعظم حماسة وسرور، وبما أن هذا هو أساس العمل كله، فقد وقفنا عليه، وعلى كل مرة منه جميع اهتمامنا.

ولا نجسر أن نضرب صفيحة عن أية مسألة كانت في البرنامج الذي تضمنته التعليمات التي في أيدينا، ولا نتساهل في أي جزء منها، لأن ما ندافع عنه هو سلامة العالم، هو موقف العائلة، هو المبدأ القائم على أننا لسنا أسياداً للشعوب، ونحن قد جئنا إلى هنا لنحرص على أن يختار كل شعب في العالم أسياده، وأن يتصرف في شعونه؛ لا كما نريد نحن، بل .. كما يريد هو. وصفيحة القول أننا جئنا إلى هنا لنحرص على اقتلاع جنود الحرب وأمسها جميعها.

وقد اتفرد بأمر هذه الأسس عصابة من الحكام المدنيين والهيئات العسكرية، وهذه الأسس هي الاعتداءات من الدول الكبيرة وتآليف الإمبراطوريات بقوة السلاح على الرغم من الرعايا، وجعل الجنس البشري لعبة تتقاذفها الأيدي، فلا شيء يأتي بالسلام سوى تحرير العالم من هذه الأمور. ١ هـ.

الخطابة القضائية

الفصل في الخصومات على وجه الحق أمر عسير، وحل معضلات القضايا، ومعرفة الحق من الباطل، وتخري العدالة الحقيقية، أمور فوق قدرة البشر؛ وقد قال خير الخلق رسول الله محمد ﷺ فيما روته أم سلمة رضي الله عنها: «إنكم تختصمون إلي، فلا عمل بكم أن يكون الحق بحجته من بعض، فأقضى له على نحو ما أسمع منه، فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً، فإنما أقطع له قطعة من النار». وقد اتفقت على روية هذا الحديث كتب السنة الستة.

وقال رجل من رجال القانون وشيوخه حمل في الحماسة وفي القضاء وفي الاشتراع، وهو المغفور له سعد زغلول: يظهر لي أن العدالة الحقيقية غير موجودة في هذا العالم. لهذا كله كانت مجالس القضاء مكاناً لمغالبة الخصوم، ومقارعة الحجج، وميلنا فسيحاً للاستدلال الخطابي، كل يحاول جذب القضاء إلى فكرته، وإقرار دعواه، وإجابة طلبه، وقد قال بعض القضاة: لا تقولوا: إن الحقيقة تنافع عن نفسها؛ فإن ذلك يكون صدقاً لو نزلت النفوس بما يشينها، ولكن الناس يحكم الطبع والعادة ليسوا بأصفاء، أنقياء الروح، لذلك كان حما علينا أن نفعل كما يفعل الذين يدخلون الحديد النار ليبلين، فنصهر أفئدة المصحين لنا في حرارة البلاغة، حتى تقبل الحقائق التي نبدونها لهم.

وهذا النوع من الكلام هو الذي نسميه الخطب القضائية، وهو قديم يقدم الخصومات والمنازعات البشرية، وقد جاء في كتاب الحماسة للمرحوم أحمد فتحي زغلول «البناء»: قد كان لليهود في زمن موسى عليه السلام رجال يشتغلون أمام القضاء فيما يشبه الحماسة اليوم، وأخص ما كانوا يعملونه حل المشكلات التي تظهر بين الأفراد من المسائل القانونية. وكانوا في عملهم هذا مأجورين ممن يعملون لمصلحته، لأنهم في عملهم كانوا يأخذون جعلاً من بيت المال.

وكان قدماء المصريين في بعض عصورهم يخشون التأثير الخطابي بالصوت والإلقاء والحركات والإشارات وجمال الشارة، فحرموا المرافعات بغير الكتابة، خوفاً على العدالة من أن تلعب فريسة قوة التأثير.

وكان لقوة تأثير المرافعات في مجالس القضاء عند اليونان أثر واضح في الأحكام، حتى برزت القوانين لمنع الخطباء من استعمال الوسائل لإثارة الوجدان والعواطف فيها، وحتى عين

فى كل محكمة وجل بمقاطع الخطيب أو يسكته، كلما رآه يحاول التأثير بقوة العاطفة والألفاظ، وإثارة الإعجاب.

والرومان مع قوة تأثير الخطباء عندهم تركوا العنان، ولم يقيدوا الخصوم بأى قيد، ثقة بالقضاء، واعتماداً على وضوح القانون وصراحة قواعده.

وكذلك الشأن الآن فى كل البلاد المتعدية أطلق العنان لهم، يدلون بحججهم، غير مقيدين بنحو خاص من القول، ولا بمنهاج من التعبير، ولا بطريق من التفكير والتأثير، فلا قيد إلا قيد النظام والقانون، وفى غير ذلك هم طلقاء من كل قيد. وقد حرصت الحكومات على أن يكون من رجالها من يثبت الجريمة، ويؤثم المجرمين، ويقدم نصوص القانون الموضحة للعقاب، وهؤلاء هم رجال النيابة، فلهم مرافعات فى القضايا التى تتعلق بالنظام العام، وعلى ذلك يكون عندنا نوعان من الخطابة القضائية: مرافعات النيابة، ومرافعات المحامين، ولنتكلم على ما يحسن سلوكه فى كل منهما، لئلا يؤول إلى النجاح، وسيكون كلامنا بالإجمال، فالتفصيل لأهل الخبرة فى هذه الأعمال.

مرافعة النيابة

١- يشبه عمل النيابة الحجة الإسلامية، فكما أن المحتسب يرفع الدعوى فى حقوق الله سبحانه وتعالى، كبعض الحدود، ودعوى الوقف ونحوها، كذلك النائب العمومى ووكلاؤه يرفعون القضايا فى الأمور التى تتعلق بالنظام العام، وهى الجنائيات المنصوص عليها فى القانون، ويقدم النائب الأدلة المثبتة للدعوى فى الجملة؛ فإن ظهر أن القرائن غير كافية للإدانة بعد رفع الدعوى فوض الأمر للمحكمة؛ فقد جاء فى منشور وزارة الحقتانية الصادر فى ٢٠ إبريل سنة ١٨٩٨: وليست النيابة إلا خصصاً أقيم لرفع الدعوى باسم الهيئة الاجتماعية؛ ولا يوجد فى النصوص القانونية ما يسوغ لها أن تطلب براءة المتهم كما شهود حصول ذلك فى العمل من زمن غير بعيد؛ وإذا كانت الأدلة القائمة على المتهم غير كافية لإليات التهمة عليه لا شك أنه لا يضمن عليها أن تشدد فى طلب الحكم عليه بالمعقوبة، بل الواجب الذى يفرض عليها فى مثل هذه الظروف أن تترك الأمر إلى المحكمة لتفصل فيه بما يراه، إذ هى الحكم دون سواها.

٢- وبلاحظ أن النيابة ليست خصصاً من كل الوجوه فهى من ناحية أخرى لها عمل يشبه عمل القضاء؛ إذ الواجب على النائب أن يتركه أن ينظر إلى المتهم عند تحقيق اتهامه نظرة

غير متحيزة إلى اتهام بل وزن الأدلة، وبمحصنها، ويتعرف المجهول منها والمستور، حتى إذا اجتمعت لهذه الأسباب رفع الدعوى، وعند الإدلاء بالدلائل يجب أن تكون كل جهوده متجهة إلى الأخذ بيد العدالة؛ ليضعها على ما وصل إليه من حقائق، فلا يحاول إنجاح الاتهام بكل الطرق، بل بطريق واحدة، وهي سرد الحقائق، وسوق الأدلة الناطقة بالاتهام، لأن القانون جعل النهاية قيمة على الحقوق العامة، ومعيمة للقاضي على إظهار الحقيقة، لا على تأييم مطلق؛ ولذا نقول إن الواجب في مرافعة النيابة أن يسرد ما سرد الحقائق وسوق الأدلة فلا يكون فيها ما يشير الوجدان والعاطفة إلا بقدر محدود، وإلا إذا توقعت أن الدافع سيثير جواً كذلك، فإنها تتقدم بما تراه موصلًا لغايتها من غير إفراط ولا تفريط.

٣- وكما يجب على الخطيب القضائي الممثل للنسبة ألا يكتر عما يشير الوجدان والعاطفة، كذلك يجب عليه أن يلتزم الاعتدال، ولا يبالغ وولو تيار من العبارات الخطابية؛ فإن ذلك قد يستتر الحقائق، ولا يؤدي إلى كشفها، وهو الواجب عليه، وإذا جاز ذلك من المحامي الذي لا يهمه إلا التبرئة، والذي هو بطبيعة عمله ينظر النظرة المتحيزة؛ فهو لا يجوز من التائب العام الذي لا يهمه إلا الحق في ذاته، والجميع بين يديه سواء، ولذا لا تكون الحماسة في خطب النيابة إلا بقدر، بل يحسن التهدير، والاجتهاد في تصوير الجريمة، من غير مبالغة.

٤- وإذا عمد إلى وصف نفسية المتهم، فليكن بعبارات مهذبة عفيفة، لا تجنى فيها، ولا ما يشبه السب، كما فعل ممثل النيابة في قضية القنابل التي كانت في سنة ١٩٣٢ ومنها ما جاء في تصوير نفسية أحد المتهمين (محمد علي) فقد قال: إني إذا أقدم لحضراتكم بهذا المتهم. إنما أقدم نسيجا ليس له شيل بين باقي المتهمين، حاولت أن أنفهم نفسيته، وأن أعرف حقيقة عقلية، فأعجزني، حتى لقد ظننت، وأنا أحاول ذلك أني كرجال الرقابة عليه، راغ مني كما كان يروغ منهم.

ليست نفس هذا المتهم إلا نفساً مضطربة، رمى بها وسط التيارات المتباينة، علم سطرحي بالقراءة، ومطالعة مبتسرة للجرائد، وضعف في التكوين، طم على جميعه، أن كان للحين المقلوب سكرتيرا لجماعة من جماعات العمال، فظن أنه أصبح شيئا مذكورا، وزاد عنده أنه كان يجالس بعض من فرق مجالسة التطير، ألا ترون دلائل الفخر في قوله: أنا قوى الإرادة جدا، ولم يؤثر على أحد بطريق اليلف، ألا ترون دليل الفرور في قوله عمن كانوا يراقبونه، إنه كان يصحن ذكاءهم.. إلخ إلخ. وترى في هذا وصفا صادقا لنفسية المتهم مع النزاهة التامة في التعبير.

وإذا تعرض أحد على مثل النيابة أو فرد من الدفاع كلام يشم منه حرج، لا يساق في الرد فيقع في الحماة التي وقع فيها خصمه، بل يرد في رفق وهدوء، كما فعل المغفور له أحمد زكي أبو السعود «باشا» عندما كان وكيلًا للنائب العمومي، ووقف ضد محام في مجلس تأديب، فرد المحامي برد جارح، فقد قال زكي «باشا» في مذكرة كتبها في الرد: مثل النيابة في تحقيقها مع المتهمين بالجرائم مثل الطبيب يعالج الأمراض، فيوفى إلى استعمال شأفتها، ومنع أذاها عن الناس، ولكنه قد يصاب في الوقت نفسه بشيء من مسمومها، كذلك حالنا مع المتهم في هذه القضية، شكاه خصومه، فحققنا شكاوهم، وأظهر التحقيق إدانته، فرفعنا أمره إلى مجلس التأديب، سلم خصومه من نتائج حملته، ولم تسلم النيابة من لسانه، ولست نكر على المتهم حقه في الدفاع، لأن حرية الدفاع من المبادئ التي نحترمها، ونعمل لتأييدها، ولكننا نكر عليه تهوره في دفاعه إلى حد الطعن في الذم، وتجريح الضمائر، كتبنا مذكرتنا، كما يكتب القاضى حكمه، فقصرناها على رواية الوقائع، وبيان الأدلة، ولم نتعرض لدفاع المتهم بكلمة تؤذيه، وكنا نتظر أن يأخذ بأدب النيابة في مراقبتها فيجعل دفاعه مهذباً أثناء المحاكمة، كما كان دفاعه مهذباً أثناء التحقيق، ولكنه لم يستطع أن يضيظ قلمه، فجرى في دفاعه على أسلوب لم يألفه المترافعون، ولا نعيل إليه أسماح المتأدبين.

ومن الناس من يتوهم أن إجراءات التحقيق من الأمور التي يمكن التصرف فيها تبعاً للشعور والمواطف، يريدون من المحقق أن يكون ليلاً متساهلاً، فإذا ما أفسروا منه ميلاً إلى التشدد في الواجب ظنوه قسوة وشدة، لأنهم لا يعرفون للواجب حداً يقفون عنده، أولئك هم الأميون الذين يجهلون القانون، وهم لجهلهم معذورون، وهم معذورون أيضاً لأنهم إذا كرهوا عمل المحقق احتراموا شخصه، ونهيوه، فلا هم يصلون إلى ضميره بطعن، ولا هم يمسون ذمته بسوء.

لم يرد... أفندي أن يقف في كراهته للتحقيق عند الحد الذي يصل إليه عامة الناس في شعورهم، فسمح لنفسه بالطعن في عمل المحقق، ليتسع أمامه مجال القول بالظنون، بعد أن ضاق في وجهه مجال القول الصحيح وقعدت به همته عن مناقشة الدليل فزعم أنني تخاملت عليه، واسمى هذا التخامل أنني هضمت شيئاً من حقه، فراجعت أعمالي فالتقيتها تطبيق على القانون من كل وجه. وراجعت الذاكرة فوجدتني لا أعرف شخصه، ولا أذكر أنني صافحته في حياتي قبل أن أشتغل معه بالتحقيق، زعم أنني تخاملت عليه وهو أعلم الناس بفساد هذا الزعم؛ فربيت أن أقول كلمتي لا لأبرئ نفسي فهي أكبر من أن تتأثر بطعن لا يؤيده دليل، وإنما أقولها ليعلم الناس أن... أفندي أساء إلى النيابة بقدر ما أحسنت هي إليه في المعاملة.

رأيت منذ شرعت في التحقيق أن أسمح للمخضمين بأن يأخذ كلاهما من حرية القول حقه فيها؛ فلا أذكر أنني وقفت في وجه أحدهما لكلمة أراد أن يشتمها أو سؤال طلب أن يوجه إلى شاهد أو عمل من الإجراءات التي يسمح بها القانون ولم تكن سلطة التحقيق إلا فيصلا بين الحق والباطل، وضمان مساواة بين الدعوى والدفاع كي لا يتغلب قوى على ضعيف. ارتاح... أفندي إلى التحقيق فدافع عن نفسه هادئا مطمئنا، وقد دفعه الاطمئنان إلى الاعتراف بوقائع يعاقب عليها القانون، وما كان التحقيق ليكشف أمرها لولا اعترافه؛ وثق فاطمأن فاعترف، فكيف يتفق هذا الاطمئنان مع التحامل الذي يدعيه ٤؟ هذا حقه في الدفاع قد استوفاه، وتلك أعماله في التحقيق ذكرتها في الرد؛ وأبنت وجه الصواب فيها، لا أقول إنني معصوم، ولا أقول إنني ملك، وإنما أقول: إنني لم أعمل في التحقيق عملا لا يرتاح إليه ضميري؛ تحدثت لإظهار الحق بوسائل مشروعة، وأعتقد أنني وصلت إليه، فإن كان في ذلك ما يغضب اللههم فأنا أول من يلتمس له عفوا؛ لأن في الحق قضاء على حياته الأبدية، وإنما لا ألتمس له العذر في طعن لا يستند فيه إلى سبب صحيح، ولا يقصد به إلا التجريح وهو يعلم أنني لم أعمل إلا ما قضى واجبي به وأني كنت به رؤوفا.

هذه مرافعتي لم أذكر فيها كلمة أعتقد أنها غير صحيحة، وقد ذكرت فيها شيئا من أعمال... أفندي في قضية واحدة ليقاس عليها عمله في القضايا الأخرى فاحكموا بعمله على أخلاقه فإنما على الأخلاق تحكمون^(١).

وهذا مثل قيم للرد اللاذع على تجريح الدفاع من غير إسفاف، بل بتسام واعتصام بسلطان الواجب والحق.

٦- هذا ويلاحظ ممثل النيابة أن كل تطويل في غير التحليل والتفصيل عند الحاجة إليهما إضاعة لوقت القضاء ولوقته في غير طائل، وكل إيجاز فيه نقص وعدم توضيح وإيهام إخلال بالواجب المنوط به والعمالة التي تعد من رعائها وحماتها، والعاملين عليها، والداعين إليها، فليتمحروا التوضيح والشرح، ومرد الوقائع من غير حشو، والاقتصار على المطلوب، وعدم الإسراف في الألفاظ من غير إخلال.

٧- وعبارة النيابة تستحسن فيها السهولة والانسجام والاسترسال مع عدم تكلف التحسين، وإلا ضاعبت الحقيقة وسط ضجة من الألفاظ، وسيل من التعابير، وعليه مع ذلك ألا يفوته أمران:

(١) من كتاب المرافعة للأستاذ الجداوى.

(أحدهما) أن يتجه إلى الألفاظ الفخفة الرنانة إن كان يتكلم في سلطة القانون وقوة سلطانه، ليلقى في روع السامعين مهابة القانون فيلزموا خطة الطاعة، ويخاف العصاة صولة العقاب.

(وثانيهما) أن يلاحظ قوة رجال الدفاع، فإن وجدهم من أهل البيان واللسن، وعن يحاول التأثير بالكلام شهر عليهم مثل سلاحهم من غير أن ينسى أن عمله الدفاع عن الحق في ذاته، وأنه ليس كثيره يتحيز ويسير وراء مصلحة من يتحيز له؛ فإن كان له أن يتحيز، فللمجتمع والحق والقانون، لا لغيرهما.

مرافعات المحامين

المحامى هو المعلم بالقانون الذى يستطيع أن يثبت حق ذى الحق ويدفع باطل المعتدى معتمداً في ذلك على علمه بما شرع القانون من حقوق، وما ألزم من واجبات، وما قيد به الحريات حفظاً للجماعة، وتثبيتاً للمصالح.

ولسنا نتكلم هنا عن مرافعات المحامين من كل وجوهها؛ فثبت ما لهم من حقوق قانونية في حق الدفاع، وما عليهم من واجبات، وما قيدوا به من حدود؛ ليؤدوا واجباتهم على الوجه الأكمل ولانبين مراتب الأدلة، ومواضع قوتها، وما يجب اتخاذ منها في القضايا المختلفة، لا نتكلم في هذا ولا في ذاك، فهما من شأن رجال القانون والمشرعين، وفوى الدراية من المحامين، وأهل الخبرة من القضاة.

وإنما نقتصر في كلامنا على ما يتعلق بأداء المرافعات، وطرق تحضيرها في الجملة، وما يحسن في لغتها، وما لا يحسن، ومزاياها الخامية من مقتضيات، وما يتجهز من فرض، وغير ذلك مما هو لب الخطابة القضائية، وفي الأخذ به شجاع المحامى، والوصول إلى غايته، إن كان قد أحسن على أدلة قوية دامنة، وفي الجملة كلامنا هنا في شكل المرافعات الخطابي.

وقبل أن نخوض في بيان هذا يجب أن نذكر ما يتجلى به المحامى؛ ليكون أقدر على النجاح في مهنته:

١- الرغبة الصادقة في إنصاف المظلوم إن وجده؛ فإن تلك المهنة الشريفة ليست مرتزقا يتخذ للعيش فقط، بل هي عمل شريف من قبيل الإصلاح الاجتماعى قبل كل شيء، ومن

هذه الناحية تكسب المحاماة شرفها، وينال المحامي مجدها، ولا غيبى مهنة ككل المهين لا فرق بينها وبين الصناعات المادية التي تفيد الناس في نواحيها.

قال الأستاذ الغرايلى «باشا» فى محاضرة ألقاها على المحامين الذين هم تحت التمرين سنة ١٩٣١:

المحامى هو قبل كل شئ نصير المظلوم، ثم هو بعد ذلك الرجل القانونى الذى يستطيع أن يتنصر لذلك المظلوم انتصارا مفيدا، وعلى هذا الأساس يجب أن يفهم الناس وظيفة المحامى، فمن وجد فى نفسه ميلا فطريا لنصرة المظلوم، ومحاربة الباطل، فليسلك سبيل المحاماة إذا أراد، ومن لم يحس فى نفسه بهذا الميل الغريزى، فإلى أنصح أن يعتمد عن المحاماة، وأن يشق له فى الحياة طريقا آخر.

وقال فى المحاماة وطلب المال: ومتى كان جمع المال غاية، فما أشقى المحاماة بهذه الغاية، بل ما أشقى العدالة بمحاماة تكون وسيلة لجمع المال؛ لأن كل وظيفة من وظائف العدالة تفسد، وتنقلب إلى خطر محقق، إذا كان صاحبها طالب عيش قبل كل شئ؛ إذ أن الوظيفة تكون فى هذه الحالة سخرة لخدمة الشخص، وليس الشخص هو المسخر لخدمة الوظيفة، فوالها من جريمة شنيعة، جريمة أولئك الذين يستخدمون وظائف العدل لإشباع بطونهم.

وقد نظرت القوانين إلى المحاماة نظرتها إلى الناصر للمظلوم؛ ولذا جعلت على المحامى فريضة واجبة الأداء، وهى التقدم للدفاع عمن ليس لهم محام يدافع عنهم، أو يثبت حقوقهم متى ندبه القضاء لذلك، وإلا استحق العقاب.

٢- الإلمام التام بأحوال الجماعات، وطوائف الأمة، وعرف كل طائفة، ليستطيع أن يتخذ من عرفها، وما يجرى بين الناس فى عامة أحوالهم دلائل تثبت ما يقول، وتقطع على الخصم طريق الانتصار، فعليه أن يعرف حال الزراع وما يجرى بينهم، وما هم عليه من أخلاق وعادات ومعاملات، وعليه أن يعرف حال التجار وعرفهم فى مبادلاتهم وما يصفقون به فى الأسواق، ويسبرون عليه فى الأعمال، وهكذا فى كل الطوائف، فإن القضية الناس متصلة كل الاتصال بأحوالهم وشئونهم، ويحدث لهم من الأقضية بقدر ما يحدث بينهم من شئون.

٣- قوة الانتباه واليقظة الشامة، وحسن المراقبة لما يجرى فى مجلس القضاء، ويقال من شهرد وخصوم ووكلاء، لكنى يستطيع أن يعرف المقتل، فيضرب الضربة القاصمة للخصم.

وقد قال الأستاذ إبراهيم الهلباوى فى ذلك :

كثيرا ما شعرت بتحول فى تيار فكرى إلى نقط لصالح الموكللى أستنبطها من طريقة الخصم، أو من ملاحظة المحكمة، وأعظم نعمة أشكر الله عليها توفيقى فى انتهاز هذه الفرص فى لحظاتها، ثم التعبير عنها والاستفادة منها.

٤- أن يكون متصفا بمصفات الخطيب التى لا يعد التكلم فى صفوف المخطباء بدونها، وقد بينها، وذلك لأن المرافعة خطابة لها طابع خاص.

٥- وقد أوجب الأستاذ محمد على علوبة «باشا» :

(أ) أن يكون المحامى على شئ غير قليل من أدب اللغة، ليجد فيه بعينه متى أعوزته الحاجة إليه.

(ب) وأن يكون ملما بقواعد علم النفس والاجتماع.

(ج) وأن يكون ثابت الجنان يملك زمام نفسه عند المفاجآت، فلا يست عليه انفعاله مسالك التفكير.

وقد علمت مما سبق ضرورة هذه الأمور للمخطبة؛ ليستطيع بالأول أن يكون ذا لروة لغوية يصرف بها فنون القول، ويسلك بها من طرائق البيان أقربها توصيلا، ويعرف بالثانى كيف يثير الوجدان والأهواء فى الناحية التى يريد بها، ولكيلا تطيش حجته إذا أخذته الرهبة، واستولت على له مفاجآت الخصوم.

٦- الهدوء التام، ومجانبة الغضب، والاجتهاد فى ضبط نفسه، وعدم مسابقتها فى سبيل الغضب إن لم يستطع التحذرها فإن المناقشات التى يسودها الغضب تدفع إلى المهاجرة، والمهاجرة نوع من الحمق والجهل كما ذكرنا، ولأن المحامى إذا استرسل فى غضبه، ضاعت حجته، وحبل محجته، ووجود الخصم الطريق إلى القلب، وكثيرا ما يشير الخصم الأوب خصمه الغضوب، ليفتنص منه «الحاجة»، ويستغل منه القضية، ويتركه يحرق الأرم، وبعض بنان القدم، فليخصم المحامى بالهدوء فى تناجلاته، ليستطيع أن يحدد الإهام، وهو ثابت الجان، فلا يرتعد عن الهدف.

هذه بعض ما يتحلى به المحامى من صفات، وما يكمل نفسه به من تهذيب، وقد آن لنا أن نبين طرق إعداد المرافعة، وطرق الإدلاء بها، ولغة المرافعات.

إعداد المرافعات:

إن إعداد المرافعات يجب أن يتناول الدرجات التي بها يصل المحامي إلى غايته، وذلك الدرجات ثلاث:

أولاًها : جمع عناصر القضية، واستخلاص الأدلة.

ثانيها : إعداد العدة للرد على ما عاين بجس على أسس الخصوم ووكلائهم من أدلة.

ثالثها : التفكير في الأسلوب الذي توجه إليه، والمسلك الذي يسلكه ليصل إلى إحساس القاضي وبعس به وجدانه.

أما جميع العناصر والأدلة فيكون:

١- بدراسة أوراق القضية واستيعاب أجزائها، واستقراءها استقراء تاماً، بعد الاستيثاق من أنها كاملة لم ينقص منها شيء، حتى إذا أتممت قراءتها، ولم يبق منها صغيرة ولا كبيرة إلا خاص في فهمها واستيعابها ما حوته.

٢- وبما أحاط منها، ووضع مسامك متعاضد الأجزاء.

٣- لم يستطع منه ما يراه مؤيداً لما يريد، وإذا رأى في هذا الكفاية اقتصر عليه، وإلا اتجه إلى القانون، يستطلق مواد، ويغوص في قواعد، حتى يصل إلى ما يراه مؤيداً له، مشبهاً لما يريد موكله، ولو على سبيل الرجحان لا اليقين.

وهنا يثار بحث هو: هل يجب على المحامي ألا يتقدم للمرافعة في قضية، إلا إذا وجد أن ما تحت يده من الأوراق والأحداث يثبت أن موكله على حق مبين؟ أم يصح أن يتقدم للدفاع، ولو اعتقد البطلان؟ يرى بعض كبار المحامين، وبعض أولئك الذين أخذهم سلطان الحق والفضيلة والغيرة على تلك المهنة الشريفة أنه لا يصح للمحامي أن يقف إلا إذا كان مؤمناً تمام الإيمان بحق موكله فيما وكله فيه، وإلا كان في عمله تلبس على القضاء، وعرقلة للمعالة، وسعى في نصرة الباطل.

ونحن نوافق صاحب هذا القول في القضايا المدنية والشرعية التي لا شبهة فيها، والتي يلوح فيها حق الخصم واضحاً مكشوفاً، فعلى المحامي أن يصح لموكله بالصلح، وبين له جلية الأمر، ليحسم الخلاف، ويعلمه الناس ثقة لا ريب في ذمته، وإن كان الأمر موضع نظر، وأن

الحق فيها قد اتس بالباطل ، ولم يتضح له جانب منهما ، تقدم وأثبت بما يراه موصلاً ، غير أنه لا يصح له أن يسلك من الوسائل الموصلة ، إلا ما يعتقد كل الاعتقاد أنه حتى يؤيده القانون ، ومن غير تلبس ولا تضليل .

أما القضايا الجنائية فإن الحماس يجب عليه أن يدافع ، ولو أن المتهم جان ، لأن الواجب أحد أمرين ، إما نفي الجريمة إن لم تكن الأدلة عليها قائمة بيقين ، وفي هذه الحال يكون دفاعه عن برئ بحقتضى القانون .

إذا المتهم برئ ما لم يقدم الدليل القاطع على جرمته ، فلا شيء في الدفاع حينئذ .

وأما تصوير الحال التي وقعت فيها الجريمة استنداراً للعطف وإثارة للرحمة ، وليس الحماس في هذه الحال إلا رسول المتهم يصور حاله ، وينطق بجنانه ، ويعرضه لمجلس القضاء . وإن نظرة عاجلة إلى المجرمين ترى أن كل مجرم منهم لابد أن يحيط جرمته بأحوال نفسية شاذة تخفف من حدة الجنابة ، وتلطف من شدة وقعها ، اللهم إلا العاة القساء الذين يصلحون الإحرام مرفوقاً من غير اضطراب ، فالحماس يبين كل ما يصح أن يكون دفاعاً . ولقد لاحظت القوانين ذلك ، فأوجبت أن يكون لكل منهم في جنابة محام يدافع عنه ، فالنيابة قد تقدم الرجل إلى المحكمة ، ويده مخضبة بالدماء ، ومنيته تنطف دماً ، أو صدى الرصاصية التي ألهب بها رأس المقتول يدوى في الأذان ، ومع ذلك تندب له المحكمة من يدافع عنه ، إذ يجوز أن يكون مما أحاط بالجنابة ودفع إليها ، ما يخفف من شدة هذه الجريمة ، وما دامت النيابة تتراجع ضده ، فليكن من الحماس من يدافع عنه .

ولذا نقول إنه في إعداد المرافعة إذا لم يوصله بحثه في القانون وحوادث القضية وأوراقها إلى ما ثبت الدعوى بيقين ، فليكتف بالرجحان ، فإن لم يكن رجحان ولا شبهة ، فليرفض الدفاع في القضية المدنية والشرعية ، وليقدم في القضية الجنائية ، وعلى الحماس في هذه الحال أن يشعر بشعور المتهم ، ويحس بإحساسه ، ليستطيع أن يدافع عنه بحرارة ، ولينقل وجدانه إلى المحكمة .

قال بعض البلغاء في وصف محام قدير وسر مقدرة أنه يتعمق في درس الدعوى ، ويلج إلى قلب القضية ، فينظر بعين المتهم ، ويحس بأحساسه ، فيغضب غضبه ، ويصبح صياحه ، كأنه يطلب الرحمة لنفسه ، وترجم عن رأس المسكين رأسه ، يأخذ شبكة الاتهام ، ويلقيها على نفسه بانقصار ، لم يقطعها تقطيعاً ، كأنه من مصارعى الرومان .

وأما إهداء الردود على ما حمىء يكون دليلاً ؛ فيكون بأن يتخيل نفسه في موقف خصمه ، ثم ينظر في القضية بنظره ، ويجمع الأدلة التي تصالح له ، ثم يعود عليها بالهدم لينة لينة ، وبذلك ينشئ مجلس القضاء ، ومنه كل الأسلحة ، فليقتل شهادات الشهود ، ثم يستعد للرد عليهم ، ويعرف أقوال الخصوم ، وليتلمس من ثناياها ما يهدم مطالبهم ؛ وليحذر أن يكون السب بما بعده من الذمائم ، فإنه سلاح ذو حدين ، وربما كان ضرره أكبر من نفعه . ويظهر أن بعض الناس يتخذ من المحامي والخصومة ذريعة للنيل من كرامة خصمه ، فليحذر المحامي أن يطرح لهذا الصنف من الناس وأن يكون سيقاً في يده ، ولا يصح أن يعياً برضاه أو سخطه ، فإنه إن جعل رضاه مقياساً لجودة المرافعة ، نزل بها من عليائها .

وقد جاء في كتاب الحمامة لأحمد فصحى زغلول وباشاء أن مونتسكيو أوصى المحامين من هذه الناحية قائلاً :

أيها المحامون ، إن فيكم غيرة على حقوق موكلتكم ، ونحن نعتد ذلك منكم ، لكن غيرتكم تكون جريمة إذا أنستكم ما يجب عليكم نحو خصومتكم ، نعم أنا أعرف أن واجب الدفاع يقتضى ذكر سيئات خصومتكم التي طوتها الأيام ، إلا أن فى ذلك ضرراً لا يخفى ، ونحن لا نسمح لكم بذلك إلا إذا قامت الضرورة على أنكم كتتم إليه ملجئين .

حنوا عنا هذه المحكمة ، واذكروها على الدوام ، لا تقولوا الحق إذا لم يكن له من أثر غير الإضرار بفضلتكم وكرامتكم ، فما أشد تنس اللسن إذا كان فى أكل لحم الغير ميتاً ، ولعلنا لا نقالم من أمر ، ولا يكدر صفونا أكثر من تجاوز بعض الألسنة حد الكمال فى المقال .

إن الذى تضحك منه الناس لا يفرحتاء ، ولكننا نيكى دائماً على أولئك المتعاسين الذين يشان شرفهم ، وتنتهك حرمانهم بقوارص المطاعن والكلام .

أليق أن يلحق الخزي ، ويركب العار كل من اقترب من رحاب هذا المجلس المقدسة ؟ بالأسف ! هل يخشى البعض أن تظهر العدالة خالية من كل عيب ، بعيدة عن الرذائل والمساوى ؟ وأى عمل يساء به الخصوم أكثر من انتحابهم وحرقتهم إذا خرجوا من الخصومة كاسبين ، وقد جعلت حدة القول مذاق العدل مرأ ، فاشتدكم الدمة ، ما الذى يجيب به قوما يقولون لنا : أيها القضاء ، إتنا أثنا للمثول بين أيديكم ، فكان حظنا أن رمينا بالنقاص ، وأبسننا جلايب الخازى ، ولقد انكشفت لكم جراحنا ، فلم تضمدوها ، وجلستم لتصففونا من إساءات أصابتنا بعيداً عنكم ، فنالنا من الإساءات أمامكم ما هو أعظم ، وأشد وقعا ، فلم تقفوها ببنت

شفة، وأنتم الذين كنا نراكم في مجلس قضائكم ثلاثكة الأرض، فسكنكم كأنكم أصنام من الخشب أو الحجارة لا تنطقون، تقولون إنكم ولستم بالقضاء لتحتفظوا علينا أموالنا، وإن شرفنا أحر علينا من كل مال، ولتحتفظوا أرواحنا، نعم وإن الشرف أحر على النفوس منها، فإن لم تستطيعوا أن تردوا جماع خطيب أخطئه حذره، فدلونا على مجلس قضاء أعدل منكم، وأحفظ لحقوقنا، وما يترينا أنكم لم تقتسموا تلك اللذة البرية التي طلبها خصومنا، ولم تفرحوا بما نالنا من اليأس وما تولانا من الأضرار وإن سكوتكم الذي نعبه ضعفا منكم هو في الحقيقة إلم قد ارتكبتموه عمدا واختيارا.

أيها المحامون، ليس لنا طاقة على احتمال مثل هذا التعب والتعنيف، ولا نريد أن يقال إنكم كنتم في ترك الواجب عليكم أسرع منا في أدائه.

وكما لا يصح أن يجعل الرد على الخصوم سببا وشتما، لما ذكره ذلك القاضي الحكيم، كذلك لا يصح أن يجعل الرد على شهادات الشهود بتجريح ذم الأخيار. فإن ذلك فوق أنه طعن في الذم بالباطل، وتلبس على القضاء، وعمل لا يليق بشرف المهنة، ولا بأدب الخطابة، هو منع لفضلاء القوم من أن يؤدوا الشهادة، وحمل لهم على أن يكتموها، وفي ذلك ضياع للحقوق، وإهتار للمماء، وعرقلة للعدالة في كل نواحيها.

وقد قال روس، كما جاء في كتاب المحاماة:

ومن الأسف أن بعضهم عندما يعجز عن تفنيد الشهادة ويبان سقوطها يرجع على الشاهد بما يحذر من قدره، ويسقط من اختياره، فيضليه نارا حامية، وقودها التخيلات البوهمية، والشبهات التي لا دليل عليها، وينسون أنهم بذلك يلحقون الضرر برجل من الأخيار أدى واجبه، ليخدموا رجلا من الأشرار خرج على القاتلون بجريسته، وإنهم يستهترون بالصراحة والمقل باستعمالهما في خدمة الأثيم ضد المستقيم، حتى يصلى لهم أن يقولوا لقد نجينا المجرم بقوة البيان وصراحة المنطق وفلاحة اللسان، لكن ذلك مجد لا يستفز منا طويلا في الأذهان.

وأما ترتيب المرافعة، فيكون بأن يبدأ بحصر وقائعها متسلسلة، ثم يستنبط من الحوادث الأدلة التي يراها مؤيدة لمطلوبه، ويذكر الخنيج القانونية التي يعتمد عليها في تقرير ما يقرره، ويلاحظ عند ترتيب المرافعة الأمور الآتية:

١- أن يبدأ بأقوى الأدلة التي يتقدم بها عند ذكر الأدلة، فإنه إن فعل ذلك سبق إلى ذهن القاضي عنالة مطلبه، والفكرة الأولى عن شيء شديدة الثبات، فتارة في النفس أبلغ قرار، ولذا أنها من النفس تحتاج إلى مجهود قوي، وذهن ألمي.

٢- أن يسهل على القاضي الاستنباط، فيذكر له الحوادث في صورة ناعقة بما يريد؛ ليسبقه القاضي إلى إدراك ما يريد أن يستنبط، حتى إذا ذكر له ما يستنبطه تمكن في نفس القاضي فضل تمكن، وجرى في الصورة موافقا لتفكير القاضي، وقد استشاره هو في نفسه بحسن تصويره، فيجذب بهذا ميله إليه.

٣- أن يكون على إلام تلم بنفسية القاضي وأسلوب تفكيره، وما يستهويه من الآراء وما يستثيره من الأفكار والمعاني؛ ليستطيع أن يمد في مرافعة ما يشبع رغبته الفكرية، وليجعل كلامه بصورة لما في تايأ نفسه، فيسكن في قراتها، إذ يجد ما يلائمه، ويعيش مع ما يواله؛ وليستطيع أن يعيش في الجو الذي يعيش فيه القاضي؛ فيكون بينهما فهم متحد في كل ما يقدم من أدلة واستنباطات.

طرق الإدلاء بالمرافعة:

الإلقاء للمرافعة هو زوجها، وهو عمادها، وأليه يعود جزء كبير من نجاحها، إذ يغير حسن الإلقاء وجودة الإدلاء لا يكون للتحضير قبعة؛ ولا للإعداد أثر، ومثل المحامي الذي يجيد الإعداد، ولا يجيد الإدلاء كمثل المعلم الذي يجيد تحضير الدروس، ولا يحسن إلقاءها. وليكون الإلقاء جيدا لابد من مراعاة أمور حق الرعاية، منها:

(أ) ألا يلقى مذكرات كتبها وحدثها، بل لابد أن يلقى مشافهة لكي يستطيع أن يشرف بنظراته؛ فيدرك كل ما يحيط بقوله، من إقبال أو إعراض، من تبه أو انصراف، ولكي يستطيع أن يشرك في التصوير حركاته ونظراته، والجمود على ألفاظ مكتوبة قد يحبس القنن عن التصرف النام في شؤون القول على حسب المقام، ولهذا يقول الخبراء: إن أقل للمرافعات تأهرا ما كان مكتوبا؛ لأنها لا يستفيد فيها المحامي من الجو الذي يسود مجلس القضاء، ولا يتخذ منه قوة له.

(ب) وأن يلاحظ القاضي في إقباله أو إعراضه؛ وفي نظراته وإشاراته، لكي يسير في طريق واحد، وفي متجه واحد، فإن لاحظ منه إقبالا في نقطة أشبع فيها القول، وإن لاحظ منه إعراضا في ناحية لا يصارحه بالمخالفة في وجهة النظر لأن المصارحة بالمخالفة مخصصة، والمخالصة تباعد ما بين المتناقضين، وتوسع الهوة ما بين المتخالفين؛ وما وقف أمامه له خاصمه، بل ليعاونه في إظهار الحق، وليستدنيه إلى وجهة نظره. ولا يترك الأمر للمدعى أعرض عنه مرضاة له، فقد يكون في ذلك ضياع للحق، وإخلال بواجب الدفاع، بل يعمد إلى الزقن والأناة،

ويترك مؤقتاً التصريح فيما احترضه فيه؛ ثم يأخذ في شرح أمور مسلم بها من الجميع تثبت صحة ما اعتزم قوله؛ ثم يهجم به فلا يجد إعراضاً، وعليه ألا يظهر منه في أثناء ذلك ما يدل على أنه فهم إعراض القاضى عندهما أعرض، لأن القاضى إذا فهم أن الخصم علم إعراضه، ثم ميله إلى التسليم، ربما قاوم نزعة التسليم؛ لأنه بشر بهم أن يتصر فكره، إن ظهرت للناس.

(ج) أن يلاحظ وقت للقاضى، فلا يطالب إلا إذا وجد مقتسماً من الوقت، ولم يمن الإيجاز عن الإطباب، لأن الإطباب حيث أغنى الإيجاز تطويل ممل، وإسراف فى القول من غير حاجة داعية إليه، والإطباب حيث يضيق صدر القاضى بالسماح، وحيث لا يتسع الوقت له تكليف بما لا يطاق، فليوازن المحامى بين وقت القاضى، ومصلحة القضية، والقول اللازم، وبذلك ينال السداد وحسن الاستماع والانتباه والوصول إلى الغاية المطلوبة، والضالة المنشودة.

(د) إعطاء المرافعة حياة وقوة بتغيير التبررات، ورفع الصوت حيث يلزم الرفع، وتخفيض فى موضع الخفض، ويبدى تأثيره بالحق الذى كان مضيقاً أو بالعطف على الجانى إن أراد أن يستدر عطف القضاة عليه، ويسرع أو يبطئ فى القول، حسب مقتضيات الأحوال؛ فيسرع فى مواقف الحماسة، ويتأنى فى مواقف الروية، وكأنه فى هذه الحال يسير على قمة جبل تحت الهاوية، فيقدر للرجل قبل الخطر موضعها.

وإعطاء المرافعة حياة وقوة يخلق فى مجلس القضاء جواً فكرياً عاطفياً يساعد على توجيه القضاء إلى ما يريد.

وإن المرافعة القوية بروح ملقيها، وحسن تصرفه، وقوة دلائله وظهور استنباطه تضع فى رموس القضاة صورا فكرية صادقة النقل لحق من يدافع عنه، إن كان الحق هو المصداق.

لغة المرافعة:

ألفاظ الخطيب وأساليبه، يجب أن تكون ملائمة كل الملاعبة للذوق العام الذى يسيل على البيئة التى يخطب فيها، ولعرف الجماعة التى يخاطب أحد أشخاصها، وقد بينا ذلك فيما سلف من القول، وهنا نقول إن لغة المرافعة يجب أن تكون ملائمة للذوق اللغوى الذى يسود أهل القانون، وأساليب مخاطبتهم؛ والألفاظ الشائعة بينهم. ولتتهم فى الحقيقة قريبة من الفصحى، وأعلى من العامية، وهم فى ذلك ككل المتقنين بثقافة أممية تهذيبية اجتماعية فى مصر، فعلى المحامى إذن أن يتحرى فى مرافعاته أن تكون بلغة مرسلة لا تكلف فيها ولا تحسين ولا مسجع، ولا ما يشبه السجع، تسودها السهولة بحيث تكون قريبة من لغة أولئك الخاصة

المتقنين، لا تضاد فيهما ولا تفيهن، ولا نزول إلى العامة، ونحن لا نبيح له العامة إلا في حالين:

إحدهما : إذا أراد أن يأتي بملحة تفكهة للسامعين.

ثانيهما : إذا لم يستطع تصوير فكرته تماما إلا بالعامة، أو أراد أن ينقل عبارة شاهد، ليناقشها، فإن العامة تباح في هذه الحال اضطرارا.

وقد يلجأ المحامي إلى العبارات الفخمة القوية الرفانة في بعض القضايا الجنائية، ليهز إحساس السامعين والقضاة، كما إذا أراد أن يصور حماسة المتهم في الدفاع عن نفسه أو عرضه مثلا، فإنه يتكلم بعبارات قوية تفرع الحمس، ليكون في ذلك ناقلا لقوة حماسة موكله، وتدفاعه فيما يفعل.

ويجب على المحامي في دفاعه أن يغير أساليب القول ويصرفها، فمرة يقول مستفهما، وأخرى متعجبا، وثالثة قصصيا، رابعة مستنكرا، وهكذا ينوع عباراته؛ ليكتسب كلامه جدة.

وعليه أن يسوق كلامه في صورة مشوقة، مبتدئ بعبارات مشيرة لاهتمام السامعين، موعزة لأفكارهم، حتى إذا تمت بهيئة الأذهان دفع إليهم بكل ما يريد، وهكذا في كل أجزاء دفاعه، حتى يتم له النصر. والله المستعان.

خطب الوعظ الديني

تمهيد في بيان وجوبه وحاجة الناس إليه

١ - الوعظ الديني هو الأمر بالمعروف في الدين، والنهي عن المنكر فيه، وقد أجمعت عليه الشرائع، وافترقت على وجوبه الأديان، فعليه قد قامت الدعوة إليها، ومن يتبوعه تغفلت النفوس البشرية ضلالتها الروحي، ومن ضلوه انصبت نورانيتهما، وقد قال في وصفه الخوالي:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهبط الذي اهتدت إليه النبيين أجمعين، ولو طوى بساطه وأهمل علمه وعمله، لتعطلت الحياة، وانضمحت الديانة، وعمت المفترقة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وتخرت البلاد، وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد.

والأدلة على لزوم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر - كثيرة في الشريعة الإسلامية؛ حتى لقد عدت بحق شريعة التواصي بالحق، والتواصي عن المنكر؛ فقد قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرُ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خَسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَتَوَّاصُوا بِالْحَقِّ، وَتَوَّاصُوا بِالْعَصْرِ﴾. وقال تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَلَا تَكُن مِّثْلَ نَجُوشَةَ الْغَمْرِ، وَهِيَ كَانَتْ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. وقال تعالى: ﴿كَتَبْنَا عَصَى آدَمَ الْمَعْرُوفِ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

وقد روى أن النبي ﷺ قال: «ما أعمال البر عند الجهاد في سبيل الله، إلا كنفقة في بحر لحي، وما جميع أعمال البر والجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - إلا كنفقة في بحر لحي».

وقال ﷺ: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر».

٢ - والأخبار متضاربة بما كان عليه سلف هذه الأمة من القيام بذلك الحق؛ لا يهابون في ذلك سلطان ذي سلطان، ولا تأخذهم رافة في دين الله، ولا هواة في إقامة حقه، والأخذ بناصر منه، كل شيء هين في سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وكل عذاب سهل مساع إذا كان من كلمة حق قالوها، لا يمنعونهم من أن يصدموا بها أقوى الحكام عتواء، وأشدهم قسوة، وأبعدهم في الأذى مثالا؛ وما أخبار وعاظ التابعين مع الحجاج وأشباكه من

حكاهم بنى أمية بعيدة عن الأذهان، كانوا لا يخلون فيما يفعلون تقية، ولا يرضون في دينهم بالذنية.

يرى أن الحجاج جمع بعض علماء العراق، وفيهم الحسن البصري والشعبي، وأخذ يحادثهم فذكر على بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال منه، وجاراه من معه تقربا له، وأما من شره، إلا الحسن البصري، فصمت على مضض وعض على إبهامه؛ إذ غلى رجل غضبه، فالتفت إليه الحجاج وقال: يا أبا سعيد، مالي أراك ساكتا؟ قال: ما عسيت أن أقول؟ قال: أخبرني عن رأيك في أبي تراب. قال: سمعت الله جل ذكره يقول: ﴿وما جعلنا القيلة التي كنت عليها إلا لتعلم من يتبع الرسول من ينقلب على عقبيه، وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله، وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم﴾، فعلى من هدى الله من أهل الإيمان، فأقول: ابن عم النبي ﷺ، وختنه على ابنته، وأحب الناس إليه، وصاحب سوابق مباركات؛ سبقت له من الله، لن نستطيع أنت ولا أحد من الناس أن يحظرها عليه؛ ولا يحول بينه وبينها. وأقول: إن كانت لعلى هنة فאלله حسبه. والله ما أجد فيه قولاً أعدل من هذا. فبسر وجه الحجاج، وتغير، وقام عن السرير مغضبا، فدخل بيتا خلفه، وخرج الجمع، فقال عامر الشعبي: أغضبت الأمير، وأوغرت صدره، فقال: إليك عني يا عامر، يقول للناس: عامر الشعبي عالم أهل الكوفة، فليت شيطاننا من شياطين الإنس تكلمه بهواه، وتقاربه في رأيه؛ ويحك يا عامر، هلا اتقيت إن سئلت، فصذقت، أو مكنت؟ فسلمت.

قال الشعبي: يا أبا سعيد، قد قلتها، وأنا أعلم ما فيها. قال الحسن: فذاك أعظم في الحجة عليك، وأشد في التبعة.

وبعث الحجاج إلى الحسن. فلما دخل عليه، قال: أنت الذي تقول: قاتلهم الله، قتلوا عباد الله على الدينار والدرهم؟ قال: نعم. قال: ما حملك على هذا؟ قال: ما أخذ الله على العلماء من الموائيق ليبينته للناس ولا يكتمونه. قال: يا حسن، أمسك عليك لسانك، وإياك أن يبلغني عنك ما أكره، فأفرق بين رأسك وجسك.

هكذا تكون قوة الإيمان، وهكذا يكون الأخذ بتلك الشريعة المستقيمة؛ والفريضة المحكمة، فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تلك الفريضة التي لو أخذنا بها كما أخذ ذلك السلف الصالح، لارتبط حاضرو الأمة بماضيها، ولا اتصلت نفوس الحاضرين بنفوس السابقين بتلك الأمراس التوراتية.

٣- وقد ذكر الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده أن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى - دعوة هذه الأمة سائر الأمم إلى الخير؛ لئلا يشاركونهم فيما هم عليه من النور والهدى، وقد أوجب الله ذلك على المؤمنين، فقال تعالى في وصفهم: ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر﴾.

المرتبة الثانية - دعوة المسلمين بعضهم بعضاً إلى الخير، وأمروهم فيما بينهم بالمعروف، ونهواهم عن المنكر، ببيان طرق الخير، ونطبيق ذلك على أحوال الأمم، وضرب الأمثال، ويقوم بهذه وسابقتها العارفون بأسرار الشريعة، وهم الذين قال تعالى فيهم: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾.

المرتبة الثالثة - تكون بين أفراد الأمة علماء وجهلاء بالتواصي على الحق، والثناء عن المنكر، كل بما يعرفه، فإذا رأى أحد المسلمين مسلماً يتردى في موبقة هو يعلمها، ولو لم يكن من الخاصة لصدى لنصحه وإرشاده. وبيان ما أمر به الدين، وما ينهى عنه في هذا المقام.

٤- وقبل أن نتوك هذا تشير إلى أمر جدير بالنظر، فقد اعترض بعض الذين ضعفوا عزائمهم، وأرادوا أن يسكتوا ويطعنوا، فلا يقوموا بذلك التكليف العظيم - بقوله تعالى: ﴿يأياها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اعتديتم﴾. ولا تجيب هؤلاء بغير المأثور عن صاحب السنة الشريفة الذي بين للناس ما نزل إليهم:

فقد روى أن أبا ثعلبة الخشني سأل رسول الله ﷺ عن معنى قوله تعالى: ﴿لا يضركم من ضل إذا اعتديتم﴾ فقال: يا أبا ثعلبة، مر بالمعروف وأنه عن المنكر، فإذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأى برأيه؛ فعليك بنفسك، ودع عنك العوام؛ إن من وراءكم فتناً كقطع الليل المظلم؛ للمتمسك فيها بمثل ما أنتم عليه أجر خمسين منكم، قيل: يا رسول الله. قال: لا، بل منكم؛ لأنكم تجتهدون على الخير أعواناً، ولا يجدون أعواناً.

هذه الكلمات الموجزة علمت مقدار رعاية الدين الإسلامي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا غرابة في أن يعنى به ذلك الدين السميع، قيامه ببناء الأمم، وحفاظ الجماعات.

الأمر بالسلطان وتجعله مقياس الرقي فيها، ودليل التقدم أو علامة التأخر، إلا وليد الإرشادات، ولمرة التواصي بالخيرة والتناهي عن الشر، وإن شعور كل امرئ بأن عليه من الجماعة من له كالرقيب العتيد، يحصى عليه سيئاته ويعد له حسناته، يدفعه إلى الكمال، ويسير به في طريق الرقي.

وإذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له هذه القوة، ولو كان معتقده العقل، وما يراه الناس حسناً، فكيف يكون الشأن لو كان ذلك تحت سلطان الدين، وإجابه لندائه، ودعوة إليه؟

٦- إن الجماعات لا تصلح إلا بالدين، ولا يقوم لها شأن بغير دينه، ولا تستقر إلا بقوة، لأن الأديان تهذب العالم، والجاهل، وذو العقل القوي، وصاحب العقل الضعيف، فهدايتها عامة شاملة لا تخص فريقاً دون فريق، بل إن الجماعات مهما تكن ثقافتها ومعارفها تخضع للدين، وتستولي على مشاعرها آياه.

قال العلامة جوستاف لوبون في كتابه (الآراء والمعتقدات): وإذا نظرنا إلى المنطق الديني من خلال جميع عناصر الحياة الاجتماعية. فإننا نراه ذا تأثير في الفنون، والآداب والسياسة... ولا تزال البقاع التي ارتادها العلم محدودة... ولا شئ في أن سيطرة التفكير الديني على البشر ستمتد زمناً طويلاً. اهـ.

نعم ستمتد سيطرة الدين إلى يوم الدين، لأنه سلوان الجماعات، وعزاء اليأسين وعزة المفلولين.

إن الدين هو الذي يربي الوجدان الفاضل، ويهذب الضمير، ويوقظ شعور الإنسان بالفضيلة، فيرشده بمس مواطن الإحساس في النفوس ويؤثر فيها أبلغ تأثير، ويصل إلى الأعماق في الهداية والصالح.

٧- والدين الإسلامي في عمومته في الأحكام يشبه قانون الأخلاق من حيث إنه يحكم على كل أفعال الإنسان الإرادية بالخير أو الشر، فكذلك يحكم الإسلام على كل الأفعال بالقبول عند الله أو عدم القبول، وكما أن الأخلاق تنوع الأحكام بالأغراض والمقاصد، كذلك الدين ينوطها بالنيات، ففي الحديث الصحيح «إنما الأعمال بالنيات» وفي الأثر «البر ما حاك في النفس، فاستفت قلبك وإن أفتاك الناس وأخوك».

ولما كان للإسلام هذا العموم في الأحكام فكان صالحاً لإرشاد الناس في كل أمورهم، وكان للوعظة الإسلامية من التفع بمقدار ما يستطيع أن يقدمه من إصلاح في بناء الحياة الاجتماعية عند المسلمين، ولقد لاحظت الحكومة ذلك؛ فطلبت إلى الوعاظ في المساجد أن يخطبوا في بعض أمور اقتصادية أو زراعية أو صحية، ومن أمثلة ذلك أن وزارة الأوقاف أمرت خطباء المساجد أن يخطبوا في الوقاية من السل، وأُرسلت إليهم نص الخطبة، وما جاء فيها: عباد الله، كم لله علينا من نعمة، وكم فيها شرعه من حكمه؛ فعلينا أن نشكر الله نعمته، ونعمل ما نرجو به رحمته، لنن شكرتم لأجل ذلكم، ولنن كفرتم إن عصى لشديد، خلق الله الداء، وخلق معه الدواء، وقدر به الشفاء، فمن يرجو من الله شفاء علقته، فليتبع ما أرشد إليه في كتابه، وليعمل بنصائح أهل الذكر، فقد قال تعالى في كتابه المكنون: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾. وإن من أشد الأمراض فتكا بالإنسان مرض السل القتال؛ وقال الله شراً وخلف عن المصابين ضرره. وإن على المصاب واجبين: واجباً لنفسه، وواجباً لغيره؛ فإذا قام بواجبه نحو نفسه، وواجبه نحو أبناء جنسه، فرج الله كرتيه، وأذهب علقته... يجب على المريض بهذا الداء أن يحتج عن بلع بلغمه؛ فإن في ذلك إضراراً بباطنه، وخطراً على باقي أعضاء جسمه.. ويجب عليه ألا يشرب شيئاً قبل خله، فربما كان فيه من جراثيم المرض ما يزيد علقته، ويضعف علاجه. ويجب عليه أن يتخذ لتومه غرفة خاصة به؛ فإن هذا أرجى لشفائه، وأبعد عن أذى غيره، ويجب أن تكون الغرفة الخاصة به تتخللها الشمس والهواء؛ فإن في حرارة الشمس وتجدد الهواء عوناً على قتل جراثيم المرض، وتطهير الغرفة من آفاته. ويجب أن تتعهد الغرفة بالتنظيف والتطهير؛ فإن فيهما وقاية من المضاعفات، وتخفيفاً لويلات الآلام.

هذه واجبات المريض نحو نفسه، فعليه أن يقوم بها، ولا يهمل واحدة منها؛ فإن الله سبحانه وتعالى نهانا أن نلقى بأيدينا إلى التهلكة، وأمرنا أن نقى أنفسنا من الأمراض، وتدفع ضرورها وتلافى أضرارها، فمن أهمل في واجبه فلما إثمه على نفسه.

وأما واجب المريض نحو الناس فألا يمرضهم لأداء، وألا يكون سبباً في إصابتهم بمثل ما أصيب به، فإن المسلم من سلم الناس من لسانه ويده... قاله الله في صحيحكم؛ فلا تهملوهما، وفي صحة الناس فاحفظوهما، وفي نصائح الأطباء الصادقين فدفقوهما، وفي كل حسنة فاقبلوها، وفي كل سيئة فاتركوها...

روى مسلم في صحيحه عن رسول الله ﷺ قال: «لكل داء دواء فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله عز وجل». وفي مسند أحمد عن أسامة بن شريك قال كنت عند النبي ﷺ،

وجاءت الأعراب فقالوا: أنتدأوى يا رسول الله فقال: نعم يا عباد الله، تتدأووا فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له شفاء غير داء واحد، فقالوا: ما هو يا رسول الله؟ قال: الهرم.

ألا ترى أن منشئ هذه الخطبة بين أن التداوى والرقابة من السبل عميرتان مقيسولان مطلوبان في الشرع الإسلامي؛ ونرى على ذلك حث السامعين على العناية بهذين الأمرين، وبين بعض طرق الوقاية وضرورة الأخذ بأهل الخبرة من الأطباء الثقات. وإذا كان الإسلام له ذلك الشأن في الإصلاح، فالوعظ المنبني الذي يدعو إلى الفلاح تحت ظلاله ينال الفوز والسبق، والجماعة التي تأخذ بهديه تنال السعادة والسلام.

ولقد سبقتنا أمة قامت على أساس هديه، ومثلية شملت على دعائم وعظه، فقد كان السلف الصالح رضوان الله تعالى عنهم يتخللون من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وما يدعوان إليه وسائل إلى الإصلاح؛ فكونوا دولة أخذت ملك كسرى، وهزئت عرش قيصر.

الوعاظ والمرشدون:

ذكرنا المراتب التي بينها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، قلنا إن المرتبتين الأوليين (وهما دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، ولإشاد عامة المسلمين) لا يقوم بهما (إلا العاملون بأسرار الشريعة، الفاهمون لمراميها، المدركون لغاياتها، وهؤلاء هم الوعاظ المرشدون المشار إليهم في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. وعملهم شريف عظيم، لأن الذي يقوم به يبين شرع الله للناس، ويصلح به دنياهم وآخرتهم، ويربي وجدانهم، ويهذب نفوسهم، ويرشدهم إلى طريق الفوز، والخروج من آلام هذه الحياة، ولشرف ذلك العمل أشار الأستاذ الشيخ محمد عبده في تفسير الآية السابقة إلى أن الأمة تختار مرشديها وتراقبهم، فقال رحمه الله: والمخاطب بهذا جماعة المؤمنين كافة، فهم المكلفون أن ينتخبوا منهم أمة تقوم بهذه الفريضة، فهنا فريضتان: إحداهما على جميع المسلمين، والثانية على الأمة التي يختارونها للدعوة... والمراد بكون المؤمنين كافة مخاطبين بتكوين هذه الأمة لهذا العمل، هو أن يكون لكل شخص منهم إزادة وحمل في إيجادها، وإسماعها، ومراقبة سيرها بحسب الاستطاعة، حتى إذا رأوا منها خطأ أو انحرافاً، أرجعوها إلى الصواب. وقد كان المسلمون في الصدر الأول، ولا سيما في زمن أبي بكر وعمر على هذا المنهج من المراقبة للمقاتلين بالأعمال العامة، حتى كان المصلوك من رعاة الإبل يأمر مثل عمر بن الخطاب (وهو أمير المؤمنين) وينهاه فيما يرى أنه الصواب، ولا بدع فالخطباء

على نراهم وفضلهم ليسوا بمعصومين . وقد صرح عمر بن الخطاب بخطبه ، ورجع عن رأيه مراراً .

والصفات التي يجب توافرها في المرسلين الداعين إلى دين الله كثيرة ، إذ هي صفات الكاملين يفيضون بفضلهم على من هم دونهم ، والكمال البشري بعيد المدى ، مترامي الغايات ، كل يسعى منه إلى شأو ، ويصوب سهمه نحو هدف من غير أن يبلغ الغاية ، ويصل إلى النهاية . ولذا ذكر لك بعض المشهور مما يجب على الواعظ التحلي به :

١- يجب أن يكون الواعظ فيه صفات الخطيب ، وقد ذكرناها موضحة فارجع إليها .

٢- ويجب أن يكون على حظ عظيم من الشجاعة المعنوية ، بصرح برأيه ، وبالحق الذي يراه في الدين واجب الرعاية ، لا يهمه في ذلك إغضاب أو إرضاء أحد من البشر ، فعما وقف نفسه للإغضاب أو الإرضاء ، بل وقف نفسه للإصلاح والهداية ، ولا يهمه الأذى من المخلوق ، مادام يعمل لإرضاء المخلوق . قال الغزالي في الإحياء : أوصى بعض السلف بنيه ، فقال : إن أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف ، فليوطن نفسه على الصبر ، وليثق بالثواب من الله ، فمن وثق بالثواب من الله لم يجد مس الأذى ، فإذا من آداب الحسبة توطين النفس على الصبر ، ولذا قرن الله تعالى الصبر بالأمر بالمعروف حاكياً عن لقمان : ﴿ يا بني ، أقم الصلاة ، وأمر بالمعروف ، وإنه من المنكر ، واصبر على ما أصابك ﴾ .

وليس معنى ذلك أن يخافى الواعظ الناس ويخافنهم ، فإن الموعظة الحسنة والحكمة هما طريق الدعاية الإسلامية الأولى ، فقد قال تبارك وتعالى : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ فليأخذهم بالرفق في القول ، ولكن لا يسأروهم فيما لا يرضاه الدين ، بل يصدع بالحق ، ولا يرجو لغيره وقاراً ، فإن لأن فقى سبيله ، وإذا اشتد فحيث دعا داعيه إلى الشدة ، يلين لينال حق الله ، ويشد لينصر كلمة الله .

٣- والنور والتدين الظاهر والعفة عما في يد الناس صفات يجب أن يتحلى الواعظ بها ، لأنه قدوة ، ويتخذ الناس منه أسوة ، ولأن إخلاص الخطيب من أسباب التأثير ، كما أسلفنا . والناس إن رأوا في الواعظ رجلاً يتخلى عمله عن قوله ، وأنه يقول ما لا يفعل ، غنوا فيه العثرون ، ولم يعتقدوا أن قوله صابر عن قلبه ، فلا يكون له تأثير ، ويذهب كلامه هباء منثوراً ، فمن تصدى للموعظة والإرشاد يجب أن يتسرل بسربال التقوى ، وعليه أن يجتهد في ألا يكون في ظاهره ما يخالف الدين بأي نوع من المخالفة ، فإن منصبه خطير ، وعمله جليل ، والعميون إليه

شائخة، ولأصله كاشفة، فإن كان منه معصية فليعمل علىسترها ماسترها الله، وليعلم أن من المجاهرة أن يحمل عملاً ستره الله عليه فيقول عمدت كيت وكيت، يكشف ستر الله، وقد قال الغزالي في إحدى رسائله: أما للوعظ فليست له أهلا، لأن الوعظ زكاة تصاب الاتعاذ، ومن لا تصاب له كيف يخرج الزكاة؛ وفاقد التور كيف يستنير به غيره، ومتى يستقيم الظل والعود أعوج. وقد أوحى الله تعالى إلى عيسى ابن مريم عليه السلام: عظم نفسك، فإنك تمعظت. فمعظ الناس، وإلا فاستحي مني. وقال نبينا ﷺ تركت فيكم داعطين، ناطق وصامت. فالناطق هو القرآن الكريم، والصامت هو الموت، وفيهما كفاية لكل متمعظ، ومن لا يتعظ بهما فكيف يعظ غيره، ولقد وعظت بهما نفسي فصدمت وقبلت قولاً وعقلاً، وأبت وتمردت تحقيقاً وفعلًا... ومن هذا نرى أنه يشترط لجواز الوعظ الاتعاذ، ولكن نراه في الإحياء يوجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر على المرتكبين، ويقوم على ذلك الدلائل القاطعة. ومنها ما رواه عن سعيد بن جبيرة وهو قوله: إن لم يأمر بالمعروف، ولم ينه عن المنكر، إلا من لا يكون فيه شيء لم يأمر به أحد، والتوفيق بين هذين النصين أن نقول إنه أراد بالأول من قام للدعاية، ويصب نفسه للوعظ، وأراد بالثاني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الكافة، لا على الخاصة، وهو المروية الثالثة في المراتب التي ذكرها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، وأيضاً نحن ما اشترطنا في الواعظ ألا تكون منه معاص قطع، بل اشترطنا التمسك بالصالح، وألا يكون في ظاهره ما يتنافى الدين من نفاق ظاهر، أو كذب صريح، أو عمل بنقيض ما يدعوا إليه، أو مجاهرة ببعض المعاصي، بل يكون متديناً لا يصير على معصية، وفيه سمع الصالحين، وصفاء المتقين، وصدق المؤمنين.

٤- العلم التام بكل ما يساعده في مهمته، ويعين في الوصول إلى غايته، ونيل بغيته. وقد أحصى الأستاذ الإمام في تفسير قوله تعالى: فولتكم أمة... الآية، المعارف التي يجب على الواعظ الإلمام بها، فكان منها:

(أ) العلم بالقرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة:

وكذلك العلم بسيرة النبي ﷺ والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم وسلف الأمة، والعلم بالقدر الكافي من الأحكام.

(ب) العلم بحال من توجه إليهم الدعوة في شئونهم:

والتعرف على استعداداتهم وطبائع بلادهم، وأخلاقهم، أو ما يعبر عنه في عرف العصر

بحالهم الاجتماعية، وقد روى أن من أسباب ارتضاء الصحابة بخلافة أبي بكر كونه أنسب للعرب، ومعنى هذا أنه كان أعلمهم بأحوال قبائل العرب وبطونها، وتاريخ كل قبيلة، وسابق أيامها وأخلاقها، كالشجاعة، والجبن والأمانة والخيانة، ومكانها من الضعف والقوة، والغنى والفقر، وما كان من إقدامه مع لينة وسهولة خلقه - التي يعرفها له كل أحد حتى الإفراج - على حرب الردة، إلا لهذا العلم الذي كان به على بصيرة، فلم يهيب ولم يخف، وقد خاف عمر، وأحجم علي شذقة المعروفة على الكافرين والمنافقين.

(ج) العلم بصنائص الأهم والتاريخ:

ليعرف الفساد في العقائد، والأخلاق، والعادات، فيبنى الدعوة على أصل صحيح، ويعرف كيف تنهض الحجة ويبلغ الكلام غايته من التأثير، وكيف يمكن نقل هؤلاء المدعويين من حال إلى حال، ولهذا كان القرآن الكريم ملوفاً بعبر التاريخ^(١)

(د) علم النفس:

ليعرف الواعظ خواص العقل البشري، ومناحي تفكيره، والغرائز التي أودعتها النفس الإنسانية، والميول التي كمنّت في أطوارها، وبهذه المعرفة يستطيع أن يشير الأهواء والمتنازع إلى ما يدهو إليه. ويتحدث الميول من مراقبها، ويرجعها إلى الغاية التي يريدها، والمقصود الأسمى الذي يتخيه، وفيما ذكرنا في مبحث «إثارة الأهواء والميول» ما يعطيك صورة واضحة لحاجة الواعظ إلى الإلمام بالعلوم النفسية. وقد قال الأستاذ الإمام في درس التفسير: لا تظنوا أن الصحابة لم يكن عندهم شيء من هذا العلم، إذ لم يكونوا يدرسونه في الكتب، ويتلقونه عن المعلمين، فإنكم إذا قرأتم التاريخ، وعرفتم كيف كانوا يتجادلون، أمكنكم أن تعرفوا مكانهم منه.

(هـ) علم الأخلاق:

وهو العلم الذي يبحث عن الفضائل، والمثل الأعلى في السلوك، فهو يعطى صورة صحيحة للفضائل وما يفيد الناس، وما لا يفيد، وصلة الفضيلة بالعرف، وهو في الجملة يعين المتعلم على فهم شيء كثير من أسرار الدين، وما جاء فيه من واجبات وتكاليف، فالعلم به يعرف الدارس كثيراً من حكم الشرع الإسلامي، فهو دراسات عقلية، يبدد فيها المبحر تعابيراً صحيحة لكثير من مبادئ ذلك الدين الحكيم، والواعظ في حاجة إلى مثل هذه الدراسات، ليقترب الشريحة من معروف الناس وما غوهم ومعتقدهم، وما هو حسن في نظر المفكرين.

(١) من تفسير الأستاذ الشيخ رشيد رضا المشتمل على ما قاله الأستاذ الإمام في دروس التفسير نقلناه بإيجاز ونصرف قليل.

(و) علم الاجتماع:

هو علم الجماعات، يعطيك صورة لتكوينها وتفكيرها وطرق التأثير فيها، ولا شك أن الواعظ يتصدى لقيادة جماعة إلى فكرة يدعو إليها، فلا بد أن يكون عالماً بنفسية الجماعات، وسلطان العادات، وكيف يتغلب عليها، ويمزق أغشية الجمود، إن كانت الجماعة جامدة على باطل، وكيف ينهته من حدثها، ويكفكف من غريبها، إن كانت مندفعة مشهورة وراء غابة باطلة.

وقد وضحنا في صدر هذا الكتاب حاجة الخطابة إلى علمي النفس والاجتماع والاتصال الوثيق بينهما، والواعظ شعبة من شعب الخطابة، بل هو أخرجها إلى هذين العلمين.

(ز) العلم بلغات الأهم التي يعظها ويرشدها، وذلك يدهى ليستطيع مخاطبتها بما يصلحها، فإنه لا يتيسر له ذلك بغير لغتها.

وقد ورد في صحيح البخارى أن النبي ﷺ أمر بعض الصحابة بتعلم اللغة العبرانية لأجل مخاطبة اليهود الذين كانوا مجاورين له.

هذه العلوم كلها ضرورية للواعظ، ويجب أن نقول فوق ذلك إنه لا بد أن يعنى غنابة خاصة بدراسة الكون وما فيه من آيات دالة على قوة الخالق وعظيم قدرته، وجليل تكوينه، وحسن تدبيره.

وقد دعانا القرآن الكريم أن ننظر في ملكوت السموات والأرض، وفي أنفسنا، وفي الآفاق، وجعل ذلك من طرق الوصول إلى إدراك صفاته عز وجل، فعلى الواعظ أن يسلك ماسلك القرآن الكريم، فيوجه أنظار الناس إلى الكون وما فيه من آيات تدل على الوحدانية، وسلطان الله القاهر. ولا يستطيع أن يوجه الناس ذلك التوجيه إذا لم يكن على علم ببعض ما فى الكون من أسرار وجلال.

(ح) الحلم، وسعة الصدر، والتواضع، والصبر على الأذى:

فإن الجماعات التي استشرى فيها الفساد كالمرض، والواعظ لها كالطبيب، وكما أن المريض قد يدفعه جهله أو ألمه أو سوء تصرفه إلى أن يتل للطبيب ببعض السوء، كذلك الجماعات التي أنهكها الشر، قد يدفعها تغلغلها في أحشائها، وتمكنه من كيانها إلى أن تتل طبيب الأرواح ببعض الأذى، وتتقدم إليه ببعض السوء، فعلى الواعظ أن يلاحظ هذا، وإذا

كانت للقلوب عنه معرضة، والنفوس جامحة، والأهواء متحركة، وناله من حدة السوء بعض الأذى - فليعلم أن المهمة لديه شاقة، ويستعد لمجهود عظيم بهذا، وليدار كل يوم النفوس بالهدوء وسعة الصدر والصبر وبين الجانب وخفض الجناح؛ فإن تلك الصفات رقية النفوس الشريفة، ويسم الجراح النافرة؛ وليعلم أنه ما وقف ليخاصمهم فيخصمهم؛ ولكن ليدأى نسادهم، فيؤلف القلوب والنفوس الشاردة بتلك الصفات، وقد قال تعالى في وصف النبي ﷺ: ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَتًا غَالِظَ الْقَلْبِ لَا نَفُضُوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ فالرفق واللين والصفح قوام الدعوة لله، والإرشاد إلى صالح الأعمال، ولذلك أمر سبحانه وتعالى بالعفو بجوار أمره بالأمر بالمعروف، فقال تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾.

وحظ المؤمنون واعظ، وعنف له في القول؛ فقال له، يا رجل ارفق؛ فقد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني، وأمره بالرفق، فقال تعالى: ﴿ قَقُولَا لَهُ قَوْلَا لَيْنًا، لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ وروى أبو أمامة أن غلاما شأيا أبي النبي ﷺ فقال: يا بني الله، أأذن لي في الزنى؟ فصاح الناس به، فقال النبي ﷺ قريوه، أدن مني؛ فدنا حتى جلس بين يديه ﷺ فقال النبي ﷺ: أتحبه لأملك؟ قال: لا، جعلني الله فداك. قال: كذلك الناس لا يحبونه لأمهرتهم. أتحبه لابنتك؟ قال: لا، جعلني الله فداك؟ قال: كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم. قال ﷺ: أتحبه لأختك؟ (وزاد ابن عوف حتى ذكر النعمة والخالة؛ وهو يقول: لا، جعلني الله فداك وهو ﷺ يقول: كذلك الناس لا يحبونه) ثم وضع رسول الله ﷺ يده على صدره، وقال: اللهم طهر قلبه، واغفر ذنبه، وحسن فرجه.

انظر إلى ذلك الهدى النبوي الحكيم، وإلى تلك الموعظة الحسنة تصيب شخاف القلوب تحسرها بغيرها، ونهيتها، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة.

أقسام الوعظ

إن خطب الوعظ الديني تنشعب إلى شعب، وليكون المتصدى للموعظ على بينة من أمر العمل الذي تصدى له، ولينال النجاح فيه - يجب أن لذكر تلك الشعب، ونبين طرق النجاح في كل شعبة، فنقول: إن شعب المخطبة الوعظية أربع: خطب المجادلة في الدفاع عن الإسلام والدعوة إليه، وخطب التعليم الديني للعامة، وخطب تثبيت الإيمان في النفوس، وخطب لإصلاح العيوب، والنهي عن المنكرات.

(أ) خُصِبَ الدعوة إلى الإسلام أو الدفاع عنه:

لا يتصدى لهذا النوع من الوعظ إلا ذو العقل الأريب، الخبير بشئون الجماعات وأحوال الأمم، الملم تماماً بالمثل والنحل والأديان القديمة، ليستطيع الموازنة بين صحيح العقائد وسقيمها، وحقها وباطلها؛ فإذا دعا أو جادل كان على بيّنة من أمره.

ويجب أن يكون فوق ذلك مرناً على الجدل، قوى الحجج، ناهض الدليل، لا تعرفه حجة فكرية، ولا يأخذه استهواء الخصوم ومغرياتهم، ويكون ممن يحسن إصابة المقاتل، ويحرى مواضع الضعف في خصمه، يأتيه منها فيصيب الخبز، وفصل الخطاب.

وعند دعاية قوم إلى الإسلام يمين لهم من مبادئ ما يكون أحب قلوبهم، وأدنى لمألوفهم، وأقرب إلى ما نقره عاداتهم، وما هو عندهم في مرتبة التقديس؛ فإنه إن فعل ذلك ربط الإسلام بجليل أعمالهم، فیتجهون إليه طالين، ويحشرون عنه متعرفين، والإسلام غنى بالمبادئ التي نألفها الجماعات ونحبها؛ إذ هو دين الفطرة التي فطر الناس عليها، ففيه مبادئ الحجة على أكمل ما تتطلبه الجماعات الصالحة، وفيه مبادئ الشورى، وفيه مبادئ المساواة بشكل لم تسبق به شريعة، ولم تطمح الجماعات الإنسانية إلى أكمل منه، وفيه مبادئ التعاون بين الآحاد والطوائف والأمم، وفيه مبادئ السلام، وفيه مبادئ الرحمة والعطف الإنساني، وكل جماعة ترضى ذلك وتألفه، فليقبس الداعي إلى الإسلام قسمة من ذلك النور ينخذ منها مصباح دعوته، ليستضي به في دجور الضلال.

وإذا أتى الداعي ممن يدعوهم إلها ورغبة في التعرف بعد ذلك، هجم عليهم بحقائق الإسلام كما بينها النبي ﷺ، وعرفهم أسرارها وحكمها وصالحاتها، وتاريخ الذين أقاموها؛ وكيف كانوا أعلام الأنام، وهدى لهم إلى صلاح بشرى قوم.

وإذا اعترض معترض على الإسلام فهاجمه في إحدى شرائعه أو مبادئه، وأراد الواعظ أن يرد عليه - اعتصم بالمنطق في أشكاله وأقنسته فإنها هي التي تبين ما في الكلام من غلط، وما يشتمل عليه من باطل. وقد بينا ذلك في التقيد عند الكلام على تنسيق الخطبة، فارجع إليه.

وعليه أن يوازن بين الإسلام وبين غيره من الأديان وخصوصاً دين الشخص الذي يدعو أو يناقشه، وليكن ذكر الواعظ لدين غيره من غير سب ولا لعن، حتى لا يحق خصمه، فيندفع في الطعن في الإسلام، وتتفلج المجادلة من مناقشة عقلية إلى مسابرة للأديان، وليعتبر

يقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْسُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَيَسُبُوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، ويقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

ولنختتم الكلام في هذا النوع من الوعظ بكتاب أرسله النبي ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة يدعوه إلى الإسلام، فقد قال فيه عليه الصلاة والسلام: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة. أسلم تسلم، فإنني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول^(١)، الطيبة، الحسنة، فحملت بهيبي، فخلق الله من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده. وإنني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاته على طاعته، وأن تتبعتني، وتؤمن بالذي جاءني، فإنني رسول الله، وإنني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل. وقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتي. والسلام على من اتبع الهدى».

وقد بحث النبي ﷺ الكتاب مع عمرو بن أمية الضمري، وقد قال هذا للنجاشي ما فيه حث له على الإسلام، فلننقله لك لتعرف كيف كان ذلك السلف الصالح يدعوا إلى الدين، قال رضي الله عنه: بأصحمة^(٢) «إن علي أقول، وعليك الامتاع: إنك كأنك في الرقة علينا، وكأننا في النقعة بك - منك، لأننا لم نض بك خيرا قط إلا نلناه ولم نخفك على شيء قط إلا أمناء. وقد أخذنا الحجة عليك من قبل».

الإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد، وقاض لا يجور، وفي ذلك الموضع الحز، وإصابة المنفصل. وإلا فأنت في هذا النبي الأمي كاليهود في عيسى ابن مريم، وقد فرق النبي ﷺ رسله إلى الناس، فرجأك لما لم يرجعهم، وأمنك على ما خافهم عليه بخير سالف، وأجر ينتظر. فقال النجاشي: أشهد بالله أنه النبي الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب، وأن بشاره موسى براكب الحمار - كبشاره عيسى براكب الجمال، وأن العيان ليس بأشقى من الخبر. ثم كتب إلى النبي ﷺ بإسلامه.

خطب التعليم الديني للعامة:

هذا النوع من الخطب دروس دينية يلقيها الواعظ على العامة، يعرفهم فيها أصول دينهم والأحكام الشرعية العملية التي يدعوا إليها، والفضائل الخلقية التي يحث عليها، ويجعلها

(١) البتول معناها العايدة.

(٢) أصحمة اسم النبطي.

لما لقيام الجماعة الإسلامية الفاضلة، وهذه المبرور إما بيان عقائد، وإما بيان الأحكام والفضائل.

وعليه في بيان العقائد وإياتها:

(أ) أن يعتمد كل الابتعاد عن الشروح الفلسفية، فإنها تسمو على مدارك العادة، وتطر على أفهامهم، وقد تدفعهم إلى الضلالة، لعدم فهمهم.

(ب) وأن يعتمد عن مواضع الخلاف ما استطاع إلى ذلك سبيلا، فإن ذكر الخلاف مضلة لأفهامهم، محير للأكابر، مبعد لها عن الهداية.

(ج) وليعمل كل التعميل على الكتاب، فليبين لهم أوصاف الله كما ذكرها القرآن الكريم لا يعلوه، ولا يتجاوز، وليذكر أوصاف النبيين كما وصف الله الأنبياء، وليجعل السمع لا العقل هو المورد لمعرفة العقائد، لأن فيه التيسر العذب للنفائس الدينية، وأصول الاعتقاد، ولنا أسوة حسنة في السلف الصالح، فقد كانوا يعرفون عقائدهم من كتاب الله سبحانه وتعالى، وبما بينه لهم رسول الله ﷺ، من غير أن يتعرضوا لمناقشات فلسفية لا تصلح لغير طرسي للفلسفة، ومن تفرسوا بدراسة العلوم العقلية، ومن يجادلون في الأديان للدفاع عنها.

وإذا كان الواضح يعلم للناس أحكام دينهم وفضائله، فعليه أن يعتمد إلى توضيح ذلك كل التوضيح وإن اضطر إلى القيام ببعض حركات يقوم بها - أداها لأجل التوضيح وليتصور الحكم تصورا دقيقا من غير التباس، ولا إيهام، وليختر من الأحكام العلمية لدروسه ما يكون العامة مظنة الجهل به، ليكمل بذلك علمهم بالدين وفضائل أحكامه، فليبين لهم متمسك بالحج، لأن أكثر الناس على غير علم بها، وليبين لهم أحكام الزكاة، فإنه ينذر من العامة من يعرف حقيقة أحكامها مع فرضيتها عليهم، ومخاطبتهم بها، وليعلم المرشد أن علم أولئك بها عهد في عنقه هو مسئول عنه يوم محاسبة الدينان، وليبين لهم الأحكام بحكمها، ليعرفوا فضل الشريعة وأسرارها، ومراميها من أقرب طريق، وأبج سبيل.

وليذكر مع الأحكام الأحاديث الواردة فيها، والآيات الشارحة لها، من غير أن يتعرض للاختلاف في تفسيرها والمنازعات في تأويلها، فإن ذلك لا تصل إليه أفهام العامة، فليذكر الآيات والأحاديث إحياء لها، وتقوية للأحكام، وإثراء لها في النفوس، من غير أن ينثر حولها مشارات الخلاف، وعشير النزاع. ولقد كان السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم يبتون للعامة أحكام الدين بالقرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، ويقرّبونها من أفهامهم ومداركهم من غير أي خلاف، وبهذا فليسترشد المرشدون.

(ج) خطب تثبيت الإيمان وتقويته:

هذا النوع من الخطب يتجه إليه الخطيب، ليقوى برد اليقين في قلوب المؤمنين، ويثبت دعائم الإيمان في قلوب المهتدين، ويلقى في نفوسهم الحماسة لدينهم؛ ليستمسكوا بعروته، ويحيوا دعوته. وليجمل الخطيب فوام خطبته أحد الأمور الثلاثة الآتية أو جميعها رها هي ذه.

١- فضائل الإسلام:

فيبين لهم فضائله. وكيف كان طريق المجد والعلو في الدنيا والآخرة، ويبين لهم أنه عصمة للجماعات، وحفاظ لوحدةها، وأنه مربى الوجدان، وموقظ الضمائر، وأنه العاطف على المسكين وابن السبيل، والداعي إلى الإخاء والحرية والمساواة، وأنه المشتغل على الشرائع التي تكون من يأخذون بها جماعة فاضلة، أسست على تقوى من الله ورضوان.

٢- الكتاب:

فيشرح بعض آيات الكتاب الحكيم المبينة حقيقة الإيمان والذاكرة لأوصاف المؤمنين، وما يكون لهم يوم القيامة من منزلة، ومآلهم في الدنيا من مكان، وقد كان النبي ﷺ يجعل أحياناً خطبته كلها قرآناً، ومن ذلك ما روى في صحيح مسلم عن أم هانئ بنت حارثة: قالت: ما أحدث (ق والقرآن المجيد) إلا عن لسان رسول الله ﷺ، يقرأها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس.

فالقرآن هما حف من جلال، وبما اشتمل عليه من إعجاز وبلاغة، وبما له من خلاوة، وما عليه من طلاوة يهز الإحساس، ويقوى الإيمان وفيه هدى للمتقين.

أخبار المؤمنين الذين صبروا، وصابروا، وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، ولم يجعلوا لغير الله على قلوبهم سلطاناً؛ لا يخشون في الحق لومة لائم، ولا يجعلون لرضا العبد أو غضبه مقاماً بجوار رضا الله أو مسخطه، أحلاس حياة، وأهل جلال وجهاد في سبيل ما يعتقدون.

والتاريخ الإسلامي خصب بهذه النفوس؛ فقد كان من رجاله عدد عظيم جاهد رجاله في سبيل الله، ولم يعرف لغير الله عليه من سلطان، وعلى رأس هؤلاء أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير وعبد الرحمن بن عوف، وغير هؤلاء من حلية الصحابة. وخلف من بعدهم جمع من التابعين حاكوا نهجهم، وساروا سيرهم، ومن هؤلاء سعيد بن المسيب، والحسن البصري، وسعيد بن جبير، وعطاء بن أبي رباح، وكل هؤلاء ممن أتموا الباقية

على الفانية، والحق على الباطل. وذكر هؤلاء وبلائهم في سبيل الله، وصبرهم على الأذى في سبيل ما يعتقدون- فيه طب القلوب، يرد شارد النفوس، ويقوى ضعيف الإيمان، وإن في قصص أخبارهم عظة المتعطين، وعبرة للمعتبرين- ونورا للمستعبرين، وهم في حياتهم وأخلاقهم ودينهم قدوة لأهل التقى واليأس؛ فليكثر الواعظ من أخبارهم فإن أخبارهم حياة القلوب وطب النفوس، ودواء لأمرضها، وما يعرفها من غشاوات مادية؛ وإن لهيب إيمانهم يبدد بحرارة كل سحب تكون على نفس المهتدين.

وما كان قصص القرآن الكريم للنبيين، وصبرهم وبلائهم إلا لما فيه من بث روح الإيمان، والصبر على البأساء والضراء في نفوس قارئيه.

وترى من هذا أنا نبيح للواعظ القصص ولكن مع إقرارنا للقصص في مقام الواعظ نرى أنه يجب أن يكون الواعظ القاص صادقاً متحرراً صادقاً الأخبار والمقبول منها؛ ويجب أن يخرج الأخبار تخرجاً صحيحاً؛ فلا يمتشط منها غير ما تنفع عنه. ولا يستبشها بغير ما تنفع.

خطيب الإصلاح ومحاربة المنكرات:

في هذه الخطب توجه الواعظ إلى إصلاح العيوب الشائعة المضارة بالمجتمع، الهادمة لبناء الأخلاق فيه، فقوام هذه الخطب محاربة المنكرات، ومقاومة الفجور ومنع الفواحش من أن تنبع في الدين آمناً. ومن أجل أن يحصل الخطيب إلى غاية لاهد:

(أ) أن يجعل الخطبة متصدية لعيب واحد لا تعدوه؛ لأنه لو تعرض لعدة عيوب لضعف التأثير، وما استطاع أن يصل إلى مرماه. ولذا يؤخذ على بعض خطباء المساجد أنهم في كل خطبة من خطبهم ينهون عن المعاصي جملة واحدة، أو يحصونها إحصاء، ويكررون في كل جمعة- والمعاصي في غير جمعة، وهو عنهم وعن وعظهم لاء، ولو خصصوا خطبهم لكل أن يعمموا لأجدي كلامهم، ولأفاد وعظهم؛ ولوصلوا إلى بعض ما يريدون، أو نصبروا له.

(ب) وليبدأ الواعظ في خطبه بأكثر المعاصي خطراً، وأشدّها في بناء الدين هدماء، وأعظمها فيه نكراً، يأخذ في نهى الناس عنه حتى إذا اطمأن إلى نفورهم منه، ولإبعادهم اتجه بخطبه اتجاهاً آخر، وهكذا حتى يثمر غرضه أيسر الثمرات.

(ج) وفي وعظ الناس بالنهي عن منكرين بين الخطيب لهم مضار المنكر النازلة بمرتكبه، الحادثة به، الموقفة له؛ ثم يبين لهم مضاره بالمجتمع، ويصوّر لهم حال جماعة من

الناس فشا فيها هذا المنكر كيف تكون، ويستعين على ذلك بضرب الأمثال ومقايضة الأشياء والنظائر، ثم يصور لهم حال المجتمع وقد انتهى عن هذه المألعة، ونفى عن نفسه أضرار ذلك المنكر، ويذكر في هذا المقام حال السلف الصالح، وما كانوا عليه من إصلاح، وما نالوه من حظ عظيم في الدنيا والآخرة بسبب الابتعاد عن ذلك المنكر، وأشباهه.

وبعد هذا للبيان السابق يتجه إلى كتاب الله سبحانه يبين ما فيه من دلالة على قبح ذلك المنكر، والآيات الواردة في التهديد منه، والترغيب في تقيضه، ويمثل ذلك يستعين يحدث رسول الله ﷺ والمأثور عنه، ويبين هداه عليه الصلاة والسلام، فخير الهدى محمد ﷺ.

الإشياء الدينية

في الخطب الجدلوية التي تشتمل على دعوة إلى الهداية الحميدة يتحرى الخطيب أن يتكلم بلغة من بدعوههم، ليستطيع أن يضع أفكاره في الألفاظ التي تلي عليها دلالة محكمة من غير احتمال لغيرها؛ ولكن عباراته واضحة المقصد بينة المقصد؛ لا التباس ولا غموض ولا إبهام، ولكن بأسلوب رائع جذاب، شفاف عن معانيه، وألفاظ تثير الخيال وتجذب النفس.

وفي الخطب التعليلية يتحرى الخطيب أن تكون عبارته واضحة الصور في أذهان الناس من غير أي تعقيد أو تحسين، فمقصده الأول أن تنتقل معانيه إلى أذهانهم، فيتصوروها كما صورها هو، وإن اضطر في سبيل ذلك إلى أن يكون درسه كله بالعامية فليفعل؛ لأن الغرض من هذا النوع من الخطب التفهيم لا التأثير، ولوضوح الفكرة لا تزيينها.

وفي خطب تثبيت القلوب تختار الألفاظ القوية للرنانة التي تثير في النفس معاني قسمة روحية، وتذهب بها في مجال المعنويات وتتجرد بها عن قيود الجسمانيات، وتخلق بها في سماء الحقيقة، فعلى الخطيب أن يختار ذلك النوع من الألفاظ، وفي مواعظ النبي ﷺ، ومواعظ السلف الصالح من ذلك للشيء الكثير.

وفي خطب النهي عن العيوب وطلب الإقلاع عنها ينوع الخطيب عباراته، فتارة يختار الألفاظ القوية التي تهز الحس هزاً عنيفاً إن أراد تخذيرهم بالتهديد من سوء العقبي. وتارة يختار الألفاظ السهلة اللينة الرقيقة إن أراد اجتذابهم إلى السير فيما فيه حسن المثال، وطورا يشرح بلغة لا تكلف فيها، وكأنها حديث معتاد إذا أراد أن يأخذ بأيديهم، ويضعها على الحقائق مجردة من غم وإندار، ولا تبشير.

والله الهادي إلى سواء السبيل.

الخطب العسكرية

هى الخطب التى يلقبها القائد على جنده ليثبت قلوبهم، ويلقى الحماسة فى نفوسهم، ويدفعهم فيها إلى حياة شريفة أو إلى موت عطر الذكر.

ولهذا النوع من الخطب أثر عظيم فى الحروب؛ فهو الذى يقوى روح الجند المعنوية، والقوة المعنوية لها الأثر العظيم فى الانتصارات، كذلك يحدثنا التاريخ، وبذلك تنطق الحوادث الآن. فما كانت النصر فى الماضى بالذخيرة والعدد، ولكن بالتأييد والتثبيت وقوة الروح، وعظم الثقة بها وبالله.

قال بطل الحروب نابليون: إن نسبة القوة المعنوية إلى القوة للمادية فى الانتصار كنسبة ٣ : ١، وقال قائد ألماني محك: لا تزال القوة المعنوية هى العامل الحاسم فى الحروب فى العصر الحاضر كما كانت فى الغابر، ولا ريب فى أن الخطب العسكرية لها الأثر الواضح فى تقوية الروح المعنوية.

وهنجد الخطب فى هذا النوع من الخطب إذا جعل قوام خطبته:

(أ) بيان شرف الفرض الذى من أجله يحاربون، ويتقدمون إلى مواطن الردى، حيث تخضب الأرض بالدماء، فإن كانت الحرب دفاعاً عن وطن فى خطر يمين ما فى السكون من ذلة وعار ودمار. وإن كان يتافع عن حقيقة بين ما فى الخذلان من نشر للفساد، وما فى الانتصار من إقامة للحق والفضيلة.

(ب) بيان الأثر الحسن لمن يتقدم لهذا البلاء بشيات جأش، وقوة جنان؛ فإما انتصار وحررة وفخار وشرف عظيم، وإما موت وذكر عطر بالثناء؛ إذ يكون له من جهاده لسان صدق فى الصالحين.

(ج) وبيان أنه لا يأمر بالقتال، ويحتج بلمه، بل إنه يتقدمهم يوم اللقاء والزحف ليكون له منهم القدوة الحسنة.

ويجب أن تكون الخطبة بصوت جهورى زرين، قوى. الثبرات، وعبارتها حماسية نارية تلهب الإحساس بالحمية والرغبة فى اللقاء. وألفاظها تثير الآمال، وتسمو بالخيال إلى مواطن

الشرف والكبرياء في الجنة. وليتحر الخطيب الإيجاز؛ فإن الألفاظ الموجزة تحفظ، وتطبع في ثناء النفس، وقد أمر أبو بكر رضي الله عنه يزيد بن أبي سفيان عندما أرسله على رأس جيش أن يوجز الخطبة في الجند، حتى لا ينسى الكلام بعضه بعضاً.

ومن أمثل الخطب العسكرية خطبة الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه في جنده قبيل موقعة صفين وقد جاء فيها:

اعلموا أنكم بعين الله، ومع ابن عم رسول الله ﷺ؛ قماودوا الكفر، واستحبوا من القرء فإنه عار في الأعقاب، ونار يوم الحساب. وطيبوا عن أنفسكم نفساً، وامشوا إلى الموت مشياً سجيماً^(١)، وعليكم بهذا السواد الأعظم، والرواق المطنّب^(٢) فاضربوا قبجه^(٣)، فإن الشيطان كامن في كسره^(٤)؛ قد قدم للوثبة يداً، وأخبر للنكوص رجلاً؛ فصمدا صمداً^(٥) حتى ينجلي لكم صمود الحق، وأنتم الأعلون، والله معكم، ولن يتركم^(٦) أعمالكم.

(١) المشى السجج، السهل والمزبد أن يسهروا إلى الموت يثبات واحتمنان.

(٢) الرواق ككتاب وغريب القسطنط، والمطنّب المشدود بالخيال. والسواد الأعظم جند الشام والرواق قسطنط معاوية.

(٣) السجج الوسط.

(٤) الكسر المراد به هنا الجانب.

(٥) الصمد المقصد.

(٦) يترككم يتقصكم.

المحاضرات العلمية العامة

قد رأت الجامعات في البلاد الراقية أن تعد جماهير المتعلمين بالبحوث العلمية تنويراً لأذهانهم، وتشقيفاً لهم، وترقية للرأى العام ونشراً للثقافة في ربوع البلاد. ويرى بعض اللين تهمهم مصالح بلادهم ونشر الأفكار الناضجة بين أهلها أن يتقدموا بالبحوث العلمية يلقيونها على الملأ من المثقفين، ولذا تكثر المحاضرات العامة في البلاد للتعبئة.

وهذا النوع من المحاضرات يقرب فيه المسائل العلمية، وتسهل فيه الأفكار، وتجذب الأسماع، ولذا يعد من أنواع الخطابة، وإن لم تكن بحوثه من الموضوعات الخطابية.

ونلاحظ في الخطب العلمية ألا تفقد صيغتها العلمية. ولا روحها الفكرية، ولذا يجب أن يقل الخطيب فيها مما يشير الغضب أو الحزن أو الحماسة؛ فما وقف ليثير أشجانهم أو أفراحهم، ولا يحفز هممهم، أو يلهب حماسهم. ولكن وقف لينمي عقولهم، ويمدحها بخلاصة لما وصل إليه الفكر البشرى في الموضوع الذى يعطرقه.

وليس معنى ذلك أن يخلى كلامه وإلقاءه من الطرق الخطابية، بل معناه ألا نسيطر المظاهر الخطابية على الحقائق العلمية؛ فنطمسها أو تبثرها وسط الجور الخطابي؛ فعليه أن يتخذ من الخطابات ما يساعد على تثبيت المعلومات في الروع، وإثارة الانتباه، وإيقاظ الشوق إلى ما يقول؛ فالخطابات هنا وسيلة لا غاية، وأمة للحقيقة لا ميدة لها.

ويجب الابتعاد عن المصطلحات العلمية، والمبارات التي لا يفهمها إلا الأخصائيون في علوم تلك البحوث؛ لأن المحاضرة تلقى على الجماهير المتعلمة إلى حد، وفيهم الفاهم للمصطلحات، وغير العارف لها، فالقاء المحاضرة بالعبارات العلمية الجافة الغامضة على غير أهلها موجد لسأمهم، فاهب برغبتهم. فيجب الانتباه إلى العبارات المألوفة، وتسهيل الأفكار، وتقريبها من المعروف، وضرب الأمثال والمقاسات بين ما يعرفون وما يريد أن يعرفوه.

وعلى من يتصدى لنشر الثقافة بين عامة المتعلمين أن يختار من الموضوعات ما يجتذبهم، أو ما ينفعهم في عامة أمورهم، وعليه أن يبدأ المحاضرة بتمهيد يقرب فيه بين ما هو شائع بينهم من الأفكار والآراء، وما هو يصدد إلقاءه عليهم، ليجذب نفوسهم، وليشير تفكيرهم إلى ما يريد قوله، ولا ينسحب في أثناء محاضره عن أن يقرب كل فكرة إلى ما يعرفون

ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وما أمكنته الفرصة، وبمقدار ما توليه الحقائق العلمية في هذا المقام.

إلقاء المحاضرة:

يشجع بعض المحاضرين أن يلقي محاضراته من قرطاس، لكيلا تذهب الحقائق العلمية في تيار الحماسة الإلقائية إن اعتمد على الخطابة من غير قرطاس؛ ولكي يكون التعبير عن الحقائق دقيقاً محكماً. وقد وافق مورييس آدم مع تشديده في الأرجال على كتابة المحاضرات وإلقائها لأن الأرجال في الخطب السياسية أو ما شابهها.

ويرى بعض المحاضرين أن أحسن إلقاء للمحاضرة الإلقاء من غير قرطاس، ليستطيع المحاضر الإشراف على السامعين، فيتبع حركات أفكارهم، ويستطيع بهذا الإشراف اجتذابهم، ولأن الإلقاء من ورق من شأنه أن يوحى بالخلل والسأم.

ونحن نرى إذا عول المحاضر على الإلقاء من الورق أن يتركه وقتاً بعد آخر، ويعتمد على ذاكرته، ليستطيع الإشراف على السامعين، وليتصل بهم روحياً، وليمنع سأمهم، وعند القراءة يجب ألا يجعل كل نظراته فيما يقرأ، بل يكون بعضها فيما يقرأ، وبعضها يتجه به إلى السامعين، فبدأ بأول الجملة ونظره في القرطاس، وينتهي منها ونظره إلى السامعين، وهكذا في كل جملة، وبذلك يجمع بين الحسنيين من كلتا الطريقتين.

وننبه هنا إلى أن الحركات والإشارات يجب أن تكون قليلة جداً في المحاضرات العلمية. وبعض المحاضرين لا يعتمد مطلقاً على الحركات في محاضراته. ومع ذلك يبلغ بها حد الكمال في الإلقاء والاجتذاب.

خطب التأبين

الخطيب التي تقال في مناقب الرجال عند وفاتهم وفاء لهم على ما أسندوا من جميل وحسن صنيع، وحفا للسامعين على اقتفاء آثارهم. عزاء للمكلمين بهم، أو مشاركة في الحزن لهم، أو للإشادة بذكورهم، لأن في إظهار مناقبهم فخرا للرائين، أو إظهار الأكم والأسمى.

وخطب التأبين قسمان: قسم تحليلي يدرس فيه نفس الرجل، وأخلاقه وأعماله وآثاره العقلية أو غير العقلية. وهذا من قبل المحاضرات العلمية فله خواصها ومظاهرها. وقسم لمجرد الثناء والمدح، وذكر المناقب، ولواعج الأكم. وأحسن مسالكه:

(أ) أن يبدأ الخطيب خطبته بتلاوة آية من القرآن الكريم أو حديث نبوي شريف أو بيت شعر أو حكمة تشير إلى زوال هذه الدنيا، وأن ما فيها إلى فتاة، لا إلى دوام وقرار.

(ب) ثم يبين ألم القصد الذي قال الناس يموت ذلك العظيم، والريزة التي عمت، ولم تخص، والكافة التي شملت الجميع لفقدته حتى إذا أثار في هذا شجون العيون.

(ج) انجحه إلى مناقب المتوفى فذكرها ثم إلى آثاره التي خلفها في أمته فبينها مع الأيادي التي قدمها للأجيال.

(د) ثم يبين الذكر الحسن الذي أعقبه، واللسان العطر الذي يتحدث به الناس عنه.

(هـ) ثم ينتقل من هذا إلى حث السامعين على اقتفاء أثره؛ والسير على منهاجه، والعمل بمثل ما عمل، وبهذا يختم قوله.

والفاظ الخطابة التأبينية تكون من الألفاظ السهلة لا الألفاظ الفخمة، والأساليب العلمية من غير لحن ولا ضعف هي أحسن الأساليب لخطب التأبين، لأن الرثاء حديث النفس بالألم والحزن.

وينبغي أن يكون في نبرات الصوت ونغماته ما يشعر بالحزن العميق، وينبع عن الأكم الدفين.

ومن أجود الخطب التأبينية ما قاله علي بن أبي طالب في رثاء أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقد تقدم في بيان إثارة الأهواء والميل.

خطب المدح والشكر

خطب المدح قسمان: قسم تاريخي تقريري، كمدح عظماء الرجال في حياتهم لا للزلفى إليهم والتقرب منهم بل دراسة لأحوالهم، وبياناً لصفاتهم، وتقريراً لمذاهبهم، وهذه إما علمية تحليلية إذا كان الغرض منها البحث والتحليل، ورد الأمور إلى أسبابها والمقدمات إلى نتائجها، وإما سياسية إذا كانت للدعوة لمذهب العظم السياسي. والأولى تلحق بالمحاضرات العلمية؛ فلها طرائقها ومسالكها، والثانية تلحق بالخطب السياسية، فلها خواصها وطرق النجاح فيها.

والقسم الثاني من قسمي المدح يكون بذكر المناقب والصفات إعلاء لشأن الممدوح وتشريفاً له، لا بتفاء منفعة منه، أو لإظهار شعوره نحوه، وما يمكنه من إجلال واحترام.

ويسلك الخطيب المادح من الطرق ما يراه أقرب لوصف ممدوحه وصفاً حقيقياً، فإن أنقل أنواع المدح ما كان الكذب فيه ظاهراً.

عليه أن يبين بصدق،

١- سجاياء وأخلاقه وصفاته التي رفعته وأصلته في تلك المنزلة السامية.

٢- ثم يبين ثيابه البيضاء على الجماعة التي يعيش فيها، وفضله عليها إن كان له عليها فضل، وعليه إن كانت له عليه أباد.

٣- ولا مانع من أن يذكر شرفه النسبي وفضل أسرته، ونبلها وكرمها، وما اشتهرت به من صفات سامية جليلة القدر إذا كان ممن لهم شرف نسبي، فإن كان ممن سودتهم نفوسهم العصامية فليكتف بالإطناب في صفاته الشخصية وأخلاقه وعلومه وسجاياء.

وخطب الشكر يملك فيها نفس المسلك، ويزاد عليه أن يطلب في ذكر النعمة التي أسداها المبلوح إلى الشخص، وطريقة إسديتها، ووقته، وتصدر تلك الخطب عادة بذكر نعم الممنوح وفضله عليه.

والله ولي النعم، وولي التوفيق.

القسم الثاني

تاريخ الخطابة العربية

في عصور ازدهارها

الخطابة في العصر الجاهلي الحاجة إليها

كل ظاهرة في الأمة ترجع إلى عاملين: عنصرها، والبيئة التي أظلتها، ولذلك يجب أن نلم لإلمامة موجزة في هذا المقام بمزاج العربي وبيئته، لنعرف هل فيهما ما يدعو إلى الخطابة والبيان؟

البلاد العربية أكثرها صحراء جرداء، ينثر فيها النبات والماء، وتكثر الجبال والوهاد والرمال ورمضاءها، ولذلك كان سكان هذه الصحراء في شظف من العيش، وقلة من الزاد، واكتشفوا من الحياة بالكفاف، ورضوا بالقناعة. واطمأنوا إلى المخشونة مع العزة، ولعدم المواصلات في الصحراء، وقطع أسباب الاتصال؛ لم تكن عند سكانها جامعة تجمعهم تحت حكم دولة واحدة، بل كانت كل قبيلة كأنها أمة وحدها، تخضع لرئيسها، وتقدم له الطاعة، وله فيها الكلمة النافذة، وما كان اختيارهم زعيماً لهم إلا تنقيلاً لقانون الانتخاب الطبيعي، إذ يرأس القبيلة أقواها عقلاً، أو أشدها في الهيجاء بطشاً، أو أكثرها ثمرساً بتجارب الحياة، وفنونها. وعلاقة القبيلة بمن سواها من تنازع على مواقع للطرد ومواطن الكلاء، أو احتكاك صغير قد يورث هداوة، ويخضب الأرض بالدماء.

وأطراف البلاد العربية، كالبحيرة واليمن، والجزء المسكون بقبائل عربية من الشام فيها خصيب عظيم، ولذا تكونت بها حكومات، ولكن هذه الحكومات قبيل الإسلام كانت واقعة تحت سلطان فارس والروم، ولابد أن نتصور أن الخضوع للأجنبي ليس من طبع العربي، ولا يلائم فطرته، لذلك كان أولئك العرب الواقعون تحت سلطان الأجنبي في تحمل، راغبين في الانسلاخ من سلطانه.

ومكة المكرمة وما حولها للخصيب القليل بها، ولما كان يقد به الحجاج عليها من شعيرات وثمار، ولوقوعها في الطريق الموصل بين اليمن والشام، واتجار قريش، لهذا كله كان بها لروعة، وسلطان، وشبه حكومة، الرئاسة فيها لأكبر بيت في قريش، وكان بمكة المكرمة طر ندوة يجتمع فيها زعماء العرب، وأقيالهم من كل نواحي البلاد.

هذه لإلمامة موجزة أشد الإيجاز لبيئة العرب وأحوالها—أما العربي فصبي حاد يثور لأتفه الأسباب، ويحبيل السيف عند أول نداء، إذا استولت على رأسه فكرة فطشها، من غير تدبير

للعواقب، أبى لا يرضى ضيماً، ولا يسكن إلى ذل، جواد كريم، يؤثر على نفسه، ولو كان به خصاصة وفقر، يرعى حرمة الجوار، ويغنى بمهده، قال فيه بعض الفرخجة: إنه نبيل بغيره، وقد مكنته صحراؤه، وضعف السلطان فيها، من أن يعيش عيشة فروسية، اعتماده في الحماية على سيفه، لا على حكومة تخميه، ولا دولة ترعاه، وقد كان فيه بعض المساوي؛ سببها له جهله، وأميته، أو فقره، وإدفاعه، كقتل الأولاد، خشية الإملاق، والحاجة.

هذا هو العربي، وتلك حياته وبيئته، وهي لعمري حافزة إلى الخطابة مستثيرة البيان الرابع.

فالتنازع المستمر، والحروب الدائمة الناشئة بين سكان الصحراء، تستدعي بياناً يثير الحمية، ويقوى المزايم، ويدفع النفوس إلى مشتجر السيوف، وملتحق الختوف. ولا نرى يقوى روح المحارب أكثر من قول حافز، وعبارات تهز أوتار القلوب.

انظر إلى كلمة هانم بن قبيصة قبيل مرقعة ذى قار.

يا معشر بكر، هالك معذور خير من ناج فرور، إن الحذر لا ينحى من القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر، المنية خير من الذنية، واستقبال الموت خير من استدباره،، والعلمن فى ثمر النحر أكرم منه فى الأدبار والظهور، يآل بكر قاتلوا، فما من المنايا بد.

انظر إلى هذه الكلمة كيف دفعت العرب إلى لقاء جنود فارسية وكان لهم عليها الغلب.

وكثيراً ما كان يعقب حروب العرب التي كانت تقع فيما بينهم صلح تقوم به إحدى القبائل التي لم يكن لها فى الخصومة ناقة ولا جمل، أو أحد الأشخاص ذوى النفوذ، والعقل المراجع، كما فعل هرم بن سنان، والحارث بن عوف عندما أصلحا ذات البين بين عيسى وذيان، بعد أن كادوا يتفانون. ومجالس الصلح تبين فيها أضرار الحرب، ووخائج القرى بين القبيلتين المتنازعتين، إن كانت، وذلك لا يكون إلا بالخطابة، أداة الترغيب فى النافع، والترهيب من الضار الوبيى.

وتمصب كل عربى لقبيلته يجعله يفتخر بصفات أبطالها من شدة بطش، وقوة بأس، ونبات فى الهيجاء، وصبر على اللأواء، ووفاء للمهنة، ورعاية للجوار، وإكرام للضيف، وذلك تارة يكون بشعر قوى، وأخرى يكون بكلام خطابي مبين.

والعرب مع تفرقهم، وانقسامهم، وتوزعهم في الصحراء، وتوزعهم فيها كل ممزق، كانوا أمة واحدة؛ قال فيهم الجاحظ: العرب كلهم شيع واحدة لأن المدار والجزيرة واحدة، والأخلاق والشيم واحدة، وبينهم من التصاهر والتشايك، والاتفاق في الأخلاق، وفي الأعراف، ومن جهة الخفولة المرددة، والعمومة المشتبكة، ثم المناسبة التي بنيت على غريزة الفرية، وطباع الهواء والماء، فهم في ذلك شيع واحد في الطبيعة، واللغة واللهمة والشمائل، قالوا: والمشاكلة من جهة الاتفاق والطبيعة والعادة بما كانت أبلغ وأوغل من المشاكلة من جهة الرحم. وقد كان العرب يشعرون بهذه الوحدة الطبيعية، ويحتون إلى تقويتها بجمع كلمتهم، وقد قوى تلك الرغبة فيهم محاولة القرس لإذلالهم، ومحاولة الحبشة قبل الإسلام الاستيلاء على الكعبة، موطن تقديسهم، وطمع الأجانب فيهم؛ لذلك استدعت الحال أن يكون بينهم عطفاء، يدعون إلى هذه الوحدة الجامعة.

وإذا علمت أن العرب كانت لهم دار ندوة يجتمعون فيها ويتشاورون ويساجلون ويقررون ما يرونه صالحاً، ولهم أسواق هي شبيهة بالمنتديات الأدبية، كانت منابر عامة تروج فيها بضاعة الكلام البليغ، وترجى فيها غيرها.

كانت في العرب مساوئ كما أسلفنا، وكانت بالغة الحد الأعلى من الشناعة وقد نعاها القرآن الكريم عليهم، وكان بعضهم يستنكرها منهم قبل الإسلام؛ لذلك نصدى هؤلاء للدهوة بخطب رالمة إلى الفضيلة، والحث عليها، ونبد العادات السيئة، والخرافات الباطلة، وربما كان أظهر هؤلاء الدعاة أكثم بن صيفي، وقر بن ساعدة الإيادي.

وقد كانت قوة إحساس العربي، وشدة حميته، واندفاعه، ومحيشته في الصحراء صافية السماء، ومن أعظم الدواعي للخطابة، والانجاء إليها، فإن قوة العاطفة تدفع ذا البيان إلى تبيانها، قال الأستاذ كركوس في كتابه (فن التكلم في الجمهور): تصور راعياً يسوق نعه في الخلاء، قد حبه ابتسامة الفجر، وهو يفتح للشمس قصره الذهبي، أو تاجه الشفق الوردى، وهو يخلق على الكون رداء السكون، وانظر أي أثر يكون لهذا المشهد في نفسه، فقد يقف صامتاً جامداً مأخوذاً بروعه وجلاله، أو يتناول مزماره، وينفخ فيه زاهراً وطرباً، وإذا كان خطيباً يرفع رأسه وعينه ويدعو إليه قوى الوجود الخفية، باحثاً عنها في الريح العاصفة، أو الموجة الثائرة، أو الغصن المائل مع الهواء، أو الصخرة الصماء. ومن هنا ترى كيف تكون قوة العاطفة، مع المنظر الطبيعي الذي يهز النفس البشرية، وتأخذ بلب العاقل، دافعة إلى البيان الرائع إن تهيأت أسبابه، وقد جعل الله للعربي من أميته ميلاً لفصاحته.

وفي الجملة إن حياة العرب في الصحراء كانت حياة فرسية، وقوة شكيمة، دفعت إلى البيان دفعا. قال الأستاذ المؤرخ جورجى زيدان في الجزء الأول من تاريخ آداب اللغة العربية في بيان تأثير الخطابة في ذوى الفروسية: ويطلب تأثيرها في أبناء عصور الفروسية، وأصحاب النفوس الأبية طلاب الاستقلال والحرية... ولذلك تشابهت جاهلية العرب، وجاهلية اليونان من هذا الوجه، لأن كليهما أهل شعر وخطابة، وأهل إباء واستغلال، ولذلك أيضا كانت الخطابة رائجة عند الرومان، مع تأثر الشعر عندهم، أما العرب فقد قضى عليهم الإقليم بالحرية والحماسة، وهم ذوى نفوس حساسة مثل سائر أهل الخيال الشعري، فأصبح للبلاغة وقع شديد في نفوسهم، فالعجالة البليغة تقيمهم وتقدمهم، بما تثيره في خواطرهم من النخوة.

موضوعات الخطابة

كانت موضوعات الخطابة أئرا للدوافع التي دفعت إليها، وثمرتها لها، ولكن يجب أن نقول: إن العرب قد أثر عنهم القول في موضوعات دفعت إليها العوامل السابقة، وموضوعات أخرى قد ساد لديهم القول فيها، ومهما يكن من الأمر، فالموضوعات التي تعرضوا للقول فيها منها.

١- إثارة الحمية، وإيقاظ الحماسة، وتثبيت القلوب:

وقد ضربنا لك مثلا خطبة هانيء بن عبيصة في موقعة ذي قار: وفي الواقع أن العرب قد قالوا في هذا أبلغ كلامهم، وأصدق عبارات دالة على قوة شكيמתهم وإقبالهم على الموت بنفس قوية، وبأس وحمية، وطبعي أن يكون الحث على القتال، والحض على اللقاء، أعظم أغراض القول في أمة تعتمد القبيلة فيها إلى السيف في الدود عن حياضها، والدفاع عن شرفها، ولا حاكم يردع الممتدى، وبزجر الطاغى، بل طبعي أن يكون البأس فخار العربى، والشجاعة شرفه، وأن يكون كل قول خطابي يتعلق بالشجاعة والقتال أروع بيانهم، لأن البدوى أنصر صفاته البأس، والقوة والبطش؛ فلا غرابة في أن تكون أعظم موضوعات بلاغته.

٢- الصلح:

كثير ما كانت الحرب تنتهى بالصلح بين المتحاربين كما أسلفنا، ينهض به ذور الرأى والحزم، فيحسمون الدماء، ويقضون على العداوة التي كانت بين المقاتلين، ومن أعظم الخطباء، الذين امتازوا بالقول في هذا المقام أكثم بن صيفى، فكثيرا ما كانت ترد على لسانه في خطبه

التي تشبه الدر المنثور مضار الحرب، ومساوئها الويعة، ونفع الصلح، وعواقبه المريحة؛ وقد يغلظ فريق القول مع آخر، فتوشك تيران الحرب أن تتأجج، فيدخل أحد الناس للصلح، ويقول من المخطئ ما يتناسب المقام، كما وقع بين سبيع بن الحارث وميثم بن مثوب أمام مرثد الخير من الخصامة الأمالي جـ ١ ص ٩٢.

٣- المفاخرة والمنافرة:

وقد يتحدث رجلان في أمر صغير أو كبير؛ فيتلاحيان، ويشدد فخر كل منهما على صاحبه، فيتحاكمان إلى شخص أو جماعة، وكل يتقدم بفخره، ومكان شرفه، فيدلي به على مسمع من قومه، ومن ارتضاء حكماً، وتسمى هذه منافرة، وقد كانت كثيرة لدى العرب، ومن ذلك منافرة علقمة بن حائلة، وعامر بن الطفيل تحادتا ثم تهاجيا، ثم تنافرا على مائة من الإبل، يخطيها للحكم أيهما نفر عليه صاحبه، وكانت منافرتيهما إلى هرم بن قطبة، فألقى كل منهما من بليغ القول ما رأى فيه فخاراً له على مائة من قومه، وفي المنافرات كهذه المنافسة ميدان متسع للخطابة، والبيان الرائع.

٤- الدعوة إلى الفضيلة ونهى الخرافات:

وقد كان هذا من مبادئ القول، إذ وجد من العرب مصلحون حكماء، رأوا ما عليه أقوامهم، من الخلل في بعض الشرائع، واحتلاء رؤوسهم بالخرافات والأوهام الصادرة عن الجهل المورق، وقد كانت دعواتهم تجدد نفوساً مصيخة وقلوباً صاغية، ومن هؤلاء قيس بن ساعدة، وجمع من خطباء عبد القيس وإياد، وأكثم بن صيفي، وكعب بن لؤي، جد النبي ﷺ، ومكان هذه الدعوة الأسواق التي كانت تعد منتديات العرب الأدبية كما ذكرنا.

٥- الدعوة إلى الوحدة العربية:

وكثيراً ما كان ذلك في دار الندوة، وفي وفود العرب على رؤساء القبائل، وزعمائها، والملوك من العرب، وربما كان يقع منها شيء في الأسواق التي كانت فرصة اجتماع تتلاقى فيه القلوب المتنافرة، وقد اشتدت الدعوة إلى الوحدة العربية قبيل البحث النبوي، عندما اشتد طمع الأجنبي فيهم، وهاجمهم في موضع تقديسهم، كما ذكرنا.

وانظر إلى خطبة عبد المطلب جد النبي ﷺ أمام سيف بن ذي يزن، عندما ذهب إليه في وفد من قريش، بعد أن أجلي الحبشة عن بلاد بالمغرب، انظر إلى هذه الخطبة نر فيها دعوة جريئة إلى الوحدة العربية، جاءت في ثياب المدح والمثناء.

٦- الرثاء والعزاء:

العربي حساس كما قلنا، وقد يدفعه ألم الفقد، فينطق لسانه ببيان محامد من فقده، وموضع الآلام في نفسه، والرثاء ميلان واسع للقول البليغ، يكشف فيه اللسان عن ألم اللوعة، وحزنها في النفس، إذ ينفتح بها انفطر به القلب، وانشقت المرارة، وقد يجيء العزاء بالسلوان، وتصغير الدنيا، وآلامها، كما قال أكتم بن صيفي معزيا عمرو بن هند في أخيه:

أيها الملك، إن أهل هذه الدنيا سفر، لا يحلون عقد الشرحال، إلا في غيرها، وقد أقالك ما ليس بحرود عتك، ورحل عتك ما ليس بهراجع إليك، وأقام معك من سيظعن عتك، ويدعك. إن الدنيا ثلاثة أيام: فأمس حفلة، وشاهد عدل، فجعك بنفسه، وأبقى لك وعليك حكمه، واليوم غنيمة، وصديق أذاك، ولم نأته، طالت عليك غيبته، وستسرع عتك رحلته، وغدا لا تدري من أهله، وسيأتيك إن وجد، فما أحسن الشكر للمنع، والتسليم للمقار، وقد مضت لنا أصول نحن فروعها، فما بقاء الفروع بعد أصولها؟ واعلم أنه أعظم من المصيبة سوء الخلف منها، وخير من الخير معطيه، وشر من الشر فاعله.

٧- الوصايا:

قد يشارف العظيم في قومه على الموت، فيحس بالمنية، فيوصي بنيه وعشيرته، بما يجب أن يكونوا عليه، وقد يرى زعيم القبيلة أن الموت يدب في جسمه ديباً، فيجمع قومه، وخاصته، ويلقي إليهم بما يكون كعهد بينه وبينهم، وقد حفظت الآداب العربية للمعصر الجاهلي كثيراً من الخطب في الوصايا بلغت قمة البيان، من ذلك وصية ذي الأصبع العدواني لابنه، وأوس ابن حارثة، ووصية أكتم بن صيفي لقومه.

٨- خطب الزواج:

تعود الأشراف عند زواج ذريتهم، أن يتقدم ولي الزوج إلى وليها بخطبة، يطلب فيها يد موليته، ويبين مزايا الزوج، ويرد عليه وليها بخطبة كذلك، ويسمى هذا النوع من الخطب خطب الأملاك، ومن ذلك خطبة أبي طالب عندما تقدم يطلب يد السيدة خديجة بنت خويلد للنبي ﷺ.

مرتبة العرب في الخطابة

بعد كثير من الأدباء العرب في المرتبة الأولى من البيان، والمنزلة السامية في الخطابة، وقد ذكر ذلك أبو حيان في مقابساته: إذ قال حاكياً عن أبي سليمان: سمعته يقول نزلت الحكمة

على دعوى الروم، وألسن العرب وقلوب الفرس، وأيدي الصينيين^(١) وقال: المحرف^(٢) الذى يدعى فى العربية وينسب إلى الأدب موروث من العرب، وذلك أن أرضها ذات جذب، والخصب فيها عارض، وهم من أجل ذلك أصحاب فقر، وضرب، وربما دفعوا إلى وصال^(٣) وطى^(٤)، وكل من تشبه فى كلامهم وطريقتهم، وعبارتهم، ارتضخ ما هو غالب عليهم.. ألا ترى أن الشيع ضرب عندهم، والرعب مسموم عندهم، وهذه هى الحال التى لفرقت بين الحاضرة والبادية، وقد زادتهم جزيرتهم شراً، لكنهم عوضوا القلطة العجيبة، والبيان الرائع، والتصرف المفيد، والاختصار الظاهر؛ لأن أجسامهم ثقيلت من الفضول، ووصلوا بحدة الذهن إلى كل معنى معقول، وصار المنطق الذى يأن به غيرهم بالاستخراج مركزاً فى أنفسهم، من غير دلالة، بأسماء موضوعة، وصفات متميزة، بل فشا فيهم كالألقاء والوحى؛ لسرعة الذهن، وجودة القريحة.

١ وترى من هذا أنه ثبت للعرب أن الحكمة جرت على سنتهم، وأنهم موصوفون بحدة الذهن، والبدية الحاضرة، وأن المعنى الجميد يسارع إلى خواطرهم كالوحى، والإشارة السريعة، لجودة قريحتهم، وكل تلك الصفات تضعهم فى المرتبة الأولى من الخطابة.

وقد ادعى مثل هذه الدعوى، وزاد عليها أن العرب لا يسامهم فى منزلتهم الخطابية أمة من الأمم، الجاحظ؛ إذ يقول فى البيان والتبيين: وجملته القول: إنا لا نعرف الخطب إلا للعرب والفرس، وأما الهند، فإنما لهم معان ملونة، وكتب مجلدة، لا تضاف إلى وجل معروف، ولا إلى عالم موصوف، وإنما هى كتب متوارثة، وآداب على وجه الدهر سائرة مذكورة، وليونان فلسفة، وصناعة منطق، وكان صاحب المنطق نفسه يكرى اللسان، غير موصوف بالبيان، مع علمه بتميز الكلام، وتفصيله ومعانيه وبخصائصه، وهم يزعمون أن جالينوس كان أنطق الناس، ولم يذكروه بالخطابة، ولا بهللا الجنس من البلاغة. وفى الفرس خطباء إلا أن كل كلام للفرس، وكل معنى للعجم، فإنما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد وخلوة وعن مشاورة، وعن معاونة، وعن طول التفكير، وحراسة الكتب وحكاية للثانى علم الأول، وزيادة الثالث فى علم الثانى، حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم، وكل شيء للعرب، فإنما هو بدية، وإرتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة، ولا مكابدة، ولا إجالة فكرة، ولا استعانة وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام، وإلى رجز يوم الخصام، أو حين يمتح على رأس بشر، أو يحدو

(١) المحرف: الخيل عن الكسب وقلة المال.

(٢) الوصال: أن يصل نهاره بليله جاعاً.

(٣) الطى: المبيت جاعاً.

بغير، أو عند المقارعة والمناظرة، أو عند صراع، أو في حرب، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المنهج، وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتي المعاني أرسالا، وتثال عليه الألفاظ انشالا، ثم لا يقيد على نفسه، ولا يدرسه أحداً من ولده، إلخ... إلخ.

ولخص ذلك الكلام أنه يدعى: أن العرب في المربة الأولى في البيان وأن الأم اليونانية والفارسية والهندية دونهم بلاغة وفصاحة. ونحن نوافقه في الأولى، ونناقشه في الثانية؛ إذ كيف ساغ له أن يوازن بين خطباء العرب وغيرهم من الأمم، مع عدم توافر الأسباب، والمهيشات التي تمكنه من الحكم الصادق؛ إن من الصعب الموازنة بين فصاحة لغة وأخرى، والموازنة في المقدرة الخطابية بين أم مختلفة.

جاء في مقابسات أبي حيان: قلت لأبي سليمان: فهل بلاغة أحسن من بلاغة العرب؟ فقال: هذا لا بين إلا بأن تتكلم بجميع اللغات على مهارة، وحلق، ثم تضع القسطاس على واحدة، واحدة، حتى تأتي على آخرها وأقصاها، ثم تحكم حكماً بريئاً من الهوى والتقليد والعصية والميز، وهذا ما لا يطمع فيه إلا ذو عاظة.

فهل وزن الجاحظ هذه الموازنة؟ وهل أوتي علماً باللغات، واحدة واحدة ثم حكم حكماً بريئاً من الهوى، والتقليد؟ إن الجاحظ قد اندفع وراء العصبية، والخصومة الشعبية، فادعى دعواه هذه، وكانت اندفاعاته بعيدة عن الحق كل البعد، حينما أنكر خطب اليونان، وادعى أن لا بلاغة ولا خطابة عندهم، إن التاريخ يحفظ لهم حصراً ازدهرت فيه الخطابة، حتى كان لها معلمون، ومرهون، وكان الشباب اليوناني يرى الخطابة مطمحاً، وأملاً يسعى إليه، ليكون له نصيب من الرأي في إدارة شؤون بلاده، هذا العصر هو عصر بيركليس، وما سبقه ووالاه، وكانت أغراض القول واسعة، وفرصه كثيرة، ففي المنتديات الأدبية، وفي المجالس، وفي المشاورات السياسية كان القول البليغ هدفهم، كل يشد له قوسه، ويرمي إليه سهمه، وكانت الدعوى والرد عليها في المحاكم ميادين قول مترامية الأرجاء، وكانت الخطابة فيها غرضاً مقصوداً، واستمرت الخطابة في اليونان، ما استمرت فيهم الحرية السياسية، حتى استولى عليهم قيايس، وكان أبليغ خطبائهم ديموستين، وجاء الرومان، فحييت الخطابة، وكان سيد خطبائهم شيشرون.

ويجب أن ننصف الحقيقة فنقول: إن خطباء اليونان والرومان لم تكن أكثر خطبهم ارتجالية، بل كانت تعد إعداداً، فالخطيب الأثيني مهما تبلغ ثقته بنفسه، لا يجزئ على الوقوف

موقف الخطيب، قبل أن ينظر نظرة عميقة فيما سيلقيه قبل إلقاءه، خشية النقد المر الصادر عن سامعين ذوي أفهام ثقيلة، ونظرات فاحصة كاشفة، وكان شهبزون الروماني يهذب خطبه ويستمرون على إلقاءها، قبل التقدم لإلقائها على الجماهير، حتى أنه في من السنين قبل أن يقتل، كان يمرن نفسه على الإلقاء.

ولا يمنع هذا من أن يكون بينهم مرتجلون، ولكن كانوا أقل عدداً. أما خطباء العرب فقد كانوا لأمتهم، ولعمودهم في بيئاتهم على اللسان وحده مرتجلين، تحضيرهم فيما بين الجنان واللسان، ويقول الجاحظ فيهم:

وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلمون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر.

وفي الحق أن الخطيب العربي يعد في الطبقة الأولى بين خطباء الأمم، وأن الخطابة العربية في العصر الجاهلي كانت حية ناهضة؛ لتوافر الدواعي إليها، ووجود ذوي اللسان والبيان، وأولئك كانوا كثيرين، وخصوصاً في قبلى عبد القيس وهاشم.

ألفاظ الخطابة وأساليبها ومعانيها

الألفاظ:

أول ما يلاحظه القارئ للمأثور من خطب العرب في الجاهلية على ألفاظها:

١- قوة وجزالة حتى تصل أحيانا إلى المشونة، ولعل السبب في ذلك:

(أ) قوة نفوسهم، وشدة بأسهم، واندفاعهم في حماسة؛ فإن الكلمات صورة حية لنفس قائلها، تجيش صدورهم بالأس؛ فتندفع ألسنتهم بكلمات، هي صورة لتلك القلوب القوية الجريئة.

(ب) ومعيشتهم في الصحراء بيأسائها، ولأوائها وشدتها، فأصبحوا لا يرون إلا ما فيها من جبال وأكام ووهاد، فيكون كل ما يصدر عنهم مناسباً لتلك المناظر، مأخوذاً من تلك المشاهد.

(ج) ومناسبة تلك الكلمات العجاسية الشديدة، للموضوعات التي قيلت فيها، فأكثرها قيل في دعوة إلى قتال، أو في مفاخرة بنزال، أو في وصف يوم كريهة، ونحو ذلك.

وأنسب الكلام لهذه الموضوعات ما كان شديداً، قوى الأسر، فخماً ضخماً، ليقرع الحس، ويلغز النفوس إلى حيث ترتخص الأرواح.

٢- وقد كان في كلماتهم المحوشية الغريبة؛ ولعل هذه كانت من لغة حمير التي طغت عليها لغة قريش، حتى أخذت في الانتشار، وبقي في الخطب والشعر منها كلمات نائية؛ لأنها تعيش في غير بيتها، متفرقة عن أصولها.

٣- ويجد في خطبهم سوق الحقيقة قائمة، وسوق المجانة كامدة، فالألفاظهم إلا قليلاً مستعملة فيما وضعت له، وذلك لإحاطتهم الكاملة بلغتهم، وعلمهم علماً صحيحاً بمدلولات الألفاظ، ووجد دلالتها عليها، وقلة حاجتهم إلى استعمال لفظ في مدلول آخر؛ لعدم وجود طوائف من المعاني ليس في العربية ما يدل عليها، وهذا لا يمنع أن يكون في كلامهم الكنايات الرائعة، والأمثال السائرة، والتشبيهات الخكمة؛ فإن ذلك كان عندهم، ولكن لم يكن كثيراً في خطبهم؛ لإرسالهم القول أرتجالاً من غير تحضير وتهيئة.

المعاني:

معاني الخطب الجاهلية:

١- فطرية تنشأ عن اللحظة العارضة، والفكرة الطارئة، وغیر الخاطر من غیر كد للفكر، ولا تعمق في النظر؛ لأنهم لم يكونوا أهل علوم يسودهم التفكير المنظم، والتقسيم المستقرى، والتبعية لكل أشئاث الموضوع؛ ليجمع شملها في خطبة، ويضم متفرقاتها في بيان.

٢- ولذلك جاءت خطبهم غير متماسكة الأجزاء، وغير سلسلة الأفكار، لا يأخذ المعنى بحجر الآخر في فكر رتيب؛ لتستوفى الموضوع كله، وأصدق الخطب التي تدل على هذه الحال فيهم، خطب أكنم بن صيفى، فإنها حكم متثرة، بل هي در مشور غير متظم في عقد.

ولكن إذا اتحد الغرض في الخطبة، جاء التماسك في الجملة في أجزائها، وكثيرا ما تكون الخطب التي على هذه الشأكلة موجزة كل الإيجاز، كخطبة أبى طالب في زواج النبی ﷺ من السيدة خديجة رضى الله عنها.

٣- وقد كان عدم تماسك أفكارهم من دواعي كثرة الحكم والأمثال في خطبهم، حتى لقد رأيت أن أكنم كما بنا، كانت خطبه كلها حكما، وقد يستشهد بعضهم بحكمة عالية غيره، أو بمثل سائر يضربه، ليقايس بين حال من يخاطبهم، وحال من قبل المثل فيهم.

٤- وأخص ما يمتاز به المعاني الخطابية عند العرب صدقها، وعدم وجود الإغراق والمبالغة فيها، وذلك لما فيهم من صراحة، وسحب للصدق وللحقيقة.

٥- وقد ترى في نصائحهم ووصاياهم معاني اجتماعية، وخلقية عالية، ولكنها في جملتها ليست مبنية على حراسة وبحث، بل هي صبورة لتجاوب الحياة، تنجي على الألسنة من غير كد للذهن، ولا تعمق في الترس، كما أسلفنا.

الأسلوب:

١- أول ما تلقاه في المأثور من الخطب العربية أنك لا تجد الخطب قد لوحظ فيها حسن الافتتاح، وتنسيق الموضوع، وتجريته، ثم حسن اختتامه؛ فإن ذلك شأن المخطيب الذي يحبر خطبته ويوزر كلامه، ويهيؤه. وبعدة، ولم يكن أكثر خطباء الجاهلية كذلك؛ بل كانوا

يرتجلون الكلام ارجحالا، لذلك لم تكن خطبهم منسقة مجزأة، بل كانت في الجملة غير متماسكة، لعلم تماسك معانيها كما بيناه.

٢- وأسلوبهم الكلامي لا تكلف فيه، ولا صناعة، لعلم عنايتهم بتهيئة القول، ولذلك خلا من كل المحسنات اللفظية، كالجناس والتورية، وما إلى ذلك مما نص عليه في علم البديع.

٣- كانوا أحيانا يسجعون في خطبهم، كما ترى في مسجع الكهان، وأحيانا يأتون بجمل مزدوجة، كما ترى في خطب الوفد العربي لدى كسرى، وأحيانا يرملون القول أرسالا، ولكن أيها كان أكثر، وأشيع، ألكلام المرسل، أم المسجع والمزدوج؟ لقد اختلف الأدباء في الإجابة عن هذا السؤال، ففريق يقول إن المسجع والازدواج كانا أكثر شيوعا على ألسنة الخطباء من الأرسال؛ لأن المروي من خطب الجاهلية أكثره مسجوع أو مزدوج، وإنك لتقرأ ما رواه الأمالي. والعقد الفرهد، وغيرهما من كتب الأدب منسوبا إلى العصر الجاهلي؛ فتري أن أوضح ما يظهر في بدياجته السجع والازدواج، ولا يظن في هذا بالشك في صحة النسبة، أو بالرواية بالمعنى؛ لأن من يقول قولا على لسان غيره، ولو كاذبا، يجهد في أن يكون كلامه صورة قريبة مما يجري على ألسنة من ينطقهم قوله، فالرواة الذين نحلوا الجاهليين تلك الخطب لابد أن أتوا بكلامهم على النحو الذي يعرفه الناس عن العصر الجاهلي، فإنما أتوا بذلك الكلام مسجوعا، فهو يدل على أن الناس في عصر الرواة ما كانوا يصرفون عن خطب العرب، إلا أن أكثرها مسجوع، وحسبك هذا دليلا على شيوع السجع عند الجاهليين.

ويرى آخرون أن الأرسال هو الأكثر شيوعا على ألسنة الخطباء؛ لأنه هو الذي يتفق مع الأرجال، والقول على البديهة اللذين عرفا في العرب، وأنه هو الذي يساوق الفطرة، ولأن أكثر كلام النبي ﷺ، الذي ثبتت صحته، وأكثر خطب الصحابة التي لا مجال للظن في صدقها مرسل قليل السجع، والازدواج، وأكثر أولئك أدرك العصر الجاهلي، فلو كان السجع طريقا خطائيا معروفا مألوفاً لهم، ما خالفوه، ولا نعرف أن من أوامر الشرع ما يدعوهم إلى المخالفة، والابتعاد عن أمر معروف عند الجاهليين أنه من طرائق التأثير البياني، ولأنه قد تواتر عن العرب أن الكهان كان لهم كلام متعازز بدياجته، يخالف المألوف للعرب، وامتاز ذلك الكلام بالسجع المألوف، فلو كان السجع أمراً شائعا يشمل الجزء الأكبر من خطب الخطباء، ما امتاز كلام الكهان عن سواه، وما صار له لون يغاير بقية الكلام، ولأنه قد جاء في البيان والتميين للمجاهد: قيل لعبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي: لم تؤثر السجع على المنشور، وتلزم

نفسك القوافي، وإقامة الوزن، قال: إن كلامي لو كنت لا أمل فيه إلا سماع الشاهد، لقل
خلافي عليك، ولكنني أريد الغالب، والحاضر، والراهن، والفاير، فالحفظ إليه أسرع، والآذان
لسماعه أنشط، وهو أحق بالتقييد، وبقلة التقلت، وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر
مما تكلمت به من جيد الموزون؛ فلم يحفظ من المنثور عشرة، ولا ضاع من الموزون عشرة.

وهذا الكلام يدل على أن أكثر الخطب الجاهلية، لم يكن سجعاً، وإلا ما ضاع أكثرها،
ولم يبق إلا أقل من العشر، ويردون على الفريق الأول في استدلاله بكثرة السجع في المروى
على أنه تلكثرة في الخطب - بأن الخطب المسجوعة هي التي رويت، مع قلتها بالإضافة إلى
غير المسجوع، وذلك لتفامتها، وسهولة حفظها، وقوة علوقها بالنفس، وثباتها فيها، لما فيها من
التزام قافية ووزن، وهما يسهلان اللفظ. وأنت ترى أن كلامه وجهة، ونحن إلى الثاني أميل.

الإيجاز والإطناب:

وقبل أن نختم الكلام في الأساليب العربية نتكلم على الإيجاز والإطناب في خطبهم،
فنقول: لم نجد في المؤلفين عن العرب خطبة طويلة، بل كلها موجزة ولعل الذي بين أيدينا جزء
من خطبة طويلة، علق بالقلوب، وذهب أكثرها في ضلال نبيان الراوى، أو هو الخطب القصار
حفظها الرواة؛ نقصوها، وعجزوا عن ضبط الطوال لطولها؛ وذلك لأن أخبار العلماء والأدباء
والرواة قلنا على أن العرب كانت لهم خطب طوال، وأخرى قصار، ولكل حال تقتضيه في
نظرهم، ففي خطب النكاح مثلاً يطيل المخاطب، ويقصر المجيب، وفي خطب الصلح كانوا
يطيلون، قال الجاحظ: «والسنة في خطبة النكاح أن يطيل المخاطب. ويقصر المجيب، ألا ترى
إلى قيس بن خازجة بن سنان لما ضرب بصفيحة سيفه مؤخرة راحلتى الحاملين في شأن
جمالة»^(١) «داحس»^(٢) والغبراء. وقال: «مالي فيها أيها العشمتان»^(٣) قالوا: بل عندك؛ قال: «عندي
قوى كل نازل، ورضا كل ساخط، وخطبة من لندن تطلع الشمس إلى أن تغرب، أمر فيها
بالتواصل، وأنهى فيها عن التقاطع. قالوا: فخطب يوماً إلى الليل. فما أعاد فيها كلمة ولا
معنى، فقبل لأبي يعقوب: «هلا اكتفى بالأمر بالتواصل، عن النهي عن التقاطع، أو ليس الأمر
بالصلة هو النهي عن القطيعة. قال: «أو علمت أن الكناية والتعريض لا يعملان في العقول عمل
الإفصاح والتكشاف؟ ويظهر أنهم كانوا يطيلون القول في المفازات، لأن الإنسان إذا مال إلى

(١) الجمالة قديمة. (٢) داحس والغبراء. فرسان كلثما سبياً في حرب طاحنة.

(٣) العشمتان واحداً عشمة وهي الطمع. والشئ القباس.

الشيء أكثر من ذكره؛ والفخر بالحسب والنسب، وشرف الخصال من صفات العرب التي امتازوا بها.

وقد كانوا في إطالتهم، وإيجازهم بلغاء، أقوالهم محكمة، وقد قال النجاشي في وصف الطوال منها: «ومن الطوال ما يكون مستويًا في الجودة، ومشاكلًا في استواء الصنعة، ومنها ذوات الفقر الحسان والنتف الجياد. وقال في وصف العرب بشكل عام: ولم أجد في خطيب السلف الخطيب، والأعراب الأفاضل مسخوطة، ولا معاني مدخولة، ولا طبعًا رديًا، ولا قولًا مستكرها.

الخطيب الجاهلي

وعاداته

١- الخطيب العربي زعيم القبيلة، أو بطلها، أو حكيماً، أو قاضياً، أو رجلاً من أحاديثها، ولكن يمتاز بميزة ليست في دهمائها، تجعله في منزلة تسمح له بأن يدعو، فيجاب، وأن يرشد، فيسترشدوا به، ولذا كان الخطيب العربي من أسد العرب رأياً وأحكمهم نظراً وأبعدهم مدى، فرجاسة الفكر أولى عميزات الخطيب العربي في قومه، فأكثم بن صيفي أحكم تميم، وقس بن ساعدة من أقوى أهل الفكر عند العرب، وكعب بن لؤي كان شيخ كنانة في عصره، وعبد المطلب بن هاشم كان زعيم قريش، وأبيلها، وأسعد فكرأ، وكل أولئك خطباء.

٢- والخطيب العربي يخطب قوماً اشتهروا بالفصاحة واللسان، وسلامة الفطرة، فلا يؤثر فيهم، ولا ينال من قلوبهم، إلا إذا كان يعلمهم فصاحة، ويسبقهم لساناً وبياناً، فلا يكون فيه بالأولى عيب من العيوب البيانية التي لا تتفق مع فصاحة اللسان، وجودة النطق، فلا يكون فيه عي، ولا حصر، ولا فائأة، ولا تمشحة، ولا شيء من عيوب النطق والبيان، وكذلك كان الخطيب العربي فصيح العبارة، طلق اللسان، واضح اللهجة جيد الإلقاء.

٣- كان الخطيب في الجاهلية يدعو العرب أحياناً إلى عوض غمرات الموت، والسبح في ليج من الدماء، فلا يصح أن تتنافى حاله مع ما يدعو إليه، لا بد أن يكون جرى القلب لا قوى النفس، رابط الجأش لا نعوه رعدة، ولا اضطراب في موقفه، وإلا ضعف تأثيره، ونضب كلامه هباء، وكذلك كان خطيب الجاهلية، شجاع جرى، ثابت الجنان، رابط الجأش، لا اضطراب، ولا وجل ولا خوف.

٤- كان خطيب الجاهلية جهوري الصوت مرتفعه. وكانوا يستحسنون ذلك في الجملة، ولذلك قالوا في وصف الخطيب المجيد: خطيب مصقع، من الصقع وهو رفع الصوت.

وحضور البديهة من أهم أوصاف الخطيب العربي، لأن أكثر خطبه مرتجل، والارتجال عذته، وذخيرته بديهة حاضرة تسعفه بما يريد في أوجز مدة.

لم يكن الخطيب العربي منغراً في شكله، بل كان أقرب إلى الجمال، والجمال من مظاهره في نظرهم سلامة الأسنان والفم، وقوة الجسم، واستقامة القنات، فيكون كالرمح لا انحناء فيه، وبياض الوجه.

ولذا قال الشاعر مادحا خطباء قبيلته.

خطباء حين يقوم قائلنا يبيض الوجوه مصانع لسن

والخطيب الجاهلي ذو مهابة، وسمت ووقار وشرف، وبزة حسنة، وحسب ونسب، وفي الجملة فيه أكثر أوصاف الخطيب الكامل.

(١) ومن عادات العرب في الخطابة:

(أ) أن يقف الخطباء على مرتفع من الأرض.

(ب) وأن يكونوا على زي خاص في العمامة واللباس تفخيما لعمله.

(ج) وأخلهم المختصرة^(١) بأيديهم، ومن ذلك قول الشاعر.

يكاد يزيل الأرض وقع خطابهم إذا وصلوا أيمانهم بالخصاص

وكانوا أحيانا يعتمدون على القسي بدل الخصاص، ومنهم من كان يتخذ الخصاص في خطب السلم، والقسي في خطب الحرب، إشعارا بما ينوي قوله، وليكون لسان حاله متفقا مع مقاله في الدعوة إلى القتل والقتال.

(د) ومن عاداتهم أيضا رفع أيديهم، ووضعها، وتأدية كثير من أغراضهم بحركاتها، إن كان نمة دأع لذلك، ولم تذهب تلك الحركات بهيبة الخطيب ووقاره ووزاته.

وقد انتقلت عادات كثيرة من عادات الجاهلية في الخطابة إلى الإسلام.

(١) شيء يشبه العصا.

من المأثور من خطب العرب في الجاهلية

كثرة الخطباء في الجاهلية، وقلة المروي من الخطب

خطباء الجاهلية كثيرون، من أقدمهم كعب بن لؤي (الجد السابع لرسول الله ﷺ)، كان يخطب العرب عامة، ويحضر على البر كثافة خاصة، ولما مات أكبروا موته، وأرخوا به حتى عام الفيل، ومنهم ذو الأصبع العلواني، وسمى بذلك لأن حية نهشت إبهام رجله، فقطعت، ومنهم أبو عمار الطائي خطيب مدحج، وقد بلغ النعمان بن المنذر حسن حديثه، فحمله إليه، وكان النعمان شديد العريضة، قتالا للندماء، فقتله في مجلس شراب له، ومنهم النعمان هذا وخطبائه عند كسرى: أكثم بن صيفي، وحاجب بن زُرارة التميمي، والحارث بن عباد، وقيس بن مسعود البكري، وخالد بن جعفر، وعلقمة بن علاثة، وعامر بن الطفيل العامري، وعمرو بن الشريد السلمي، وعمرو بن معد يكرب الزبيدي، والحارث بن ظالم المري، وكلهم يشار إليه بالبنان في العرب، ومنهم عبد المطلب بن هاشم جد النبي ﷺ، وأبو طالب عمه، وقيس بن ساعدة الإيادي خطيب عكاظ، وداعي العرب إلى التوحيد، ومنهم عطار بن حاجب ابن زُرارة، وقد أدرك النبي ﷺ، وخطب بين يديه.

وبعض القبائل اشتهر بكثرة الخطباء، كإياد، وعبد القيس، قال الجاحظ: وشأن عبد القيس عجيب، وذلك أنهم بعد محاربة إياد تفرقوا فرقتين: ففرقة وقعت بعمان، وفيهم خطباء العرب، وفرقة وقعت بالبحرين، وشق البحرين وهم من أشهر قبائل العرب، ولم يكونوا كذلك حين كانوا في سرة البادية، وفي مملكت الفصاحة، وهذا عجيب!

وإذا كان خطباء الجاهلية كثيرين كما رأيت، فلا بد أن تكون خطبهم كثيرة، ولكن المأثور من الخطب قليل، لا يتناسب مع تلك الكثرة.

جاء في صحيح الأعمش: قال صاحب الرمان والريمان: إن ما تكلمت به العرب من أهل المر والوير، من جيد المنثور، ومزدوج الكلام، أكثر مما تكلمت به من الموزون، إلا أنه لم يحفظ من المنثور عشرة، ولا ضاع من الموزون عشرة، لأن الخطيب إنما كان يخطب في المقام الذي يقوم فيه في مشافهة الملوك أو الإصلاح بين العشائر، أو خطبة النكاح، فإذا انقضى المقام حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه بخلاف الشعر، فإنه لا يضيع منه بيت واحد.

قال: ولولا أن خطبة قس بن ساعدة كان سندها مما يتنافسه الأنام، وهو أن النبي ﷺ هو الذي رواها عنه، فأطار ذكرها، ما تميزت عن سواها.

ولماذا كان حظ الخطب النسيان، وحظ الشعر الحفظ؟ يعلل ذلك القلقشندي، بشيوع قول الشعر في الحواضر والبادي، وبين الخاصة والعامة، وسهولة حفظه، وكون الخطب لا تكون إلا من عظماء الفصحاء، واختصاصها بالمواقف العظيمة التي ربما لا يحضرها دهماء العرب، فقد كان يقوم بها في الجاهلية سادات العرب ورؤساؤهم، ممن فاز بقدر الفضل، وسبق إلى ذرا الجلاء، ويخصون ذلك بالمواقف الكرام، والمشاهد العظام والمجالس الكريمة، والمقامات الحفيلة، وما يلقى على العامة تتبادله الألسنة، وشيع، أما ما يلقى على الخاصة فغير شائع، ولا معروف، ولا تتناقله الرواة، ولكن إذا كان هنا يصلح علة لنسيان ما كان يلقى على الخاصة فما علة نسيان ما كان يلقى في الأسواق والمجامع العامة، وما كان يلقيه زعيم القبيلة على القبيلة كلها صغيرها وكبيرها؟ يظهر أن العلة لهذا:

(أ) أمية العرب، ولو كان العرب يكتبون على الرقوق، أو ينقشون على الأحجار كالأم ذوات الحضارات، لوجدنا آثارهم ناطقة بخطبهم ومحاوراتهم التي تشتمل على القول البليغ، والبيان الرائع، الأخذ بالأكلياب.

(ب) وكون الشعر سهل الحفظ والنثر صعبه؛ إذ الوزن في الأول جعل الأذان تنشط لسماعه والقلوب تميل إلى حفظه.

ومهما يكن من الأمر فما بقي يعطينا صورة للخطابة في الجاهلية وإن لم تكن كاملة، وبين لنا حالها، وإن لم يكن البيان شافياً وافياً.

نماذج من خطب الجاهليين

١- كلمة قبيصة بن نعيم حين قدم على امرئ القيس

مع وفد بني أسد

وفد على امرئ القيس بعد قتل أبيه رجالات من بني أسد، فيهم قبيصة بن نعيم، نبأ الخ امرئ القيس في إكرامهم، واحتجب عنهم ثلاث ليال، ثم خرج إليهم، فنهض قبيصة، وقال: إنك في الخلل والقدر والمعرفة بصرف الدهر، وما تحدثه لهما، وتنتقل به أحواله، بحيث لا تحتاج إلى تبصير واعظ، ولا تذكرة مجرب، وذلك من سؤدد منصبك، وشرف أعرافك، وكرم أصلك في العرب، محتد بحتمل ما حمل عليه من إقالة العثرة، والرجوع عن الهفوة، ولا تتجاوز الهمم إلى غاية، إلا رجعت إليك، فوجدت عندك من فضيلة الرأي، وبصيرة الفهم، وكرم الصنيع، ما يطول رغبتها، ويستغرق طلباتها، وقد كان الذي كان من الخطب الجليل الذي عمت رؤيته نزارا واليمن، ولم تخصص به كنلة دوننا للمشرف البارح؛ كان لسجر التاج والعمدة فوق الجبين الكريم، وإخاء الحمد، وطيب الشيم، ولو كان يقدي خالك بالأنفس الباقية بعده، لما بخلت كرامتنا على مثله بهذا ذلك، ولكن مضى به سبيل لا يرجع أخراه على أولاه، ولا يلحق أقصاء أدناه، فأحمد الحالات في ذلك أن تعرف الواجب عليك في إسدي خلال ثلاث؛ إما أن اخترت من بني أسد أشرفها بيتا، وأعلاها في بناء المكرمات صوبا فقتلناه إليك بنسبه^(١)، ينهب مع شفرات حسامك بياقي قصيرته^(٢)، فيقال رجل آمنحن بهالك عزيز، فلم يستل سخيمته إلا بمكته من الانتقام. أو فداء بما يروح على بني أسد من نعمها، فهي ألوف تتجاوز الحسبة، فكان ذلك فداء رجعت به القضب إلى أجفانها، لم يردد تسليط الإحن على البراء. وإما أن وادعتنا إلى أن تضع الحوامل، فتسدل الأزر، وتعقد الخمر فوق الرايات.

جواب امرئ القيس:

فيكى امرؤ القيس، ثم رفع طرفه إليهم، وقال: لقد علمت العرب أن لا كفة لحجر في دم، وإلى لن أعناض به جملا أو ناقة، فأكتسب به سبة الأبد، وفت العضد، وأما النظرة فقد

(١) الصنع بكسر الفوق سير من الجلد تشد به الرجل.

(٢) القصرة الباقى بعد الانفعال أو أصل العنق.

أوجبتها الأجنة في بطون أمهاتها ولن أكون لعلبها سياء، وسعرفون طلائع كتلة من بعد ذلك،
تحمّل من القلوب حقاء وفوق الأسنة علقا.

إذا جالت الحرب في مآزق تصافع فيها المنايا النفوسا

و صية زهير بن جناب الكلبي بنيه

أوصى زهير بن جناب الكلبي بنيه فقال: يا بني إني قد كبرت سني، وبلغت حرماً^(١)
من دهرى، فأحكمتي التجارب، والأمور تجرية واختبار؛ فاحفظوا عني ما أقول، وعود؛ إياكم
والخير عند المصائب، والتواكل عند النوائب؛ فإن ذلك داعية للنغم، وشمانة للمدو وسوء ظن
بالرب، وإياكم أن تكونوا بالأحداث مغترين، ولها آمنين، ومنها ساخرين، فإنه ما سخر قوم قط،
إلا ابتلوا؛ ولكن توقروها؛ فإن الإنسان في الدنيا غرض، تمارره الرماة، فمقتصر دونه، ومجاوز
لموضعه، وواقع عن بيته وشماله، ثم لا يد أن يصيبه.

و صية ذي الأصبع العدواني

لما احتضر ذو الأصبع العدواني، دعا ابنه أسيداً، وقال له: يا بني، إن أباك قد فني، وهو
حي، وعاش حتى شتم العيش، وإني موصلك بما إن حفظته، بلغت في قومك ما بلغت؛
فاحفظ عني؛ ألن جانبك لقومك يحبوك، وتواضع لهم يرفعوك، وأبسط لهم وجهك يطعموك،
ولا تستأثر عليهم بشيء يسودوك، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم بكرمك كبارهم، وبكبر
على موثقك صغارهم، واسمع بمالك، واحم حريمك، وأعزز جارك، وأعن من استعان بك،
وأكرم ضيفك، وأسرع النهضة في الصرخ، فإن لك أجلاً لا يعدوك، وعن وجهك عن مسألة
أحد شيء، فبذلك يتم سوددك.

خطبة لمروث الخير في الصلح

جاء في الأمالي بسنده، كان مروث الخير بن ينكف بن معد يكره بن مضحى قبلاً،
وكان حلياً على عشيرته، محباً لصلاحهم، وكان مبيع بن الحارث، وميثم بن مشوب بن ذي

(١) العرس قومن والنعر.

رعين، تنازعا الشرف، حتى تشاحنا، وخيف أن يقع بين حبيبهما شر، فبتفاني جلداهما^(١) فبحث إليهما مرثد، فأحضرهما ليصلح بينهما، فقال لهما إن التخييط^(٢) واستعلاء الهجاج^(٣) واستحقاق^(٤) اللجاج سيقتكما على شفا هرة، في تودعها بولر الأصيل^(٥) وانقطاع الوسيلة، فتلافيا أمركما قبل انتكاث العهد، وانحلال العقد، وتشتت الألفة، وتباين السهمة^(٦) وانتما في فسحة رافهة، ولتم واطدة، والمودة مثرة^(٧) والبقيا معرضة^(٨)، فقد عرفتم قبلاء من كان قبلكم من العرب، ممن عصى النصيح، وخالف الرضيد، وأصغى إلى التقاطع، ورأيت ما آلت إليه عواقب سوء معيهم، وكيف كان صيور^(٩) أسورهم، فتلافوا القرحة قبل تفاقم الثأى^(١٠)، واستفحال الداء، وإعواز الدواء، فإنه إذا سفكت الدماء، استحكمت الشخاء، وإذا استحكمت الشخاء تقضيت^(١١) عرا الإبقاء، وشمل البلاء.

خطبة عبد المطلب بين يدي ذي نواس

ذهب وفد من قريش إلى ذي نواس بعد أن خلف بالعبشة، وأجلاه من بلاده، فلما مثلوا بين يديه، قال عبد المطلب: إن الله أيها الملك، أحلك محلا رفيعا، صعبا متعبا، بأذخا شامخا، وأنتك متبعا طابت أرومته، وعزت جرثومته، ونيل أصله، وسقى فرعه في أكرم معدن، وأطيب موطن، فأنت أبيت اللعن رأس للعرب، ورابعها الذي به تخصب، وملكها الذي به تنقاد، وحمودها الذي عليه العماد، ومقلها الذي يلجأ إليه العباد، سلفك خير سلف، وأنت لنا بعدهم خير خلف، ولن يهلك من أنت خلفه. نحن أيها الملك أهل حرم الله ودمته، وسنة ربه، أشخصنا إليك الذي أبهجنا بكشفك الكرب الذي قدحنا، فنحن وفد التهشة، لا وفد للرزقة^(١٢).

(١) الجهم الأصل. (٢) التخييط وكوب الرجل رأسه في الشر. (٣) للهجاج اللجاجة في الشر.

(٤) استحقاق اللجاج حمل حقيقته والمراد من هذا اعتراف الخصومة والشر.

(٥) الأصيل الأصل. (٦) السهمة القرابة. (٧) مثرة هنا معناها مصلحة.

(٨) معرضة معناها ممكنة. (٩) الأسر الذي يرجع إليه والمراد هنا العاقبة.

(١٠) الثأى بفتح الهمزة وسكونها الإنساد والقتل والجرح.

(١١) قضيت معناها تقطعت. (١٢) المزرقة: الرزق والمصيبة.

خطبة أبي طالب في زواج النبي ﷺ

من السيدة خديجة «رضي الله تعالى عنها»

الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وجعل لنا بلدا حراما، وبيتا محجوجا، وجعلنا الحكام على الناس. وإن محمد بن عبد الله بن أحمى لا يوزن به فتى من قريش، إلا رجع به بركة وفضلا وعدلا ومجدا وزيلا، وإن كان في المال مقلًا فإن المال عارية مسترجعة، وظل زائل، وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك، وما أردتم من الصداق فحلى.

خطبة أكرم بن صيفي

في قومه عندما جاءه نبي النبي ﷺ

روى في مجمع الأمثال عن ابن سلام الحمصي قال: لما ظهر النبي ﷺ بحكمة المكرمة، ودعا الناس إلى الإسلام، بعث أكرم بن صيفي ابنه حيشيا، فأتاه بخبره فجمع بني تميم، وقال: يا بني تميم، لا تحضروني سفيها؛ فإنه من يسمع يخل أن السفه يوهن من فوقه، ويثبت من هونه، لا خير فيمن لا عقل له، كبرت سني، ودخلتني زلة، فإن رأيتم مني حسنا، فاقبلوه، وإن رأيتم مني غير ذلك، فقوموني أستقم. إن ابني شاف هذا الرجل مشافهة وأثاني بخبره، وكتابه يأمر فيه بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق، ويدعو إلى توحيد الله تعالى، وخلع الأولاد، وترك الحلف بالنيران، وقد عرف ذوو الرأي منكم أن الفضل فيما يدعو إليه، وأن الرأي ترك ما ينهى عنه. إن أحق الناس بمعونة محمد (ﷺ)، ومساعدته على أمره أنتم، فإن يكن الذي يدعو إليه حقا، فهو لكم دون الناس، وإن يكن باطلا، كنتم أحق الناس بالكف عنه، وبالستر عليه، وقد كان أسف تجران يحدث بصفته، وكان سفيان بن مجاشع يحدث به قبله، وسمى ابنه محمدا، فكونوا في أمره أولا، ولا تكونوا آخرًا، اتوا طائعين، قبل أن تلقوا كارهين. إن الذي يدعو إليه (محمد ﷺ) لو لم يكن دينًا لكان في أخلاق الناس حسنا، أطيعوني، واتبعوا أمرى، أسأل لكم أشياء لا تنزع منكم أبدا، وأصبحتم أعز حى في العرب، وأكثرهم عددا، وأوسعهم دارا، فإنى أرى أمرا لا يجنبه عزيز إلا ذل، ولا يلزمه ذليل إلا عز. وإن

الأول لم يدع للآخر شيئا، وهذا أمر له ما بعده، من سبق إليه غمر المعالي، واقتدى به النالي،
والعزيمة حزم، والاختلاف عجز.

فقال مالك بن نويرة: قد خرف شيخكم! فقال أكنم: ربل للشجي من الخلى، والهفي
على أمر لم أشهده، ولم يسيقنى.

نصيحة الجمانه بنت قيس لجدها الربيع بن زياد

اشترى قيس بن زهير درعا من مكة، فاغتصبها منه عمه الربيع بن زياد، فتقدمت
الجمانة بنته وقالت:

إذا كان قيس أبى، فإنك ياربى جدى، وما يجب له من حق الأموة على، إلا كالذى
يجب عليك من حق البنوة لى، والرأى الصحيح تبعه العناية، وتجلي عن محضه النصيحة، إنك
قد ظلمت قيسا بأخذ درعه، وأجد مكافأته لباك سوء عزمه، والمعارض متعسر، والبادى أظلم،
وليس قيس ممن يخوف بالوعيد، ولا يردعه التهديد، فلا تركن إلى مثاله، فالحزم فى
مشاركته، والحرب متلفة للعباد، ذهابة بالطارف والشلاد، والسلم أربعى للبال، وأبقى لأنفس
الرجال. ويحق أقول: لقد صدعت بحكم، وما يدفع قولى، إلا غير ذى فهم. ثم أنشأت تقول.

أبى لا يرى أن يترك الدهر درعه وجدى يرى أن يأخذ الدهر من أبى
فسرأى أبى رأى البهيمل بماله وشبعة جدى شبعة الخائف الأسمى

الخطابة في صدر الإسلام

تمهيد

في عصور الانقلابات الفكرية والاجتماعية، والسياسية تسود الخطابة، حيث يصطدم القديم والجديد، والمألوف، بما هو غريب بدئي؛ إذ تدهش له العقول، فتتخير بعض الألباب أمداً طويلاً أو قصيراً وتضطرب بعض النفوس بين ما ألقت من قديم، وما عرفت من حديث، وينكر الحق بعض النهن يرون مصلحتهم العاجلة في التمسك بالقديم؛ والأخذ بأهديه، والنفوس الصافية، والقلوب الزاكية تترك الصواب، وترفض عنها أدوران الباطل، تمحص الحق، وتتطلب سائعه، وتتجه إلى نوره، يشتد الاختلاف بين أولئك وهؤلاء، كل يدلي بحجته، وكل يريد اجتلاب الجماعة إلى طريقه، وكل يتخذ وسائل الإغراء لتسلط مهيمه، وذلك بلسان ذوب، وبیان راجع، وبلاغة واصلة إلى أعماق القلوب. واعتبر ذلك في عصورنا الحديثة بالثورة الفرنسية، حيث فكت فيها الألسنة من عقاليها، واندفعت تنطق بعبارات ملهبة، تثير الثائرة، وتشيع لنفوس الثائرة؛ وتوقظ القلوب الحائرة. وقبلها كانت الثورة الإنجليزية التي وضع على أرضها الدستور الإنجليزي أول النماذج الحديثة، وأقدمها، انطلقت فيها الألسنة بخطب قوية، وألفاظ نارية، وكذلك كانت الثورة الأمريكية، واعتبر ذلك في القديم بحال اليونان في عصر بيركليس، إذ ازدهرت الخطابة لهذا الانقلاب الفكري والاجتماعي والسياسي، الذي توج به تاريخ ذلك العظيم. واعتبر ذلك أيضاً بحال الرومان في عصر يوليوس قيصر، إذ كانت الخطابة هي التي تلقى النخوة في قلب الروماني، فجعلت منه فاتحاً في الشرق والغرب، تخفق الراية الرومانية حيث وضع قدمه، وحيث خفق قلبه بالنجدة والبأس والمروعة. وإذا كان محمد ﷺ قد أحدث دينه الحق انقلاباً سياسياً، ودينياً، واجتماعياً، وفكرياً في العرب (بل في كل العالم) لم ير التاريخ له نظيراً، فلا بد أن تكون قد صاحبه حركة بيانية خطابية، لم تعرف في أمة من قبل، وكذلك كان، بمجرد أن صدى النبي ﷺ بالحق، ودوى صوته الرهيب الكريم في بلاد العرب، واتبع ذلك الفور الوضاح، فأضياء المسهول والجبال، بمجرد أن كان هناء تجرد المقاول من العرب نلوه عليه أو الدعوة إليه، وكان وهو الفصيح القرشي، ذو البيان النبوي بجائل وناضل، ويبلغ به صاويل، وليس له إلا لسان أبده روح القدس، وحق أرحى الله سبحانه به، وإذا عرفت أن الحجة التي كان يلقى بها برهاناً على رسالته وحجة لدعوته من نوع الكلام، وإن كان من رب العالمين، وفيه المثل الكامل للبلاغة، إذا علمت ذلك،

وعلمت أن العرب قوم اشتهروا بالفصاحة والبيان. علمت أى مقدار من البلاغة قد استفادته الخطابة العربية بالدعوة المحمدية.

هذا إجمال ، وما سيأتى تفصيله.

الحياة الإسلامية فى صدر الإسلام

لتعرف ما طرأ على الخطابة من تغير فى النواحي والأغراض ، يجب أن تعرف ما طرأ على النفس العربية من تغير فى مظاهرها ، وأحوالها الدينية والاجتماعية ، والسياسية.

الأحوال الدينية:

كان العرب فى القديم يعبدون الأوثان ، ويكاد يكون لكل قبيلة إله تعبد ، فلما جاء الإسلام جمعهم على إله واحد ، هو الله سبحانه وتعالى .. ﴿ لا تتركه الأبهصار ، وهو يتركه الأبهصار ، وهو اللطيف الخبير ﴾ . فبينهم مكان المعادلات الجاهلية ، عادات إسلامية عالية ، تركزى النفس وتطهر القلب ، وتجعل من الشخص العربى الذى لا يحس إلا بشخصه وقبيلته شخصا اجتماعيا ، يوثق الصلة بينه وبين بقية الإنسان ، وإن شئت أن تعرف ما أودعه الإسلام نفس العربى من فضائل اجتماعية ونفسية ، فاستمع إلى ما يقوله جعفر بن أبى طالب للنجاشى : كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأكل الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسود الجوار ، وبأكل القسوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نحرف نسبه وصدقته وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله وحده لنوحد ، ونعبد ، ولخلق ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصلق الحديث ، وأهل الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، أمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، فصدقناه وأمانا به ، فمدا علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا ، وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا .

فالإسلام كما ترى كل فضائله لتربية النفس ، وتركبتها ، وجعل العربى وكل مسلم صالحا للاختلاف مع غيره ، وبعد أن كانت كل فضائله فى الجاهلية شخصية ، وجهه الإسلام

إلى الفضائل الاجتماعية؛ ليلتئم مع سواء، وبعد أن كانت الشجاعة في الميازة والمناظرة للمفاخرة، صارت في الجهاد في سبيل الله لرفع كلمته، وبعد أن كان الجود ليصالاً المعطي ماضيه فخراً، صار في إمداد المجاهدين، وسد حاجة المعوزين، وإعطاء السائل واختروم ابتغاء مرضاة الله، وحناناً وعطفاً على بني الإنسان.

تغلغل الدين في كل شيء في هذا العصر، فصاروا لا يصنعون في عمل إلا عنه، وكانوا كلما جد شأن، أنحلوا حكمه من الدين، إما بنصر عليه، وإما بتأويل يرد إليه، وإذا صح قول نابليون: إن البواعث الدينية والإيثارية والتقوى، هي التي يقوم عليها بناء الأمم. فلن نجد أدل من حال العرب على صدقها، فإن الدولة الإسلامية العربية قامت بباعث من الدين الحكيم، وتألفت بوحى الإيثارة الذي أودعه الله قلوب العرب، وحميت بالتقوى والعزيمة حتى آخر عصر الخلفاء الراشدين.

الأحوال الاجتماعية:

قلنا إن الدين كان يسود في كل شيء، ولذا ساد في أكثر نواحي الحياة الاجتماعية، وما لم يسده كان واقفاً تحت تأثير اجتماعي تقليدي، تنتقل فيه الأخلاق بالعدوى، لا بالفكر والإرادة، ومهما يكن من شيء، فقد امتازت الحياة الإسلامية الأولى: في زمن النبي ﷺ وأكثر زمن الخلفاء الراشدين بمظاهر اجتماعية منها:

محو العصبية أو سترها إلى حين:

إجابة لقول النبي ﷺ: ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على العصبية.

ونستطيع أن نقول: إن العصبية الجاهلية اختفت في عصر الخلفاء الثلاثة الأولين خصوصاً عصر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فإن المسلمين كانوا مساوية كأسيان المشط، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، وهم جميعاً أمام حكم الله سواء، لا شريف ولا وضيع في تنفيذ الأحكام.

وما يروى في ذلك أن جبلة بن الأيهم، وقد كان ملكاً من ملوك الغساسنة، وطى لزاره رجل من فزارة، فأنحل، لرفع جبلة يده، وهشم أنف الفزاري، فشكاه هذا إلى عمر رضي الله عنه، فبين له عمر أن الحكم القصاص، أو عفو الأحراري، فقال: كيف ذلك يا أمير المؤمنين، وأنا

ملك، وهو سوقه؟ فأجابه عمر: إن الإسلام جمعك وإياه، فليست فضله بشيء، إلا بالتقوى والمعافاة، ففر جيلة إلى بلاد الروم.

اختفت العصبية؛ لنهى النبی ﷺ في مثل الحديث السابق كما ذكرناه، ولأن العرب جمعوا تحت لواء واحد في الفتح الإسلامي فتآلفت قلوبهم، ومشرت عصبيتهم، وشغلهم الجهاد عن الفخر بالأباء، والتمسك بالأنساب.

انتقال العرب من البداوة:

وتأثر الكثيرين من العرب ببعض الحضارة لما يلي:

(أ) لاختلاطهم بغيرهم من الأمم، فإن المدن العربية كانت تموج بعد الفتح الإسلامي بعناصر مختلفة من الأمم الأخرى، فالكوفة التي بناها عمر بن الخطاب للعرب، ليطلوا منها على الصحراء، كانت تموج بالموالي، والمدينة المنورة كانت (لأنها قصبة الدولة) مقصد ذوي الحاجات من كل الطوائف والأمم، والغنائم بما فيها من الأسرى، ما كانت توزع على الضاحدين إلا في المدينة المنورة، ومكة المكرمة كانت مقصد الحجاج من العرب، وغيرهم من المسلمين.

(ب) ولاستخدام العرب للرقائق، لما توزعوه فيثا وغنيمة، وقد كان العبيد والإماء من أم ذوات حضارات قديمة، غائر أولئك في البيت العربي، وأدخلوا فيه عادات لم تكن عند العرب.

(ج) ولكثرة ما أفاء الله عليهم من مال ونعم، فقد ورثوا نعيم كسرى في فارس، وقبصر في الشام ومصر، وكانت لهم من ذلك حياة فاخرة، رقت طبائعهم، ووطيت نفوسهم، وفي الحملة تغيرت الحياة العربية، وانتقلت من بدوة جافة إلى نوع من الحضارة الممتزجة بالبداوة، قد سيطر عليها الدين، وعقلها من أن تصير انهماكا في الملاذ والعبث واللجون.

الأحوال السياسية:

اجتمع العرب تحت لواء واحد، لا يسيطر عليهم إلا الدين، وذهبوا إلى الممالك، فدنوخوها، واستولوا عليها، وورثوا سلطان الفرس، وسلطان الروم في الشرق، وصاروا حكام هذه الأمم، يضافرون في إدارة شعوبها، ويتآزرون في هدايتها، فوحدوا أمرهم، وجمعوا أشتاتهم وجعلوا الحكم ليس مظهر العصبية، ولكن مظهرًا لوحدة دينية، فالخلافة فيه لا تمثل قبيلة، ولكن تنفذ حكم الله، والخليفة لا يحكم بسلطانه، ولكن بسلطان الله سبحانه، وهم

جميعها مسئولون عما يوافقون عليه، ويأثمون إذا سكتوا عن إرشاده فيما لا يوافقونه فيه من حكم.

أرسلوا حكاما للأثم المفتوحة وهداة ودعاة إلى الإسلام، وهم في كل هذا لا يبصرون إلا عن الدين الجامع بينهم، فالسياسة في ذلك العصر كان مصدرها الدين، وكان ذلك من أسباب وحدتهم، وتلاقيهم في جامعة الدين بعد طول افتراق، ولكن الخلافة في آخر عصر الخلفاء الراشدين طمح إليها أقوام، ليسوا هم الأولى، وتنافسوا قوى الجندرية والأولوية، بل نازعوا الخليفة الرابع بعد أن بويج، فكان من ذلك فتن وحروب وانقسامات، فوق التي انتهت بمقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان، وحلت الحال، وتغيرت الأمور والأحوال.

دواعي الخطابة وموضوعاتها في ذلك العصر

كانت دواعي الخطابة في ذلك العصر تتفق مع ما عرض لهم، وما سادهم من حياة، وما طرأ عليهم من أحوال وشئون سياسية واجتماعية.

وكان يدهم أن تكون أولى الدواعي للخطابة هي الدعوة المحمدية والرد عليها، فقد جاء محمد ﷺ بذلك الدين الجديد في قوم، القول صناعته، والبلاغة جل عنايتهم، فناداهم بأبلغ القول، وخطبهم بأروع الكلام، وخطب في مجامعهم مؤيداً رسالته، ناشراً دعائه، حتى طبقت صدورهم عن سماع قوله، بعد أن صجزوا عن مجادلته ومقارعة الحجة بالحجة، فتمتشقوا الحسام، وتكلموا باللسان بدل اللسان؛ فالخطابة كانت الأداة الأولى للدعوة المحمدية، وكانت السلاح الذي يرفعه خصومه في الرد عليه، فكانت تلك الدعوة سبباً في انتشار الخطابة، ورفع درجة البيان.

كان النبي ﷺ يلقي الناس في مواسم الحج، وفي المجالس، وفي المناسبات، ويدعوهم إلى الإسلام، ويأتي في ذلك بأبلغ الكلام.

انظر إلى خطبته الموجزة يوم صدع بأمر ربه، وأتذر عشيرته الأقرين، إذ قال ﷺ:

«إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم، ولو هزرت الناس جميعاً ما غررتكم، والله الذي لا إله إلا هو، إني لرسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس كافة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالبشر شراً، وإنها لجنة أبداً أو نار أبداً، وإنكم لأول من أنقر بين يدي غلب شنيده».

بيان الأحكام الشرعية:

لما دخل الناس في هذا الدين أفواجا أفواجا كان النبي ﷺ، بين لهم أحكام دينهم، وعرّفهم ذلك الشرع الشريف، وذلك الهنئ القويم، وبين تفصيل ما أجمل القرآن الكريم، كما قال تعالى كلماته: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا قَوْلَ إِلهِهِمْ﴾ ويوضح لهم ما أشكل عليهم فهمه، أو ما التبس من أمر هذا الدين، وذلك البيان كان بأقوال محكمة، فيها وحى النبوة، وقبس من نور الرحمن، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۖ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾. وانظر إلى خطبته عليه الصلاة والسلام التي مطلعها:

وأبها الناس، إن لكم معالم، فانتبهوا إلى معالمكم». وخطبته ﷺ التي مطلعها: «كأن الموت فيها على غيرنا قد كتب». وخطبته في حجة الوداع. انظر إلى تلك الخطب، ترى فيها الترغيب مع الترهيب؛ والموعظة الحسنة، والإيجاز الذي وفي، وجمع قلوبهم...!

المشاورة:

كان رسول الله ﷺ إذا قدم على أمر خطب امتشاور أصحابه، عملاً بقوله تعالى: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ وتلك المشورى تكون بخطبة قيمة، يعرض عليها الأمر فيها، ويتعرف رأيهم، ويأخذ بما تفقروا عليه، ورجحوا، ليكون في ذلك فتوة للمسلمين؛ فلا يستبد بعضهم ببعض، ولا يغالى أحدهم في تقدير نفسه زاعماً أن رأيَه إلهام بالصواب، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إذ كان أولى البشر بالملك سيد البشر، ولكن الله سبحانه جعل فيه أسوة حسنة، وليكون حجة على كل من تحداه نفسه بذلك الطغيان.

وما استشار فيه النبي ﷺ أصحابه مسألة فداء أسرى بدر، والخروج إلى المشركين في غزوة أحد. وقد نهج الخلفاء الراشدون منهجه ﷺ عاملين بقوله تعالى: ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ فأبو بكر كان يستشير الصحابة في كل أمر ذي شأن، ويتعرف رأيهم إذا التبس عليه حكم من الأحكام، وكذلك كان عمر رضي الله عنه، بل إنه وسع باب الشورى، لما جد في زمنه من شئون وأحداث استدعت المشاورة، وتعرف للرأي الصائب وسط الآراء المتبادلة. وقسم شوره قسمين:

شورى خاصة:

وتلك كانت تتألف من علية الصحابة، المهاجرين الأولين والأنصار السابقين، وأولئك يستشيرهم في صغرى الأمور وكبرائها.

شورى عامة:

وتتألف من أهل المدينة أجمعين، يجمعهم في الحرم النبوي الشريف، وإذا ضاق بهم، جمعهم خارج المدينة المنورة، وعرض الأمر الخطير، وأبى فيه، وكان سكان المدينة المنورة في هذا يشبهون سكان أثينا، إذ كان كل شخص له رأى في إدارة شئون الدولة. وفي الشورى العامة تتبادل الخطب، ويبدلى كل رأى برأيه ورجحه، ومن المسائل التي استشار فيها عمر سكان المدينة المنورة، خروجه على رأس الجيش إلى فارس، وقد ذكر الطبري في ذلك خطب الصحابة

على وطلحة وغيرهما، التي أهدوا فيها آراءهم، وأدلتهم، ومنها مسألة أرض سواد العراق، وغير هذا كثير.

وفرى من ذلك كله، كيف كانت الشورى في ذلك العصر، كشأنها في كل العصور، محركة للألسنة، دافعة أهل البيان إلى البيان.

الحرية الشخصية:

كفّل الإسلام للعربي حريته الشخصية بل تماها فيه، وسلّك بها الطريق القويم، الذي يجعل تلك الحرية مشعرة صالحة، ولا يجعلها داعية لتسرق الجماعة، وفعل ربحها، وأقول نجحها، وقد سار الخلفاء الراشدون على سنن هذا الدين في إحياء النخوة العربية والحفاظ علىها.

انظر إلى العربي الذي يقول لعمر بن الخطاب: والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لغرمناه بسيفنا، فيحمد عمر الله سبحانه أن جعل في المسلمين من يقومه بالسيف إذا اعوج.

وانظر إلى المرأة التي تقطع على عمر خطبته عند مادعا إلى حد المهور ثلثة قوله تعالى: ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتهم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً تأخذونه بهتاً وإثماً مبيناً﴾. فيقول أخطأ عمر وأصاب امرأة!

انظر إلى هلمين المثاليين، ترى كيف كان يتمتع العربي بحرية شخصية كاملة.

ويقول بعض الأدباء: إن الخطابة تزهو وتقوى في كل أمة تتمتع بالحرية الشخصية؛ وكل أمة غلبت على أمرها، وفشت فيها المذلة، ضعفت الخطابة فيها، وتحولت من الحمامة إلى الضراعة، ولذلك امتنعت الخطابة في العبرانيين كما نقل إلينا، وانصرفت قرائحهم إلى نظم المراثي والحكمة، وتعميق الشكوى، وتنسيق التظلم، لهذا نقول: إن الحرية التي سادت المسلمين في صدر الإسلام كانت داعية للقول البليغ، يجابهون به الخلفاء الراشدين، ولولا ما في صدورهم منها، ما ظهر ذلك القول، وما تقدموا معترضين على الخلفاء الراشدين بخطب ممتازة.

الجهاد في سبيل الله:

اعتدى المشركون على المسلمين، فأمر الله، نبيه بأن يقاتل المشركين كافة، كما يقاتلونه كافة، فقاتلهم عليه الصلاة والسلام حتى صار الدين كله لله سبحانه، لا سلطان لأحد

على القلوب. ومن بعده أبلى المسلمون الشايشون بلاء حسناً في قتال المرتدين، وفي حروبهم فاتحين البلاد شرقاً وغرباً، وكانت الخطابة ذخيرة معهم، يحتفظ بها القواد دائماً ليحدثوا بها الجند، إن رأوا فيهم إغواءً، فيجعلوا من ضعفهم قوة، ومن قهقرهم تقدماً وانتصاراً.

قال نابغة الحروب نابليون في بيان مقلات حاجة الجيوش إلى القوة المعنوية: نسبة القوة الجسمانية إلى القوة المعنوية في الانتصار كنسبة ١ : ٣.

وقال أحد القواد الألمان في ذلك العصر: إنه مع التقدم الغني في العصر الحديث، نرى العنصر المعنوي يبرهن على أنه في الحاضر، كما كان في الغابر، العامل الحاسم في الحرب.

فالجيش من غير روح تدفعه كالسيف من غير يد تحمله، لا يريق دماء، ولا يرفع عادية، ولا يهذي الروح إلا الخطابة؛ وكلما كان القائد أملاً لعنان القول مع أخذ الأهمية، كان أكثر انتصاراً، فالجهاد في سبيل الله فتح للخطابة باباً واسعاً.

ولاية الأمر:

كان أولياء الأمر يعنون بإطلاع المسلمين على سياستهم، ومنه حكمهم. ويتهنون التجمع، والأعياد، والمواسم، وعصواً موسم الحج، فرصة لذلك يبينون فيها ما يريدونه من طاعة في الحق، وكان كل خليفة بعد تصام بيته، يتقدم لجماعة المسلمين، وبين ما سيأخذهم به، وما يدعوهم إليه، كذلك فعل أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وكان الولاة والعمال يسبغون على ذلك النهج، يبينون للرعية ما سيقبلونه في حكمهم، وسلوكه في إرشادهم، وفي كل ذلك إحياء للخطابة ونشرها، ورفع لعمدها.

الدعوة إلى الوحدة:

كانت الدعوة إلى الوحدة الإسلامية غرضاً مقصوداً من أغراض الخطابة، وداعياً حافزاً من دواعيها، فقد كانت الوسيلة لجمع المسلمين إذا تفرقوا، بها ترجع النفوس الشاردة، وتلتئم الجراح النافرة، وتهب القلوب الشائرة. وقد حدث في عصر النبي ﷺ ما هدد الوحدة الإسلامية، لولا هدي المصطفى، كما حدث في توزيع الغنائم بعد حرب هوازن؛ فقد حل في نفوس الأنصار أن لم يأخذوا منها شيئاً، وسرت الفتنة منهم بذلك، فوقف عليه الصلاة والسلام خطيباً. ورد نفوسهم الشاردة إلى نور الحق المبين. وقد كادت تمزق الجماعة الإسلامية بعد وفاة النبي ﷺ، فذهب ريع المسلمين باختلافهم، حتى كاد الأنصار يولون عليهم خليفة، والمهاجرون مثله، لولا حكمة أبي بكر في خطبته، وعزمة عمر، وكانت الخطابة هي الباسم الثاني، والدواء الناجع، عندنا تطيش أحلام، وتهيج نفوس.

الفتن الداخلية:

لم تستمر الوحدة الإسلامية وإرقة الظلال أمدا طويلا، فقد نبئت الفتن في عصر الخليفة الثالث، واضطربت بها مراحل القلوب، حتى أنتجت نتائجها، وأثمرت لمراتها، وكانت أولاها نفس ذلك الخليفة الشهيد، ولم تذهب الفتن برأسه، بل تشتعت الإحن، واشتدت الحزن من بعده، وانقسم المسلمون في عهد الخليفة الرابع إلى أنصار له وأنصار لمخالفه، ثم خرج من بين الصفوف بعد حرب صفين من أتكر على الفريقين خطتهما، فكان المسلمون بذلك أحزابا ثلاثة: حزب مع أمير المؤمنين علي، وحزب مع معاوية الخارج عليه، وحزب خارج على الفريقين، وكل له أنصار من الخطباء المصالح، يؤيد فكرته، ويتصر دعوته، وعلى سيد خطباء تلك الفترة، انفتق لسانه بالبيان الرائع، والقول السليغ، والحكمة الخالقة، حتى أورت الأختلاف طائفة من الخطب، هي نهج البيان، ومشروع الحكمة، ونور الحق، ووضح الحقيقة.

وإذا كانت الخطابة قد وجدت في العصر الجاهلي حياة تناسبها لأنها وجدت العربي بحيا حياة غروسية، فقد وجدت في الحياة الإسلامية لها حياة أنسب، إذ أن العرب كونوا فيها لهم دولة تستظل بظل الدين، وتجد في الإيثار والتفوى والإيمان روحاً وقوة وثيقاً. وكانت تلك الدولة تنور عليها الزواجر العاتية، والريح العاصفة، فيبصر الخطباء، للمنافحة والمنافعة، والمجاهدة والمصاهرة، وكلما اشتدت الحومة كانت الخطب ليراناً متأججة. أو برداً وسلاماً، ترد القضب إلى الأجفان، والقلوب النافرة إلى الاطمئنان.

عوامل رقي الخطابة

وجدت الخطابة في البيئة الإسلامية عوامل رقي، وأسباب تقدم ونمو، فقد كانت حياة العربي خصبة بالتفوى والإيثار وقوة الروح، أحس بأن ملك كسرى يتزلزل تحت سيفه، وقبصر ينكمش فراراً من قوته. وذلك للدين الذي تورد على قلبه، فإنه هو الذي أوجد تلك القوة التي تدكدك العروش، وتزلزل القلوب، وتجعل من ساكن الصحراء حاكماً لفارس وملك الروم في الشرق.

وإذا كانت الخطابة كما أسلفنا، تستمد قوتها من النفس، فلا بد أن نذكر الأمور التي كانت في تلك الحياة، وضحت النفوس غذاء نمت به الخطابة، وازدهرت، وقويت، ونهضت، وأعظم تلك الأمور شأناً، وأجلها في حياة العرب خطراً، وفي الخطابة أثراً.

القرآن الكريم:

جاء القرآن الكريم، فبهز النفس العربية وأصاب شفافها، وقد تحدى أعظم البلغاء فيهم، أن يأتوا بسورة منه ولو مفتراة، فمعجزوا أن يأتوا.

وقد قال الجاحظ في إعجازه: بعث الله محمدا ﷺ، في زمن، أكثر ما كانت العرب شاعرا وخطيبا، وأحكم ما كانت لغة، وأشد ما كانت عدة، فدعا أقصاها وأحقاها إلى توحيد الله، وتصديق رسالته، فدعاهم بالحجة، فلما قطع العذر وأزال الشبهة وصار الذي يمنعهم من الإقرار للهوى والحمية، دون الجهل والحيرة، حملهم على حفظهم بالسيف، فنصب لهم المحرب، ونصبوا له، وقتل من عليتهم وأعمامهم وبنى أعمامهم، وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن الكريم ويدعوهم صباحا ومساء إلى معارضته إن كان كاذبا، بسورة واحدة أو بآيات بسيرة، فكلما ازداد تخليا لهم بها وتقريرا بمعجزهم عنها، قالوا: أنت نعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف، فلذلك يمكنك ما لا يمكننا، قال: فهاتوا، ولو مفتريات، فلم يرم ذلك خطيب، ولا طمع فيه شاعر، ولو تكلفه لظهر ذلك، ولو ظهر لوجد من يستجده، ويحامي عليه، ويكابر فيه، ويؤزم أنه قد عارض وناقض، فدل ذلك العاقل على عجز القوم مع كثرة كلامهم، وسهولة ذلك عليهم، وكثرة شعرائهم، وكثرة من هجاء منهم، وعارض الشعراء من أصحابه، والخطباء من أمته، لأن سورة واحدة، وآيات بسيرة، كانت أنقض لقوله، وأبلغ في تكذيبه، وأسرع في تفريق أتباعه، من يذل النفوس، والخروج عن الأوطان، وإنفاق الأموال، وهذا من جليل التدبير الذي لا يخفى على من هو دون قريش والعرب، في الرأي والفضل بطبقات، ولهم القصيد المحجيب، والرجز الفاخر، والخطب الطوال البليغة، والقصار الموجزة، ولهم الأسجاع واللفظ المشهور، ثم يتحدى به أقصاهم بعد أن ظهر عجز أدناهم، ومحال أن يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط في الأمر الظاهر، والخطاب المكشوف البين، مع التسريع بالتقصير والتوقيف على العجز، وهم أشد الخلق أنفة، وأكثرهم مفاخرة، والكلام سيد أعمالهم، وقد احتاجوا إليه، والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر الغامض، فكيف بالظاهر الجليل المنفعة، وكما أنه محال أن يطبقوه ثلاثا وعشرين سنة، على الغلط في الأمر الجليل المنفعة، فكل ذلك محال أن يتركوه، وهم يعرفونه، ويجدون السبيل وهم يبدلون أكثر منه^(١) انه بتصرف قليل.

(١) منقول عن الإنفاذ في علوم القرآن للسيوطي ج ٢ ص ١١٨.

وإذا كان أثر القرآن الكريم في مناوئيه، وهم قوم خصصون، هو ما علمت من تحير ودهشة وعجز، بل إعجاب يخفيه الغرض ومرض النفس بالشرك والعناد والمخالفة، فكيف يكون أثره في الآخذين بهديه، المقتبسين من نوره؟ لقد أثر القرآن الكريم فيهم أبلغ تأثير، وأفادت الخطابة أعظم فائدة، وجنت منه أكبر الثمرات، وقد كانت فائدتها من ناحيتين:

إحداهما: مما اكتسبته اللغة من القرآن الكريم،

(أ) فقد أكسبها سعة في المعنى، إذ ند أنى بمعان لم يتورد العرب من قبل مواردها؛ كانوا قوماً حسيين، ولغتهم حسية، فجاء القرآن الكريم، وحدث عن النفوس ووصفها، فأحسن وصفها؛ حلل نفس الضال وعلة ضلاله، ونفس المهتدى وعريق اعتدائه؛ صور تقلبات القلوب وخلجات النفوس، وما يلازم في المشاعر، فدعا ذلك المسلمين إلى الاعتراف من منهله العذب، وشاعت بينهم الأقوال في الأمور المعنوية، وسمت اللغة العربية إلى مستوى ما كان يتجهى لها بغير القرآن الكريم، وأثر القول في الأمور المعنوية وحسن تصويرها في الخطابة جلي لا يحتاج إلى تبيان.

(ب) وقد جاء القرآن الكريم في لفظ سهل متين، خال من الألفاظ الخشنة الجافة، يصل إلى الأغراض من أقرب مسالكها؛ فأعجب بذلك قارئوه وسامعوه، فحاكوه في نهج، وإن لم يسموه في قدره، وبهذيت به اللغة أتم تهذيب، فسهلت عباراتها، وركت أساليبها، واستأنست ألفاظها، إذ سن لها نوعاً من التعبير لم تهجه، فكان فتحاً جديداً فيها بألفاظه وأسلوبه، كما كان فتحاً جديداً في العالم كله، بهديه ونقوبه وتأثيره. وأثر ذلك في ألفاظ الخطابة واضح غير خفى.

ثانيهما:

أن الخطباء قد أخذوا يتهجون منهج القرآن الكريم في الاستدلال، إذ وجدوا فيه أبلغ طرق الإنتاج الخطابي، فقد اجتمع في أدلة القرآن الكريم ما لا يمكن أن يجتمع في أدلة سواها، إذ تجدد فيها استقامة المعنى، إذا قسته بمقياس المنطق، فتجد المقدمات قد تلاءمت مع نتائجها، وتوافرت فيها شروط الإنتاج، كما تجدد فيها جمال اللفظ، وجودة الأسلوب، ومخاطبة الإحساس، وإثارة الرغبة. اقرأ قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا، فسبحان الله رب العرش عما يصفون﴾ تجد الدقة المنطقية وجمال اللفظ، ومخاطبة الوجدان، قد اجتمعت مع حسن الإيجاز فتعالت كلمات الله سبحانه وتعالى.

وجد الخطباء في القرآن الكريم ذلك، فوجدوا فيه معلما لطرق الإقناع والاستدلال، لا يقاضيههم أجرا، فتأثروا طريقتهم، واقتبسوا من هيأولته، وشاع بينهم الاقتباس منه، حتى كان من مزايا الخطبة أن تكون مشتملة على شيء من القرآن الكريم.

قال الجاحظ: كانوا يسمون الخطبة التي لم توضح بالقرآن الكريم، وتزين بالصلاة على النبي ﷺ بالشوهاد، ففى الحق وجد الخطباء المثل الأعلى في الكتاب العزيز، فتهجروا نهجه في الإقناع، وإقامة الحجة، واقتبسوا من لفظه، واستعانوا بروحه، فحيوا في بلاغتهم وخطبهم حياة جديدة.

الحديث النبوي الشريف:

كلام النبي ﷺ هو الكلام الذي يلى منزلة القرآن الكريم احتراما وإجلالا، وقد اجتمعت فيه فصاحة اللفظ وجودة المعنى وحسن الأداء، بلغ من البلاغة الدرورة، ووصل من الروعة إلى القمة، هو جوامع الكلم، وفيه روائع الحكم، هو القول القليل، لا فضول فيه ولا تزيد، أخذ من القرآن الكريم، وأوصى إليه به الرحمن، لكلامه جلال لا تجده في سواه، وتحيط به حالة روحية، تحس منها بشعاع النبوة، ولو أن كلامه عرض عليك منسوباً لغيره لأكثر النسبة، ورددت الحق إلى نصابه، وقد أثار ذلك روح العجب والإعجاب في أصحابه، حتى قال له أبو بكر رضي الله عنه: لقد طفت في العرب، وسمعت فصحاءهم، فما سمعت أفصح منك، فمن أدبك؟ فقال عليه الصلاة والسلام: أدبني ربي، فأحسن تأديبي.

وقد قال الجاحظ في وصف كلامه ﷺ: هو الكلام الذي قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنعة، ولزه عن التكلف، وكان كما قال الله تبارك وتعالى: «قل (يا محمد) وما أنا من المتكلفين»، فكيف وقد عاب التشديق، وجانب أصحاب التقدير، استعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصود في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام حف بالعصمة، وشيد بالتأييد، وسر بالتوفيق، وهذا الكلام الذي ألقى الله المحبة عليه وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام، وقلة عدد الكلام، وهو مع استغنائاه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة، ولا زلت له قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يند الخطب الطوال بالكلام القصير، ولا يلمس إسكات

الخصم إلا بما يعرفه الخصم ولا يحتاج إلا بالصدق، ولا يطلب القطع^(١) إلا بالحق، ولا يستعين بالخلابة^(٢) ولا يستعمل المزاوية، ولا يهجر ولا يلزم^(٣) ولا يبطئ ولا يعجل، ولا يسهب ولا يحصر. ثم لم يسمع الناس بكلام أحم نفعاً، ولا أحسن لفظاً، ولا أعلل وزناً، ولا أجعل ملهياً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح عن معناه، ولا أبين عن فحواه من كلامه ﷺ. ثم قال بعد ذلك: ولعل بعض من لم يتسع لى العلم، ولم يعرف مقادير الكلام، يظن أننا تكلفنا له من الاستباح والتشريف ومن التزيين والتجويد، ما ليس عنده ولا يبلغ قدره. كلا! والذي حرم التزهد على العلماء، وقبح التكلف عند الحكماء، وبهرج^(٤) الكلبيين عند الفقهاء، لا يظن هذا إلا من ضل سعيه.

وقد كان للحديث أثران في الخطابة:

أحدهما: من ناحية تأثيره في اللغة:

(أ) لأن الحديث أضاف إلى اللغة ثروة من المعاني، وثروة من الأساليب، التي كانت تعد من النبي ﷺ ابتداءً وابتكاراً مثل قوله: «حمى الوطيس»، ومثل قوله عليه الصلاة والسلام «المضعف أمير الركب»، وقوله: «مات حتف أنفه»، وقوله: «هدنة على دخن»، وقوله: «لا يتطحن فيه غتران» وقوله عليه الصلاة والسلام «لن ساق إلا لا يعنف، وعليها نساء» (رواهك رفقاً بالقوارير).

(ب) ولأن الحديث هذب اللغة تهنئاً قريباً من تهذيب القرآن الكريم إذ سهل ألفاظها، ورفق أساليبها وذهب بالحوشي منها، فكان لكل هذا أثره في الخطابة؛ لأنها شعبة الأدب الأولى في ذلك العصر، بل أعظم شعبه وأظهر مظاهره.

ثانيهما:

أن كثيراً من الخطباء كان يربط لسانه في خطبه بشيء مما أقر عن الرسول ﷺ، تبعاً بقوله، واسترواحاً للسامعين وليكسبوا كلامهم روعة، وليستشهدوا بكلام الرسول ﷺ على صحة ما يدعون، وإذا علمت أن أكثر الخطب في ذلك العصر، كانت تدور على مبادئ الدين قوامها، علمت مقدار عنايتهم برواية أحاديث رسول الله ﷺ، والاستشهاد بها في خطبهم؛ فإن

(١) الفلج: للظفر والفوز.

(٢) الخلابة: الخلية في القل.

(٣) يلزم: معناه يختاب.

(٤) بهرج: معناه أعمل.

الحديث إذا صح عندهم كان فيه فصل الخطاب، واعتقدوا أن الخطيب يرواينه يصيب محر الصواب.

الحضارة:

أخذت الحضارة تغزو نفوس أولئك البدو، ولكنها لم تستول عليها استيلاء تاماً كما علمت، فاجتمعت فيهم قوة البدوى ونخوته وبعض دماء الحضارى ورفقه، وقد علمت أسباب ذلك فيما بيناه من شرح أحوالهم الاجتماعية وبقي أن نعرف أثر ذلك فى خطبهم.

أكسبتهم تلك الحضارة، سهولة فى التعبير لم تكن فيهم، إذ هذبت من طباعهم، وقللت من جفوتهم وخشوتهم، فلانت من غير ضعف وابتدال عباراتهم، كما أكسبتهم سعة الخيال، وغزارة فى المعانى وعرفانا تاما بما تقتضيه الأحوال، وقد أكسبهم اختلاطهم بالأمم، وهم ذوو الذكاء الفطرى والفراسة، معرفة كثيرة بأحوال النفوس فاستخدموا كل ذلك فى خطبهم، وهدت غزيرة المعانى متنوعة الموضوعات، وافية فيما يقصد إليه الخطيب من غرض، وما يتجه إليه من هدف ومرمى.

تكوين حكومة نظامية:

كان تكوين الحكومة الإسلامية عاملاً عظيماً من عوامل اتساع موضوعات الخطابة، فقد كانت هى أداة اتصال الحاكمين بالحكومين، بها اتصل الخلق بالشعب فى خطبهم العامة، وبها اتصل الولاة فى الأقاليم بمن يحكمونهم، بين هؤلاء وأولئك ما يريدون أن يكون المحكومون عليه من طاعة فى الحق والإرشاد للحاكم من غير تمرد أو عصيان.

الوعظ الدينى:

كان الوعظ الدينى له الشأن الأول، لأن الدين كان أساس وحدثهم، وجامع كلمتهم، ومكون دولتهم، ولذلك كان له الاعتبار الأول، وقد حث الإسلام على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وجعله قوام هذه الأمة، ومناط عزها، وطريق ارتقاها، قال تعالى: ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾، وقد كانت الخطبة فرضاً فى الجمعة لذلك الفرض، فكان للخطابة من ذلك المبدأ الدينى السامى، مبدأ التواصى بالحق، والتناهى عن الشر، رقى أى رقى، وسمو عظيم إذ جعلت من شعائر الدين ومظاهره القويمة.

الألفاظ والأساليب والمعاني

(أ) الألفاظ:

صفت ألفاظ الخطابة، وسهلت، وركت وعذبت؛ وذلك لتأثيرهم بالقرآن الكريم، واقتفاءهم طريقه، وسلوكهم سبيله؛ إذ رآه المثل الأعلى للكلام، فحاكوه، وإن لم يتساموا إليه، ولأن نفوسهم هذبت، ولأن الإسلام من جفوتها ونهته من شدتها، وبطنها مكان القسوة رحمة، ومكان العنف رفقاً، حتى إن الرجل الذي كان يقد ابتته، فلا يندق قلبه لها بعطف؛ أصبح بالإسلام يسمع كلمة الحق، فتتحدّر عبرته، وتذوب نفسه حسرات؛ وإذا رقت النفس وسهلت، لا يصدر عنها إلا العذب السهل من الألفاظ؛ فإن الكلمات صورة حية للنفس التي تجيش بها، ولأن الله سبحانه أودعهم ملك كسرى وقبصر، فجاءتهم الغنائم، وأصبحوا فاكهين في نعيم، بعد أن كانوا في شظف من العيش، وخشونة من الحياة. ولقد قال عليفة رسول الله ﷺ متبساً بما يكون: والله لتألمن النوم على الصوف الأذري، كما يألم أحدكم النوم على حبل السمك. وقد كان أن نال العرب من نعيم الحياة أشطراً، بعد أن ذاقوا من الشقوة أبيوساً. وتلك الحال التي تنبأ بها ذلك الإمام العظيم، لم تدم في ذلك العصر، وإن أخذت خطواتها فيه.

وإذا كان العربي قد ذاق هذا النعيم، ورأى مناظر الترف، وعاش في مشاهد، فلا بد أن تلين ألفاظه، وتسهل عبارته، لأن الألفاظ صورة لما يألفه القائل، ويعرفه المتكلم.

٢ . ولقد ذهب من الألفاظ الغريب الحوشي لاجتماع العرب على لغة واحدة هي لغة قريش، وذهاب اللغات الأخرى، فلم يبق منها إلا القادر من الألفاظ والأساليب؛ ولأن الخطابة كان عمادها في الإسلام المأثور المكشوف؛ لأن الغاية كانت، إما إفهام السنن والأحكام والشرائع، وإما الحث على الجهاد، وإما المشاورة وإبداء الرأي والنصيحة للإمام، وكل هذا يقتضى الوضوح والسهولة.

وكانوا بمقتضى تعاليم الإسلام أبعد الناس عن الإغراب والتعسر، والتفهي والتشادق، فقد قال عليه الصلاة والسلام، «أبغضكم إلى الثرثارون المتفهبون»؛ لذلك كان المسلمون يميلون إلى التكلم في خطبهم بكلام يشبه الكلام العادي في سهولته، وعدم تكلفه، ولولا انسجام في التعبير، ولولا التحميد والبسطة والثناء على النبي ﷺ، وغير ذلك من الأمور التي اختصت بها الخطبة، كما ينبغي إن شاء الله تعالى.

المعاني:

إن المعاني الخطابية ملكت مسلكاً يتفق مع الحياة الإسلامية في مظاهرها التي سبق بيانها، إذ أن تلك الحياة هي التي وجهت الخطابة وجهتها، وهي التي استوحيت الخطابة منها معانيها.

وقد كانت المعاني دينية، فخطبهم في الحروب، دعوة إلى مرضاة الله سبحانه وتعالى، وإعلاء لكلمته، رفع لدينه، ونظر لدعوته، وخطبهم في الشورى صورة لفهمهم الدين، كل يدلي بالرأى ويربط دعواه بالمبادئ الدينية. وخطبهم في الاجتماع والألفة أدلتهم فيها القرآن الكريم والسنة، والمبادئ الإسلامية المعروفة من الدين بالضرورة. وهكذا كل أغراضهم الخطابية، الدين فيها قطب الرحي، وعليه يدور كلامهم، وفيه يخلقون، وبه يتفقون، وذلك لأن الدين قد تغلغل في كل مظاهر حياتهم، كما أسلفنا لك، وكان هو المسيطر على ضمائرهم، والقانون المخلق الذي إليه يحتكمون، والشرع الذي على مقتضاه يسبرون، ولأن كتاب الله وسنة رسوله، كانا ينبوع المعرفة الذي إليه يردون، وعنه يصدرون، فلم يكن لهم علم إلا علم الكتاب، ولا معرفة إلا من سنة رسول الله ﷺ وهديه، فلا عجب إذا صارت معاني الخطابة كلها دينية خالصة.

وقد كان الخطباء يسلكون في الاستدلال الخطابي الطريق المنطقي، والطريق الوجداني، وذلك لتأثيرهم طريق القرآن الكريم في الاستدلال وأخذهم من معانيه، ونيلهم من هديه، إذ كان المثال الذي يحدوه، والمثار الذي يهتدون به.

واقراً خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه في سقيفة بني ساعدة، تر فيها الدليل المنطقي، قد التقى مع الدليل الوجداني، وأحكمت الأواصر بينهما، من غير أن يطنى أحدهما على الآخر، واقراً خطب المفاروق عمر رضي الله عنه في شuraa، وخطب من يوافقونه، أو يردون عليه، تر الحقائق المنطقية، قد صيغت في قالب ديني يثير الوجدان، ويوقظ العاطفة، ويلهب الحمية، وهكذا في كل أغراضهم البينانية، لأن حماسة الدين تجتمع مع الحقيقة، فتعدها بحرارة الإيمان ويقظة الوجدان، وقوة الإحساس.

وكانت المعاني لما سبق قوة التأثير فيمن يخاطبون، إذ توافرت فيها شروطه. وتكاملت أسبابه، وهما الدقة في الفكر والاستنباط، وإثارة العاطفة، وإنهاض العزيمة.

وكانت المعاني سلسلة متصلة الأجزاء، محكمة الأواصر، ولم تكن متشعبة، كما كانت في العصر الجاهلي، ولعل السبب في ذلك اجتهادهم في صوغ كلامهم صياغة استدلالية، ليشرح النتائج التي يريدونها، واتساع معلوماتهم بسبب ذلك الدين الجديد، ووحدة الغرض الذي جعلوه هدفاً لكلامهم، يصوبونه إليه؛ لينالوه، وإليك لثري ذلك الإحكام، وهذا التماسك واضحاً في أكثر خطب ذلك العصر، وخصوصاً خطب الإمام علي رضي الله عنه، واقرأ خطبته عندما امتسار الفاروق عمر العصابة في غزوه فارس بنفسه، تر التماسك بين أجزاء القول، وأخذ بعضه بحجز بعض، ووضوحاً كل الوضوح!

وعدم المبالغة والإغراق واضح كل الوضوح في الخطابة الإسلامية؛ ذلك لأن الخطباء الإسلاميين من العرب الذين امتازوا بالبصراحة والصدق، وهما صفتان تتنافيان مع المبالغة والإغراق، ثم هم قد امتازوا باستقامة الفكر، وسلامة النفس، والإغراق ليس إلا مظهراً للشطط الفكري، ومجازة حد الاعتدال البهائي، وهو من نوع التفهيق الذي نهى عنه الدين، ولهذا باعدوه، وتحافوا عنه؛ لأنه لا يتفق مع الهدى القويم، والسنن المستقيم.

الأسلوب:

إن الأسلوب الخطابي في العصر الإسلامي بلغ من الإحكام مبلغاً مما عن أن يحاكيه فيه عصر من عصور اللغة، أو نهدي إليه خطباء أي زمن سابق أو لاحق لذلك العصر.

وأول ما يلاحظه القارئ لخطب ذلك العصر أن الخطبة صارت مجزأة ومقسمة، كل قسم يلحق سابقه، تبتدئ بمقدمة فيها يحمد الخطيب الله سبحانه وتعالى، ويثنى عليه بما هو أهله، ويصلي على النبي ﷺ، ثم يهجم على الموضوع، فيقدم ما يراه دليلاً لدعوته، وبرهاناً لما يراه، وبعد أن يتم القول فيه، ويوفى على الغرض يتوجه إلى الله سبحانه وتعالى، يدعو أن يوفقه إلى الرشاد ويلهمه السداد. وبعض الخطباء صيغة دعاء يختم بها قوله. قال ابن عبد ربه: كان آخر كلام أبي بكر الذي إذا تكلم به عرف أنه قد فرغ من خطبته: اللهم اجعل خير زمني آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاك.

وكان آخر كلام عمر الذي إذا تكلم به عرف أنه قد فرغ من خطبته: اللهم لا تدعني في ضمرة، ولا تجعلني من الغافلين.

وقد أكثر الخطباء من الاقتباس من القرآن الكريم، والاستشهاد به، والاستدلال بالآثار عن النبي ﷺ، يعملون إلى الحديث، فينهلون من نعيه، ويجهون إلى الآية القرآنية ويرطبون

بها كلامهم، فيكون فيها فصل الخطاب، وقطع كل جواب واعتراض، وإذا علمت أن كل معاليهم دينية، علمت مقدار قوة الحديث الشريف والقرآن الكريم في استدلالهم، وفصلهم في خصوصياتهم، ففيهما فصل الثغرة بين الحق والباطل، وصحيح الآراء وسقيمها.

وفوق ذلك، فالكتاب الكريم، والحديث النبوي الشريف، فيهما من البلاغة والفصاحة والروعة واللفظ الجزل والأسلوب الرائع، والحكم من المعاني ما علمت، فانجذبوا إلى الاقتباس منهما؛ ليكسبوا كلامهم طلاوة وليعطوه حلاوة، وليقبسوا من القرآن الكريم والحديث الشريف قوة في التأثير، ورياء في الأذان، وروية في القلوب، وجمالاً في الأنس، وبهجة في المشاعر، وقد نعلو الآية القرآنية بالخطبة فترفعها إلى الذروة من البيان والقمة من التأثير، ويلوغ المقصد من أقصر طريق، وأقرب مهيع، ولذا أكثر الخطباء من الاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، حتى صار ذلك عرفاً شائعاً.

وقد نقلنا آنفاً عن الجاحظ ما حكى من أن الخطبة تسمى شوعاء، إذا لم تحمل بآية من كتاب الله سبحانه وتعالى.

وقال في مقام آخر: كانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل، وفي الكلام يوم الجمع، أي من القرآن الكريم؛ فإن ذلك مما يوثق الكلام البهاء والوقار والرفعة وحسن الموقع.

وفوق أنهم كانوا يستشهدون ويقبسون من القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة قد أخذوا يحاكيونها في مناهجها الكلامية، ويسهرون سيرهما من غير تسام إلى منزلتهما البلاغية، وذلك طبعي، فإن الإنسان إذا وجد أمامه مثلاً كاملاً، اجتهد في محاكاته، وإن لم يبلغ مبلغه، ولم يصل شأوه.

وقد تحمل الخطب أحياناً بآيات من الشعر تناسب المقام، وتتصل بالموضوع، كما فعل أبو بكر رضي الله عنه في خطبته في الأنصار، إذ قال:

يا معشر الأنصار، لو شعتم أن تقولوا: إنا آويناكم في ظلالنا، وشاطرناكم في أموالنا، ونصرناكم بأنفسنا، لقلتم؛ وإن لكم من الفضل ما لا يحصى العدد، وإن طال به الأمد، فنحن وأنتم كما قال طهليل الغنوي يشكر جعفر:

جزى الله عنا جعفرًا حين أولقت	بنا نعلينا في الواطمين غرلت
أبوا أن يملونا ولو أن أمنا	تلاقى الذي يلقون منا مللت
هم أسكنونا في ظلال بيوتهم	ظلال بيوت أدفأت وأظلت

عدم التكلف، وكافوا لا يعتمدون في خطبهم إلى التحسين والتزيين، ولا يكاد يمتاز كثير من خطبهم عن لغة التخاطب، إلا بهذه العناية التي يقصد إليها الإنسان عندما يريد اجتذاب السامعين إلى فكرة أو مذهب أو رأى، ولم يكن الذوق العام الأدبي في ذلك العصر يجيز تكلف التحسين.

ويروى أن الأحنف بن قيس وفد على عمر بن الخطاب، فتكلم بكلام غلاب ذهب فيه كل مذهب، فكان جزاؤه عنده أن حيمه عن الرجوع إلى بلده حولاً ومضعة أشهر، ثم دعاه إليه وقال: إن رسول الله ﷺ حذرنا كل منافق صنع اللسان، وإنى نخفتك، فاحتبستك، فلم يبلغنى منك إلا خير.

وللرغبة في عدم التكلف والتزيين نهى النبي ﷺ عن التشادق، والتغيهق، وسجع الكهان.

وقد قل السجع في ذلك العصر، لأن النفس العربية الأمية كما بينا كانت تميل إلى عدم التكلف والصنعة. وزاد الخطفاء اعتماداً عن السجع نهى النبي ﷺ عن سجع الكهان، فقد جاء في البيان والتبيين للجاحظ: قالوا: فقد قيل للذي قاله رسول الله ﷺ: أرأيت من لا شرب ولا أكل، ولا صاح فاستهل، أليس مثل ذلك يظل. فقال رسول الله ﷺ: أسجع كمسجع الكهان. وقد كان السبب في نهى النبي ﷺ عن هذا النوع من السجع فوق أنه تكلف كما ذكره الجاحظ في قوله: إن كهان العرب كان أكثر أهل الجاهلية يتحاكمون إليهم، وكانوا يدعون الكهانة، وإن مع كل واحد منهم ركباً من الجن... قالوا فوقع النهي في ذلك، ففرب عهدهم بالجاهلية ولقيتها فيهم، وفي صلور كثير منهم، فلما زالت العلة زال التحريم.

هذا وقد رأينا في نهج البلاغة المنسوب إلى الإمام علي رضي الله عنه سجعاً كثيراً فشك كثير من الأدباء في نسبته إلى الإمام علي إذ رأى الخطيب ذات السجع الكثير المشتغل عليها ذلك الكتاب لا تتفق مع المعروف من عدم التكلف في ذلك العصر، وعدم القصد إلى تخمين الكلام تحسناً متكلفاً كما لا يتفق مع ما عرف عنهم من قلة السجع في خطبهم، وعاب بعض الأدباء المتعصبين على علي كرم الله وجهه ذلك السجع؛ لانتفاص من فضله، وقد رد عليهم ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة، فقد جاء فيه: فأما قولهم إن السجع يدل على التكلف فإن المعلوم هو التكلف الذي تظهر سماجته وقلة السامعين. فأما التكلف المستحسن، فأى عيب فيه؛ ألا ترى أن الشعر نفسه لا بد فيه من تكلف إقامة الوزن، وليس لطاعن أن يطعن

فيه بذلك... وقد بينا أن كثيراً من كلامه (ﷺ) مسجوع، وذكرنا خطبته (خطبة الوداع)، ومن كلامه عليه الصلاة والسلام المسجوع خبر ابن مسعود، رحمه الله تعالى، قال: قال رسول الله ﷺ وآله: استحيوا من الله حق الحياء؛ فقلنا إنا لنستحيى بأمر رسول الله من الله تعالى، فقال: ليس ذلك ما أمرتكم به، وإنما الاستحياء من الله أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا.

ومن كلامه المشهور لما قدم المدينة المنورة عليه الصلاة والسلام أول قدمه إليها قال: أيها الناس أنفثوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام. ونحن نوافق في أن السجع القبيح ما كان التكلف فيه واضحاً يظهر سماجته، ولكن نخالفه في أن كثيراً من كلام الرسول ﷺ كان مسجوعاً؛ فإن ذلك هو القليل؛ إذ أن خطبه ﷺ بين أيدينا وأحاديثه قد جمعتها كتب السنة الصحيحة، فهل يستطيع أحد أن يدعي أن السجع يصل في كلامه عليه الصلاة والسلام إلى عشره، حتى يصح أن يقال إن السجع كان كثيراً، بل الأغرب والأكثر عجباً أن يقول ابن أبي الحديد إنه في أكثر خطبه ﷺ.

فإن الحق الذي أجمع عليه مؤرخو الآداب أن السجع قليل في خطب ذلك العصر، وأن تلك القلة واضحة في خطب النبي عليه الصلاة والسلام وفي كلامه، والحكم الذي لا ترد حكومته هو الرجوع إلى ما أثر عنه عليه الصلاة والسلام، والموازنة بين مقدار المسجوع وغير المسجوع، فنجد حتماً أن المسجوع قل، والكثرة غير مسجوعة.

طول الخطب وقصرها:

أكثر الخطب المروية عن هذا العصر قصير لا طويل، فيه الإيجاز أظهر من الإطناب، ولعل هذا الموجز جزء من خطبة طويلة حفظ هذا الجزء، وتبعثر الباقي في الأسماع، أو لعل الموجز من الخطب هو الذي استطاع أن يحفظه الراوي، لسهولة حفظه وجوده أكثر من سواه؛ لأن رواية الخطب في هذا العصر كسابقه، كان المعول فيها على الرواية السماعية، لا على الكتابة؛ إذ لم تكن الكتابة قد انتشرت، ولأن الخطباء لم يعتمدوا إلى كتابة خطبهم، ولم يعتمد الناس إلى كتابتها، لعدم اعتيادهم ذلك، ومع هذا ففي المروى خطب طويلة كخطبة حجة الوداع المذكورة إلى النبي ﷺ، وكثير من خطب الإمام علي رضي الله عنه التي صحت نسبتها إليه، وبعض خطب الشهيد المقتول عثمان رضي الله عنه عندما اندلعت نيران الفتنة واشتعلت، وخطب الفاروق عمر رضي الله عنه في بعض شوره، وخطبته في أرض سواد

المعراق، وكل هذا يثبت أن الخطب في ذلك العصر فيها القصير، وفيها الطويل، وقد كانوا يضحون الأمور في موضعها، فلا يطيلون في غير مواضع الطويل، ولا يوجزون في غير مواضع الإيجاز، وهم في الحقيقة أسبل إلى الإيجاز، أخذوا بأهذاب الدين، وتعمسوا بأوامره، ولا يطيلون إلا عندما تضطرهم الحاجة إلى الإطالة، ويحملهم الموضوع والمقام على الإطناب، فيطيلون غير مختارين، لأنهم كانوا يخشون أن يكون التطويل من باب احتياز المجالس، والعشاق، والتفهيق، والثرثرة المنتهى عنها، ولأن الإنسان كلماكثر لفظه أكثر سقطه، فيخافون السقط لأنهم ذروا القلوب النيرة، والنفوس المطمئنة.

يروي أن عمار بن عامر تكلم يوماً، فأوجز، فقبل له، لو زدتنا، فقال: أمرنا رسول الله ﷺ بإطالة الصلاة، وقصر الخطبة، وورد في وصية أبي بكر ليزيد بن أبي سفيان حين وجهه لفتح الشام قال: إذا وعظت جندك، فأوجز، فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً.

وسأني لك في اختار لصورتى الموجز والمطنب معاً.

الخطيب في صدر الإسلام

اتصف الخطيب الإسلامي بما اتصف به الخطيب الجاهلي من فصاحة بيان وجودة تعلق، وسداد رأي، ومراعاة لمقتضى الحال، رسمت ووقار، وقوة شخصية ونفوذ وقوة نفس، وقد كمل الإسلام هذه الصفات فيه، وزاده أخرى، فالخلفاء الراشدون، ومن لهم بهم شبه في الدين والإيمان، فيهم قوة النفس وقوة الروح بمقادير لا توزن بها أقدار الجاهليين، وحسبك أن تعلم أن قوة نفس أبي بكر رضي الله عنه، ونفوذه الشخصي، وما وهبه الله من قوة تأثير هي التي جمعت الوحدة الإسلامية إذ شارفت التمزق، وقد كان عمر لا يسير الشيطان في طريق يسير هو فيه، كما جاء في الأثر؛ لمهايته، وقوة نفسه، وعظم روحه، حكم العرب بالهيبة والدين، وردعهم بنفسه من غير سيف، ولا ما يشبه السيف، كان إذا لاحظ على أحد أمراً ضربه بدوته؛ فتفعل في نفسه ما لا يفعله السيف في الجسم، والمهاية على ما بينا أعظم ما يعاون الخطيب على اجتذاب النفوس إليه.

وقد زادوا بالإسلام علماء، إذ وجدوا في القرآن الكريم ينبوعاً علمياً لا ينضب، ووجدوا في السنة معيناً فكرياً لا يجف، واختلاطهم بالناس زادهم علماً بأحوال النفوس، وخبرة بمواضع التأثير، فعلم الخطيب الصحابي أنزر من علم الخطيب الجاهلي، وفكره أوسع، ونظره أشمل وأعم، وشتان بين هدى الجاهلية، وهدى الرحمن، وشتان بين عابد الأوثان، والخاضع للشيطان.

والخطيب الإسلامي قريب إلى النفوس، غير بعيد عنها، لأن أولئك القادة والصفوة المختارة من أصحاب النبي ﷺ، كانوا يحبون الله ويحبهم، وكانوا أدلة على المؤمنين أعز على الكافرين، ومن أحبه الله ألقى عليه محبة الناس، ومن تواضع مع المهابة وقوة النفس أحبه الناس، وهابوه، فيكون تأثيره فيهم أشد، وقوله أروع.

وكان الخطيب الإسلامي لتهديب الدين له، ومخالطة بشاشة الإيمان لنفسه، حلماً واسع الصدر؛ لا يضيق صدره بالحق حرجاء فلا يتمتع عن أخذ الحقيقة من أي قبيل، ولا يجد غضاضة في الرجوع إلى الحق إن وقع في الباطل، ومن كان شأنه كذلك تفعل كلامه بالقلوب ودخل على العواطف، لأن الناس يشقون من أنه لا ينطق إلا بما يجيش به صدره، وما يراه الحق، فيصدقونه، إذ خلا عن شبهة التكلف والرياء، وعن تهمة الملق والتناق.

كان الخطباء من أصحاب رسول الله ﷺ وهم قد اشتهروا بحبهم للغداة، فدوا رسول الله ﷺ بأنفسهم، وآثروه على كل عرض من أعراض الحياة، ورغبة من رغبات النفوس، قد أحبوا الله ورسوله أكثر من أنفسهم، وارتخصت أرواحهم في سبيل الله تعالى، وليس منهم إلا كل ندب محسوب نفسه لله ورسوله. كانوا كذلك في عهد النبي ﷺ، وكانوا كذلك من بعده، ومن كان شأنه كذلك وثقت به القلوب، وتعلقت به النفوس، والثقة بالخطيب تسهل وصول كلامه إلى مواضع التأثير في السامعين، فيصل كلامه إلى شغاف القلوب، ويفتح مغلقها.

والقول الجملي: أن الخطيب الإسلامي قد أدرع بصفات ترفعه إلى أسمى منازل خطباء العالم في كل العصور.

الخطباء والمروى من الخطب

كثير عند الخطباء النابغين في هذا العصر كثرة لا تعدلها كثرة في أي عصر من عصور الخطابة، وإمامهم سيد المتكلمين محمد ﷺ، وجوته منزلة أفواج من الخطباء، أولهم علي بن أبي طالب، ثم أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعبد الله بن عباس، وبلى هؤلاء كثيرون منهم عمر ابن معد يكرب الزبلي، ومن خطباء الشيعة صحبة بن صوحان وأبو الأسود، ومن خطباء الخوارج عبد الله بن وهب الراسبي، ويهذ بن عاصم الحاربي وغيرهم، وقد نوج هذا العصر بوجود عدد عظيم من النساء يجدن الخطبة والبيان، منهن السيدة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وسودة بنت عمارة، وأم الخير بنت الحريش، والزرقاء بنت عدى، وأم كلثوم بنت الإمام علي رضي الله عنهما، وغيرهن كثير.

ولم يكن المروى بمقدار كثرة الخطباء، وإن كان كثيرا في ذاته، وذلك لأن التعويل في الرواية كان على السماع، وقد يتبعثر في الآذان ما يعول فيه على السماع، ولا يصل إلى الأجيال، وهذه خطبة الوداع مع الحاجة إلى روايتها لما اشتملت عليه من الفرائع والأحكام، قد رويت بعدة روايات، اختلفت فيها بعض الألفاظ، وإذا كان ذلك هو الشأن في المروى عن النبي ﷺ، مع منزلة كلامه الشرعية والبلاغية، وله من الاعتبار والتقدير ما تعلم، فكيف يكون الشأن في كلام غيره، ممن لا يتسامى إلى منزلته ﷺ بيانا واحتمارا.

المختار من خطب هذا العصر

خطبة النبي ﷺ في الأنصار:

لما أعطى رسول الله ﷺ مغام حنين قريشاً والقبائل العربية، ولم يعط الأنصار شيئاً، حزنوا في أنفسهم، وقلنوا أنهم هاتوا على رسول الله ﷺ، حتى قال قائلهم: لئن والله رسول الله قومه، فدخل سعد بن عباد على رسول الله ﷺ. فقال له: يا رسول الله، إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم؛ لما صنعت في هذا الفتح الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار شيء. قال ﷺ: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ قال: يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي. قال: فاجمع لي قومك في الحظيرة^(١)، فخرج سعد فجمع الأنصار في تلك الحظيرة، فجاء رجال من المهاجرين، فتركهم، فدخلوا وجاء آخرون، فردهم، فلما اجتمعوا إليه، أياه سعد فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله، وأثنى عليه بالذي هو أهله، ثم قال: يا معشر الأنصار، ما قاله^(٢) قد بلغني عنكم، وموجدة وجدتموها في أنفسكم. ألكم تكلم ضللاً فهناكم الله؟ وعالة^(٣) فأخناكم الله؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا: بلى، لله ورسوله المن والفضل، فقال: ألا تحبوني يا معشر الأنصار. قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ورسوله المن والفضل، قال: أما والله لو شتمت لقتلتم، فصدقتهم، ولصدقتهم: أئمتنا مكلماً فصدقتك، ومخلولاً فتصبرناك، وطريداً فأؤثناك، وعائلاً فأسيناك. وجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة^(٤) من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشفاء والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رجالكم، فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً^(٥) لسلك شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار. فبكى القوم حتى أنفضوا^(٦) لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسماً وحظاً.

ثم انصرف رسول الله ﷺ.

(١) أرض عليها سور. وكانت حظيرة الأنصار بهولو مسجد الرسول ﷺ. (٢) ثقة: حديث الشرف.

(٣) عالة: جمع عائل وهو الكثير العيال قليل المال. (٤) اللعاعة: البقية البسيطة.

(٥) الشعب: طريق بين الجبلين. (٦) أنفض لحاهم: بلها.

خطبة الوداع

إن الحمد لله نحمده، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله. أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحسبكم على طاعة الله، وأستفتح بالذي هو خير.

أما بعد. أيها الناس، اسمعوا مني أيعن لکم، فإني لا أدري، لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا، في موقفى هذا، أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا هل بلغت. اللهم اشهد، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها. وإن ربا الجاهلية موضوع^(١) وأول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب. وإن دماء الجاهلية موضوعة، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. وإن مآثر^(٢) الجاهلية موضوعة، غير السلطنة، والسقاية. والعمد قود^(٣) وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر، وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس، إن الشيطان قد يس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنه رضى أن يطاع فيما سوى ذلك، مما تخفرون من أعمالكم. أيها الناس، إنما النسي^(٤) زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما، ويحرمونه عاما، ليواطئوا^(٥) عدة ما حرم الله، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم: ثلاثة متواليات، واحد فرد، ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب الذي بين جمادى وشعبان. ألا هل بلغت. اللهم، اشهد.

(١) موضوع يعني ساقط، فلا يؤدي الفرائد عن رأس المال لأن الربا معناه الزيادة.

(٢) المآثر جمع مأثرة ومآثر الجاهلية مفاعرها التي توظف ويرى حديثها وغيرها.

(٣) القود: قتل النفس بالنفس.

(٤) النسي: شهر كانت العرب تزيد لتفصل بين شهرى الحرم ذى الحجة والمحرم بشهر حلال.

(٥) ليواطئوا.

أيها الناس، إن لنسائكم عليكم حقاً، وإن لكم عليهن حقاً، لكم عليهن ألا يوطعن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحداً تكمهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأمنن بفاحشة، فإن فعلن، فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن^(١) وتهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن افتهين، وأمتعنكم، فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنسا النساء عندكم عوان^(٢)، لا يملكن لأنفسهن شيئاً، أعوذنموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله لا يملكن للنساء، واستوصوا بهن خيراً.

أيها الناس، إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم أعناق بعض، فأني قد تركت فؤكم ما إن أنزلتم به لن تضلوا. كتاب الله. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أبائكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى. ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال: فليبلغ الشاهد منكم الغائب. أيها الناس إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا يجوز وصية في أكثر من الثلث، والولد للفراش وللعاهر الحجر، من ادعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مولاه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل. والسلام عليكم ورحمة الله.

بعد خطبته ﷺ في مرض الموت

عن الفضل بن عباس قال: جاءني رسول الله ﷺ، فخرجت إليه، فوجدته موهوكاً قد حصب رأسه، فقال: خذ يدي يا فضل، فلتحت يده، حتى جلس على المنبر، ثم قال: ناد في الناس، فاجتمعوا إليه، فقال:

أما بعد. فيأي أيها الناس، أحمده إليكم الله الذي لا إله إلا هو، وإله قلد دنا مني خفوق^(٣) من بين أظهركم، فمن كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري، فليستقد منه، ومن كنت شمت له عرضاً، فهذا عرضي فليستقد منه، ومن أنطت له مالا، فهذا مالي، فليأخذ منه، ولا يخش الشحاء من قبلي، فإنها ليست من شأني، ألا وإن أحيكم إلى من أخذ مني حقاً

(١) المراد بالعطل هنا للمنع الشديد.

(٢) العواني جمع عالية والمعنى أسيرة.

(٣) الخفوق هنا الغياب.

إن كان له، أو خلقتي، فلقيت ربي وأنا طيب النفس، وقد أرى أن هذا خير من حتى، حتى أقوم فيكم مرارا.

خطبة سعد بن عباد في سقيفة بني ساعدة

يبين حق الأنصار في الخلافة

قال بعد أن حمد الله، وأثنى عليه: يا معشر الأنصار، لكم سابقة في الدين، وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب، إن محمدا عليه الصلاة والسلام، لبث بضع عشرة سنة في قومه، يدعوهم إلى عبادة الرحمن، وخلق الأنداد والأوثان، فما آمن من قومه، إلا رجال قليل وما كانوا يقدرون على أن يمتنعوا رسول الله ﷺ ولا أن يقرروا دينه، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيما عموا به، حتى إذا أراد بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة، وخصكم بالنعمة، فبرزكم الله الإيمان به ورسوله، والمنع له ولأصحابه، والإعزاز له ولدينه، والجهد لأعدائه، فكنتم أشد على عدوه من غيركم، حتى استقامت العرب لأمر الله طوعا أو كرها، وأعطى البعيد المقادة صاغرا داخرا^(١) حتى أثنى^(٢) الله عز وجل لرسوله بكم الأرض، ودانت بأسياقكم له العرب، وتوفاه الله وهو عنكم راض، وبكم قدير عني، استبدوا بهذا الأمر دون الناس، فإنه لكم دون الناس.

خطبة أبي بكر في السقيفة

يبين حق المهاجرين

أراد عمر الكلام فقال أبو بكر: على راسك، ثم حمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس: نحن المهاجرون، أول الناس إسلاما، وأكرمهم أحسابا، وأوسطهم دلا، وأحسنهم وجوها، وأكثر الناس ولادة في العرب، وأمسهم رحما برسول الله ﷺ، أسلمنا قبلكم، وقدمنا في القرآن الكريم عليكم، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ﴿فنحن المهاجرون، وأنتم الأنصار إخواننا في الدين، وشركاؤنا في الفی،

(١) الداخرة الخليل.

(٢) أثنى المراد بها هنا أخصب.

وأنصارنا على العدو، أوتيتم، وواسيتم، فجزاكم الله خيرا، فمن الأمراء وأئمة الوزراء، لا تدن العرب إلا لهذا الحي من قريش، فلا تنفسوا على إخوانكم ما منحهم الله من فضله.

خطبة أبي بكر رضي الله عنه

حين أشير عليه بترك المرقدين

أيها الناس من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، أيها الناس، أن أكثر أعدائكم، قتل عندكم، ركب الشيطان منكم هذا المركب. والله ليظهرن هذا الدين على الأديان كلها، ولو كره المشركون، قوله الحق، ووعد الصديق، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، ولكم الويل مما تصفون، وركم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين.

أيها الناس، والله لو أفردت من جمعكم لجاهدتهم في الله حق جهاد، حتى يبلغ من نفسي عذرا، أو أقتل مقتلا، أيها الناس والله لو منعوني عقالا لجاهدتهم عليه، واستمعت بالله، إنه خير معين.

خطبة عمر بن الخطاب

رضي الله عنه

خطب عمر بعد توليه الأمر فقال: إن الله عز وجل قد ولاني أمركم، وقد علمت أنفع ما يحضرتكم لكم، وإني أسأل الله أن يعينني عليه، وأن يحرمني عنه، كما حرمني عند غيره، وأن يلهمني العدل في قسمكم كالذي أمرني به، وإني أمرؤ مسلم وعبد ضعيف، إلا ما أعان الله عز وجل، ولن يغير الذي وليت من خلافتكم من خلقي شيئا إن شاء الله، إنما العظمة لله عز وجل، وليس للعباد منها شيء، فلا يقول أحد منكم: إن عمر تغير منذ ولي، أعقل الحق من نفسي، وأتقدم رأيين لكم أمرى، فأما رجل كانت له حاجة، أو ظلم مظلمة أو عتب علينا في خلق، فليؤدني، فإنما أنا رجل منكم، فعليكم بتقوى الله في سركم وعلايتكم، وحرمانكم وأعراضكم، وأعطوا الحق من أنفسكم، ولا يحمل بعضكم بعضا على أن يخافوا إلى، فإنه ليس بيني وبين أحد من الناس هواة، وأنا حبيب إلى صلاحكم، عزيز على عنتكم،

وأنتم أناس علمتكم حضر في بلاد الله، وأهل بلد لا زرع فيه ولا ضرع، إلا ما جاء الله به إليه، وإن الله عز وجل قد وعدكم كرامة كثيرة، وأنا مسؤل عن أمانتي وما أنا فيه، ومطلع على ما يحضرنى بنفسى إن شاء الله، لا أكله إلى أحد، ولا أستطيع ما بعد منه إلا بالأمانة وأهل النصح منكم العامة، ولست أجعل أمانتى إلى أحد مواهم إن شاء الله.

خطبة أخرى

لعمر بن الخطاب

أيها الناس، من أراد أن يسأل عن القرآن الكريم فليأت أبا بن كعب، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض، فليأت زيد بن ثابت، ومن أراد أن يسأل عن الفقه، فليأت معاذ بن جبل، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني، فإن الله جعلني خازنًا وقاسمًا. إني بادئ بأزواج رسول الله ﷺ فمعطيهم، ثم المهاجرين الأولين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم أنا وأصحابي، ثم بالأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم، ثم من أسرع إلى الهجرة أسرع إليه العطاء، ومن أبطأ عن الهجرة أبطأ عنه العطاء، فلا يلومن رجل إلا مناخ واحتله. إني قد بقيت فيكم بعد صاحبي، فابطلت بكم، وابتليتم بي، زاني لن يحضرنى من أموركم شيء فأكله إلى غير أهل الجزاء والأمانة، فليمن أحسنوا لأحسن إليهم، ولكن أساموا لأنككن بهم.

خطب عثمان وطلحة وعلى

عندما استشار عمر المسلمين في خروجه

على رأس الجيش إلى فارس

جاء في تاريخ الطبري وشرح لهج البلاغة لابن أبي الحديد أن عمر رضي الله عنه استشار المسلمين لما أراد أن يخرج إلى العجم وجيوش كسرى، وهي مجمعة بتهاون.

خطبة عثمان:

فقام عثمان فتشهد وقال: أرى يا أمير المؤمنين أن نكتب إلى أهل الشام، فيسيروا من شامهم، ونكتب إلى أهل اليمن، فيسيروا من يمتهم، ثم تسير أنت بأهل هذين الحرمين إلى

المصريين البصرة والكوفة، فطلقى جمع المشركين بجمع المسلمين، فإنك إذا سرت بمن معك، ومن عندك، تكن فى نفسك بالكائر من عدد القوم، وكنت أعر عزا وأكثر. إنك لا تسبقى من نفسك بعد اليوم باقية، ولا تمتع من الدنيا بعزيز، ولا تكون منها فى حرز حريز. إن هذا اليوم له ما بعده، فاشهده بنفسك ورأيك وأخوافك، ولا تنب عنه.

خطبة طلحة:

ثم قام طلحة فقال: أما بعد يا أمير المؤمنين، فقد أحكمتك الأمور، وعجمتلك البلايا، وحكمتك التجارب، وأنت وشأنك، وأمت ورأيك، لا تبور فى يدك، ولا نكل أمرنا إلا إليك، فأمرنا بحب، وادعنا نطع، واحملنا نركب، وقتلنا نقد، فإنك ولى هذا الأمر، وقد بلوت، وجريت، واخبرت، فلم ينكشف شئ من عوالب الأمور لك إلا عن خيار.

خطبة على:

ثم قام على، فقال: أما بعد، فإن هذا الأمر لم يكن نصره، ولا خذلانه بكثرة ولا قلة، إنما هو دين الله الذى أظهره، وجنده الذى أعزه وأمدّه بالملائكة حتى بلغ ما بلغ. فنحن على موهود من الله، والله منجز وعده، وناصر جنده. وإن مكانك منهم مكان النظام من الخويز بجمعهم، وبمسكهم، فإن اتحل تفرق ما فيه، وذهب، ثم لم يجتمع بخذافيره أبدا، والعرب اليوم، وإن كانوا قليلا، فإنهم كثير بالإسلام، أقم مكانك، واكتب إلى أهل الكوفة، فإنهم أعلام العرب رؤسائهم وليشخص منهم الثلثان وليقم الثلث، واكتب إلى أهل البصرة أن يمدوهم ببعض من عندهم، ولا تشخص الشام ولا اليمن، إنك إن أشخصت أهل الشام من شامهم، سارت الروم إلى ذواربهم، وإن أشخصت أهل اليمن من يمنهم، سارت الحبشة إلى ذواربهم، ومتى شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أقطارها وأطرافها، حتى يكون ما تدع دواءك أهم إليك مما بين يديك من العزوات والمعاليات. إن الأعاجم إن ينظروا إليك غدا، قالوا هذا أمير العرب وأصلهم، فكان أشد لكليهم عليك. وأما ما ذكرت من سير القوم، فإن الله أكره لمسيرهم منك، وهو أقدر على تغيير ما يكره. وأما ما ذكرت من عندهم فإننا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة، وإنما كنا نقاتل الصبر والنصر^(١).

فقال عمر: أجل هذا رأى، وقد كنت أحب أن أتابع عليه.

(١) تقدمت هذه الخطبة فى القسم الأول من الكتاب برواية أخرى.

خطبة عثمان بن عفان

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

خطب سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه عندما عاب حكمه بعض الناس، وجاءوه متظلمين شاكين، فقال بعد أن حمد الله تعالى، وأثنى عليه بما هو أهله.

أما بعد، أيها الناس، فوالله ما عاب من عاب منكم شيئاً أجهله، وما جئت شيئاً إلا وأنا أعرفه، ولكن منتني نفسي، وكذبتي، وضل عني رشدي.

ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من زل فليتب، ومن أخطأ فليتب، ولا يتعادي في الهلكة، إن من تعادي في الجور، كان أبعد من الطريق».

فأنا أول من اعط، أسئغفر الله عما فعلت، وأتوب إليه، فمضى نزع وتاب، فإذا نزلت فليأثني أشرافكم، فليروني رأيهم، فوالله لئن رضى الحق عبداً لأستن بسنة العبد، ولأظن ذل العبد، ولا كونه كالمقوق، إن ملك صبر، وإن عني شكر، وما عن الله منهج إلا إليه، فلا يجوز عنكم خياركم أن يدنوا إلى، لئن أبت يعني لتتأبني شعلي.

فرق له الناس، وبكى بعضهم.

خطبة علي بن أبي طالب

في الحث على القتال

خطب علي ليلة التقى جيشه بجيش معاوية في صفين، فقال: الحمد لله الذي لا يرم ما نقض، ولا ينقض ما أبرم، لو شاء ما اختلف ثنان من هذه الأمة، ولا من خلقه، ولا تنازع البشر في شيء من أمره، ولا جحد المفضول ذا الفضل فضله، وقد ساقنا وهؤلاء القوم الأفتار، حتى لفت بيتنا في هذا الموضع، ونحن من ربنا بمرأى ومسح، ولو شاء لعجل النقمة، ولو شاء لكان منه النصر. متى يكذب الله الظالم، ويعلم الحق أين مصيره؟ ولكنه جعل الدنيا دار الأعمال، والآخرة دار الجزاء والقرارات ليجزى الذين أساءوا بما عملوا، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى، ألا إنكم لا تقوا العدو غداً إن شاء الله، فاطلبوا الليلة القيام، وأكثروا تلاوة القرآن، واسألوا الله الصبر والنصر، وألقوهم بالجد والحزم، وكونوا صادقين^(١).

(١) قد تقام كثير من خطب علي بن أبي طالب في القسم الأول من هذا الكتاب، فارجع إليه فهو مما يصور الخطبة في صدر الإسلام.

خطبة أم الخير بنت الحريش

جاء في العقد الفريد أن أم الخير بنت الحريش البارقية عطيت في صفيين مخرض جند على بن أبي طالب على قتال معاوية، فقالت: أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم، إن الله قد أوضح الحق، وأبان الدليل، ونور السبيل، ورفع العلم، فلم يدعكم في عمياء مبهم، ولا سوداء ملهمة، فإلى أين تريدون رحمكم الله؟ أفرارا عن أمير المؤمنين! أم فرارا من الزحف! أم رغبة عن الإسلام! أم ارتدادا عن الحق! أما سمعتم الله عز وجل يقول: ﴿وَلَدَبُونَكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ، وَلِيَلْوَأَنَّهُمْ أَزْوَاجُكُمْ﴾.

ثم رفعت رأسها إلى السماء وهي تقول: اللهم، قد عيل الصبر^(١)، وضعف اليقين، وانتشر الرعب، وبذلك يارب، أزمة القلوب، فاجمع الكلمة على التقوى، وألف للقلوب على الهدى، واردد الحق إلى أهله. هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل الرضى التقي، والصدیق الأكبر، إنها إحن بدوية^(٢)، وأحقاد جاهلية، وضغائن أحدية، وثب بها معارية حين الخلفة، ليدرك بها نارات عبد شمس. ثم قالت: قاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلمهم بنتهون، صبرا معشر المهاجرين والأنصار، قاتلوا على بصيرة من ربكم، ولبات من دينكم، وكأني بكم قد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة فرت من قسورة لا تدري أين يسلك بها من فجاج الأرض^(٣)، باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا الضلالة بالهدى، وعما قليل ليصبحن نادمين حتى تحل بهم الندامة، فيطلبون الإقالة، ولات حين مناص، إنه والله من ضل عن الحق وقع في الباطل، ومن لم يسكن الجنة ذهب إلى النار، ثم قالت: قد اجتهدت في القول، وبألفت في النصيحة، والله التوفيق والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(١) يقال عل الشيء فلانا غلبه فميل الصبر منه غلب.

(٢) الإحنة العقد وجمعها إحن.

(٣) الفجج الطريق الواسع.

الخطابة في العصر الأموي

تصهيد:

هذا العصر هو ثمرة الأحداث التي حدثت في آخر عصر الخليفة الثالث، وطول مدة الخليفة الرابع، أو إن شئت فقل إنه امتداد لبعض الحوادث التي كانت في عصر علي، أو صدى لما كان فيها، فالدعوة إلى الأخذ بدم عثمان كانت هي الفكرة التي نبت منها السلطان للأُموية، واستمر نحو تسعين سنة وسط السيوف والرماح المشرعة، والنم المهراني، ولم يسكن الناس لها إلا بعد أن سفكت دماء، وهتك الحرم، فقد أُمِحت المدينة في عهد يزيد بن معاوية، وقتل الحسين قتلة فاجرة، وكان بعد ذلك ما كان من خروج ابن الزبير، واتساع سلطانه، ثم استقامة الأمر لعبد الملك بن مروان بعد أن سخى في الدماء نحوضاً، ومرج فيها مرجاً، والخوارج الذين ظهروا في عهد علي رضي الله عنه، تفاقم خطبهم، واشتد أمرهم في ذلك العصر، وكانوا شوكة حادة في جنب الدولة الأموية، تمنعها من أن تتقلب في أعطاف النسيم الهادئ الساكن، وأن تستسيغ لذة الملك صافية من غير أن ترق بما يكدرها. والشيعية الذين ظهروا في آخر عصر عثمان رضي الله عنه قد اتسمت مذاهبهم، وكثرت دعاويهم، وتفرقوا فرقا ونحلاً مختلفة، وكانوا أحياناً يرفعون السيوف، ويدفنون أحد أولاد علي إلى الانتفاض فيذهب دمه على شفرات سيوف بني أمية، كما فعلوا يزيد بن علي، وأحياناً يسكتون، وينشرون بين الناس أفكاراً ليست من الدين في شيء، ومنها ما ينقض مبادئ الدين، ويذهب بقوته.

وقد كان الصحابة الذين عاشوا في ذلك العصر، ونقلوا إلى الناس صورة للسلف الصالح، أهل السبق والإيمان، كابن عباس وأنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ، والتابعين الذين شافهوا عليه الصحابة ونقلوا عنهم - كان هؤلاء وأولئك رابطة اتصال بين ذلك العصر وما سبقه فكان متصلاً به، وإن لم يكن مثله قوة دين، وثبات يقين، وأخذاً بالسنة القويم، والهدى الحكيم.

وفي هذا العصر لم يقن العرب في غيرهم، ولم تفلتهم المدينيات والحضارات الأجنبية التي غزوها، وحاولت بما عندها من علوم أن تغزوهم، بل كان الأمويون ذوي تعصب شديد للعرب والعربية، وكانوا حريصين على أن يربوا أولادهم على خشونة اليد، وفصاحتها ولسنها، فكانوا يرسلونهم، والمواد أخضر إلى البادية، ليتفصحو بفصاحة أهلها، ويدوروا شيئاً من

خشونتها، ليعتريوا على اليأس والتجدة والهمة والنشاط، وإذا لم يفعلوا ذلك مع أحد منهم اعتقدوا فيه النقص حتى قال عبد الملك في ابنه الوليد: أضر بالوليد حيناً له فلم توجّهه إلى الهادية، لذلك كانت الحياة العربية مع قوة الحضارة مختلطة بالبداءة.

ولئن كان للتاريخ يحفظ للأمويين حفاظهم على العربية وحرصهم على توطيد سلطان العرب، حتى كان منهم الولاة والأمراء وفوز السلطان، قلن ينسى التاريخ أنهم صيروا الخلافة ملكاً عضوياً، يتوارث، وأنهم غلبوا سياسة القهر، وحاولوا نشر كل شيء من شأنه أن يبعد ملكهم عن منافسة المنافسين، وطمع الطامعين، ودفعهم الأمر إلى مجاوزة حد الاعتدال. وقد كان من أثر منازعة العرب لهم، ومغالبتهم إيّاهم، ومحاولة الأمويين نشر سياستهم مناحرات بالسيف، ومنازعات بالقبول، أفادت منها الخطابة أكبر فائدة، وانتفعت منها أكبر النفع، ومنفصل الأجمال فيما يلي:

الحياة العربية في العصر الأموي

الأحوال السياسية:

تطلع الأمويون للخلافة في وقت سادت فيه الفتن، وتشتعت فيه الإحzen، وركب كل امرئ رأسه، اضطربت الحال على أثر مقتل الخليفة الثالث، عثمان رضي الله عنه، فتسامت همه معاوية إلى ولاية أمر المؤمنين، ونازع سيف الإسلام علياً في خلافة، وكاد على أن يضربه بالضربة القاضية في حطين، لولا خديعة التحكيم التي فرقت جيش علي، وأثبتت نابعة الخوارج، ولما لقتل على رضي الله عنه، ونزل الحسن عن الخلافة لمعاوية، واستقام له الأمر، رجعت القضب إلى أهوائها، وسياسة جمعت إلى لفدة اللين، وإلى الحزم العظم، سكنت الفتن إلا قليلاً، غير أنه سكون لا شيء فيه من الرضا، فانقلوب كثير منها فافرو، ولكنها الرغبة والرهبة، والطمع والخوف، وما أنهكت به الأمة من حروب دائمة مستمرة، كل هذا جعل الناس يسكنون، وإن كانت قلوب تستنكر، ولذا لم تنته خلافة معاوية ويتول يزيد، وتحرك الحسين وابن الزبير، حتى ظهر الخروج على هذه الدولة في إعلان لا سر فيه، فخرجت المدينة المنورة ومكة المكرمة، وتحركت فتن العراق، وكثر خروج الذين تعددت مذاهبهم، ولبانبت آراؤهم، وبكثير من الدعاء، وكثير من الإرهاق، عادت الحال إلى نوع من الهدوء، بعد أن أبيحت المدينة، وقتل الحسين.

وهكذا استمرت الدولة في نزاع تارة يشتد، وأخرى يسكن، خوارج يخرجون أحيانا
معتشين الحسام، وأخرى يدعون بدعائهم قولا، والخلفاء يبعثون دماءهم.

وعلمون يسكنون تارة، ويخرجون محاربين تارة أخرى، وملوك الأمويين يدفعون هؤلاء
وأولئك مرة بالسيف، وأخرى بالخدمة وثالثة بإلقاء بنور الشر بين خصومها، وفي وسط تلك
الزوبعة وجد القول أذانا وقلوبا.

الأحوال الاجتماعية

في وسط هذا الاختلاف الذي ألمعنا إليه، ونحت ظل الأمويين، قامت العصبية الجاهلية
التي سترها الإسلام ودعا إلى محوها من القلوب، واشتد النفور بين القحطانيين والحجازيين،
وبين الرعيين والمضرين، وكان من بعض الخلفاء ما أضرم نيرانها، وزادها حدة وقوة، والحقيقة
أن كثيراً من حروب هذا العصر ولته كانت العصبية دافعة له، وإن سترت بستار من دعوة دينية
أو نزوع إلى طاعة، أو تشيع لآل الرسول ﷺ.

ويلاحظ أن المظاهر الاجتماعية في ذلك العصر، قد أخذت تختلف باختلاف البلدان
التي غلبت فيها العناصر العربية وهي الحجاز والعراق والشام، فهي في الحجاز غيرها في العراق
وهي في الشام غيرها فيها.

ففي المدن الحجازية وجد نرف بعد أن لم يكن، وذلك لأن الدولة الأموية منعت زعماء
القبائل من الخروج إلى الأقاليم، حتى لا ينازعوها السلطان، وأمرت عليهم من الخيرات ما
منعهم من التفكير في الانتفاض عليها، وأكثر أولئك من خوى القلوب والمواطف الشديدة،
والمقول القوي، ولكنها بنابغ صافية قد تسلطت على صخور، فلم تثبت ما يظل مستظلاً، أو
يطعم طعاماً، فأتته بعضهم إلى اللاتذ يشارون عليها، وأنشعوا الحيطان والحدائق، وجعلوا من
الطائف وغيرها بين مكة المكرمة والمدينة المنورة جئات فيها متع النفوس، وانصرفوا إلى الإماء
والشهورات.

أما في العراق ففتن دائمة، وقلق مستمر، وحياة اجتماعية غير محكمة الصلات،
والسبب في ذلك أنه قد سكنه في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين طوائف من أجناس
مختلفة، فمنهم العرب وأغلبهم مضرين، ومنهم النبط، ومنهم الفرس، ومنهم آراميون، ولكل
طائفة من هؤلاء عادات وتقاليد، تستمدعها من قوميتها الأولى، وجنسياتها القلبية، وحّد
الإسلام دينهم، وقرب ما بين لغاتهم، ولكنه لم يجمع أهواءهم، ولم يوحد إحساسهم، ولذلك

بلعت في العراق أفكار مختلفة، وأهواء متناقضة وإحساسات متنازعة، إذ قد نجم من هذه العناصر المتخالفة مخلوط غير تام المزاج، يتوجد في ظاهره، ويختلف في باطنه. ومجتمع كذلك تكثر فيه الفتن، ويشد الاضطراب.

ويذكر ابن أبي الحديد أن لفتن العراق سببا آخر، وهو حبة ذكاء أهل العراق، فقد جاء فيه:

قال أبو عثمان الجاحظ: العلة في عصيان أهل العراق على الأمراء، وطاعة أهل الشام، أن أهل العراق أهل نظر، وذوو فطن ثاقبة، ومع الفطنة والنظر، يكون التنقيب والبحث، ومع التنقيب والبحث يكون الطعن والقدح، والترجيح بين الرجال، والتميز بين الرؤساء، وإظهار عيوب الأمراء. وأهل الشام ذوو بلادة وتقليد وجمود على رأي واحد، لا يبدون النظر، ولا يسألون عن مخيب الأحوال، وما زال العراق موصوفا أهله بقلة الطاعة والشقاق على أهل الرئاسة.

أما في الشام حيث يحكم الأمويون فقد كان الترف سائدا، ولكن في احتشام في أكثر الأحيان، فيحتفظ الخلفاء بمهائهم، وليحفظوا لهم صفتهم الدينية، ولئلا تتألب عليهم العرب، وأكثرهم متدين، ففي قصور الخلفاء كل وسائل الترف، قيان وغناء، ولكن لا يظهرون بشيء من ذلك أمام العامة، بل كان الصدر من خلفاء بني أمية يستمع إلى غناء الممّنين من وراء حجاب.

والشام لأنها نصبة الدولة، كان الناس يقدون عليها من كل ناحية، وهي تروج بالوفاء، ويتبادلون القول مع الخلفاء، وفي الحق أنها كانت ميدان المباراة في تعلق الخلفاء ومدحهم، والزلفى إليهم، بالخطب أحيانا، وبالشعر أحيانا، ولها كانت للفانحات، والمناظرات بين أهلى الخلفاء، ونحت سمحهم وبصرهم.

الأحوال الدينية:

عاش في صدر هذه الدولة طائفة من أصحاب رسول الله ﷺ، وعاش التابعون أكثر مدتها، وكان هؤلاء وأولئك يدرسون الدين، ويعرفون الناس أحكامه، ويشئون روحه، والخلفاء في الجملة، كانوا يظهرون تمسكهم بالدين، بل حمايتهم له، يقولون ذلك بالسمهم، وإن كان منهم من يخالفه، فعبد الملك بن مروان الذي وقف بخطب مرة فقال: من قال لي اتق الله قطعت عنقه، يظهر الحمية الدينية، إذ يبلغه أن للحجاج قد شتم أنس بن مالك خادم

رسول الله ﷺ، فيندبر الحجاج، ويرعد ويهرق، ويشد ويحد، وذلك لتجري كلمة الثناء من أنس رضى الله عنه، فيكون لها أثرها في نفوس العامة والدهماء.

والناس قد استمروا على تليتهم، ولكن خفت فيهم حرارة الإيمان ولم يكونوا كسلف هذه الأمة قوة دين وثبات يقين، وحلت العصبية الجاهلية في بعض النفوس محل الدين، وانتشرت في بعض الجهات فسوق ومخاجرة، وشاع على ألسنة الشعراء تهاج مقذعة، وشتم لاذعة، وأقوالهم تنتشر بين الناس، فتزع الأخلاق، وتفسد النفوس، وتضعف روح الدين، وإذا ساء لولى عهد المسلمين يزيد بن معاوية أن يدفع شاعرا نصرانيا ليس للإسلام في نفسه حومة أن يقول في الأنصار وهم الذين آووا ونصروا:

ذهبت قرمض بالمكارم كلها والنؤم تحت عمائم الأنصار

إذا ساء ذلك لآلئ الخليفة وهو المسؤول الذي يجب أن يظهر حاميا للدين، فكيف يكون شأن دهماء الناس، ومن ليس للنقد عليهم من سلطان، لذلك لم تقيد الألسنة بقيود الدين كما كان الشأن أولا، وكان لذلك أثره في الخطابة كما سنبين إن شاء الله تعالى.

دواعى الخطابة وموضوعاتها

في العصر الأموي

كثرت دواعى الخطابة في صدر الدولة الأموية ووسطها، واتسعت موضوعاتها، وتشعبت نواحيها، وكان أعظم دواعيها وأوسع موضوعاتها:

الفتن:

الفتن التي قامت في صدها الدولة الأموية، وتأججت نيرانها، واشتد لهيبها بعد موت معاوية عندما تولى يزيد، فقد انقسم المسلمون إلى أحزاب: شيعة، وخوارج، وأُمويين، وزبيريين، وكل يدعو الناس إلى فكره، وتأيد دعوته، واشتبهت الحروب بين هذه الطوائف، فقاتل الحسين جند يزيد، وقتل، وقتل عبد الله بن الزبير حتى تم له الأمر في الحجاز والعراق، ثم انتقصت أطراف ملكه وشيكا. والخوارج استمروا إلها على الدولة لا تسكن لهم ثائرة ولا تخدم لهم جلوة. وكان من وراء السيوف الخطب الموقية، وال عبارات الشبهة الدافعة إلى الموت، رجاء مثوبة الرحمن، أو طمعا في السلطان، فالخطابة وجدت في تلك الفتن مبعها للقول، وحافزا

إليه، يذكر المعترضون على بني أمية مساوئهم، واجترأهم على قوى الحق، ويرمونهم بالخروج على الدين، ويذكرونهم بماضى أسلافهم في محاربة النبي ﷺ والسابقين. والأمويون يرمون أولئك بالبغي والخروج على الطاعة، ومترى ذلك واضحا في المختار من الخطب.

السياسة

كان الخلفاء وولاتهم في أشد الحاجة إلى أن يبينوا للناس سياستهم، ليأخضوهم بها، إذ كانت نفوس المحكومين في قلق دائم مستمر، وميل للخارجين، فكان الخلفاء وأتباعهم يجهنون حكمهم وعذائهم، وإحسانهم للناس إن أسلسوا القياد، وأخطصوا، ويرعدون ويبرقون، ويهددون وينذرون من يخرج أو يحميد عن الجادة، وقد كان صوت الترهيب أظهر في البلاد التي لبست فيها فتن، كالعراق والحجاز. وصوت الترغيب أوضح في البلاد التي وادعت وصالحت، بل عاوت وناصرت، كالشام.

انظر إلى خطبة زياد البراء بالبصرة، وخطب الحجاج في العراق، وخطبة عبد الملك بعد قتل مصعب بن الزبير، تر ذلك واضحا كل الوضوح.

الفتوح الإسلامية:

لم تنقطع الفتوح في العصر الإسلامي، ولعل الأمويين وجدوا فيها شاغلا للعرب، يمنعهم من التفكير في أمرهم، والانشغاض عليهم، فوجهوهم إلى البلدان، لكيلا يكون يأسهم بينهم، ففي عصر معاوية فتحت بلاد في شمال أفريقية، والسند، وبعض أفغانستان، وفي عهد عبد الملك والوليد ابنه تم الاستيلاء على شمال أفريقية، والأندلس، وامتد السلطان الإسلامي إلى بلاد البنجاب في الهند، واستولى مسلمة بن عبد الملك على آسيا الصغرى، وفي عهد سليمان بن عبد الملك حوصرت الآستانة، والحروب كما بينا تحتاج إلى الخطابة والبيان، وقد أسهبنا في بيان ذلك في العصر الإسلامي السابق، فارجع إليه.

الوفادة:

كثرت الوفادة على الخلفاء والأمراء في ذلك العصر لرفع شكاة، أو لامتياع، أو إعلان النصر والتأييد، وقد يدعو الخليفة بعض الوفود إليه، ليمد يدهم يداء أو يعقد حبل مرفقهم، أو يستمعيتهم على سابقة منهم، والوفود عادة من كبار التكلمين المجريين يلقون كلامهم في لسان ممين، وقول حكيم، وأسلوب محكم، وإذا اعترض عليهم، سددوا الجواب، ولما بأحسن الخطاب. قال ابن عبد ربه في الوفادة:

إنها مقامات فضل، ومشاهد حفل، يتخير لها الكلام، وتستعذب الألفاظ، وتستجزل المعاني، ولا بد للوفاء عن قومه أن يكون عميدهم، وزعيمهم الذي عن قومه يتزعرون، وعن رأيه يصدرون، فهو واحد يعدل قبيلة، ولسان يحرب عن ألسنة.

فالوفاء يكون من أرباب البيان، والوفادة روحها اللسان والجنان، لذلك كانت كثرة الوفاة في ذلك العصر عاملاً من عوامل انتشار الخطابة، وموضوعاً من موضوعاتها.

المدح والتهنئة والعزاء:

كانت الخطابة في هذا العصر تقال في بعض الموضوعات التي كان يقال فيها الشعر، فكان من الخطباء من تكون كل خطبتهم مدحاً في خليفة، أو تهنئة بولاية، أو تعزية لفقد عزيز كريم، وقد تكون الخطبة أحياناً مشتملة على التهنئة والتعزية عندما يتولى الخلافة ابن الخليفة، فيجهد الخطيب في أن تكون خطبته جامعة بين تعزية للوasi في فقد، والمهنئ بنيل أمل كان مرجحاً، كما فعل كثيرون من الخطباء في عزله يزيد في محاولة وتهنئته بالملك.

الوعظ الديني:

كانت سيطرة الدين على بعض النفوس دافعة لأن ينصرفوا إلى العبادة والنسك، والتقوى والإرشاد، والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، ومنهم من انصرف إلى دراسة العقائد، والتعمق في بحرها، وكون له رأياً فيها، دعا إليه، وحث عليه، ومنهم من حكف على مناقشة الخارجين على الإسلام الهادمين لبنائه، والرد عليهم، فلحن بالحجة، وقدم الدليل، ومن هؤلاء وأولئك الحسن البصري، وواصل بن عطاء، ومطرف بن عبيد الله الخرسى، وكر بن عبيد الله المزني، ويزيد بن أبيان الرقاشي، ومالك بن دينار. وأكثر هؤلاء قاصي مجيد بلينغ ذو منطق وجيز.

مجالس المصاراة في الخطابة:

كانت تعقد مجالس للمصاراة في الخطابة، والسبق فيها، وكثيراً ما كان يدعى الشخص إلى القول مفاجأة، ليخبر مقدار يائه، وقوة جنانته، وحضور بديته، ولهوض حججه، ومن ذلك ما حققه عبيد الله بن عمر بن عبد العزيز وإلى العراق من مجلس للخطابة تبارى فيه خالد بن صفوان، وشبيب بن شيبه، والفضل بن عيسى، وواصل بن عطاء، وقد نال في ذلك المجلس نصيب السبق واصل بن عطاء. وقال فيه بشار ماحه بتلك الخطبة:

تكلّموا القول والأقوام قد حفلوا رجبوا خطبا ناهيك من خطب
فقام مرّجلا تغلى بدهائه كمرجل القين^(١) لما حذ بالذهب
وجانب الرء لم يشع به أحد قبل التصفح^(٢) والإغراق في الطلب

ولقد كانت مجالس معاوية تشتمل على شيء كثير من هذا النوع من المباراة، وما كانت خطبة سبحان التي كانت من صلاة الظهر إلى أن قامت صلاة العصر إلا من ذلك النوع. فإنه يروى أن وفدا من خراسان، فيهم سعيد بن عثمان، قدم على معاوية، فطلب سبحان، فلم يوجد في منزله، فالتفت إلى من ناسه اقتضاها، وأدخل عليه، فقال: تكلم؛ فقال: انظروا إلى عصا تقوم من أودي، قالوا: وما تصنع بها، وأنت بحضرة أمير المؤمنين، قال: ما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربه، فضحك معاوية، وقال: هاتوا عصا فجاءوا بها إليه، فرجلها برجله، ولم يرضها، وقال: هاتوا عصاى، فأخذها وتكلم من صلاة الظهر إلى أن قامت صلاة العصر، ما تنحج، ولا سئل ولا توقف، ولا ابتداء في معنى فخرج منه، وقد بقى عليه منه شيء، فما زالت تلك حاله، حتى أشار معاوية، فأشار إليه سبحان أن لا تقطع على كلامي، فقال معاوية: الصلاة. قال: هي أمامك، ونعم في صلاة وتحميد، ووعده ووعده. فقال معاوية: أنت أخطب العرب، فقل سبحان: والمعجم والإنس والجن^(٣).

ألا ترى من ذلك القصص أن تلك الخطبة ما كان القصد منها إلا المباراة الكلامية من غير غرض منشود، ولا موضوع محدد. وقد كانت تلك المباراة من أسباب انتشار الخطابة، وكثرتها، وهي تشبه المباراة الخطابية التي كانت تقوم بين خيان ألتا في عصر يركليس.

عوامل رقى الخطابة وعوامل ضعفها

في ذلك العصر

قال المرحوم الأستاذ محمد المهدي (بك) في وصف الخطابة في هذا العصر:
هذا عصر سارت الشجاعة فيه وراء البيان، وملك اللسان منه ما لم يملك السيف،
وتسابق الناس فيه إلى غلاتهم. بحسب مقالاتهم، وقد رأوا المثل الأعلى في الكتاب العزيز

(١) القين هو الحداد.

(٢) التصفح النظر.

(٣) من الميود صفحة ٢٧.

فتساموا إلى طريقه في الإقناع، وإقامة الحجج، واقتبسوا من لفظه، واستعانوا بروحه فحيوا في بلاغتهم حياة جديدة. ثم قال: والعرب أقدر الناس على بيان، فإذا كان في حكمة رائعة، ودين قيم، وعزيمة صادقة، ملك الواحد منهم من قلوب الناس مالا تملكه الدنيا بحدافيرها، وقد سما بأنفسهم نصبرهم الباهر، وعزتهم القديمة، وأنسابهم المصونة، وأيامهم المشهورة، وأمثالهم الماثورة، ومواقعهم المشهودة، فلم يكن للواحد منهم إلا أن يتكلم، أو يكلم، ولذلك كثر في هذا العهد خطبائهم كثرة لم تعهد فيهم من قبل، ولا من بعد، وأجادوا إجادة لا نظير لها، وتفننوا في مجامعهم، وجمعهم وأعيادهم، ومواسم الحج، ومضارع السقيا، ومشاهد الحرب، ومنابر الجهاد، ومرابد الأمصار، ومحافل الملوك، ومجالس الموعظة، وأندية الأدب، وحاولت كل قبيلة أن يكون خطيبها أخطب، وكل حزب أن يكون لسانه أغلب، لتسابق الملوك والأمراء والنسك والزهاد، رؤساء الأحزاب والقبائل، وكثير من دعاء الناس في هذا المهدان، حتى انشق نور الأذهان، وتفجرت ينابيع الحكمة، وفاضت بدائع البدائل في الناس.

هذا قول حتى إذا كان موضوعه صدر الدولة ووسطها. أما في آخرها فقد ركدت ربحها قليلا حتى استيقظت قوة أمدان قصيرا في صدر الدولة العباسية.

والأسباب في بلوغ الخطابة ذلك الشارهي ما بيناه في عوامل نهوض الخطابة في صدر الإسلام وهو القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والحضارة وغيرها، فإن تلك الأمور كان لها أثرها في ذلك العصر كما كان لها أثرها في سابقه، وما زالت لها قوتها وروعيتها في النفوس، وقد جدت عوامل أخرى فوق تلك زادت الخطابة رفعة ونهوضا:

فالمجاذبات التي كانت تقوم بين المفرق السياسية المختلفة التي ظهرت في ذلك العصر، بعد أن غرست أصولها في آخر سابقه، خصوصا ما كان بين الخوارج وغيرهم، كانت عوامل رفعة للخطابة فإنك تجد في تلك الخطب الجدلية روحا عالية، ودقة في التفكير، وسلامة في التعبير، وحرصا على وزن العبارات بميزان دقيق.

اقرأ خطبة أبي حمزة المصافى التي يرخض فيها عن الخوارج الأباضية، ويقلد غيرهم بأشنع النهم، وكذلك خطب قطري بن الفجاءة وغيرهما ترى فكرا دقيقا، وعبارات عالية، جمعت إلى الجزالة والسلامة روح الدين.

وقد ظهر في ذلك العصر، خطباء من علماء الكلام، يعطون ويدافعون عن مذاهبهم في أصول الاعتقاد، كالحسن البصري الذي قال فيه أبو عمر بن العلاء:

ما رأيت أفصح من الحسن البصري، ومن الحجاج الثقفى، فقبل له: فأيهما كان أفصح؟ قال: الحسن.

وكواصل بن عطاء، فقد كان تادئة زمانه فى حضور البديهة، وسداد الجواب، وقد كان انضمام هؤلاء إلى صفوف الخطباء مما جعل الخطبة تستفيد من دقة تفكيرهم، وغزارة علومهم إحصاء، وثروة فى المعانى والأفكار.

وكان الخلفاء فى صدر الدولة الأموية يحثون على الخطابة ويدعون إليها، ويعملون على ترويجها، وكانت دورهم متشديات لها، يتبارى فيها أبلغ الخطباء، وأهل اللسان والبيان، وخصوصاً إذا جاء وفد، وكان صغار النشء يحرسون على استماع البلغاء من الخطباء، ليحاكواهم، وينسجوا على منوالهم، وقد ساد التفاخر بالقدرة على الخطابة وإجادة البيان، لأن الخطبة كان لها الشأن الأول عند الخلفاء والأحرار، يروى أن عبد الملك بن مروان سقطت له إحدى ثيابه، فذكر أنه لولا الخطبة والنساء ما حقل لسقوطها.

وقد دفعهم التفاخر بالخطابة، إلى أن أخذوا يزورون الكلام، ويهيمونه، ويضعون فيه من ضروب التحسين الشيء الكثير، وإذا قرأت خطبة الحجاج تلمح فيها صناعة لفظية، وإن لم تكن بادية التكلف، وكذلك ترى خطب كثير من خطباء ذلك العصر.

ومع عوامل الرقى الخطابى التى ظهرت فى ذلك العصر، وكان لها كل هذه الثمرات ظهرت بجوارها مظاهر ضعف نسبية، وإن كانت قد اختفت تحت ألأاء الرقى الذى بدأ، وغفلت عنها الأنظار فى وسط ضجيج الرنمة التى كانت للخطابة فى ذلك العصر، ومن ذلك:

أن اللحن ابتدأ يجرى على ألسنة الخطباء، فيروى أن الحجاج كان يفتح إن فى موضع الكسر، ويروى أن الوليد بن عبد الملك كان كثير اللحن فى الخطبة، بل فى الصلاة حتى إنه يروى أنه كان يصلى مرة فقراً: «يا ليتها كانت المقاضية» ورفعها. فقال عمر بن عبد العزيز إذ بلغه ذلك، عليك، وأراحنا الله منك، وقد سرى اللحن على ألسنة كثير من الفصحاء، جاء فى البيان والتبيين:

ومن اللحنين البلغاء خالد بن عبد الله القيسرى، وخالد بن صفوان. وجاء فيه: وقد زعم رؤية ابن الحجاج، وأبو عمر بن العلاء أنهما لم يريا قرينين أفصح من الحسن والحجاج، وغلط الحسن فى حرفين من القرآن.

ولا شك أن اللعن في الخطبة مع قرب العهد، وعدم فساد السليقة مظهر من مظاهر الضعف وإن أخفته بلاغة المتكلمين.

وقد حادت العصبية الجاهلية فعاد معها التفاعر بالأحساب والأنساب، وكثر ذلك في الخطابة، كما كثر المدح الكاذب، والملق الخادع، ونفاق اللسان، وكل هذه عوامل من شأنها أن ترجع بمعنى الخطابة المهقري، وأن ترد عما اكتسبته من روعة وجلال في عصر الخلفاء الراشدين، ولذا ضعف تأثير الكلام الجيد في القلوب.

يرى أن الحسن البصري تكلم عنه رجل بمواعظ جمعة، ومعان تدعو إلى الرقة، فلم ير الحسن قد رق. فقال الحسن: إما أن يكون بنا شر، أو بك؛ والحقيقة أن أكثر الخطباء المؤمنين في ذلك العصر كانوا إما منافقين أو مستبدين، أو جلادين، وكل أولئك لا تصل كلماتهم إلى أعماق القلوب لأنها لم تخرج منها، وهامر بن قيس يقول: الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الأذان.

وكانت كثرة المتشادقين من أسباب ضعف تأثير الكلام في القلوب لأن شهوة الكلام سادت، والرغبة في الحجاج واللجاج، وإن لم تكن لغرض أو إصابة هدف، قد تغلبت، إذا كثر الكلام قل التأثير، ومن كان كثير التشديد، كان أشد افتقارا إلى السامع، من السامع إليه، لشغفه أن يذكر في البلاغ، وقال الجاحظ في وصف هذا النوع من المتكلمين: ومن أسف هذا الإسفاف، وغلب الشيطان عليه هذا الغلبة، كانت حاله داعية إلى قول الزور، والتعثر بالكذب، وصرف الرغبة إلى التمس والإفراط في مدح من أعطاه، وذم من منعه.

ولا شك أن هذا الضعف من المتكلمين كان كثيرا في المؤمنين وأنصارهم، ولا شك أيضا في أن سيادتهم للمنابر، واستيلائهم عليها مؤد حتما إلى انصراف الناس عن الخطبة والخطباء، وذلك مؤد حتما إلى ضعفها شيئا فشيئا.

وفي آخر العصر الأموي ضعفت الدواعي إلى الخطابة، لقلة الخروج على الخلفاء علنا، والاتجاه إلى التنمير السري، وشبهت الأمور في جميع الظلام، ولأن الخطب بين أيدي الخلفاء قد قلت، إذ لم يفرقوا قلوبا بعد أن قل الخارجون، واستغنى الخلفاء عن استئناء القلوب، وقد علمت أن ذلك كان من دواعي القول والبيان، ولهذا كله ضعفت الخطابة نسيا كما بينا، إلى أن نهضت في صدر الدولة العباسية أمدا قصيرا كما ستبين إن شاء الله تعالى.

الألفاظ والأساليب والمعاني

الألفاظ:

كانت ألفاظ الخطابة صاقية لا خشونة فيها، ولا حوشي، مع الجرالة والقوة، كما كانت في العصر السابق، وذلك لما اكتسبته من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والحضارة التي لم تفسد النفس، كما بينا آنفاً، فارجع إليه.

المعاني:

كانت المعاني الخطابية في ذلك العصر مختلفة باختلاف الخطباء: فخطب الخوارج سادتها المعاني الدينية، وهي في الجملة تشبه الخطب في العصر الإسلامي من هذه الناحية، وإنك لتقرأ خطب قطري بن الفجاعة أو أبي حمزة الشامي، فتجد مشابهة واضحة بينها وبين خطب الخلفاء الراشدين في معانيها وروحها، وإن كانت الثانية تقوم سلم تفكيرهم من الاندفاع، والخوارج لم تسلم عندهم منه، ولولا ذلك، وأن في خطب الخوارج قدفاً بالكفر لكثيرين، لكانت هي وخطب الأولين من المهاجرين والأنصار خرجاً من معنى واحد.

وخطباء الوعظ الديني كالحسن البصري، والشامي، وابن سيرين، وواصل بن عطاء، كانت كخطب السلف الصالح من كل الوجوه، لا من جهة المعاني فقط، خير أنها زيد فيها أمر لم يكن في خطب السلف، وهو القصص، والوعظ به، وضرب الأمثال الكثيرة، ومروق أخبار الماضين، ليمتع بها السامعون لهم، وتري ذلك واضحاً كل الوضوح في خطب الحسن البصري رضي الله عنه.

أما معاني خطباء الأمويين ومن لف لفهم، وسائرهم في أعمالهم وعقولهم في نهجهم فقد امتازت في الجملة:

١- بأنها كانت معاني تهديدية، يكثر فيها الإرعاد والتهديد، إذا كانت من الوالي أو الخليفة لقوم في نفوسهم شيء من السخط على الأمويين وحكومتهم، كخطبة زياد ابن أبيه في العراق، وخطب الحجاج فيه، فإن تلك الخطب تشبه الصخور التي يلقى بها الخطيب وجوه السامعين، وتشبه الإنذارات التي يهتر بها من يريد إيقاع عقوبة صارمة، أو إعلان حرب داعمة، ولا تعد خطباً يقصد بها إثناء القلوب، وجمعها على الجادة والسير بها في طريق الرشاد.

٢- وبأنها كان أكثرها في الفخر إذا كانت من خطباء القبائل المتحصنة لهم، كقول خطيب الأزدي عند عبد الملك، وقد علمت العرب أنا حي فعال، ولستأ بحي مقال، وأنا مجزى بفعلنا عن أحسن قولهم، إن السيوف لتعرف أكفنا، وإن الموت ليستعذب أرواحنا، وقد علمت الحرب الزمن أنا نقرع جماعها، ونحلب صراها. وإنما كثر الفخر بين هؤلاء لعودة العصبية، واستيلائها على نفوسهم، وبينما كثر عند هؤلاء الفخر، كثرت معاني المدح والمثل والتفاق في أرباع الخليفة، وأرباع الأمراء وبطانتهم، ومن لهم عندهم حاجة، أو يطلبون في نيل أمل.

٣- وبأنها كانت تشتمل على السب والإقذاع أحيانا، وإنك لترى ذلك واضحا في كثير من خطب الحجاج في أهل العراق، فإنك ترى فيها إفحاشا في الهجو، وإقذاعا. وكان الهجو العنيد الذي صاد الشعر في ذلك العصر سرى بعضه إلى الخطابة، فأخذت منه أشطرا، أو لعلها صندرا عن ينبوع واحد، وهو التنازع الذي فرق جماعات المسلمين، فاستباح كل أعراض الباقين، ولم نزع حرمة الدين، ولا وشائج القرى، ولا صلة الأرحام، واقرأ خطبة زياد ابن أبيه التي خطبها قبل أن يلتحق بمعاوية يرد بها على كتاب أرسله إليه، وجاء فيها: العجب من ابن أكلة الأكباد، وقائلة أسد الله، ومظهر الخلاف، ومسر التفاق، ورئيس الأحزاب، ومن أنفق ماله في إطفاء نور الله، كتب إلى يزيد بن، ويرقى عن سحابة جفل^(١)، لائم فيها، وعما قليل تسيرها الرياح قرعا^(٢)، والذي يدلني على ضعفه تهدده قبل القدرة، أفحن إشفاق على بعضه، وينذر. كيف أربه وبنى وبينه ابن بنت رسول الله ﷺ، وابن عمه في مائة ألف من المهاجرين والأنصار، والله لو أذن لي فيه، أو ندبني إليه، لأرینه الكواكب نهارا، ولأسعطته ماء الغرذل.

وما في الخطبة من الهجو لا يعتبر كثيرا بالإضافة إلى الهجو الذي كثر على السنة خطباء هذا العصر.

٤- والمبالغة والإغراق، لكثرة التفاق، والمخادع والمثل والمدح، فإن هذه الأمور يكون صوته المصدق فيها عافشا، وصوت الكذب غاليا، والمبالغات والغلو، ترد من أبواب الكذب، حيث تختفي الصراحة، هذا إلى أن تسابق الخطباء، في مدح الخلفاء جعل كلا يجتهد في المعاني، والغوص فيها ليصلوا إلى قصب السبق قبل غيرهم، وذلك يدفعهم حما إلى الإغراق.

(١) السحابة الجفل التي لا ماء فيها لأنه لئى. (٢) قطع السحاب المنقرعة.

أقرأ خطبة عمرو بن سعيد التي مدح فيها يزيد بن معاوية، عند العهد له، فقد جاء فيها:
أما بعد، فإن يزيد بن معاوية، أمل تأملونه، وأجل فأمنونه، إن استضفتكم إلى حلمه وسعكم، وإن
افتقرتم لذات يده أغناكم، جلع قارح^(١) سوق فسيق، وموجد فمجد، وقورع ففاز سهمه، فهو
خلف أمير المؤمنين ولا خلف منه.

✍ الأسلوب:

كان الأسلوب في ذلك العصر يشبه الأسلوب في عصر الخلفاء الراشدين في الاقتباس
من القرآن الكريم والسنة النبوية وتجميل الخطبة أحياناً ببعض أبيات الشعر، وتقسيم الخطبة إلى
مقدمة تشتمل على حمد الله، والثناء عليه، وموضوع، وخاتمة.

ولكن كثر في خطب ذلك العصر الازدواج، وهو أن تكون الخطبة مقسمة إلى فقرات
متناسقة، وإن لم تكن ذات قواف متصلة. أقرأ خطبة عبد الملك بن مروان التي خطبها بعد قتل
مصعب بن الزبير في العراق، تراها ذات فقرات متناسقة، وقد كان على شاكلتها كثير من
خطب هذا العصر.

وكثر أيضاً الاجتهاد في تحسين الخطب، وتجميل الكلام، وإن كانت السليقة العربية
التي امتاز بها أكثر خطباء الأمويين والخوررج، قد ستوت ذلك التكلف، ولم تظهره، وإنك
لتلمح في خطبة الحجاج التي قالها في أول مقدمه إلى العراق، الصناعة المحكمة، والمقصد إلى
التحسين. ولعل السبب في كثرة تحسين الخطبة في ذلك العصر أن كثيراً من الخطباء كانوا
يزورون كلامهم قبل إلقائه، ويجمعون الفكرة قبل أن يقدموا للخطبة، وأقرأ ذلك الخبر الذي
جاء في العقد الفريد:

قيل لبعض الخلفاء: إن شبيب بن شيبه يستعمل الكلام ويستعده، فلو أمرته أن يصعد
المنبر لرجوت أن يفتضح، قال: فأمر رسولاً أن يأخذ بيده إلى المسجد، فلم يفارقه حتى صعد
المنبر.

ألا يدل ذلك الخبر على أن التهيئة قد كثرت حتى كان يتهم بها بعض المجيدين المفا،
فإنه لا اتهام في أمر يكون بعيد الحصول، غير قريب من المؤلف المعروف. وربما كان من
أسباب الانحياز إلى تحسين الكلام وتنميقه - المباريات التي كانت تقوم بين الخطباء فإن كلا

(١) شاب قوي.

كان يحاول سبق، والإبداع في الأسلوب والمعالي، ليكون الأخطب والأسبق. ومن الأسباب أيضاً أن الكلام صار شهوة، وصار موضع فخر، وكل ذلك يدفع الإنسان إلى التحسين. وقد دفعهم ذلك أيضاً إلى محاولة أن يضعوا أصولاً للخطابة ويلقنوها للتبعية، كما كان يفعل الأثينيون في عصور ازدهار الخطابة، فقد ورد في البيان والتبيين والعقد الفريد أن إبراهيم بن جيلة بن مخزومة السكوني كان يعلم الفتية الخطابة، ومر به بشر بن المعتز على ما بينا في القسم الأول، وإبراهيم هذا كان من أصحاب عبد الملك بن مروان، وعاش إلى خلافة المنصور العباسي، وهذا الخبر في جملة ما يدل على أن الخطابة كانت تلقن، وتعلم في آخر العصر الأموي، وابتداء العصر العباسي، وأن الناس قد ابتدأوا يفكرون في وضع أصول لها، حتى جاء العصر العباسي بترجمته وعلومه، فترجمت الأصول الخطابية اليونانية فيما ترجم في العصر العباسي كما بينا.

طول الخطب وقصرها:

خطب الخوارج في جملة ما أميل إلى الطول، لما كانت تشتمل عليه من الحجج والأدلة، والمآخذ على حكم الأمويين، وإعلان مساوئهم، فترى خطب أبي حمزة الشامي، وقطري وغيرهما من خطباء الخوارج فيها الطول واضحا، وقد رويت مع طولها، ونقلتها المصادر الأدبية كالبيان والتبيين، والعقد الفريد، والأمال، والكامل، فدل ذلك على لقائتها وجودتها.

وخطب الوهاظ والزهاد، كالشعي وأبن سيرين والحسن البصري أميل إلى الإيجاز، أخذوا بمذهب السلف الصالح، ونهى النبي ﷺ عن طول الخطبة، ولخوفهم من أن تكون الإطالة لولة، وفيهقا، وتشادقا، وكل أولئك قد نهى عنه النبي ﷺ.

وخطب الأمويين ومن بعدهم، ومن كان على شاكلتهم فيها الطول المفرط في الطول، وفيها المتوسط، وفيها القصير المفرط في القصير، فترى خطبة سحبان بن يدي معاوية، عندما أحضره لقولها مفرطة في الطول كما ذكرنا، وخطب الحجاج، وزهاد ابن أبيه وغيرهما. بين الطول والقصير، وخطب النعمان أرفج عليهم في الخطبة قصيرة جداً، ومن ذلك خطبة خالد بن عبد الله القسري عندما أرفج عليه، فاعتذر قائلاً:

أيها الناس إن الكلام يجمع أحياناً، فيتسبب سيئه، ويعزب أحياناً، فيعز طلبه، فربما طولب فأني، وكوهر فعصى، فالتأني ليجه أصوص من التعاطي لأيه.

وقد كان بعض الخطباء يعمد إلى ذلك النوع من الإيجاز من غير ضرورة ولا إحتاج،
 كما فعل يزيد بن المقفع، عند أخذ البيعة ليزيد بن معاوية، إذ قال: أمير المؤمنين هنا- وأشار
 إلى معاوية- فإن هلك فهذا- وأشار إلى يزيد- فمن أبي فهذا- وأشار إلى سيفه.

فقال معاوية: اجلس، فإنك سيد الخطباء.

وربما كان يدفعهم إلى ذلك التطويل المقصود، والتقصير المقصود، قصد التفنن، وبيان
 البراعة، وإثبات قدرتهم على الوفاء في الطول من ضرايمال، وعلى الإيجاز الذي يعد الأكترون
 البلاغة فيه.

وليس معنى ذلك أن تطويلهم وإيجازهم لم يكن مراعى فيه مقتضى الحال، بل إن
 مراعاة المقام كانت ثابتة في كثير من أقوالهم، ولكن حرصهم على الاشتهار بالبراعة كان
 لا يقلل عن حرصهم على ملاحظة المقام، لأن القول صار غرضاً لثقله في ذلك العصر على
 ما بيناه آنفاً.

المأثور من الخطب

المأثور من خطب ذلك العصر كثير، ولكنه إذا أُضيف إلى كثرة الخطباء، وإلى تنوع الموضوعات، واتساع أغراض القول، كان قليلاً، ولعل السبب في ذلك أن الرواية كان المعمول فيها على الحافظة، والتسميان قد يتطرق إليها. قال الأستاذ المرحوم المهدي (هـ): لقد نظرت في عدد الخطباء المجيدين، فوجدته يروى على عدد الشعراء، ولكن ما أثر عنهم من الخطب دون ما أثر عن الشعراء، وسبب ذلك فيما أرى أن الأمة كانت حديثة العهد بالكتابة، وكانت معتمدة على حافظتها.. على أن الذي وصل إليها ليس في نفسه قليلاً، وإن قل بالإضافة إلى قائله، فإن كثيراً من الخطباء المشهورين، لا يحفظ له إلا خطبة واحدة.

الخطباء

كثر عدد الخطباء في ذلك العصر كثرة مدحشة، وتعددت طوائفهم، واختلفت نواحيهم، ومذاهبهم الفكرية، وكان لكل حزب خطباء، ولكل فئة من الناس متكلمون.

فمن خطباء آل البيت عبد الله بن الحسن، وزيد بن علي بن الحسين وكانا أقوم أهل زمانهما لساناً وحجة.

ومن خطباء الأمويين معاوية، وزيد، وعبد الملك بن مروان، ومعاوية بن يزيد، وعمر بن عبد العزيز وزهاد ابن أبيه، وهو الذي يقول فيه الشعبي: ما سمعت متكلماء على منبر قط فأحسن، إلا تمنيت أن يسكت خوفاً من أن يسع. إلا زياداً فإنه كان كلما أكثر كان أجود كلاماً، والحجاج بن يوسف الثقفي.

ومن الخطباء الذين فازعوا بني أمية الخلافة عبد الله بن الزبير ومصعب أخوه وكثيرون من أسرتهما.

ومن خطباء الخوارج نظري بن الفجاءة، وعمران بن حطان، وأبو عبيدة الأباخي، وأبو حمزة الشاري.

ومن خطباء المجالس خالد بن يزيد بن معاوية، وأيوب بن القرية وهو الذي قلل للحجاج وفد خافه: أقلني عشري، واستقني رقي، فإنه لا بد للجواد من كبرة، وللسيف من نبوة، وللجليم

من هفزة . فقال له للحجاج : كلا حتى أوردك جهنم ، ألسن القائل : تغدوا الجدي قبل أن يتعشاكم .

ومن السالك الحسن البصري ، ومطرف بن عبد الله الحرشي ، ويكر بن عبد الله المزني ، ومالك بن دينار ، وكل هؤلاء قاصي موجز .

وغير هؤلاء الذين ذكرناهم كثيرون جداً . وقبل أن نترك هذا الموضوع لابد أن نشير إلى ضائفة من الموالى أجادوا الخطابة ، كالحرب ، بل ربما فاقوا كثيرين من بلقاء الخطباء ، ومن هؤلاء الحسن البصري ، وقد روى أن السيدة عائشة رضي الله عنها سمعته يتكلم ، فقالت : من هذا الذي يتكلم بكلام العبدقين . ومنهم طارق بن زياد صاحب الخطبة المشهورة التي قالها عند غزو الأندلس ، فإنه كان بربرياً ولم يكن عربياً .

نماذج من خطب هذا العصر

١٤- خطبة معاوية في أهل الكوفة بعد الصلح

يا أهل الكوفة، أتراني فأتلتكم على الصلاة والزكاة والحج، وقد علمت أنكم تصلون وتزكون، وتحجون، ولكنني لمأتلكم لأناسر عليكم وعلى رقابكم، وقد أتاني الله ذلك، وأنتم كارهون. ألا إن كل مال أو دم أصيب في هذه الفتنة فمطلول، وكل شرط شرطته ففحوت قدمي هاتين، ولا يصلح الناس إلا ثلاث: إخراج العطاء عند محله، وإقفال الجنود لوقتها، وغزو الحدود في داره، فإنه إن لم تغزوهم غزوكم.

— خطبة معاوية في المدينة المنورة

جاء في العقد الفريد: لما قدم معاوية المدينة المنورة عام الجماعة، تلقاه رجال من قريش فقالوا: الحمد لله الذي أحرز نصرك، وأعلى كعبك. فوالله ما رد عليهم، حتى صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أما بعد، فإني والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم، ولا مسرة بولايتي، ولكني جالدتكم بسيقي هذا مجالدة. ولقد رضيت لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة وأردتها على عمل عمر، فنفرت من ذلك نفاراً شديداً، وأردتها على منيات عثمان، فأبت على، فسلكت بها طريقاً لي ولكم فيه منفعة، مؤكلة حسنة، ومشاورة جميلة، فإن لم تجلدوني خيركم، فإني خير لكم ولاية. والله لا أحمل السيف على من لا سيف له، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفى به اللسان بلسانه، فقد جعلت ذلك له دبر أذني، وتحت قدمي، وإن لم تجلدوني أقوم بحقوقكم كله فاقبلوا مني بعضه، فإن أناكم مني خير فاقبلوه فإن السيل إذا جاء يثرى، وإذا قل أغنى، وإياكم والفتنة، فإنها تفسد المعيشة، وتكدر النعمة.

رثاء ابن الحنفية لأخيه الحسن

لما مات الحسن بن علي رضي الله عنه، رثاه أخوه ابن الحنفية، فقال: رحمتك الله أبا محمد، فلئن عزت حياتك، لقد هلت وفاقك، ولنعم الروح روح تضمه بذلك، ولنعم الجسد

جسد فضمنه كفنك، ولنعم الكفن كفن فضمنه لحبك، وكيف لا تكون كذلك، وأنت سليل الهدى، وخامس أصحاب الكساء^(١)، وخلف أهل الثقوى، وجدك النبي المصطفى وأبوك على المرتضى، وأمك فاطمة الزهراء، وعمك جعفر الطيار في جنة المأوى. وغدتك أكف الحق، وريت في حجر الإسلام، ورضعت لدى الإيمان، فطبت حيا وميتا، فلفن كانت الأنفس غير طيبة لفراقك، إنها غير شاكّة أن قد خير لك، وأنت وأخاك سيدا شباب أهل الجنة، فعليك أبا محمد منا السلام.

خطبة زياد بن أبيه بالبصرة

جاء في البيان والتبيين: قال أبو الحسن المدايني عن مسلمة بن محارب، وعن أبي بكر الهذلي، قال: قدم زياد البصرة واليا لمعاوية بن أبي سفيان، وضم إليه خراسان، وسجستان، والفسق بالبصرة كثير فاش ظاهر، قالوا: فخطب خطبة براء لم يحمد الله فيها. وقال غيرهما: بل قال: الحمد لله على أفضاله، وإحسانه، ونسأله المزيد من نعمه وإكرامه، اللهم كما زدنا نعماء، فآلهمنا شكرا. أما بعد: فإن الجهالة الجهلاء، والفضالة العمياء، والفي الموقى بأهله على النار، ما فيه سفهاؤكم ومثمنل عليه حطماؤكم، من الأمور العظام، بقيت فيه الصغير، ولا يتحاشى عنها الكبير، كأنتكم لم تقرأوا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أهد الله من الشراب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته، في الزمن السرمدي الذي لا يزول، أنكونون كمن طرفت^(٢) عينيه الدنيا وملت مسامحه الشهوات، واختار الفانية على الباقية، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه، من ترككم الضعيف بقهر، وبؤخذ ماله. هذه المواخر^(٣) المنصوبة، والضعيفة المسلموة في النهار المصير، والعدد غير قليل. ألم تكن منكم نهاء عن دليج الليل^(٤)؟ قرتم القرابة، وباعدتم الدين، تعتذرون بغير العذر، وغضون عن المختلس، كل امرئ منكم يذب عن سفيحه، صتيح من لا يخاف عاقبة، ولا يرجو معافا، ما أقتم

(١) أصحاب الكساء هم فاطمة وعلى والحسن والحسين والنبي ﷺ لأن النبي ﷺ ضمهم إليه في مرط أسود عندما دها نصارى مجران إلى مهاكلته كما قل تعالى: قل تعالوا ندع أبناءنا، وأبناءكم... إلخ.

(٢) يقال طرف عينه إذا أطلق أحد العينين على الآخر.

(٣) جمع مأخوذة وهي بيت الزانية. فارسي معرب أو عربي مشتق من مغزاة السفينة إذا ترددت في البحر، لأن الناس يترددون عليه.

(٤) الدليج: السور ليلا.

بالطمعاء، ولقد تبعتم السفهاء، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم، حتى انتهكوا حرم الإسلام ثم أخرجوا وراءكم كتوماً^(١) في مكانس الريب. حرام على الطعام والشراب، حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً. إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما يصلح به أوله، لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف. وإني أقسم بالله لأخذن الولي بالمولى، والمقيم بالطاعن، والمقبل بالمخير، والمطيع بالمعصى، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم، حتى يلقي الرجل منكم أخاه، فيقول: أيج سعد، فقد هلك سعيد، أو تستقيم قناتكم. إن كذبة النير بقاء مشهورة، فإذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم معصيتي، فإذا سمعتموها مني، فاغتمزوها^(٢) في، واعلموا أن عندي أمثالها. من نقب منكم عليه، فأنا ضامن لما ذهب منه. فإيها ودلج الليل، فإني لا أوتي بدلج إلا سفكت دمه، وقد أجلتكم في ذلك بعقدار ما يأتي الخبر الكوفة، ويرجع إليكم، وإيها ودعوى الجاهلية فإني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه. وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة، فمن غرق قوماً غرقناه، ومن حرق على قوم حرقناه، ومن نقب على أحد نقينا على قلبه، ومن نيش قبرا دفناه حيا فيه، فكفوا عني أيديكم وألستكم أكلف عنكم يدي ولساني. ولا تظهر على أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه. وقد كانت بيني وبين أقوام إحن، فجعلت ذلك دبر أذني، وتحت قدمي، فمن كان منكم محسناً فليزدد إحساناً، ومن كان منكم مسيئاً فليخرج عن إساءته، إني والله لو علمت أن أحدكم قد قتل المسلم من بغضي، لم أكشف له قناعاً، ولم أهتك له ستراً، حتى ييذي لي صفحته، فإذا فعل ذلك لم أناظره، فاستأنفوا أموركم، وأعينوا على أنفسكم، فرب مهتس يقتومنا ميسر، ومسرور يقتومنا مبيتس.

أيها الناس، إنا أصبحنا لكم ماسة، وعنكم ذادة، نسوسكم بسلاطان الله الذي أعطانا، نفود عنكم بفرع الله الذي حولنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا، ولكم علينا العدل فيما أولينا، فامتوجبوا عدلنا وفيتنا بمناصحتكم لنا، واعلموا أي مهما قصرت فلن أقصر عن ثلاث: لست محتجبا عن طالب حاجة، ولو أناني طارفاً بليل، ولا حابسا عطاء ولا رزقا عن إبانة، ولا مجسرا لكم بعثا، فادعوا الله بالصلاح لأتمتكم فإنهم مامتكم المؤدبون لكم، وكهفكم الذي يلزم تلوون، ومتى يصلحوا تصلحوا، ولا تشرىوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غمظكم ويطول له حزنكم ولا تتركوا حاجتكم، مع أنه لو استجب لكم فيهم، لكان شرا لكم،

(١) كتوما جمع كانس. وهو المستر. والكانس.

(٢) الاغتمز: التلمس.

أسأل الله أن يمين كلا على كل، وإذا رأيتموني أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على إذلاله، وأيم الله إن لي فيكم لصراعى فليحطر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاى.

خطبة عبد الله بن همام السلولى

يعزى يزيد فى معاوية ويهينه بالخلافة

بأمر المؤمنين، أجرك الله على الرزية، وبارك لك فى العطية، وأعانتك على الرعية، فلقد رزئت عظيماء، وأعطيت جسيماء، فاشكر الله على ما أعطيت، واصبر له على ما رزئت، فقد تقيت خليفة الله، ومنحت خلافة الله، ففارت جليلا، ووهبت جزيلا، إذ قضى معاوية نجه، فغفر الله ذنبه، ووليت للرئاسة، فأعطيت السياسة، فأوردك الله موارد السرور، ووفقك لصالح الأمور. وأنشد:

فأصبر يزيد فقد فارت ذائقة	واشكر حباء الذى بالملك أصفاك
لا رزء أصبح فى الأقوام نعلمه	كما رزئت ولا عفى كعقباكا
أصبحت وإلى أمر الناس كلهم	فأنت ترعاهم والله برعاكا
وفى معاوية البالى لنا خلف	إذا نعت، ولا نسمع بمنعاكا

خطبة عبد الله بن عباس

ينهى الحسين عن الخروج إلى العراق

قال ابن عباس ينهى الحسين عن الخروج إلى العراق: يا ابن عم، إني أنصرك، ولا أصبر، وإني أتحذرك من هذا الوجه الهلاك والاستعصال، إن أهل العراق قوم غنر^(١)، فلا تقرنهم، أقم بهذا البلد، فإنك سيد أهل الحجاز، فإن كان أهل العراق يريدونك كعبا زعموا، فاكذب إليهم، فليثقوا صدورهم، ثم أقدم عليهم، فإن أبيت إلا أن نخرج. فسر إلى اليمن، فإن بها حصونا وشعبا^(٢)، وهى أرض عريضة طويلة ولأبيك بها شعبة. وأنت عن الناس بعزلة، فتكتب إلى الناس، وترسل، وتبث دعائك، فإني أرجو أن يأتيك عند ذلك الذى تحب فى حافية.

(١) جمع غنر كصبور.

(٢) الشعاب جمع شعب وهو الطريق فى الجبل.

خطبة الحسين رضي الله عنه

وقد أحس بفقد أهل العراق

أيها الناس، إن رسول الله ﷺ قال:

«من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله ﷺ، يعمل في عباد الله بالإلحاح والعدوان، فلم يتحر عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله».

ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلوا حرام الله، وحرموا حلاله، وأنا أحق من غيره. وقد أتتني كتبكم، وقدمت على رسلكم ببيعكم، ألا تسلموني ولا تحذلونني، فإن تممت على بيعكم، تصيبوا رشدكم، وأنا الحسين بن علي، وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، نفسي مع أنفسكم، وأهل مع أهلكم، فلکم فی أموة، وإن لم تفعلوا، ونقضتم عهدكم، وخلفتم بيعتي من أعتاقكم، فلعمرى ما هي لكم بنكر. لقد فعلنموها بأبي وأمي وأبي أعمى مسلم، والمغرور من آخر بكم، فحفظكم أعظمتكم، ونصيبكم ضيعتم، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه، وسيغني الله عنكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

خطبة المسيب بن نجبة الغزاري

يعلن التوبة عن التقصير في نصرة الحسين

حمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ، ثم قال:

أما بعد فإننا قد ابتلينا بطول العمر، والتعرض لأنواع الفتن، فنرغب إلى ربنا ألا يجعلنا من يقول له غدا، لو لم نصركم ما يذكر فيه من تذكر وجلاءكم النكير، فإن أمير المؤمنين قال: العمر الذي أهدر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة، وليس فينا رجل إلا وقد بلغه، وقد كنا مغرمين بتوكية أنفسنا، وفقرط شهتنا، حتى بلا الله أخبارنا فزجنا كأنهم في مواطن من مواطن ابن أخته نبينا ﷺ، وقد بلغتنا قبل ذلك كتيب، وقدمت علينا رسله، وأهدر إلينا يسألنا نصرة، صوطاً وبداءً وعلاتية، وسراء، فيخلصنا عنه بأنفسنا، حتى قتل إلى جانبنا، لا نحن نصرتنا بأيدينا، ولا جاهدنا عنه بأستتنا، ولا قويتنا بأموالنا، ولا طلبنا له النصرة إلى عشائرتنا فما علمنا

إلى ربنا، وعند لقاء نبينا ﷺ، وقد قتل ولده وحبيبه وخويته ونسله، لا والله لا عذر دون أن تقتلوا قاتله، والموالين عليه، أو تقتلوا في طلب ذلك، فعسى ربنا أن يرضى عنا عند ذلك، وما أنا بعد لقائه لحقوبته بأمن.

أيها القوم، ولوا عليكم رجلا منكم، فإنه لا بد لكم من أمير تفرعون إليه، رواية تحفون بها، أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم.

خطبة عبد الملك بن مروان في العراق

دخل الكوفة بعد أن قتل مصعب بن الزبير، فحمد الله، وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ، ثم قال: أيها الناس إن الحرب صعبة مرة، وإن السلم أمن ومسرّة، وقد زينت^(١) الحرب، وزيناها، فحرفناها، وألفناها، فتحن بنوها، وهي أمتنا. أيها الناس، فاستقيموا على سبيل الهدى، ودعوا الأهواء المردية، وتجنبوا فراق جماعات المسلمين، ولا تكلفونا أعمال المهاجرين الأولين، وأنتم لا تعملون أعمالهم، ولا أفئتنكم توادون بعد الموعظة إلا شرّاً، ولن نؤاد بعد الإعذار إليكم والحجة عليكم، إلا عقوبة، فمن شاء منكم أن يعود لمثلها، فليعد، فإنما مثلي ومثلكم كما قال قيس بن رفاعة:

من يصل نارى بلا ذنب ولا ترة يصل بنسار كريم غير غدار
أنا النذير لكم متى مجاهرة كبلأ ألام على نهى وإلدار
فإن عصيتم مقالى اليوم فاعترفوا أن سوف تلقون حزناً ظاهراً قمار

خطبة الحجاج حين قتل عبد الله بن الزبير

لما قتل الحجاج عبد الله بن الزبير ارتجت مكة المكرمة بالبكاء، فبعد المنبر، فقال:
ألا إن ابن الزبير كان من أحبار هذه الأمة، حتى رغب في الخلافة، ونازع فيها، وخلع طاعة الله، واستكن بحرم الله، ولو كان شيء مانعاً للأعصاة، لمنع آدم حرمة الجنة، لأن الله تعالى خلقه بيده، وأسجد له ملائكته، وأباده جهنم، فلما عصاه أخرجته منها بخطيئته، وأدم على الله أكرم من ابن الزبير، والجنة أعظم حرمة من الكعبة.

(١) زيندها دله، وحرب زبون حتى يدفع بعضها بعضاً.

خطبة له أخرى في أهل العراق وأهل الشام

يا أهل الكوفة، إن الفتنة تلقح بالنجوى، وتنتج بالشكوى، وتحصد بالسيوف، أما والله إن أبغضتموني لا تضروني، وإن أحببتموني لا تنفعوني، وما أنا بالمستوحش لعناوتكم، ولا المستريح إلى مودتكم، زعمتم أنني ساحر، وقد قال الله تعالى: «ولا يفلح الساحر» وقد أفلحت، وزعمتم أنني أعلم الاسم الأكبر، فلم تقابلون من يعلم ما لا تعلمون؟

ثم التفت إلى أهل الشام فقال: لأزواجكم أطيب من المسك، ولأبنائكم أنس بالغلب من الولد، وما أنتم إلا كما قال أخو ذبيان:

إذا حاولت في أسد فيجورا فإني لست منك ولست مني

هم درعى التي استلأمت فيها إلى يوم التمار وهم مجنى

ثم قال: بل أنتم بأهل الشام كما قال الله سبحانه: «ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين، إنهم لهم المنصورون، وإن جندنا لهم الغالبون».

خطبة لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه

خطب عمر بن عبد العزيز الناس فقال: أيها الناس، لا يطولن عليكم الأمد، ولا يمدن عليكم يوم القيامة، فإن من وافقه منيته فقد قامت قيامته، ولا يستعقب من شيء، ولا يزيد في حسن، ألا لا سلامة لأمرئ في خلاف السنة، ولا طاعة لمخلوق في معصية الله، ألا وإنكم تعدون الهارب من ظلم إمامه عاصياً، ألا وإن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم، ألا وإنني أعالج أمراً لا يعين عليه إلا الله، قد ضنى عليه الكبير، وكبر عليه الصغير، وأنصح عليه الأعجمي، وهاجر عليه الأعرابي، حتى حسوه دينا لا يرون الحق غيره. ثم قال: إنه لحبيب إلى أن أوفر أموالكم وأعراضكم إلا بحقها، ولا قوة إلا بالله.

خطبة لقطري بن الفجاءة

أما بعد... فإني أحذركم الدنيا، فإنها جولة خضرة، حفت بالشهوات وراقت بالقليل، ونجبت بالمأجلة، وحليت بالأمال، وزينت بالغرور، لا تدوم نضرتها، ولا تؤمن فجعتها، فزارة

ضراعة، وحائلة زائلة، وثاقدة بائدة. لا تعدو إذا تناهت إلى أمنية أهل للرغبة فيها، والرضا عنها، أن تكون كما قال الله عز وجل.

﴿ كماء أنزلناه من السماء، فاختلط به نبات الأرض، فأصبح هشيما ظمورا الرياح، وكان الله على كل شيء مقتدرا ﴾.

مع أن امرئاً لم يكن منها في حيرة^(١)، إلا أعقبته بعدها عيرة، ولم يلق من مرائها بظنا، إلا منحتة من ضرائها ظهرا، ولم تحصل منها ديمة رخاء، إلا هطلت عليه مرنة بلاء. وحرية إذا أصبحت له منتصرة أن تمسى له خائلة متكررة، وإن جانب منها اعتذوب وأحلولى، أمر عليه جانب فأوبأ، وإن ليس امرؤ من غضارتها ورفاهيتها نعماء أرهقت من نواحيها ضما، ولم يمس امرؤ منها في جناح آمن، إلا أصبح منها في قوادم^(٢) خوف، غرارة ضرور ما فيها فالية فإن من عليها لا خير في شيء من زادها إلا التقوى، من أقل منها استكثر بما يؤمنه، ومن استكثر منها استكثر مما يورقه^(٣)، كم واثق بها قد فجسته، وذى طمأنينة إليها قد صرعه، وكم من مختال بها قد خدعته، وكم ذى أبهة قد صيرته حقيرا، وذى نخوة قد رذته ذليلا، وذى ناج قد كبته^(٤) لليدين والقم. سلطانها دول، وعيشتها رثى^(٥)، وعذبها أبحاج^(٦)، وخلوها مسر، وغذاؤها سمسم^(٧)، وأسابيها زحام، وقطافها سلع^(٨)، حياها بعرض موت، وصحيحها بعرض سقم، ومنيعها بعرض اختضام، سليكها مسلوب، وعزيزها مغلوب، وسليمها منكوب. وجامعها^(٩) محروب، مع أن وراء ذلك سكرات الموت وزفراته، وهول المظلم، والوقوف بين يدي الحكم العدل ﴿ لهجزى الذين أساءوا بما عملوا، وهجزى الذين أحسنوا بالحسن ﴾. ألتسم في مساكن من كان قبلكم أطول منكم أعمارا، وأوضح منكم آثارا، وأعد عبيدا، وأكثف جنودا، وأعد عتادا^(١٠)، وأطول صنادا، تعيدوها أى تعيد، وآثروها أى إشار، وظعنوا عنها بالكراه والصغار. فهل بلغكم أن الدنيا سمحت لهم نفسا بقدية، وأغنت عنهم مما قد أملتهم به، بل أرهقتهم بالقوادح، وضعفتهم بالنوائب، وعفرتهم للعتاخرة، وأعالت عليهم ربب المتون، وقد رأيتكم تنكروا لمن دلك لها وأمرها،

(١) أكر نعيمه وحسن. (٢) قوادم الطير الرش الذي في مقدمته، والمراد هنا مظاهر الخوف.

(٣) يورقه يهلكه. (٤) كبه صرعه أو رماه في موه. (٥) رثى كثر.

(٦) الماء الأبحاج الملح المر. (٧) السمسم جمع سم.

(٨) القطاف اسم لما يقطف من عنب أو ثمرة والسلع بفتح اللام شجر مر أو الصبر أو سم.

(٩) المحروب المسلوب. (١٠) العتاد ما يعتد به في المعينة من مال وسلاح وقوة.

وأخذ إليها حتى ظعنوا عنها لفراق الأبد، إلى آخر الأمد، هل زودتهم إلا الشقاء، وأحلتهم إلا الضنك، أو نورت لهم إلا الظلمة، وأعقبهم إلا الندامة، أفهذه تؤثرون، أو على هذه تخرصون، أو إليها تظعنون، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها توق إلىهم أعمالهم فيها، وهم فيها لا يبخسون﴾ أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار، وحبط ما صنعوا فيها، وباطل ما كانوا يعملون﴾.

فبست الدار لمن لم يتهمها. ولم يكن فيها على وجل منها، فاعلموا وأنتم تعلمون أنكم تاركوها لأبد، فإنما هي كما نعت الله عز وجل لعب ولهو وزينة وتفاخر بهتكم وتكاثر في الأموال والأولاد، فاعملوا فيها بالذين يبنون بكل ريع آية، وبالذين قاتلوا من أشد منا قوة، وانعضوا بمن رأيتم من إخوانكم، كيف حملوا إلى قبورهم، فلا يدعون ركبانا، وأنزلوا، فلا يدعون ضيفانا، وجعل لهم من الضريح أكثان، ومن التراب أكفان، ومن الرفات جيران، فهم جيرة لا يجيبون داعيا، ولا يمتعون ضيفا، يزرون ولا يستزارون، حلماء قد ذهب أضيافهم، وجهلاء قد مات أحقادهم، لا يخشى فيجهم، ولا يرجى دمعهم، وهم كمن لم يكن، قال الله تعالى: ﴿فتلك مما كنهم لم نكُن من بعدهم إلا قليلا، وكنا نحن الوارثين﴾، استبدلوا بظهر الأرض بطناء، وبالسعة ضيقا، وبالأل غربة، وبالنور ظلمة، فجاءوها حفاة عراة فرادى، وظعنوا بأعمالهم إلى الحياة الدائمة إلى خلود الأبد، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده، وعدا علينا، إنا كنا فاعلين﴾، فاحلروا ما حذركم الله، وانشفعوا بمواعظه، واعتصموا بحبله، عصمنا الله وإياكم بطاعته، ورزقنا وإياكم أداء حقه.

خطبة أبي حمزة الشاري بمكة المكرمة

جاء في كتاب البيان والتبيين: دخل أبو حمزة الخارجي مكة المكرمة، وهو أحد نساك الأباضية، وخطبائهم، واسمه يحيى المختار - فصعد المنبر متوكفا على قوس له حرية، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إن رسول الله ﷺ كان لا يتأخر، ولا يتقدم، إلا بإذن الله، وأمره وروحه، أنزل الله له كتابا بين له فيه ما يأتي، وما يتقى، فلم يكن في شك من دينه، ولا شبهة في أمره، ثم قبضه الله إليه، وقد علم المسلمون معالم دينهم، وولى أبا بكر صلاتهم، فولاء المسلمون أمر دنياهم، حين ولاء رسول الله ﷺ أمر دينهم، فقاتل أهل الردة، وعمل بالكتاب

والسنة، فمضى لسبيله رضى الله عنه. ثم ولي عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه، فسار بسيرة صاحبه، وعمل بالكتاب والسنة، وجبى الفج، وفرض الأعطية، وجمع الناس في شهر رمضان، وجعل في الخمر ثمانين، وغزا العدو في بلادهم، ومضى لسبيله رضى الله عنه، ثم ولي عثمان بن عفان، فسار ست سنين بسيرة صاحبيه، وكان دونهما، ثم سار في السنة الأواخر بما أحيط به الأوائل، ثم مضى لسبيله رضى الله عنه. ثم ولي علي بن أبي طالب قلم يبلغ من الحق قصدا، ولم يرفع له منارا، ثم مضى لسبيله رضى الله عنه، ثم ولي معاوية بن أبي سفيان لعين رسول الله، وابن لعينه، اتخذ عبيد الله خوفاً^(١) ومال الله دولا^(٢) ودين الله دخلاً^(٣) ثم مضى لسبيله، فالعنوه لعنة الله. ثم ولي يزيد بن معاوية، يزيد للخصوم، ويزيد القروء، ويزيد اليهود، الفاسق في بطنه..... لم اقتصم خلفه خليفة فلما انتهى إلى عمر بن عبد العزيز أعرض عنه، ولم يذكره، ثم قال: ثم ولي يزيد بن عبد الملك الفاسق في بطنه..... الذى لم يؤنس منه رشد، وقد قال تعالى في أموال الرعام، ﴿ فَإِنْ أَنْتَم مِّنْهُمْ رَّشَدُوا فَأُولَٰئِكَ سَبْحَاءُ ﴾ فأمر أمة محمد أعظم. يأكل الحرام، ويشرب الخمر، ويلبس الحلة قومت بألف دينار، قد ضربت فيها الأبخار، وهتكت فيها الأستار، وأخذت من غير حياء، حياء^(٤) من يمينه، وسلامة عن يساره نقياته، حتى إذا أخذ الشراب منه كل مأخذ قد ثوبه، ثم التفت إلى إحداهما، فقال: «ألا أظن» نعم فطر إلى لعنة الله، وحرق ناره، وأليم عتابه.

وأما بنو أمية لفرقة ضلالة، وبطشهم بطش جبرية، يأخذون بالظنة، ويقضون، بالهوى ويقتلون على الغضب، ويحكمون بالشفاعة، يأخذون القريضة من غير موضعها، ويضعونها في غير أهلها، وقد بين الله أهلها، فجعلهم ثمانية أصناف، فقال سبحانه: «إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ، وَالْمَسْكِينِ، وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا، وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ، وَفِي الرِّقَابِ، وَالْفَارِسِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَابْنِ السَّبِيلِ». فأقبل صنف تاسع ليس منها، فأخذها كلها تلكم الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله.

وأما هذه الشيع فشيخ ظاهرت بكتاب الله، وأعلنت الغربة على الله، لم يغارفوا الناس ببصر لافد في الدين، ولا يعلم نافذ في القرآن الكريم، ينقمون للمعصية على أهلها، ويعملون إذا ولوا بها، يصرون على الفتنة ولا يعرفون الخرج منها، جلاء عن القرآن الكريم، أتباع كهان، يؤملون ألا تبعث الموتى، ويعتقدون الرجعة إلى الدنيا، فلدوا دينهم رجلا لا ينظر لهم، قائلهم

(١) عينا. (٢) جمع دبل وهي ما يتداول من المال.

(٣) الدخل ما به فساد. (٤) حياء وسلامة قيتان كان بهما.

الله، أنى يؤفكون. ثم أقبل على أهل الحجاز، فقال: يا أهل الحجاز، أتعبروننى بأصحابى، وترعمون أنهم شباب، وهل كان أصحاب رسول الله ﷺ إلا شباباً، أما والله إنى لعالم بتتابعكم فيما يضركم فى معادكم، ولولا اشتغالى بغيركم عنكم ما تركت الأخذ فوق أيديكم، شباب والله مكتهلون فى شبابهم، فضيضة عن الشر أعينهم، نقيلة عن الباطل أرجلهم، أنضاء^(١) عبادة، وأطلاح^(٢) سهر، فحظر الله إليهم فى جوف الليل، منخية أصلابهم على أجزاء القرآن الكريم، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً إليها، وإذا مر بآية من ذكر النار شهن شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه، وصل كلالهم^(٣) بكلالهم، كلال الليل بكلال النهار، قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم واستقلوا ذلك فى جنب الله، حتى إذا رآوا السهام قد فوقت^(٤) والرماح قد أشرعت^(٥)، والسيوف قد انتضيت^(٦)، ورعدت الكتية بصواعق من الموت وبرقت، استخفوا بوعيد الكتية، لوعيد الله، ومضى الشباب منهم قدما^(٧)، حتى انحلفت رجلاه على عتق فرسه، وتخفبت بالدماء محاسن وجهه، فأسرعت إليه سباع الأرض، وانحطت إليه طير السماء، فكم من عين فى مناقير طائما بكى صاحبها فى جوف الليل من خوف الله، وكم من كف زالت عن معصمها طائما اعتمد عليها صاحبها فى جوف الليل بالموجود لله، ثم قال: «أوه أوه أوه» لم يكى ثم نزل.

خطبة للحسن البصرى

خرج الحسن البصرى يوماً على أصحابه، وهم مجتمعون، فقال: والله لو أن رجلاً منكم أدرك من أمرك من القرن الأول، ورأى من رأيت من السلف الصالح، لأصبح مغموماً، وأمسى مغموماً، وعلم أن المجد منكم كاللاعب، والمجتهد كالتارك، ولو كنت راضياً عن نفسى لوغظتكم، ولكن الله يعلم أنى غير راض عنها، ولذا أبغضتها وأبغضتكم.

(١) جمع نضو وهو التخفيف من التعب.

(٢) جمع طلاح وهو المهزول.

(٣) الكلال التعب.

(٤) فوق السهم جعل له فوقاً وهو ما يضع منه فى القوس.

(٥) رفعت ووجهت وجهة المدور.

(٦) قد سالت. (٧) مضى قدما معانها مضى إلى الحرب.

أيها الناس، إن الله عبادا قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة، وأنفسهم خفيفة، وحوائجهم خفيفة، صبروا الأيام القلائل، لما رجوه في الدهور الأطول. أما الليل فقاتموا على أقدامهم، يتضرعون إلى ربهم، ويسعون في فكاك رقابهم، تخرج من الخشية دموعهم، ويخفق من الخوف قلوبهم، وأما النهار فحلما، أتقياء أخفياء، يحبهم الجاهل أغنياء من التحف، تغالهم من الخشية مرضى، وما بهم من مرض، ولكنهم خصصوا بذكر النار وأهوالها. لهم والله كانوا فيما أحل لهم أزهى منكم فيما حرم عليكم، وكانوا أبصر بقلوبهم لدينهم، منكم لدينكم بأبصاركم، ولهم كانوا لحسناتهم أن ترد عليهم أخوف منكم أن تعذبوا على سيئاتكم: ﴿ أولئك حزب الله، ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾.

الخطابة في المائة الأولى

من العصر العباسي

تمهيد:

اشتد إيلاء الأمويين لآل البيت الأطهار، وكثر القتل الفرع فيهم، وفي أنصارهم، وكان بجوار ذلك الإيذاء تعصب للعرب والمروية فأحرق ذلك للفرس وغيرهم، فوجد آل البيت السيول للانتفاض عليهم معبداً، إذ قد مل الناس مظالمهم، وتغفروا من حكمهم، لما شاع من قالة السوء عنهم، ثم وجد الفرس المنتقمون لجنسيتهم مبررا للخروج وهو الانتصار لأهل البيت، بينما وجد هؤلاء فيهم نصراء لهم يعاضلونهم في الأكل والشرب، ويؤازرونهم في الشدة، فحسروا دهونهم فيهم، لذا دبر العباسيون الأمر في وسط فارس، وبنوا مكرهم، وأخفوا تدميرهم حتى لاحت لهم الفرصة، فانتهزوها، وأبعدوا الأمويين عن عرش المسلمين، وتولوا هم باختيار أنهم أقرباء إلى النبي ﷺ الأتون، وورثته المستحقون للخلافة من بعده، ولم يكذ الأمر يستقر لهم، حتى انتقض عليهم أبناء علي رضي الله عنهم، لأنهم أصحاب البلاء، وأهل الجلال، والتضال، ولأن العباسيين وصلوا إلى الحكم على كواهلهم، وابتزوا منهم، اشتد التضال بالكلام والسيف بين الفريقين المتناحرين كل يدعو الناس إلى تأييده، ويرهن على صديق دعواه بما يستطيع من بيان، ويدلي بما عنده من دليل. وقد شغل ذلك التضال أكثر مدة أبي جعفر المنصور، حتى تم له الانتصار عليهم بالسيف، وأهواء كثيرين من أنصاره معهم.

وقد كان العباسيون يسيئون الظن بالعرب، لأنهم أنصار الأسريين، شديدي الثقة بالفرس، لأنهم أنصارهم ومقيم دولتهم، ولذلك كان كبار القواد والزعماء والوزراء والناهبين في الدولة منهم، وقد انتهزها الفرس لنشر سلطانهم، وإحياء قديم مجدهم، ونشر المقبور من آدابهم وأفكارهم. ولذلك أخذت العادات الفارسية تصبغ الحياة الإسلامية بصبغتها، وأخذت الأفكار الفارسية تنوّد على ذهن الإسلامى، وتسيطر على البيضة الفكرية، وانتشرت بين المسلمين حكمهم، وكثير من معلوماتهم، لأنهم كانوا أقرباء بذلك السلطان وأقرباء بأمالهم في إحياء دارس حضارتهم، وكانوا أقرباء بحضارتهم القديمة وميراثهم الفكرى الذى ورثوه عن أسلافهم.

والفكر الفارسي الذي أقر في الحياة الإسلامية ذلك التأثير كان يحمل معه ثمرات من الفكر اليوناني، فإن الفلسفة اليونانية كانت منتشرة في بلاد فارس قبيل الإسلام. وقد كان هذا وغيره سببا في كثرة العلوم الفلسفية، وانتشارها بين المسلمين، وكانت تعقد المناظرات والمناقشات في كل مكان، وكثير منها كان يعقد في مجالس بعض الخلفاء، كالأأمون الذي كان معجبا بالفلسفة اليونانية وغيرها، بل كان هو يعد فيلسوفا حكمهما ذا رأي وسط معتلج الآراء، ومتناحر الأفكار. وقد كانت هذه المناظرات موضوع سبق المجيدين للقول، فيها يتبارون في البيان وروعته، ويتمايقون في المعاني وإحكامها؛ ولذلك أخذت المناظرات تحت محل الخطابة على ما سنبين إن شاء الله تعالى في عوامل انحطاط الخطابة.

موضوعات الخطابة ودواعيها في ذلك العصر

يتشابه صدر الدولة العباسية مع صدر الدولة الأموية وسطها في بعض الوجوه، لأن كلتا الدولتين تشأت في وسط فتنة هرجاء، كثيرة العنف، قوية الأثر، شديدة اللجب، ولأن كليهما ما تكاد أن تستقر حتى يخرج المخارجون من كل ناحية، وتهدد الدولة بالتمزيق، والوحدة بالتقسام والخلفاء الأوائل في كلتا الدولتين، كانوا ذوي بيان ولسن، القول الفليح عندتهم وذخيرتهم. ولهذا التشابه كانت الخطابة والجة في صدر الدولة العباسية، كما كانت والجة في صدر الدولة الأموية وسطها، وكانت موضوعات الخطابة في الدولتين معقاربة، ودواعيها متشابهة.

ومن الدواعي للخطابة في العصر العباسي:

الدعوة العباسية:

قامت الدعوة العباسية على إثبات حق آل البيت رضوان الله عليهم في الخلافة، ومنهم أولى الناس بها، لقرباتهم من رسول الله ﷺ، ولأنهم صبغوة قريش المختارة، ولأن الله سبحانه اختصهم بفضل ليس في غيرهم، قامت دعوة بني العباس على ذلك، وعلى بيان مظالم الأمويين، واعتسافهم، وما ارتكبه من مآثم في أول عهدهم وآخره، وما انتهكوه من حرمان، وما أباحوه من دم آل النبي ﷺ، إذ قتلوا الحسين أولا قتلة فاجرة. وقتلوا أحفاده زيد بن علي ويحيى ابنه، وقتلوا إبراهيم الإمام آخره.

وذلك كله ببيان رائع، وخطب قيمة، وقول بارع، وبلاغة واصلة إلى أعماق النفوس، مشيرة نعمة الناس عليهم، وحافزة الأنصار على الانتقام منهم، لذلك كانت الدعوة العباسية موضوعاً من موضوعات القول، وداعياً من أعظم دواعيه، واقرأ خطب داود بن علي وغيره من خطباء العباسيين في ذلك واضحاً كل الوضوح.

بيان سياستهم:

لما تم الأمر لبني العباس، كانوا يعلنون سياستهم على المنابر، ليوازن الناس بين حكمهم وحكم الأمويين، وقد كان بعضهم يحاول أن ينهج في ذلك منهج الخلفاء الراشدين، بسن الخطبة، ويبين أنه يقيم الحدود، وينفذ أحكام الله تعالى، ويعلم سلطانه، وانظر إلى قول السفاح في بعض خطبه: والله لا أعددكم إلا وفيت بالوعد والوعيد، ولأعملن اللين، حتى لا تنفع إلا الشدة، ولأعمدن السيف إلا في إقامة حد، أو بلوغ حق، ولأعطينكم حتى أرى العطية ضياعاً.

وانظر أيضاً إلى قول داود بن علي: لكم دمة الله تبارك وتعالى ودمة رسول الله ﷺ، ودمة العباس رحمه الله، أن نحكم فيكم بما أنزل الله، ونعمل فيكم بكتاب الله، ونسير في العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله ﷺ.

انظر إلى هنا وفاء أن هذين الخطيبين يحاولان أن ينهجا في خطبهما منهج الخلفاء الراشدين، وإن كان العمل ينأى عن صحتهم، وكذلك كانت خطب كثيرين منهم، وقد كان للخلفاء يحاولون أن يتصلوا بالعامة، ويذكروهم المهود، كلما جد أمر، أو حدث شأن من الشجون، كما فعل أبو جعفر عند مقتل محمد بن عبد الله بن حسن الملقب بالنفس الزكية، وعند مقتل أبي مسلم الخراساني، وتري من كل هذا أن اتصال الخلفاء بالشعب، والعمل على إعلان سياستهم، كان داعياً من دواعي الخطابة، وموضوعاً من موضوعاتها.

الفتن:

قامت الدولة العباسية في وسط فتن كثيرة، ولم تنته بقيامهم، بل رأى أبناء عمهم العلويون أن م اختصوا أمر منهم، وانتزعه ابتزازاً دونهم. وهم الأولى لسابقتهم، وقديم بلائهم، وسالف جهادهم، وأن الشيعة التي ناصرت، وأقامت ملك العباسيين شيعتهم، وأن أولئك استخدموا مجدهم، وبنوا عليه ما أرادوا، واستبدوا به دونهم، لذلك شغلوا الدولة بخروجهم

وتقدموا بشرفهم التليد، وحاضروهم العظيم، ودعوا لأنفسهم. ورد عليهم المنصور بخطب قد ملاها بالأدلة التي تثبت حق العباسيين، والبراهين على صدق دعواهم، وإبطال دعاوى خصومهم من بنى عمهم، وكان ذلك الخروج حافوا للبيان، وموضوعا من موضوعاته.

ولم يكن الخروج مقصورا على العلويين، بل خرج في عهد المهدي الملقب بالخراساني، فشاور المهدي أهل بيته، فكانت تلك المشاورة ميدانا واسعا للبيان الجيد، والقول المبين، وقد جاءت مفصلة في العقد الفريد، فارجع إليها.

وكانت بعد ذلك - الفترة بين الأمين والمأمون، وفيها وجدت الخطابة موقعا خصيبا، وترى من هذا أن الفتن التي ادلهمت في ذلك العصر، واتسع نطاقها، ونوالت أحداثها، كانت كثراتها في كل العصور عاملا من عوامل نهوض الخطابة، وموضوعا من موضوعاتها.

الوفادة:

كان يفد على الخلفاء والأمراء وفود في ذلك العصر كما كان الشأن في العصر الأموي، وإن كان ذلك أقل، وقد كانوا يتبادلون الخطب، ومن ذلك وفد أهل الشام على المنصور بعد استقامتهم إذ جاءوا إليه يعتذرون، وكانت تلقى الخطابة في موضوع تلك الوفادات. فكانت الوفادة داعيا من دواعي الخطابة: وموضوعا من موضوعاتها.

المجالس:

كانت المجالس تعقد، ويتسابق أصحاب اللسان والبيان في الإجابة، وكثيرا ما كانت تلك المجالس مكان مناقشات علمية، وكلامية ودينية وتناحر مذاهب، تستخدم فيها كل أساليب الخطابة الرائعة، من محاولة تأثير، واجتذاب إلى فكرة، وقد كان أولو السبق في تلك المجالس المعتزلة أصحاب الكلام، إذ هم أهل المسبق في فنون البيان من بين الفرق الدينية، وامتناز من بينهم بالإجابة والفصاحة عمرو بن عبيد، ومشر بن المعتمر، وأبو الهيثم، والنظام، وكثيرا ما كانت مباريات هؤلاء الكلامية، في مناقشة أصحاب المبادئ المهادمة للأئمة.

الوعظ الديني:

وقد كان الوعظ الديني هدفا يرمى إليه الخطباء ومقصدا يقصدونه، وكثيرا ما كان يجري ذلك الوعظ على أسنة الخلفاء أنفسهم، لما يحققونه في أنفسهم من أنهم قادة الأمة في

دينهم، وهدايتهم في معرفة أمرهم، واستمع إلى قول المنصور يرد على من اعترض عليه في خطبته يذكره الله قائلا: أيها الإنسان أذكرك من ذكرت به، فقد قال أبو جعفر في كلام: وإياكم معشر الناس وأختها، فإن الحكمة علينا نزلت وحدثنا فصلت، فرددوا الأمر إلى أهلهم، توردوه موارده، وتصدروه مصانره. ألا ترى من هذا الرد أن خلفاء بني العباس يضعون أنفسهم موضع المرشدين القادة في الدين والدنيا جميعا، يزعمون أنهم أعلم الناس بأمر الدين، فلا عجب بعد ذلك إذا كان الوعظ للدين قد راج على ألسنتهم، وقد ورد في كثير من خطب الرشيد والمأمون وعظ ديفي مختاز.

ولم يكن الوعظ مقصورا على الخلفاء كما أشرنا، بل كان منهم ومن غيرهم، لأنه مبدأ ديني سام فرض في صلاة الجمعة والحج والعيد، وكان شريعة عامة تجب على كل مسلم ما استطاع إليه سبيلا، بمقتضى إلزام المسلمين جميعا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كل بما يستطيعه، ولذا كان الوعظ الديني غرضا خطابيا للخطابة في كل عصورها الإسلامية.

ألفاظ الخطابة ومعانيها وأسلوبها

كانت الخطابة في الجملة في ألفاظها، وأسلوبها، ومعانيها تقارب الخطابة في العصر الأموي، لتشابه الشؤون التي دفعت الأئمة إلى البيان، وما بينهما من فرق سببه تباعد الزمن، واتساع نطاق الحضارة، واستبحار المعارف، وكثرة العلوم، وتدوينها تلك الأمور التي امتاز بها العصر العباسي.

الألفاظ:

الألفاظ في ذلك العصر كانت تشابه ألفاظ الخطابة في العصر الأموي ومصدر الإسلام، ولكنها قد زادت عدوية، مع الفخامة والقوة أحيانا، والسبب في ذلك أن الحضارة قد تمكنت من النفس العربية، وتغلغلت في ثناياها، فسهلتها وألنتها، ولم يعد للصحرَاء أثر قوي في نفوس خطبائهم، فكانت الألفاظ مرائمة لما صدرت عنه، ومطابقة لما اقتضاها.

المعاني:

والمعاني تقارب المعاني في العصر الأموي، ولكنها زادت عليها في أمور منها:

١- **زيادة المبالغة والتهويل**، خصوصاً فيما يتعلق بمنصب الخلافة وسنلة الخلفاء وذلك لما كانوا يذكرونه من نسبتهم إلى النبي ﷺ وأنها مناط العزة وسبب الرفعة، وبالعون فيما يبنى على ذلك النسب من استحقاق للاستعلاء، ولأن المبالغة تسود حيث تكثر صناعة الكلام، ومحاولة إجادته، وذلك كان قائماً عندما كان للخطابة سوق رائجة.

٢- **زيادة التقنن في المعاني والبحث عن دقيقتها، والغوص وراء عميقها**، وذلك لكثرة الترجمة، وسيادة البحوث العلمية، فقد كان الخطباء يتألون من ثمرات الترجمة الذاتية التي تستخدم في أغراضهم البيانية، فإذا استطاعوا أن يقيسوا مما ترجم ابن المقفع وأمثاله من حكم، قيسوا وحلوا به خطيبهم، وربما حاكى بعضهم ذلك النهج في خطبه، فهدت عميقة المفكرة، محكمة المعنى، انظر إلى قول المأمون في بعض خطبه في الوعظ: «واعلموا أن الدنيا ليست بدار، فاستبدلوا، فإن الله عز وجل لم يخلقكم عبثاً، ولم يترككم سدى، وما بين أحدكم وبين الجنة أو النار، إلا الموت، أن ينزل به، وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة الواحدة، لجديرة بقصر المدة، وإن غائباً يحدوه الجهدان الليل والنهار لجدير بسرعة الأوبة، وإن قائداً يحل بالفوز أو الشقرة لمستحق لأفضل العدا، فانقضى عيـد ربه، ونهـبـح نفسه، وقدم نوبته، وغلب شهوته، فإن أجله مستور عنه، وأمله خادع له، والشيطان سوكل به. فإنك ترى في الكلام روح الفلسفة ودقتها، وعمقها، وحكمتها.

٣- كثرة المعاني الدينية،

فقد كثرت هذه المعاني على ألسنة الخطباء، خصوصاً الخلفاء، لأنهم ولّوا إلى الخلافة باسم الدين، لقرايتهم من النبي الكريم، وتهويلهم في مظالم الأمويين، وخروجهم عن جادة العدل، فطبعي أن تكون خطب الخلفاء منهم تنحو منحى دينياً إذ يؤيدون بالدين دعوتهم، وينافعون عن أعمالهم بوصلها به، ويبان أنها حادثة عنه، واردة إليه، واقرأ خطباء صدر هذه الدولة، تس ذلك واضحاً كل الوضوح، ومن ذلك قول أبي جعفر المنصور في إحدى خطبه: أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتسلطه، وتأنيده، وأنا خازنه على فيعه، وحارمه على ماله، أعمل فيه بمشيئته، وأقسمه بإرادته، وأعطيه بإفائه، قد جعلني الله عليكم قميلاً، إن شاء أن يعطيني لأعطياتكم، وقسم فيحكم، فتحني، وإن شاء أن يقلني أققلني.

وقد كانت المعاني تهديدية عنيفة في بعض الأحيان، وذلك عند خطاب قوم يتوقع الخليفة انتقامهم، أو لم يتعود نصرتهم، بل عودوه الحرب والخصام، كشأن أهل الشام، ففى خطاب هؤلاء أرى الخطابة المحاجية على أنم ظهورها ووضوحها.

الأساليب:

وكانت الأساليب أيضاً تقارب في جملتها أساليب الخطابة الأموية، ففيها كان الاستشهاد بالقرآن الكريم، والاقتباس من آية، والاستشهاد بالشعر العربي المناسب ولكن زادت في أمور منها:

١- المبالغة في تنسيق الخطبة، وإحكام تفسيرها، حتى أن بعضهم كان يضمن مقدمته إشارة إلى موضوعها، وذلك لأن الخطابة أخذت تصير علما له قواعد وأصول، وعنى بعض الناس بنشر بعض أصولها، وتعليم قواعدها. وقد ذكرنا لك أنفا ما كان بين بشر بن المعتمر، وإبراهيم بن جيلة بن مخزومة السكوني من حديث، وهو يدل الدلالة كلها على أن الخطابة قد صارت قواعد تلقن، وعلمها يدرس، ويتبع ذلك حينما أن يأخذ الخطباء أنفسهم بأن تكون خطبتهم موافقة لقواعد النقد التي كانت مقاييس، وموازين لوضع الخطب لى مواضعها الأدبية.

٢- وكثرة الكلام ذي الفقرات القصيرة المختومة بكلمات ذات رنين قوى، تذهب أصداؤه في النفس، فتستولى عليها. وفي الحق إن الكلام الخطابي كان فيه المرسل، وكان فيه الكلام المزدوج المقسم إلى فقرات قصيرة، وكان فيه السجع، ولكن المرسل كان أقلها، والمزدوج أكثرها، والسبب في قلة الإرسال في هذا العصر عن سابقه، أن إعداد القول قد كثر، وحيث كان ذلك، قل الكلام المرسل، وكثرة الخطباء من الموالي، وهؤلاء من دأبهم محاولة التحسين والتكلف، ليعرضوا به ما نقصته سليقتهم اللغوية.

الإيجاز والإطناب

كان في خطب هذا العصر الخطب الطويلة، والخطب القصيرة، وكان لكل مقام ما يقتضيه، ولكنهم كانوا إلى الطول أميل، يختارون مواضع البسط والإطناب، ويكررون المعنى الواحد بعبارات مختلفة الألفاظ والأساليب، مرة بالاستفهام، وأخرى بالتقرير، وأخرى بالنفي،

ويحاولون بذلك أن يشبهوا المعاني في نفوس سامعيهم، ليكون الغرس بعيد الغور، فيشمر أطيب الثمرات، وأدناها جنى، وهم في ميلهم إلى الطويل من الكلام دون قصيره يشبهون بني أمية، وينهجون نهجهم، وسرى نموذجاً من خطبهم بنوعها إن شاء الله.

أسباب قوة الخطابة في ذلك العصر وأسباب ضعفها

قويت الخطابة في صدر الدولة العباسية، وضاهت صدر الدولة الأموية في علوها وارتفاع شأنها، وذلك:

١- لأن الدولة أحيطت بعطاق من الفتن والشورات والخروج على حكامها، فكانت الحاجة ماسة إلى الخطيب الراتبة، يدافع الخلفاء بها عن أنفسهم، ويدعون الناس إلى البقاء على تأييدهم، ومقاومة محضومهم، وليدبروا عن حياضهم، ويلحنوا بالحجة على مخالفينهم، والفتن دائماً تحرك الألسنة، وتدفعها إلى القول، إذ يلتزم الحق بالباطل ويكون القلب لمن هو أقوى بياناً، وأسبق خصاماً، وقد سبق بيان ذلك كثيراً.

٢- والخلفاء في صدر الدولة كانوا أولي الأمر والنهي، وقد كانوا من بني هاشم الذين اشتهروا بالفصاحة واللسن، وقوة الحجة، ملقهم وخطفهم في ذلك سواء، سئل سعيد بن المسيب: من أبلغ الناس؟ فقال: رسول الله ﷺ. فقال السائل: إنما أحنى من دونه. فقال: معاوية وابنه، وإن ابن الزبير لحسن الكلام، ولكن ليس على كلامه ملح. فقال له الرجل: فأين أنت من عفى وابنه، وابن عباس وابنه؟ فقال: إنما عنت من تقاربت أشكافهم، وثقلت أسوائهم، وكانوا كسهم الحربة، وبنو هاشم أعلام الأنام، وحكام الإسلام.

وقد ظهرت مواهب بني العباس الخطابية في صدر دولتهم، وإبان سطوتهم. قال الجاحظ في بيان مقدرتهم البيانية:

وجماعة من ولد العباس في عصر واحد، لم يكن لهم نظراء في أصالة الرأي، وفي الكمال والجلالة، وفي العلم بقريش والدولة، وبرجال الدولة، مع البيان المعجب، والغور البعيد، والنفوس الشريفة، والأقنار الرفيعة، وكانوا فوق الخطباء، وفوق أصحاب الأخبار، وكانوا يجلون عن هذه الأسماء، إلا أن يصف الواصف بعضهم ببعض ذلك، منهم عبد الملك بن صالح،

وسأله الرشيد، وسليمان بن جعفر وعيسى بن جعفر شاهدان، فقال له: كيف رأيت أرض كذا وكذا؟ فقال: مسافى^(١) ريع، ومنابت^(٢) شيع. قال: فأرض كذا وكذا؟ قال: هضاب حمر، وبراث^(٣) عقر، حتى أتى على جميع ما أراد. ثم قال عيسى لسليمان: «والله ما ينبغي لنا أن نرتضى لأنفسنا بالدون من الكلام».

وعرى من هذا كيف كانت منزلة هؤلاء من البيان، وقد كانت الخطابة قوية ناعضة، ما كان السلطان في الدولة للخلفاء أنفسهم.

٢- وقد كانت جمهرة الأمة في صدر الدولة ممن يقيمها القول البليغ ويقعدها، بفقهون مرامي عبارات، ومرامي الكلام، فكان من حالهم مشجع للمخطباء على القول، فلما حالت الحال، وغلبت المعجمة ومائت النبرة العربية أو خبت، لم يكن من القوم من يحسن الاستماع ولا من الرعماء من يجيد البيان.

وقد أخذت الخطابة في الضعف بعد المائة الأولى من حكم العباسيين وتضافرت أمور في إضعافها، ومن أعظمها أئراء وأبينها شأنًا:

١- إن النواحي إلى القول، قد ضعفت، فقد ثبتت دعائم الدولة، وقامت أركانها وقل الخروج عليها، إذ قضوا، أو كادوا يقضون على أبناء حمهم العلويين في الشرق، وقل خلاف العباسيين فيما بينهم، فذهب بسبب ذلك السكون أعظم دواعي الخطابة، وإذا ضعف الداعي إلى الخطابة، وقلت الحاجة إليها، ضعف أمرها، وهان شأنها.

٢- وأن الجند وهم حماة الدولة غلبت عليهم المعجمة، إذ كان العباسيون يستعينون في حماية دولتهم، بالفرس والترك، وهؤلاء لا يثيرهم القول العربي البليغ، وإنما تثيرهم عصبيةاتهم الجممية التي كان لها السلطان الأكبر في ذلك العصر، إذ حلت محل العصبية القبلية عند العرب، فذهبت بذلك الخطابة في الجند حثًا لهم على الجهاد، أو إيقاظًا للإيثار والتقوى في نفوسهم، أو لإلقاء الحمية في قلوبهم. فذهب من الخطابة دافع من أعظم دواعيها، وموضوع من أكثر موضوعاتها.

(١) المسافى جمع مسفى وهو اسم مكان من سفى يسفى بمعنى ذرا يذرو.

(٢) الشيع اسم لنت، والكلام كله كتابة عن الجذب والمحل وأن لا زرع إلا الشيع.

(٣) البراث الأرض السهلة اللينة وعقر جمع غفراء وهي الأرض البيضاء التي لم توطأ.

٣- ضعف أمر العرب، وذهاب سلطاتهم، وضباب نفوذهم، حتى كانوا يتحاربون إلى صحرائهم لا يمدونها، ويضعف العرب، وهم أهل الفصاحة والبيان واللسن والارجحال ضعفت الخطابة، لأنهم أقدر الناس عليها، إذ ليس المتعرب كالعربي، ولا الكسبي كالطبيسي، ولا الملحقن كالسلقي.

٤- وأن الكتابة قد حلت محل الخطابة، فقد اتسعت موضوعاتها وتعددت أغراضها حتى صار الخليفة أو الوالي أو القائد إذا أراد أن يدعو من هم تحت إمرته إلى شيء، أناب كتابه عن خطابه، فأرسل إليهم كتابا يقرأ، ويرجع إليه آتيا بعد آن، وبذلك استغنى عن الخطابة في أغصن موضوعاتها.

٥- وقعود الخلفاء عن الخطابة، وإنابة غيرهم منابهم في الصلاة بالناس، فاستهان الناس بمواقف الخطابة تقليدا لخلفائهم، ومحاكاة لأمرائهم، ولناس ملوكهم تبع، وقد تبع استهانة الناس بالخطابة استهانتهم بالخطيب، وقلة احترامهم له، وبهذا ضحفت الرخصة في القول.

وإذا كانت الخطابة قد ركبت لهذه الأسباب، فقد خلطها فن من القول صاحبها زمانا، ثم انفرد بعدها بالسلطان، وذلك الفن هو المناظرة، يتفق مع الخطابة في الارجحال، ومحاولة الغلب بالبيان، والسبق باللسان، ويخالفها في الموضوع، وقد سادت المناظرات ذلك العصر، لأن الحياة العقلية كانت لها السيادة، وعظم أمر العلم فكثرت مساجلات العلماء فيما بينهم، وصارت مجالس العلم ميدانا للمسابقة الكلامية والجدلية بين زعماء الفرق الإسلامية، وكان المتكلمون يحرصون على بلاغة الكلام، وإيضاح البيان، والتأثير بالإقناع بعد الإفحام.

الخطباء

امتاز بالخطابة عدد عظيم من رجال هذا العصر، أقواهم بياناً وأشدّهم تأثيراً، وأقدرهم على الإدلاء بالحجة خطباء الهاشميين: عباسيين وعلويين، ومن خطباء العباسيين داود بن علي بن عبد الله بن عباس، وعبد الله بن علي، وصالح بن علي، وابنه عبد الملك بن صالح، وسليمان بن جعفر الذي قال فيه البصيريون بالكلام من أهل مكة عندهما وليها: إنه لم يرد عليهم أمير منذ عقلوا الكلام، إلا وسليمان أبين منه قاعداً، وأخطب منه قائماً.

ومن خطباء العلويين محمد بن عبد الله بن حسن الملقب بالنفس الزكية، وأخوه إبراهيم، وجعفر الصادق، والعباس بن الحسين، وكان مقرباً من الرشيد والمأمون، حتى قال فيه المأمون: من أراد أن يسمع لهواً بلا حرج، فليسمع كلام العباس.

ومن عرف بالخطابة من غير الهاشميين خالد بن صفوان، وابن عمه شبيب، والفضل ابن عيسى، وابنه عبد الصمد، وهما من الموالي، ومن الموالي أيضاً جعفر بن يحيى البرمكي، والفضل بن سهل، وأخوه الحسن، وطاهر بن الحسين، وابنه عبد الله بن طاهر، وغير هؤلاء كثيرين.

نماذج من خطب هذا العصر

خطبة داود بن علي بعدبيعة أبي العباس السفاح

الحمد لله، شكرا شكرا شكرا، الذي أهلك عدونا، وأصاب إيلينا ميراثنا من نبينا محمد ﷺ. أيها الناس، الآن أقشمت^(١) حنادس الدنيا، وانكشف غطاؤها، وأشرقت أرضها وسماؤها، وطلعت الشمس من مطلعها، وبرغ القمر من مبرزه، وأخذ القوس باريها، وعاد السهم إلى منزعه^(٢)، يرجع الحق إلى نصابه، في أهل بيت نبيكم، أهل الرأفة والرحمة بكم، والعطف عليكم.

أيها الناس، إنا والله ما أخرجنا في طلب هذا الأمر، لنكثر لجينا ولا عقيانا^(٣)، ولا نحفر نهرا، ولا نبني قصرا، وإنما أخرجنا الأنفة من اعتزازهم^(٤) حقنا والغضب ليني عينا، وما كثرنا^(٥) من أموركم، وبهظنا^(٦) من شئونكم، ولقد كانت أموركم ترمضنا^(٧) ونحن على فرشنا، يشعل علينا سوء سيرة بني أمية فيكم، وخرقهم بكم، واستدلالهم لكم، واستغفارهم بقيتكم وصناعاتكم، ومغانمكم عليكم. لكم ذمة الله تبارك وتعالى، وذمة رسوله ﷺ، وذمة العباس رحمه الله أن نحكم فيكم بما أنزله الله، ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير في العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله ﷺ. تبا تبا^(٨) نبني حرب بن أمية ونبي مروان، آثروا في مدلتهم وعصرهم العاجلة على الآجلة، والدار الفانية على الدار الباقية، فركبوا الآثام، وظلموا الأنام، وانتهكوا المحارم، وغشوا^(٩) الجرائم، وجاروا في سيرتهم في العباد، ومستهم في البلاد، التي استلبوا بها تسريل الأوزار، وجلبب الأصار^(١٠)، وسرحوا في أجنة المعاصي، وركضوا^(١١) في

(١) أقشمت تفرقت وحادس جمع حدس وهي الظلمة.

(٢) المنزع مكان النزوع والرمي والمراد عاد الأمر إلى أهله.

(٣) اللجن الغضة. والعقيان الذنب.

(٤) كثره الأمر إذا اشتد عليه.

(٥) أرمضه الأمر أوجس وألمه.

(٦) بهظه الأمر ثقل عليه.

(٧) تبا معناها هلاكاً، فهو دعاء عليهم بالهلاك والنجار.

(٨) غشوا معناها باثروا الجرائم وأوتكبوها.

(٩) الأصار جمع إصر وهو اللشب واللوز.

(١٠) الركنض العدو وحت القوس ليعذو.

مهادين النبي جهلاً باستدراج الله، وأما لمكر الله، فلأنهم بأس الله يئسوا، وهم نائمون، فأصبحوا أحاديث، ومزقوا كل ممزق، فبعثاً للقوم الظالمين - وأدنا^(١) الله من مروان، وقد غره بالله الغرور، أرسل لعنوا الله في عنائه، حتى عشر في فضل خطابه^(٢)، فظن عدو الله أن لن نقدر عليه، فتنادى حزبه، وجمع مكابده، ورمى بكتابه، فوجد أمامه ووراءه، وعن يمينه وشماله، من مكر الله وهامه ونقمته ما أمارت باطله، ومحق ضلاله، وجعل دائرة السموم به، وأحيا مشرفنا وعزنا، ورد إلينا حقنا وإرثنا.

أيها الناس، إن أمير المؤمنين نصره الله نصرًا عزيزًا - إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة، إنه كره أن يخلف بكلام الجمعة غيره، وإنما قطع عن استتمام الكلام بعد أن استغفر فيه^(٣) شدة الوعظ، وادعوا الله لأمر المؤمنين بالماضية، فقد أبدلكم الله بمروان عدو الرحمن، وخليفة الشيطان، المصحح للسلطة الذين أفسدوا في الأرض بعد صلاحها، بإبدال الدين، وانتهاك حرم المسلمين الشاب المتكهل المتسهل، المقتدى بسلفه الأبرار الأخيار، الذين أصلحوا في الأرض بعد فسادها بمعالم الهدى ومناهج التقوى - فصح الناس له بالدعاء - .

ثم قال: يا أهل الكوفة، إنا والله ما زلنا مظلومين، مقهورين على حقنا، حتى أتاه الله لنا شيمتنا أهل خراسان، فأحيا بهم حقنا، وأفلج^(٤) بهم حجتنا، وأظهر بهم دولتنا، وأراكم الله ما كنتم له تنتظرون، وإليه تتشوقون، فأظهر فيكم الخليفة من بني هاشم، وبيض به وجوهكم، وأدلكم على أهل الشام، ونقل إليكم السلطان وعز الإسلام، ومن عليكم بإمام منحه العتاقة، وأعطاه حسن الإمامة^(٥) فخلوا ما آتاكم الله بشكر والزموا طاعتنا، ولا تخدعوا عن أنفسكم، فإن الأمر أمركم، فإن لكل أهل بيت مصر، وإنكم مصرنا، ألا وإله ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله ﷺ إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد (وأشار بيده إلى أبي العباس) فاعلموا أن هذا الأمر فينا، ليس بخارج منا، والحمد لله رب العالمين على ما أهلكنا وأولانا.

(١) أدنا معناه جعل للدولة لنا.

(٢) الخطام ما يوضع في أنف البعير.

(٣) استغفر سار فيها واتسع.

(٤) الإفلاج التسكين من الظفر والنفوس.

(٥) الإمامة حسن السياسة مصدر آل الملك المرحمة يولها مناسبا بكياسة.

خطبة أبي جعفر المنصور بعد هزيمة النفس الزكية

يا أهل خراسان، أنتم شعبتنا وأنصارنا، وأهل دولتنا، ولو بايختم غيرنا لم يلبسوا من هو خير مناء وإن أهل بيتي هؤلاء ولد علي بن أبي طالب تركناهم والله الذي لا إله إلا هو والخلافة، فلم نعرض لهم بقليل ولا كثير، فقام فيها علي بن أبي طالب، فتطخ^(١)، وحكم الحكمين، فافتقرت عنه الأمة واختلقت عليه الكلمة، ثم وثت عليه شعبته وأنصاره وأصحابه وبطالته ورفاقه، فقتلوه. ثم قام من بعده الحسن بن علي، فوالله ما كان فيها رجل، قد عرضت عليه الأموال فقبلها، فمس إليه محاولة، إني أجعلك ولي عهدي من بعدى، فخدعه فانسج له مما كان فيه، وسلمه إليه، فأنبل على النساء يتزوج في كل يوم واحدة، فبطلقها غدا، فلم يزل على ذلك حتى مات علي فريته. ثم قام من بعده الحسين بن علي، فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة، أهل الشقاق والنفاق والإغراق في الفتن، أهل هذه المفرة^(٢) السوداء (وأشار إلى الكوفة)، فوالله ما هي بحرب فأحاربها، ولا سلم فأسلمها، فرق الله بيني وبينها، فخذلوه وأسلموه حتى قتل. ثم قام من بعده زيد بن علي، فخدعه أهل الكوفة، وغروه، فلما أخرجوه وأظهروه، أسلموه، وقد أتى محمد بن علي فناشده في الخروج، وسأله ألا يقبل أقارب أهل الكوفة، وقال له:

إنا نجد في بعض علمنا إن بعض أهل بيتنا يصلب بالكوفة، وأنا أخاف أن تكون ذلك المصلوب، وناشده عيسى طارود بن علي، وحذره غدر أهل الكوفة، فلم يقبل وتم^(٣) على خروجه، فقتل وصلب بالكناسة. ثم وثب علينا بنو أمية، فأمانوا شرفنا، وأذهبوا عزنا، فوالله ما كانت لهم عندنا ترة يطلبونها، وما كان ذلك كله إلا فيهم، وبسبب خروجهم، فنصرنا من البلاد، فصرنا مرة بالطائف ومرة بالشام، ومرة بالشرقة، حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصارا، فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهل خراسان، ودمغ بكم أهل الباطل، وأظهر حقنا وأصار إلينا مبرائنا عن تبينا عك، فقرر الحق قراره، وأظهر مناره، وأعز أنصاره، وقطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين. فلما استقرت الأمور لنا على قرارها، من فضل الله علينا، وحكمه

(١) تلوث

(٢) المردة البلية.

(٣) تم على خروجه يعني صمم.

العدل لنا، وثبوا علينا ظلماً وحسداً منهم لنا، وبغياً لما فضلنا الله به عليهم، وأكرمنا به من خلافته وميراث نبيه ﷺ.

جهلاً على وجبتنا عن عدوهم لبست الخلفان الجهل والجبن

فإنى والله بأهل خراسان، ما أتيت من هذا الأمر ما أتيت بجهالة، بلغنى عنهم بعض السقم والتعمر^(١) وقد دست لهم رجلاً فقلت: قم يا فلان، فخذ معك من المال كذا، وحطوت لهم متوالاً يعملون عليه فخرجوا حتى أتوهم بالمدينة، فدرسوا إليهم تلك الأموال، فوالله ما بقي منهم شيخ ولا شاب، ولا صغير ولا كبير، إلا بايع بيعة استحللت بها دعاءهم وأموالهم، وحلت لى عند ذلك بنقضهم بيعتى، وطلبهم الفتنة، والتماسهم الخروج على، فلا يرون أنى أتيت ذلك على غير يقين. ثم نزل، وهويثلو على درج المنبر «رحيل بينهم وبين ما يشتهون، كما فعل بأشياهم من قبل، إنهم كانوا فى شك مررب».

خطبة أخرى لأبى جعفر المنصور قائلاً بعد قتل أبى مسلم

أيها الناس، لا تخرجوا من أئس الطاعة إلى وحشة المعصية، ولا تمسروا غش الأئمة، فإنه لم يسر أحد قط منكراً، إلا ظهرت فى آثار يده، أو فلتات لسانه، وأبداها الله لإمامه لإعزاز دينه، وإعلاء حقه، وإنا لن نبخسكم حقوقكم، ولن نبخس الدين حقه عليكم، إنه من فازعنا حروة هذا القميص، أجزرناه^(٢) خبيء هذا الفم، وإن أباً مسلم بابعتنا وبايع الناس لنا على أنه من نكث بنا، فقد أباح دمه، ثم نكث بنا، فحكمنا عليه حكمه على غيره لنا، ولم تمنعنا رعاية الحق له، من إقامة الحق عليه.

خطبة لسليمان بن على

«ولقد كتبنا فى اليوم من بعد الذكر، أن الأرض برئها عبادى الصالحون * إن فى هذا نبلاًها لقوم عابدين».

(١) التعمر الفساد والشر والفتنة.

(٢) أجزرناه جعلناه يجره أى يقطعه. وخبيء الفم هو السيف.

قضاء ميرم، وقول فصل، وما هو بالهزل. الحمد لله الذي صدق عبده، وأججز وعده، وبعثنا للقوم الظالمين، الذي اتخذوا الكعبة غرضاء والفقى إرثاء والدين هزواً، وجعلوا القرآن عضين^(١). لقد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون. وكأين ترى من بثر معطلة، وقصر مشيد، ذلك بما قدمت أيديهم، وأن الله ليس بظلام للعبيد، أمهلوا والله، نذوا الكتاب وأجهدوا العترة^(٢)، ونبدوا السنة، واعتدوا واستكبروا، وخاب كل جبار عتيد، ثم أخذهم، فهل تخسر منهم من أحد، أو تسمع لهم ركزا^(٣).

خطبة المأمون بعد أن قتل الأمين

حمد الله، وأثنى عليه، وصلى على نبيه، ثم قال: أيها الناس، إني جعلت الله على نفسي إن استرعاني أموركم، أن أطيعه فيكم، ولا أسفك دماً عمداً لا تخله حدوده، وتسفكه فرائضه، ولا آخذ لأحد مالا ولا أثلاً، ولا نحلة تحرم على، ولا أحكم بهوأي في غضبي ولا رضائي، إلا ما كان في الله وله. جعلته كله لله عهداً مؤكداً، وميثاقاً مشدداً، أني أفي به رغبة في زيادته إياي في نعمتي، ورغبة من مسأله إياي عن حقه وخلقه، فإن غيرت أو بدلت كنت للمغير مستأهلاً، وللشكالك متعرضاً، وأعوذ بالله من سخطه، وأرغب إليه في المعونة على طاعته، وأن يحول بيني وبين معصيته.

خطبة عبد الله بن طاهر

خطب عبد الله بن طاهر وقد نهياً لقتال الخوارج فقال: إنكم فئة الله المجاهدون عن حقه، الذاهبون عن دينه، اللاتلون عن محارمه، الداعون إلى ما أمر به من الاعتصام بحبله، والطاعة لولاية أمره، الذين جعلهم رحمة الدين، ونظام المسلمين، فاستجوزوا موعد الله ونصره بمجاهدة عدوه، وأهل معصيته الذين شذوا وتمردوا، وشقوا عصا الطاعة، وفارقوا الجماعة، ومرفوا من الدين، وسعوا في الأرض فساداً، فإنه يقول ببارك وتعالى: «إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ تَنْصَرَكُمْ»، وبشيت أقداً لكم.

(١) جعلوا القرآن عضين أي جعلوه مضيقاً في الأخذ به. يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض.

(٢) العترة الأسرة والمراد أسرة النبي ﷺ.

(٣) الركز للصوت الخفى.

فليكن الصبر محفلكم الذي إليه تلجئون، وعدنكم التي بها تستظهرون، فإنه الوزر المنيع الذي ذلكم الله عليه، والجهة المحصنة التي أمركم الله بلباسها، غضوا أبصاركم، وأخفتوا أصواتكم في مصافكم، وامضوا قدما على بصائركم، فازعين إلى ذكر الله والاسماعة به كما أمركم الله، فإنه يقول: إذا لقيتم فئة فاثبتوا، واذكروا الله كثيرا، لعلكم تفلحون.

أيديكم الله بجز الصبر، ووليكم بالحياة والنصر.

(ثم بحمد الله)

فهرست الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة الطبعة الأولى
	القسم الأول
٥	أصول الخطابة
٧	علم الخطابة - تعريفه
٧	علاقة علم الخطابة بالمنطق
٨	علاقة علم الخطابة بعلم النفس، وعلم الاجتماع
٩	تاريخ علم الخطابة
١٥	تعريف الخطابة - تعريفها، أقسامها، موضوعاتها، فائدتها، طريقة تحصيلها
٢٢	أصول الخطابة - تكوين الخطبة
٣٩	الآداب الخطابية
٤٤	الخصائص الخطيب
٤٨	علم الحبوب البيانية
٥٣	إثارة الأهواء والميول، مقدمة في علم الإقناع الخطابي
٦٧	إثارة الأهواء نحو المراء مباشرة
٧٩	المقدمة
٨٧	الإثبات
٨٧	التبيان
٩٤	التفيل
٩٨	التعبير
١٠٠	الفرق بين الأسلوب الكتابي والأسلوب الخطابي
١٠٢	الإنشاء الخطابي
١٠٩	خاتمة في الكلام في التعبير
١١١	الأخطاء

١١٢	طرق التصغير.
١١٥	الارجال
١١٧	النطق
١٢٠	الصوت
١٢٢	الإشارات .
١٢٣	الوقفة - فنون الخطابة
١٢٥	الخطب السياسية
١٢٦	الخطب النيابية
١٣١	الخطب الانتخابية
١٣٤	خطب النوادي والمجتمعات
١٣٥	خطب المؤتمرات السياسية
١٣٧	الخطابة القضائية
١٣٨	مرافعة النيابة
١٤٢	مرافعات المحامين
١٤٩	طرق الإدلاء بالمرافع
١٥٠	لغة المرافعة.
١٥٢	خطب الوعد الديني
١٥٧	الوعاظ والمرشدون
١٦٢	أقسام الوعد
١٦٤	خطب لتعليم الدين للامة
١٦٧	خطب الإصلاح ومطالبة المنكرات
١٦٩	الخطب العسكرية
١٧١	المحاضرات العلمية العامة
١٧٢	إلقاء المحاضرة.
١٧٣	خطب التأبين
١٧٤	خطب المدح والشكر

القسم الثاني

١٧٥	تاريخ الخطابة العربية في عصور ازدهارها
١٧٧	الخطابة في العصر الجاهلي - والحاجة إليها
١٨٠	موضوعات الخطابة
١٨٢	مرتبة العرب في الخطابة
١٨٦	ألفاظ الخطابة وأساليبها ومعانيها
١٩١	الخطيب الجاهلي وعاداته
١٩٣	من المأثور من خطب العرب في الجاهلية
١٩٣	كثرة الخطباء في الجاهلية وقلة المروى من الخطب
١٩٥	نماذج من خطب الجاهليين
٢٠٠	الخطابة في صدر الإسلام - تمهيد
٢٠١	الحياة الإسلامية في صدر الإسلام
٢٠٣	الأحوال السياسية
٢٠٥	صهوة راعي الخطابة وموضوعاتها في ذلك العصر
٢٠٩	عوامل رقي الخطابة
٢١٥	الألفاظ والأساليب والمعاني
٢٢٠	طول الخطب وقصرها.
٢٢٢	الخطيب في صدر الإسلام
٢٢٤	الخطباء والمروى من الخطب
٢٢٥	المختار من خطب هذا العصر
٢٢٥	خطبة النبي ﷺ في الأنصار
٢٢٦	خطبة الوداع
٢٢٧	خطبة ﷺ في مرض الموت
٢٢٨	خطبة سعد بن عباد في سبقة بني ساعدة
٢٢٨	خطبة أبي بكر رضي الله عنه في السبقة
٢٢٩	وأخرى لأبي بكر رضي الله عنه
٢٢٩	خطبة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه

٢٣٠	خطب عثمان وطلحة وعلي رضي الله عنهم
٢٣٣	خطبة أم الخير بنت الحرث
٢٣٤	الخطابة في العصر الأموي
٢٣٥	الحياة المروية في العصر الأموي
٢٣٨	واحي الخطابة وموضوعاتها في العصر الأموي
٢٤١	عوامل رقي الخطابة وعوامل ضعفها في ذلك العصر الأموي
٢٤٥	الألفاظ والأساليب والمعاني
٢٤٨	طول الخطب وقصرها.
٢٥٠	المذكور من الخطب - الخطباء
٢٥٢	نماذج من خطب هذا العصر
٢٥٢	خطبتان معاوية
٢٥٢	رثاء ابن الحنفية لأخيه الحسن رضي الله عنهما
٢٥٣	خطبة زياد ابن أبيه بالبصرة
٢٥٥	خطبة لعبد الله بن همام السلووني
٢٥٥	خطبة لعبد الله بن عباس رضي الله عنه
٢٥٦	خطبة للحسين رضي الله عنه
٢٥٦	خطب لبعض الصحابة والتابعين
٢٦٤	الخطابة في المائة الأولى من العصر العباسي
٢٦٥	موضوعاتها ودواعيها
٢٦٨	ألفاظها ومعانيها
٢٧١	أسباب قوة الخطابة في ذلك العصر وأسباب ضعفها
٢٧٤	الخطباء
٢٧٥	نماذج من خطب هذا العصر
٢٨١	الفهرس

مؤلفات الإمام الشيخ

محمّد أبو زهرة

العالم الجليل الذي أثري المكتبة الفقهية بموسوعاته، والذي ستيقن ذكره شحنة وعناية في العلم وافتقه الإسلامى، تلك المؤلفات الشخصية التي وهبه الله سبحانه وتعالى إياها لتكون منارة يهتدى به الغمام من بعده في دراسة الفقه الإسلامى.

- ١ - خاتم النبيين مَنَّة (ثلاثة أجزاء في مجلدين)
- ٢ - المعيزة الكبرى - القرآن الكريم
- ٣ - تاريخ المذاهب الإسلامية (جزءان في مجلد واحد)
- ٤ - العقوبة في الفقه الإسلامى
- ٥ - الجريمة في الفقه الإسلامى
- ٦ - الأحوال الشخصية
- ٧ - أبو حنيفة - حياته وعصره - آراؤه وفقهه
- ٨ - مالك - حياته وعصره - آراؤه وفقهه
- ٩ - الشافعى - حياته وعصره - آراؤه وفقهه
- ١٠ - ابن حنبل - حياته وعصره - آراؤه وفقهه
- ١١ - الإمام زيد، حياته وعصره - آراؤه وفقهه
- ١٢ - ابن تيمية - حياته وعصره - آراؤه وفقهه
- ١٣ - ابن حزم - حياته وعصره - آراؤه وفقهه
- ١٤ - الإمام الصادق - حياته وعصره - آراؤه وفقهه
- ١٥ - أحكام التركات والمواريث
- ١٦ - علم أصول الفقه
- ١٧ - محاضرات في الرق
- ١٨ - محاضرات في عقد الزواج وآثاره
- ١٩ - الدعوة إلى الإسلام
- ٢٠ - مقارنات الأديان
- ٢١ - محاضرات في النصرانية

- ٢٢ - تنظيم الإسلام للمجتمع
- ٢٣ - في المجتمع الإسلامي
- ٢٤ - الولاية على النفس
- ٢٥ - الملكية ونظرية العقد
- ٢٦ - الخطابة ، أصولها ، تاريخها في أزهي عصورها عند العرب»
- ٢٧ - تاريخ الجدل (الذي مضى على طبعته ما يقارب الخمسين عاماً).
- ٢٨ - تنظيم الأسرة وتنظيم النسل
- ٢٩ - شرح قانون الوصية
- ٣٠ - الوحدة الإسلامية
- ٣١ - العلاقات الدولية في الإسلام
- ٣٢ - التكافل الاجتماعي في الإسلام
- ٣٣ - المجتمع الإنساني في ظل الإسلام
- ٣٤ - الميراث عند الجعفرية

تطلب جميعها من ملزم طبعها ونشرها وتوزيعها

مؤسسة

بازار الفكر العربي

الإدارة : ١١ ش جواد حسنى - القاهرة

ص ب ١٣٠

دار الفكر العربي

مؤسسة مصرية للطباعة والنشر والتوزيع

تأسست ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م

مؤسس الدار ومالكها : محمد محمود الخضري

الإدارة : ١١ ش جواد حسنى - القاهرة

ص . ب : ١٢٠ الرمز البريدي ١١٥١١

فاكس : ٣٩١١٧٧٢٣ - ٢٦١١٩٠٤٩ (٠٠٢٠٢)

ت : ٣٩٢٥٥٢٣ - ٣٩٢٠٩٥٦

نشاط المؤسسة : ١- طبع ونشر وتوزيع جميع الكتب العربية في شتى مجالات المعرفة والعلوم.

٢- استيراد وتصدير الكتب من وإلى جميع الدول العربية والأجنبية

تطلب جميع منشوراتنا من فروعنا بجمهورية مصر العربية

الفرع الرئيسي : ١٦ شارع جواد حسنى القاهرة

ت : ٢٩٣٠١٦٧

فرع الدقى : ٢٧ شارع عبد العظيم راشد المنفرع من

شارع محمد شاهين - بالعجيزة

ت : ٧١٧٤٩٨

فرع مدينة نصر : ٩١ شارع عباس العقاد - المنطقة السادسة

وإدارة التسويق - مدينة نصر ت : ٢٦١٩٠٤٩ - ٦١٨٩٦٦ فاكس ٢٦١٩٠٤٩

وكذلك تطلب جميع منشوراتنا من الكويت من

مؤسسة دار الكتاب الحديث

ص . ب : ٦٠٥٦ السالمة ٢٢٠٧١

ت : ٢٤٦٠٦٢٤ فاكس ٢٤٦٠٦٢٨

